

مكاشفة القلوب

المقرب الى حضرة علام الغيوب
فى علم التصوف

لحجة الاسلام أبى حامد محمد بن محمد الغزالى
المتوفى سنة ٥٠٥ هجرية

تحقيق
طه عبد الرءوف سعد

مكتبة الايمان

بطاقة الفهرسة

فهرسة الهيئة المصرية العامة للكتاب .

الغزالي، محمد بن محمد بن محمد الغزالي، ١٠٥٨ - ١١١١ .

مكاشفة القلوب /لأبي حامد الغزالي، تحقيق طه عبد الروؤف

سعد . - ط٢. - المنصورة : مكتبة الإيمان ، ٢٠٠٦ .

٤١٦ص ، ١٧x٢٤سم .

تدمك 1 - 326 - 290 - 977

١-التصوف الإسلامي . أ - سعد ، طه عبد الروؤف (محقق) .

ب - العنوان

٢٦٠

رقم الإيداع : ٢٠٠٦/٩٦٩٢

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، إنه من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا.

وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ .

[آل عمران : ١٠٢] .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾ [النساء : ١] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً ﴾ .

[الأحزاب : ٧٠ ، ٧١] .

وبعـــد

فإن الله تبارك وتعالى قد مَنَّ على الأمـة بأن هيأ لها في مختلف العصور والأزمان علماء عاملين مـخلصين ، وقفوا حياتهم على خدمة هذا الدين ، ونشره بين الناس تعليما وتصنيفا .

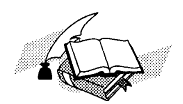
وكان من هؤلاء العلماء الإمـام الغزالي ، فقد صنف كتبـا كثيرة نافعة في موضوعات مختلفة عكف العلماء على دراستها والإفادة منها والنقل عنها .

وكان هذا السفر الذي بين أيدينا من هذه المصنفـات الهامة خاصة وأنه يمس القلوب مباشرة ويربطها ببارئها وخالقها علام الغيوب .

هذا وقـد قمنا بمقـابلة هذه الطبـعة على أكـثر من نسـخة حـتى أتممناها - بحـول الـله وقـدرته - ، وقـد قـمنا بضـبط الآيات وتخريجها .

هذا ولم نبخل بأي جـهد في سبـيل إخراج هذا السـفر في أبهى صورة ليستفيد منه القـراء ، فإن ظفرنا بالبغية فلله المنة والفضل ، وإن ظهـر بعض التقـصيـر ، وبدت بعض الهفـوات ، فنحن لا ندعي العصمة فيما صنعناه .


الناشر



مقدمة لتاريخ حياة الإمام الغزالى صاحب أصل هذا الكتاب

ولد أبو حامد محمد بن محمد الغزالى فى مدينة طوس من إقليم خراسان سنة ٤٥٠ هـ الموافقة لسنة ١٠٥٨ م .

وقد توفى أبوه وأبو حامد ما زال صغيرًا لما يبلغ سن الرشد .

نشأ الإمام الغزالى مقبلا على طلب العلم وتحصيله فتلقى مبادئ العلوم فى بلده كما يفعل سائر طلاب العلم فتلقى مبادئ العربية والفقه ثم انتقل إلى جرجان وقرأ فيها مبادئ علم الأصول على أساتذتها ثم عاد إلى طوس فلم يمكث بها إلا قليلا حتى قصد نيسابور حيث أوكل إليه الوزير نظام الملك التدريس بالمدرسة النظامية حوالى سنة ٤٨٤ فمكث بها ينشر علمه بالتدريس والتأليف مدة أربع سنوات مرض بعدها مما اضطره إلى الرحيل من العراق متوجها إلى بلاد الحجاز حيث حج ثم رحل إلى القدس وجاور بها نحو السنتين ثم ذهب إلى نيسابور حيث ألزمه فخر الملك بن نظام الملك بالتدريس بمدرسته بنيسابور ـ ثم عاد إلى طوس ولزم بيته عابدًا لله حق عبادته إلى أن توفى رحمه الله سنة ٥٠٥ هـ ١١١١ م ودفن بمقبرة الطابران بطوس .

ألف الإمام الغزالى العشرات من الكتب المفيدة من أهمها إحياء علوم الدين وبه لقب الغزالى حجة الإسلام بحق فإن هذا الكتاب أحسن ما وضع لتأييد أصول الدين وبيان حكم العبادات والمعاملات وهو فضلا عن ذلك مصوغ فى قالب من الحكمة العالية لا يدانيه فيها كتاب سواه فهو من الآثار الإسلامية الفخمة هدى الله به إلى حكمة الدين أرواحا لا تحصى كما يقول الأستاذ محمد فريد وجدى .

وقد حكى مؤلفه سبب وضعه وذلك أنه بعد أن نال من جميع العلوم

المعروفة فى عـهده قسطا وافرا ووضع فيهـا المصنفات خطر له خاطر وهو أنه على غيـر هدى وأن جميـع ما صنفه لم يخـرج عن أنه كلام فى كـلام وأما الحقيقة التى يثلج عليها الصدر ويسكن إليها القلب فهى عنه بمعزل .

ولم يزل به هذا الخاطر حـتى صار هما كبيـرا منعه الكلام فكان يجلس للتدريس وتحتف به الطلبة فلا يفتح الله عليه بكلمة وبلغ ذلك الخليفة فأرسل إليـه أطبـاءه فـمنهم من زعم أن بـه وسوسـة ومـنهم من ادعى أنه أصـيب بالماليخوليا كل ذلك وهو يهزأ مما يـقولون لأنه يعلم سبب دائه وسر همه وهو طالب الحقيقة فى ذاته .

فهداه الله بعـد مدة إلى الاختلاء بنفسه والخروج عن كـل علاقة دنيوية والتجرد لله تعالى وحده فأظهر قصد الحج ليخلص من الخليفة العباسى الذى كان لا يصبر على فراقه فحج ثم عرج إلى الشام فمكث بها بضع سنين يأكل من أعشاب الأرض ويعـبد الله على انفراد حتى فتح الـله عليه بأنواره فألف هذا الكتاب الفريد فى بابه .

أما أهم كتبه بعد الإحياء فهى مـجاميعه المشهورة الكشف ، والتبيين ، وبداية المجتهد ، ومجموعة المنقذ من الضـلال ، وكيمياء السعادة ، والقواعد العـشر ، والأدب فى الدين ، ومـجمـوعة الـقصـور العوالى : القـسطاس المستقيم، ومنهاج العارفين ، والرسالة اللدنية ، وغيرها الكثير الكثير . . . .

رحم الله الإمام الغزالى ونفعنا الله بكتبه آمين يا رب العالمين .



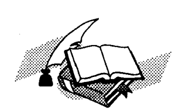
بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى أحسن تدبيره الكائنات ، وخلق الأرضين والسماوات ، وأنزل الماء من المعصرات ، وأنشأ الحب والنبات ، وقدر الأرزاق والأقوات ، وأثاب على الأعمال الصالحات .

والصلاة والسلام على سيدنا محمد ذى المعجزات الظاهرات ، الذى حصل من نوره وجود الكائنات :

وبعد ..

فهذا كتاب اختصرته من الكتاب البديع ، حسن الصنيع ، المسمى بمكاشفة القلوب المقرب إلى علام الغيوب ، المنسوب إلى الشيخ الغزالى ، وقد سميته كأصله بمكاشفة القلوب ، وأعوذ بالله من الشرك والذنوب ، واقتصرت فيه على مائة وأحد عشر بابًا ؛ ليحفظ ما فيها أولو العلم والألباب .





الباب الأول .. في

بيـــان الخـــوف

جاء في الخبر عن النبي ﷺ أنه قال : « إن الله تعالى خلق ملكا ، له جناح في المشرق ، وجناح في المغرب ، ورأسه تحت العرش ، ورجلاه تحت الأرض السابعة ، وعليه بعدد خلق الله تعالى ريش ، فإذا صلى رجل أو امرأة من أمتي عليَّ أمره الله تعالى بأن ينغمس في بحر من نور تحت العرش ، فينغمس فيه ، ثم يخرج وينفض جناحيه ، فيقطر من كل ريشة قطرة ، فيخلق الله تعالى من كل قطرة ملكا ، يستغفر له إلى يوم القيامة » .

قال بعض الحكماء : سلامة الجسد في قلة الطعام ، وسلامة الروح في قلة الآثام ، وسلامة الدين في الصلاة على خير الأنام .

وقوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ** ﴾ يعني : اخشوا الله وأطيعوه ﴿ **وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ** ﴾ يعني ما عملت ليوم القيامة . ومعناه تصدقوا واعملوا بالطاعة ؛ لتجدوا ثوابها يوم القيامة ﴿ **وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ** ﴾ [الحشر : ١٨] من الخير والشر، فإن الملائكة والسماء والأرض والليل والنهار يوم القيامة ، يشهدون بما عمل ابن آدم من خير أو شر ، طاعة أو معصية ، حتى أن جوارحه تشهد عليه .

والأرض تشهد للمؤمن والزاهد فتقول : صلى عليَّ وصام وحج وجاهد ، فيفرح المؤمن والزاهد ، وتشهد على الكافر والعاصي ، فتقول : أشرك عليَّ وزنى وشرب الخمر وأكل الحرام ، فيا ويله إن ناقشه في الحساب أرحم الراحمين . والمؤمن هو الذي يخاف الله تعالى بجميع جوارحه ، كما قال الفقيه أبو الليث : علامة خوف الله تعالى تظهر في سبعة أشياء :

أولها : لسانه، فيمنعه من الكذب والغيبة والنميمة والبهتان وكلام

الفضول ويجعله مشغولاً بذكر الله تعالى وتلاوة القرآن ومذاكرة العلم .

والثانى : قلبه ، فيخرج منه العداوة والبهتان وحسد الإخوان ؛ لأن الحسد يمحو الحسنات كما قال ﷺ : « الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب » .

واعلم أن الحسد من الأمراض العظيمة التى فى القلوب . ولا تداوى أمراض القلوب إلا بالعلم والعمل .

والثالث : نظره ، فلا ينظر إلى الحرام من الأكل والشرب والكسوة وغيرها ، ولا إلى الدنيا بالرغبة ، بل يكون نظره على وجه الاعتبار ، ولا ينظر إلى ما لا يحل له . كما قال ﷺ : « من ملأ عينه من الحرام ، ملأ الله تعالى يوم القيامة عينه من النار » .

والرابع : بطنه، فلا يدخل بطنه حرامًا، فإنه إثم كبير كما قال ﷺ: « إذا وقعت لقمة من الحرام فى بطن ابن آدم لعنهُ كل ملك فى الأرض والسماء ، ما دامت تلك اللقمة فى بطنه ، وإن مات على تلك الحالة فمأواه جهنم » .

والخامس : يده ، فلا يمد يده إلى الحرام ، بل يمدها إلى ما فيه طاعة الله تعالى .

ورويَ عن كعب الأحبار أنه قال : « إن الله تعالى خلق دارًا من زبرجدة خضراء فيها سبعون ألف دار ، فى كل دار سبعون ألف بيت ، لا ينزلها إلا رجل يعرض عليه الحرام فيتركه من مخافة الله تعالى » .

والسادس : قدمه ، فلا يمشى فى معصية الله، بل يمشى فى طاعته ورضاه ، وإلى صحبة العلماء والصلحاء .

والسابع : طاعته ، فيجعل طاعته خالصة لوجه الله تعالى ، ويخاف من الرياء والنفاق.

فإذا فعل ذلك فهو من الذين قال الله تعالى فى حقهم: ﴿**وَالآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ**﴾ [الزخرف : ٣٥] وقال فى آية أخرى: ﴿ **إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ**﴾ [الحجر :٤٥] وقال الله تعالى : ﴿ **إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ** ﴾

[الطور:١٧] وقال الله تـعالى : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴾ [الدخـان :٥١] كأنه تعـالى يقول : إنهم ينجون يوم القـيامة من النار . وينبـغى للمؤمن أن يكون بين الخوف والرجاء ، فيرجو رحمـة الله ولا ييأس منها ، كما قال الله تعالى : ﴿ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ﴾ [الزمر : ٥٣] ويعبد الله ويرجع عن أفعاله القبيحة ، ويتوب إلى الله تعالى .

حكاية : بينما داود عليه السلام جالس فى صومعته يتلو « الزبور » إذا رأى دودة حمراء فى التراب . فقـال فى نفسه : ما أراد الله فى هذه الدودة؟ فأذن الله للدودة فتـكلمت . فقالت : يا نبى الله ، أما نهـارى فألهمنى ربى أن أقول فى كل يوم : سبـحان الله والحمد لله ولا إله إلا اللـه والله أكبر ، ألف مرة ، وأمـا ليلى فألهمنى ربى أن أقـول فى كل ليلة : اللهم صلِّ على محمد النبى الأميِّ وعلى آله وصحبه وسلم ، ألف مرة . فأنت ما تقول حتى أستـفيد منك ؟ فـندم داود عليه السلام على احـتقـار الدودة وخاف من الله تعالى وتاب إليه وتوكل عليه .

وكـان إبراهيم الخليل صلوات الله عليـه إذا ذكر خطيـئتـه يغشى عليـه ويسمع اضطراب قلبه مـيلاً فى ميل ، فأرسل الله جبريل ، فـأتاه فقال له : الجبار يقرئك السلام ويقـول لك : هل رأيت خليلاً يخاف خليله ؟ فقال : يا جبريل إذا ذكرت خطيئتى وفكرت فى عقوبته ، نسيت خلتى[1] .

فهذه أحوال الأنبياء والصالحين والزاهدين . فتأمـل .



(١) يقول ﷺ ما معناه: لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات ثنتين منها في ذات الله : قوله : إني سقـيم ، وقوله : بل فعلـه كبيرهـم هذا فاسألوهم ، وقـوله لسارة زوجتـه أن تقول للجبار إنها أخته .

الباب الثاني .. في

الخوف من الله تعالى

قال أبو الليث رحمه الله تعالى : إن لله ملائكة فى السماء السابعة ، سجدًا منذ خلقهم الله تعالى إلى يوم القيامة ، ترتعد فرائصهم من مخافة الله تعالى ، فإذا كانوا يوم القيامة رفعوا رؤوسهم ، فقالوا :سبحانك ما عبدناك حق عبادتك .

وذلك قوله تعالى : ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [النحل : ٥٠] ، يعنى : لا يعصون الله تعالى طرفة عين .

وقال رسول الله ﷺ : « إذا اقشعر جسد العبد من خشية الله تعالى ، تحاتت[1] عنه ذنوبه ، كما يتحات الشجرة ورقها » .

حكى : أن رجلا تعلق قلبه بامرأة ، فخرجت تلك المرأة إلى حاجة لها، فذهب الرجل معها فلما خلا بها فى البادية ونام الناس ، أفشى سره إليها ، فقالت له المرأة : انظر أنام الناس بأجمعهم ؟ ففرح الرجل بقولها وظن أنها قد أجابته . فقام وطاف حول القافلة ، فإذا الناس نيام، فرجع إليها وقال لها : نعم هم نيام . فقالت : ما تقول فى الله تعالى ؟ أنائم فى هذه الساعة ؟ فقال الرجل : إن الله تعالى لا ينام ولا تأخذه سنة ولا نوم . فقالت المرأة : إن الذى لم ينم ولا ينام يرانا وإن كان الناس لا يروننا . فذلك أولى أن يُخاف ، فتركها الرجل خوفًا من الخالق ، وتاب ورجع إلى وطنه فلما توفى رأوه فى المنام ، فقيل له : ما فعل الله بك ؟ فقال : غفر لى بخوفى وتركى ذلك الذنب .

حكاية : كان فى بنى إسرائيل رجل عابد ذو عيال ، وأصابته المجاعة وصار مضطرا ، فبعث امرأته لتطلب شيئًا لعيالها ، فجاءت إلى بيت رجل

---

(١) أي تساقطت .

تاجر ، وطلبت منه ما تقوت به عيـالها. فقال الرجل : نعم ، ولكن مكّنينى من نفسك ، فسكتت المرأة ، وعادت إلى بيتها ، فنظرت إلى عيالها يصيحون ويقـولون : يا أمى نحن نموت من الجـوع ، أعطينا مـا نأكله ، فـذهبت إلى الرجـل وكلمته فى أمر عيالها ، فقال لها : أتكون حاجتى مقضية ؟ فقالت: نعم، فلمـا خلا بهـا ارتعدت مـفاصلهـا حتى كـادت أعضـاؤهـا تزول عن مواضعهـا ، فقال لها : ما لك؟ فقالت : إنـى أخاف الله ، فقال الرجل : إنك تخـافين الله تعـالى مع ما بك من الفـقـر ، فأنا أحق بالخـوف منك ، وامتنـع عنها ، وقضى حـاجتـها ، وانصـرفت بنعمـة كثيـرة إلى أولادها ، ففرحوا، فأوحى الله إلى موسى عليه السلام أن قل لفلان ابن فلان : إنى قد غفرت ذنوبه . فجاء موسى عليه السـلام فقال : لعلك قد فعلت خيرًا بينك وبين الله ؟ فذكر القصة عليه . فقال : إن الله تعالى قد غفر لك ما كان من ذنوبك . . . . كذا فى « مجمع اللطائف » .

وروى عن النبى ﷺ أنه قـال : « يقول الله تـعالى : لا أجـمع على عبدى خوفين ولا أمنين. من خـافنى فى الدنيا أمّنته فى الآخرة ، ومن أَمِنَنِى فى الدنيا أخفته يوم القيامة » .

وقال الله تعالى : ﴿ **فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ** ﴾ [المائدة : ٤٤] .

وقال فى آية أخرى : ﴿ **فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾ .
[آل عمران : ١٧٥] .

وكان عـمر رضـى الله عنه إذا سمع آية من القـرآن يسقط مـن الخوف مغـشيـا عليه ، وأخـذ يومًا تبنة ، وقال : يا ليـتنى كنت تبنة ولم أك شـيئًا مذكـورًا ، يا ليتنى لم تلدنى أمى ، ويبكى كـثيـرًا ، حتى تجرى دمـوعه من عينيه ، فكان فى وجهه خطان أسودان من الدموع .

وقال ﷺ : «لا يلج النار من بكى من خـشيـة الله، حتى يعـود اللبن فـى الـضرع»[1] .

وفى (**دقائق الأخبار**) : يؤتى به يوم القيامة ، فترجح سيئاته فيؤمر به

(١) واللبن لا يعود ، كذلك من بكى من خشية الله لا يلج النار أبدًا .

إلى النار ، فتتكلم شعرة من شعرات عينيه ، وتقول : يا رب رسولك محمد ﷺ قال : « من بكى من خشية الله حرّم الله تلك العين على النار » ، وإنى بكيت من خشيتك . فيغفر الله له ، ويستخلصه من النار، ببركة شعرة واحدة كانت تبكى من خشية الله فى الدنيا ، وينادى جبريل عليه السلام : نجا فلان ابن فلان بشعرة واحدة .

وفى (**بداية الهداية**) إذا كان يوم القيامة جىء بجهنم ، فتزفر زفرة ، فتجثو كل أمة على ركبها ؛ من هولها ، كما قال تعالى : ﴿ **وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً** ﴾ [الجاثية : ٢٨] أى على الركب ﴿ **كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا** ﴾ [الجاثية : ٢٨] فإذا أتوا النار ﴿ **سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيراً** ﴾ [الفرقان : ١٢] تسمع زفرتها من مسيرة خمسمائة عام. وكل واحد حتى الأنبياء يقول: نفسى نفسى إلا صفى الأنبياء ﷺ فإنه يقول:«أمتى، أمتى»، وتخرج من الجحيم نار مثل الجبال، فتجتهد أمة محمد ﷺ فى دفعها، وتقول : يا نار بحق المصلين وبحق المصدّقين وبحق الخاشعين وبحق الصائمين أن ترجعى، فلا ترجع. وينادى جبريل عليه السلام: إن النار قد قصدت أمة محمد ﷺ ثم يأتى بقدح من ماء، فيناوله رسول الله ﷺ ويقول: يا رسول الله، خذ هذا فرشه عليها، فيرشه عليها، فتطفأ فى الحال . فيقول ﷺ : « ما هذا الماء ؟ » فيقول جبريل عليه السلام: هذا ماء دموع عصاة أمتك ، الذين بكوا من خشية الله تعالى ، فالآن أُمرت أن أُعطيكه لترشه على النار ، فتطفأ النار بإذن الله تعالى .

وكان ﷺ يقول : « اللهم ارزقنى عينين تبكيان من خشيتك قبل أن يكون الدمع »

أعينىّ هلا تبكيان على ذنبى ؟ تناثر عمرى من يدىّ ولا أدرى

وجاء فى الخبر أن النبى ﷺ قال : « ما من عبد مؤمن يخرج من عينيه من الدموع مثل رأس الذباب من خشية الله تعالى ، فيصيب حر وجهه ، فتمسه النار أبدًا » .

حكى عن محمد بن المنذر رحمه الله تعالى : أنه كان إذا بكى يمسح وجهه ولحيته بدموعه ، ويقول : بلغنى أن النار لا تأكل موضعًا مسته

الدموع، فينبغى للمؤمن أن يخاف من عذاب الله وينهى نفسه عن الشهوات النفسانية ، كما قال الله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ * وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾ [النازعات:٣٧ ـ ٤١] ومن أراد أن ينجو من عذاب الله وينال ثوابه ورحمته، فليصبر على شدائد الدنيا وطاعة الله ويجتنب المعاصى .

وفى « زهر الرياض » روى عن النبى ﷺ أنه قال : « إذا دخل أهل الجنة الجنة تتلقاهم الملائكة بكل خير ونعمة ، فتوضع لهم المنابر ، وتفرش ، ويؤتى لهم بألوان الأطعمة والفواكه ، ثم تكون فيهم مع هذه النعمة حيرة . فيقول الله : يا عبادى ما هذه الحيرة ؟ وليست هذه دار حيرة . فيقولون : إن لنا موعدًا قد جاء وقته ، فيقول الله تعالى للملائكة : ارفعوا الحجب عن الوجوه ، فتقول الملائكة : يا ربنا . كيف يرونك وقد كانوا عصاة ؟ فيقول الله تعالى : ارفعوا الحجب ؛ فإنهم كانوا ذاكرين باكين فى الدنيا ، طمعًا فى لقائى ، فترفع الحجب ، فينظرون فيخرّون سجدًا لله عز وجل ، فيقول الله تعالى : ارفعوا رؤوسكم ، فإن هذه ليست بدار العمل ، بل دار الكرامة ، فيتجلى لهم بلا كيف ، ويقول انبساطًا : سلام عليكم يا عبادى ، فقد رضيت عنكم فهل رضيتم عنى ؟ فيقولون : وما لنا يا ربنا لا نرضى ، وقد أعطيتنا ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، وهو قوله تعالى : ﴿ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ [المائدة : ١١٩] وقوله تعالى : ﴿ سَلامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ [سورة يس : ٥٨] .



الباب الثالث .. في

الصبـــر والمـــرض

من أراد أن ينجو من عـذاب الله وينال ثوابه ورحمتـه ويدخل جنته ، فلينه نفسه عن شهـوات الدنيا ، وليصبر على شدائدها ومصائبـها . كما قال الله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾ [آل عمران : ١٤٦] .

والصبر على أوجه : صبر عَلَى طاعة الله، وصبر على محارمه ، وصبر على المصيبة، وعند الصدمة الأولى. فمن صبر على طاعة الله تعالى أعطاه الله تعالى يوم القيامة ثلثمائة درجة فى الجنة، كل درجة ما بين السماء والأرض ، ومن صبر على محارم الله أعطاه الله يوم القيامة ستمائة درجة، كل درجة مثل ما بين السماء السابعة والأرض السابعة.

ومن صبر على المصيبة أعطاه الله تعالى يوم القـيامة سبعمائة درجة فى الجنة ، كل درجة ما بين العرش إلى الثرى .

حكى : أن زكريا عليـه السلام هرب من اليهـود ، فقفـوا أثره ، فلما دنوا منه رأى شجرة، فقال لها : يا شجرة أدخلينى فيك . فانشقت الشجرة، فدخل فيها ، ثم التأمت عليه ، فأشار عليهم إبليس أن يأتوا بالمنشار ويشقوها نصفـين حتى يموت فـيها ، فـفعلوا كـما قـال إبليس ، وذلك لأنه اعتـصم بالشجـرة ولم يعتصم بالله ، فـأورثه ذلك هلاك نفسه ، فنشـر بالمنشار على فرقتين . كما روى عن النبى ﷺ أنه قـال : « أنه يقول الله تعالى : ما من عبد نزلت به بلية فـاعتصم بى ، إلا أعطيته قبل أن يسـألنى ، واستجبت له قبل أن يدعونى، وما من عبد نزلت به بلية فاعتصم بمخلوق دونى، إلا أغلقت أبواب السماء عليه » فلما بلغ المنشار إلى دماغه صاح، فقيل له : يا زكريا إن الله تعالى يقول لك: لم لا تصبر للبلاء؟ تقول: آه، لو قلتها مرة ثانية لأخرج اسمك من ديوان الأنبياء ، فعضّ زكريّا شفتيه وصبر حتى شقوه نصفين .

فيـجب على العاقل أن يصبـر للبلاء ، ولا يشكو ، فينجـو من عذاب الدنيا والآخرة ؛ لأن أشد البلاء : على الأنبياء والأولياء .

قـال الجنيد البـغـدادى رحمـه الله : البـلاء سراج العـارفين ، ويقظة المريدين ، وصلاح المؤمنـين ، وهلاك الغافلين ، لا يجد أحـد حلاوة الإيمان

حتى يأتيه البلاء ويرضى ويصبر .وقال ﷺ : « من مرض ليلة ، فصبر ورضى عن الله تعالى ، خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه ، فإذا مرضتم فلا تتمنوا العافية . قال الضحاك : من لم يبتل بين كل أربعين ليلة ببلية أو همّ أو مصيبة ، فليس له عند الله خير .وعن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال : إذا ابتلى الله العبد المؤمن بالسقم ، قال لصاحب الشمال : ارفع القلم عنه ، وقال لصحاب اليمين : اكتب لعبدى أحسن ما كان يعمل .

وجاء فى الخبر عن النبى ﷺ : « إذا مرض العبد بعث الله إليه ملكين، فقال : انظرا ما يقول عبدى. فإن هو قال الحمد لله ، رفع ذلك إلى الله -وهو أعلم- فيقول : لعبدى علىّ إن أنا توفيته أن أدخله الجنة ، وإن أنا شفيته أبدله لحمًا خيرًا من لحمه، ودمًا خيرًا من دمه، وأن أُكفر عنه سيئاته».

حكى : أنه كان فى بنى إسرائيل رجل فاسق ، وكان لا يمتنع عن الفسق ، حتى ضج أهل بلده ، وعجزوا عن منعه عن فسقه ، فتضرعوا إلى الله تعالى ، فأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام : إن فى بنى إسرائيل شابا فاسقًا ، فأخرجه من بلدهم حتى لا تقع عليهم النار بسبب فسقه . فجاء موسى عليه السلام فأخرجه فذهب الشاب إلى قرية من القرى ، فأمر الله موسى أن يخرجه من تلك القرية ، فأخرجه موسى عليه السلام ، فخرج إلى مفازة ليس فيها خلق ولا زرع ولا وحوش ولا طيور ، فمرض فى تلك المفازة وليس عنده معين يعينه ، فوقع على التراب ووضع رأسه عليه وقال : لو كانت والدتى عند رأسى لرحمتنى ولبكت على مذلتى ، ولو كان والدى حاضرًا لأعاننى وتولى أمرى ، ولو كانت زوجتى حاضرة لبكت على فراقى، ولو كان أولادى حاضرين عندى لبكوا خلف جنازتى ، ولقالوا : اللهم اغفر لوالدنا الغريب الضعيف العاصى الفاسق المطرود من بلده إلى قرية ، ومن القرية إلى مفازة ، ومن المفازة يخرج من الدنيا إلى الآخرة ، آيسًا من كل الأشياء ، اللهم قطعتنى عن والدىّ وأولادى وزوجتى فلا تقطعنى من رحمتك، فإنك أحرقت قلبى بفراقهم فلا تحرقنى بنارك لأجل معصيتى.

فأرسل الله تعالى له حوراء على صفة أمه وزوجته وغلمانًا على صفة أولاده وملكًا على صفة والده ، فجلسوا عنده وبكوا عليه ، فقال : إن هذا والدى ووالدتى وزوجتى وأولادى حضروا عندى وطاب قلبه ، ووصل إلى رحمة الله تعالى طاهرًا مغفورًا له ، فأوحى الله تعالى إلى موسى عليه

السلام : اذهب إلى مفازة كذا فى موضع كذا ، فإنه مات فيه ولى من الأولياء، فأحضره وتولَّ أمره ، وواره . فلما حضر موسى عليه السلام ذلك الموضع رأى الشاب الذى أخرجه من البلد ومن القرية بأمر الله تعالى ، ورأى الحور العين حواليه ، فقال موسى عليه السلام : يا رب أما هذا الشاب الذى أخرجته من البلد ومن القرية بأمرك ؟ فقال الله تعالى : يا موسى إنى رحمته وتجاوزت عنه بأنينه فى موضعه ، وفراقه وطنه ووالدته ووالده وأولاده وزوجته ، وأرسلت إليه حوراء على صفة والدته ، وملكًا على صفة والده ، وحوراء على صفة زوجته ، يترحمون على مذلته فى غربته ، فإنه إذا مات الغريب بكى عليه أهل السموات وأهل الأرض رحمة له ، فكيف لا أرحمه وأنا أرحم الراحمين؟ . إذا وقع الغريب فى النزع، يقول الله: يا ملائكتى ، هذا غريب مسافر ترك أولاده وعياله ووالديه ، وإذا مات لا يبكى عليه أحد ولا يحزن ، ثم يجعل الله واحدًا من الملائكه على صورة أبيه، وواحدًا على صورة أمه، وواحدًا على صورة ولده، وواحدًا على صورة واحد من أقاربه ، فيدخلون عليه فيفتح عينيه فيرى والديه وعياله ، فيطيب قلبه وتخرج روحه بالفرح والسرور ، ثم إذا خرجت جنازته يشيعونها ويدعون له على قبره إلى يوم القيامة ، فذلك قوله تعالى: ﴿**اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ**﴾ [الشورى : ١٩] .

وقال ابن عطاء : يتبين صدق العبد من كذبه فى أوقات البلاء والرخاء، فمن شكر فى أيام الرخاء وجزع فى أيام البلاء فهو من الكاذبين ، ولو اجتمع فى رجل علم الثقلين ثم هاجت عليه رياح البلاء فأظهر الشكوى لما نزل به ، لا ينفعه علمه ولا عمله . كما جاء فى الحديث القدسى : يقول الله تعالى : « من لم يرض بقضائى ، ولم يشكر لعطائى ، فليطلب ربا سواى»[(١)] .

حكى عن وهب بن منبه : أن نبيا عَبَدَ الله خمسين عامًا ، فأوحى الله إليه : إنى قد غفرت لك ، فقال : يا رب لماذا تغفر لى ولم أذنب قط ؟ فأمر الله عرقه فضرب عليه ، ولم ينم تلك الليلة ، فجاء ملك الصبح ، فشكا إليه ما لقى من ضربان العرق ، فقال : إن ربك يقول لك : عبادة خمسين عامًا ما تعدل شكوى هذا العرق .

---

(١) الحديث القدسي ما كان اللفظ والمعنى من عند الله جل وعز ويخالف القرآن الكريم في أشياء تراجع في مقدمتي لكتاب المنار المنيف لابن قيم الجوزية .

الباب الرابع .. في

الرياضة والشهوة النفسانية

أوحى الله إلى موسى عليه السلام : يا موسى إن أردت أن أكون أقرب إليك من كلامك إلى لسانك ، ومن وسوسة قلبك ، ومن روحك إلى بدنك ، ومن نور بصرك إلى عينك ، ومن سمعك إلى أذنك ، فأكثر من الصلاة على محمد ﷺ ، قال تعالى : ﴿ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾ [الحشر : ١٨] . يعنى ما عملت ليوم القيامة .

اعلم أيها الإنسان أن النفس الأمارة بالسوء، هى أعدى لك من إبليس، وإنما يتقوى عليك الشيطان بهوى النفس وشهواتها، فلا تغرنك نفسك بالأمانى والغرور ؛ لأن من طبع النفس : الأمن والغفلة والراحة والفترة والكسل ، فدعواها باطل، وكل شيء منها غرور، وإن رضيت عنها واتبعت أمرها هلكت وإن غفلت عن محاسبتها غرقت، وإن عجزت عن مخالفتها واتبعت هواها قادتك إلى النار، وليس للنفس مرجوع إلى الخير، وهى رأس البلايا، ومعدن الفضيحة، وهى خزانة إبليس ومأوى كل شر، لا يعرفها إلا خالقها ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُون ﴾ [الحشر : ١٨] يعنى من الخير والشر . وإذا تفكر العبد فيما مضى من عمره فى طلب آخرته كان هذا التفكر غسلا للقلب كما قال ﷺ : «تفكر ساعة خير من عبادة سنة» كذا فى تفسير أبى الليث .

فينبغى للعاقل أن يتوب من الذنوب الماضية ، ويتفكر فيما يقربه وينجو به فى الدار الآخرة ، ويقصر الأمل ويعجل التوبة، ويذكر الله تعالى، ويترك المناهى، ويصبر نفسه، ولا يتبع الشهوات النفسانية، فالنفس صنم ، ومن عبد النفس فهو يعبد الصنم ، ومن عَبَدَ الله بالإخلاص فهو الذى قهر نفسه .

روى : أن « مالك بن دينار » كان يمشى فى سوق « البصرة » فرأى التين ، فاشتهاه ، فخلع نعله ، وأعطاه إلى البقال ، وقال : أعطنى التين ، فرأى البقال النعل ، وقال : لا يساوى شيئًا ، فمضى « مالك » فقيل للبقال:

أليس تعرف من هذا ؟ قال : لا . قيل : هو « مالك بن دينار » ؟ فحمل البقال الطبق على رأس غلامه ، وقال له : إن قبل هذا منك ، فأنت حر ، فعدا الغلام خلف « مالك بن دينار » وقال له : اقبل هذا منى ، فأبى . فقال: اقبل فإن فيه تحريرى ، فقال « مالك بن دينار » : إن كان فيه تحريرك ففيه تعذيبى ، فألح عليه الغلام ، فقال « مالك بن دينار » : حلفت أن لا أبيع الدين بالتين ، ولا آكل التين إلا يوم الدين .

حكى : أن « ابن دينار » مرض مرضه الذى مات فيه ، فاشتهى قدحًا من العسل واللبن؛ ليثرد فيه رغيفًا حارا ، فمضى الخادم وحمله إليه ، فأخذه «مالك بن دينار» ونظر فيه ساعة، وقال : يا نفس قد صبرت ثلاثين سنة، وقد بقى من عمرك ساعة ، ورمى القدح من يديه وصبر نفسه ومات .

وهكذا أحوال الأنبياء والأولياء والصادقين والعاشقين والزاهدين .

قال سليمان بن داود عليه السلام : إن القاهر لنفسه أشد ممن يفتح المدينة وحده . وقال عليّ بن أبى طالب كرم الله وجهه : ما أنا ونفسى إلا كراعى غنم، كلما ضمها من جانب ، انتشرت من جانب آخر ، ومن أمات نفسه يلف فى كفن الرحمة ، ويدفن فى أرض الكرامة ، ومن أمات قلبه يموت فى كفن اللعنة ، ويدفن فى أرض العقوبة .

وقال يحيى بن معاذ الرازى رحمه الله تعالى : جاهد نفسك بالطاعة والرياضة ، فالرياضة : هجر المنام ، وقلة الكلام ، وحمل الأذى من الأنام، والقلة من الطعام، فيتولد من قلة المنام صفو الإرادات، ومن قلة الكلام السلامة من الآفات ، ومن احتمال الأذى البلوغ إلى الغايات ، ومن قلة الطعام موت الشهوات؛ لأن فى كثرة الأكل قسوة القلب، وذهاب نوره ، الحكمة بالجوع، والشبع يبعد من الله، كما قال ﷺ «نوروا قلوبكم بالجوع، وجاهدوا أنفسكم بالجوع والعطش، وأديموا قرع باب الجنة بالجوع؛ فإن الأجر فى ذلك كأجر المجاهد فى سبيل الله، وأنه ليس من عمل أحب إلى الله تعالى من جوع وعطش ، ولن يلج ملكوت السماء من ملأ بطنه ، وفقد حلاوة العبادات » .

وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : ما شبعت منذ أسلمت ؛ لأجد

حلاوة عبادة ربى ، وما رويت منذ أسلمت اشتياقًا إلى لقاء ربى ؛ لأن فى كثرة الأكل قلة العبادات ؛ لأنه إذا أكثر الإنسان الأكل ، ثقل بدنه وغلبته عيناه ، وفترت أعضاؤه ، فلا يجىء منه شىء - وإن اجتهد - إلا النوم ، فيكون كالجيفة الملقاة .كذا فى « منهاج العابدين » .

وعن «لقمان الحكيم» أنه قال لابنه: لا تكثر النوم والأكل؛ فإن من أكثر منهما جاء يوم القيامة مفلسًا من الأعمال الصالحة، كذا فى «منية المفتى » .

وقال ﷺ : «لا تميتوا القلوب بكثرة الطعام والشراب، فإن القلب يموت كالزرع إذا كثر عليه الماء » ولقد شبه ذلك بعض الصالحين بأن المعدة كالقدر ، تحت القلب تغلى ، والبخار يصل إليه ، فكثرة البخار تكدره وتسوده ، وفى كثرة الأكل قلة الفهم والعلم ، فإن البطنة تذهب الفطنة .

حكى عن يحيى بن زكريا عليهما السلام : أن إبليس بدا له وعليه معاليق . فقال له يحيى: ما هذه ؟ قال : الشهوات التى أصيد بها بنى آدم . قال يحيى : هل تجد لى فيها شيئًا ؟ قال : لا، إلا أنك شبعت ذات ليلة ، فثقلناك عن الصلاة،قال يحيى عليه السلام:لا جرم أنى لا أشبع بعدها أبدًا . فقال إبليس: لا جرم أنى لا أنصح أحدًا أبدًا . فهذه فيمن لم يشبع فى عمره إلا ليلة ، فكيف فيمن لا يجوع فى عمره ليلة ، ثم يطمع فى العبادة .

وحكى أيضًا عن يحيى بن زكريا عليه السلام : أنه شبع مرة من خبز شعير ، فنام تلك الليلة عن ورده ، فأوحى الله تعالى إليه : يا يحيى هل وجدت دارًا هى خير لك من دارى ، أو وجدت جوارًا هو خير لك من جوارى ؟ وعزتى وجلالى لو اطلعت على الفردوس واطلعت على جهنم اطلاعة لبكيت الصديد بدل الدموع ، ولبست الحديد بدل المسوح .



الفصل الخامس ..في

غلبة النفس وعداوة الشيطان

ينبغى للعاقل : أن يقمع شهوة النفس بـالجوع ؛ فإنه إذا جاع قهر عدو الله . فإن وسيلة الشيطان : الشهوات والأكل والشرب ، كما قال ﷺ : «إن الشيطان يجـرى من ابن آدم مجرى الدم ، فضـيقوا مجـاريه بالجوع » ، وإن أقرب النـاس إلى الله تعالى يوم القـيامة مـن طال جوعه وعطشـه ، وأعظم المهلكات لابن آدم شهوة البطن ، فبها أخرج آدم وحواء من دار القرار إلى دار الذل والافتقار ، إذ نهاهما ربهما عن أكل الشجرة ، فغلبتهما شهوتهما حتى أكلا ، فبدت لهما سوآتهما ، والبطن على التحقيق ينبوع الشهوات .

وقال بعـض الحكماء : من استولت عليه الـنفس صار أسيرًا فى حب شهواتـها ، محصوراً فى سـجن هفواتها ، ومنعت قلبـه من الفوائد ، ومن سقى أرض الجوارح بالشهوات ، فقد غرس فى قلبه شجرة الندامة ؛ لأن الله تعالى خلق الخلق على ثلاثة ضروب : خلق الملائكة وركـب فيهم العقل ولم يركب فيـهم الشهوة ، وخلـق البهائم وركب فـيها الشـهوة ولم يركب فيـها العقل، وخلق ابن آدم وركب فيه العقل والشـهوة . فمن غلبت شهوته عقله فالبهائم خير منه ، ومن غلب عقله شهوته ، فهو خير من الملائكة .

حكاية : قال إبراهيم الخواص: كنت فى جبل «اللكام» فرأيت رمانًا ، فاشتهيته، فأخذت منه واحدة، فشققتها، فوجدتها حامضة، فمضيت وتركت الرمان، فرأيت رجلاً مطروحًا قد اجتمعت عليه الزنابير، فقلت: السلام عليك، فقال لى : وعليـك السلام يا إبراهيم ، فقلت : ومن أين عرفـتنى ؟ فقال : من عرف الله لا يخفى عليه شىء. فقلت له : أرى لك مع الله حالاً ، فهلا سألتـه أن ينجيك من هذه الزنابيـر ؟ فقال : وإنى أرى لـك مع الله حالاً ، فهـلا سألته أن ينجـيك من شهوة الرمـان ؟ فإن الرمان يجـد الإنسان ألمه فى الآخرة ، ولذع الزنـابير يجد ألمه فى الدنـيا ، ولذع الزنابير علـى النفوس ، ولذع الشهوات على القلوب فمضيت وتركته . والشهوة تصيِّر الملوك عبيدًا ، والصبر يصيِّر العبيد ملوكًا ، ألا ترى إلى قصة يوسف عليه السلام وزليخا ؟ فقد صـار يوسف سلطان مصر بصـبره ، وصارت زليخـا ذليلة حقيرة فـقيرة عجوزًا عمياء ؛ لأجل شهوتها ؛ فإن زليخا لم تصبر عن محبة يوسف .

حكى أبو الحسن الرازى : أنـه رأى والده فى منامه بعد مـوته بسنتين وعليه ثياب من القطران. فقـال له: يا أبى ما لى أرى عليك هيئة أهـل النار؟ فقال: يا ولدى جذبتنى نفسى إلى النار. فاحذر يا ولدى من خديعة نفسك .

إنى ابتليت بأربـع مـا سلطـوا إلا لشدة شقـوتى وعنـائى :
إبليس ، والدنيا ، ونفسى ، والهوى كيف الخلاص وكلهم أعدائى ؟
وأرى الهـوى تدعو إليـه خواطرى فى ظلـمـة الشـهـوات والآراء

وقال حاتم الأصم رحمه الله : نفسى : رباطى ، وعلمى : سلاحى ، وذنبى : خيبتى ، والشيطان : عدوى . وأنا بنفسى غادر .

وحكى عن بعض أهل المعرفـة أنه قال : الجهـاد على ثلاثة أصناف : جهاد مع الكفار ، وهو جهـاد الظاهر كالذى فى قوله تعالى : ﴿ **يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ** ﴾ [المائدة : ٥٤] ، وجهـاد مع أصحاب الباطل بالعلم والحجة، كقوله تعالى : ﴿ **وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ﴾ [النحل : ١٢٥] ، وجهاد مع النفس الأمارة بالسـوء ، كالذى فى قـوله تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا** ﴾ [العنكبـوت : ٦٩] ، وقوله ﷺ : « أفضل الجـهاد جهاد النفس » ، وأن الصـحابة رضوان الله علـيهم أجمـعين كانوا إذا رجـعوا من جهاد الكفار يقولون : رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر .

وإنما سموا الجهاد مع الهوى والنفس والشيطان أكـبر ؛ لأن الجهاد معها أدوم ، وجهـاد الكفار يكون فى وقت دون وقت ؛ ولأن الغـازى يرى العدو ولا يرى الشيطان ، والجهاد مع عـدو يراه أسهل من الجهاد مع من لا يراه ؛ ولأن للشيطان معينًا من نفسك وهو الهوى ، وليس للكافر من نفسك معين؛ فلذلك كان أشد ؛ ولأنك إذا قـتلت الكافر تجد النصر والغنيـمة ، وإن قتلك الكافر تجـد الشهادة والجنة ، ولا تقـدر أن تقتل الشيطان وإن قـتلك الشيطان تقع فى عقوبة الرحمن. كما قيل : من فر منه فرسه فى الحرب وقع فى أيدى الكفار ، ومن فر منه الإيمان يقع فى غضب الجبار ــ نعوذ بالله منه ــ ، ومن وقع فى أيدى الكفـار لا يسـود وجهـه، ولا تغل يده إلى عنقـه، ولا تقيـد رجله، ولا تجوع بطنه ، ولا يعرى بدنه ، ومن وقع فى غـضب الجبار يسودّ وجـهه ، وتغل يده إلى عنقـه بالأغلال، وتـقيـد رجله بقيـود النار، ويكون طعامه نارًا، وشرابه نارًا، ولباسه من نار .

الباب السادس ..في

الغفلـــة

الغفلة تزيد الحسرة ، والغفلة : تزيل النعـمة ، وتحجب عن الخدمة ، والغفلة : تزيد الحسد، والغفلة : تزيد الملامة والندامة .

حكى أن بعض الصـالحين رأى أستـاذه في المنام فسـأله : أى الحسـرة أعظم عندكم ؟ فـقال: حـسرة الغـفلة . وروى أن بعضـهم رأى « ذا النون المصرى » في منامه ، فقال له : ما فعل الله بك ؟ فقال: أوقفنى بين يديه ، وقال لى : يا مدعى يا كذاب ، ادعيت محبتى ، ثم غفلت عنى .

أنت في غـفـلة وقلبك ســـاهى ذهب العـمـر والذنوب كـمـا هى

وحكى أن رجلاً من الصالحين رأى والده في منامه فقال: يا أبت كيف أنت؟ وكيف حالك ؟ فقال : يا ولدى عشنا في الدنيا غافلين ومتنا غافلين .

وفى « **زهر الـرياض** » : كان يعـقوب عليه السلام مـؤاخيًا لملك الموت فزاره ، فقـال له يعقوب : يا ملك الموت ، أزائرًا جـئت أم قابضًا روحى ؟ فقال : بل زائرًا ، قـال : فإنى أسألك حاجة ، قـال : وما هى ؟ قال : أن تعلمنى إذا دنا أجلى ، وأردت أن تقبض روحى ، فقال : نعم ، أرسل إليك رسولين أو ثلاثـة ، فلما انقضى أجـله أتى إليه ملك الموت ، فـقال : أزائرًا جـئت أم لقبض روحى ؟ فـقـال : لقبض روحـك . فقـال : أولست كنت أخبرتنى أنك ترسل إلىَّ رسولين أو ثلاثة ؟ قال : قـد فعلت ؛ بياض شعرك بعد سواده ، وضعف بدنك بعد قوته ، وانحناء جسمك بعد استقامته ، هذه رسلى يا يعقوب إلى بنى آدم قبل الموت .

مضى الدهر والأيام والذنب حاصل وجاء رسول الموت والقلب غافل
نعيـــمك في الدنيـا غـرور وحسرة وعيشك في الدنيـا محال وباطـل

وقال أبو على الدقاق : دخلت على رجل صالح، أعوده وهو مريض، وكان من المشايخ الكبار ، وحوله تلاميذه ، وهو يبكى ، وقد بلغ أرذل العمر ، فقلت له : أيها الشيخ ، مم بكاؤك ؟ أعلى الدنيا ؟ فقال : أبكى على فوت صلاتى ، قلت : وكيف ذلك وقد كنت مصليًا؟ قال : لأنى قد بقيت إلى هذا وما سجدت إلا فى غفلة ، ولا رفعت رأسى إلا فى غفلة، وها أنا أموت على الغفلة . ثم أنه تنفس الصعداء وأنشد يقول :

تفكرت فى حشرى ويوم قيامتى ... وإصباح خدى فى المقابر ثاويا
فريدًا وحيدًا بعد عز ورفعة ... رهينًا بجرمى والتراب وساديا
تفكرت فى طول الحساب وعرضه ... وذلّ مقامى حين أعطى كتابيا
ولكن رجائى فيك ربى وخالقى ... بأنك تغفر يا إلهى خطائيا

وفى « **عيون الأخبار** » ذكر عن « شقيق البلخى » أنه قال : الناس يقولون ثلاثة أقوال وقد خالفوها فى أفعالهم ، يقولون : نحن عبيد الله وهم يعملون عمل الأحرار ، وهذا خلاف قولهم . ويقولون : إن الله كفيل بأرزاقنا ، ولا تطمئن قلوبهم إلا بالدنيا وجمع حطامها ، وهذا أيضًا خلاف قولهم . ويقولون : لا بد لنا من الموت ، وهم يعملون أعمال من لا يموت، وهذا أيضًا خلاف قولهم . فانظر لنفسك يا أخى بأى بدن تقف بين يدى الله تعالى ؟ وبأى لسان تجيبه ؟ وماذا تقول إذا سألك عن القليل والكثير ؟ فأعد للسؤال جوابًا ، وللجواب صوابًا ﴿ **وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُون** ﴾ [الحشر: ١٨] أى من الخير والشر ، ثم وعظ المؤمنين بأن لا يتركوا أمره ، وبأن يوحدوه فى السر والعلانية . وجاء في الخبر عن النبى ﷺ أنه قال : «مكتوب على ساق العرش: أنا مطيع من أطاعنى، ومحب من أحبنى، ومجيب من دعانى، وغافر لمن استغفرنى». فينبغى للعاقل أن يطيع الله بالخوف والإخلاص فى طاعته، والرضا بقضائه، والصبر على بلائه، وبالشكر على نعمائه، والقناعة بإعطائه، يقول الله تعالى: «من لم يرض بقضائى، ولم يصبر على بلائى، ولم يشكرنى على نعمائى، ولم يقنع بعطائى، فليطلب ربا

سواى». وقال رجل للحسن البصـرى رحمه الله : إنى لا أجد للطاعة لذة ، فقال له : لعلك نظرت فى وجه من لا يخاف الله ، العبودية أن تترك الأشياء كلهـا لله . وقال رجل لأبى يزيد رحـمـه الله : إنى لا أجد للطاعـة لذة ، فقال: لأنك تعبد الطاعة ولا تعبد الله . اعبد الله حتى تجد للطاعة لذة .

وحكى أن رجلاً دخل فى الصلاة فلما انتهى إلى قوله: ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ**﴾ [الفاتحة : ٥] خطر بباله أنه عابد لله فى الحقيقة ، فنودى فى السر : كذبت ، إنما تعبد الخلق ، فتاب واعتزل الناس ، ثم شرع فى الصلاة ، فلما انتهى إلى قوله : ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ** ﴾ نودى : كذبت ، إنما تعبد مالك ، فتصدق بماله كله ، ثم شرع فى الصلاة ، فلما انتهى إلى قوله : ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ** ﴾ نودى : كذبت إنما تعبد ثيابك ، فـتصدق بها إلا ما له بُدّ منه ، ثم شرع فيـها ، فلما انتهى إلى قوله : ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ** ﴾ نودى : الآن صدقت إنما تعبد ربك .

وفى « **رونق المجـالس** » : ضـاع لرجل جَوالق ، فلم يدر من أخـذها منه، فلمـا دخل فى الصلاة تذكـرها ، فلما سلم قـال لغلامـه : اذهب إلى فلان ابن فلان ، واسترد منه الجوالق ، فقـال الغلام : متى ذكرتها ؟ فقال : حين كنت فى الصـلاة ، فـقال : يا مـولاى كنت طالب الجـوالق لا طالب الخالق ، فأعتقه مولاه ببركة اعتقاده . فينبغى للعاقل أن يترك الدنيا ويعبد الله ويتفكر أمامه ويريد الآخرة ، كما قال الله تعالى: ﴿ **مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا**﴾[الشورى: ٢٠] أى ملاذها من لباسها وطعـامها وشرابها ﴿ **نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ** ﴾ [الشورى : ٢٠] بأن ينزع من قلبه حب الآخرة . ولذلك أنفق أبو بكر الصديق رضى الله عنه على النبى ﷺ أربعين ألف دينار فى السر، وأربعين ألف دينار فى العلانية،حتى لم يبق له شىء.وكان النبى ﷺ معرضًا عن الدنيا وشهواتها هو وأهله ؛ ولذلك كان جهاز السيدة فاطمة الزهراء رضى الله عنها لما زوجها النبى ﷺ من علىّ جلد كبش مدبوغ ، ووسادة أدم حشوها ليف .

الباب السابع ..في

نسيان الله تعالى والفسق والنفاق

جاءت امرأة إلى الحسن البصرى -رضى الله عنه- فقالت: إنه كانت لى ابنة شابة، فماتت فأحببت أن أراها فى المنام، فجئتك كى تعلمنى ما أستعين به على رؤيتها، فعلمها، فلما رأتها وعليها لباس من قطران، وفى عنقها الغل، وفى رجلها القيد، أخبرت « الحسن » بذلك، فاغتم، ومضت مدة، ثم رآها «الحسن» فى الجنة وعلى رأسها تاج، فقالت: يا حسن أما تعرفنى؟ أنا ابنة المرأة التى أتتك وقالت لك كذا، فقال لها: ما الذى صيرك إلى ما أرى؟ قالت: مرّ بنا رجل، فصلّى على النبى ﷺ مرة، وكان فى المقبرة خمسمائة وخمسون إنسانًا فى العذاب، فنودى: ارفعوا العذاب عنهم ببركة صلاة هذا الرجل.

نكتة: بصلاة رجل على محمد ﷺ أصابتهم المغفرة، فمن يصلى عليه منذ خمسين سنة، أفلا يجد شفاعته يوم القيامة؟.

قال الله تعالى: ﴿ **وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ** ﴾ أى فى الذين، يعنى: كالمنافقين الذين ﴿ **نَسُوا اللَّهَ** ﴾ [الحشر: ١٩] يعنى: تركوا أمر الله، وفعلوا خلافه وتلذذوا بشهوات الدنيا وركنوا إلى غرورها.

وسئل رسول الله ﷺ عن المؤمن والمنافق، فقال: « إن المؤمن همه فى الصلاة والصيام، والمنافق همه فى الطعام والشراب كالبهيمة، وترك العبادة والصلاة، والمؤمن مشغول بالصدقة وطلب المغفرة، والمنافق مشغول بالحرص والأمل، والمؤمن مَنْ آيس من كل أحد إلا الله، والمنافق راجٍ كل أحد إلا الله والمؤمن يقدم ماله دون دينه، والمنافق يقدم دينه دون ماله، والمؤمن آمن من كل أحد إلا من الله، والمنافق خائف من كل أحد إلا من الله، والمؤمن يحسن ويبكى، والمنافق يسىء ويضحك، والمؤمن يحب الوحدة والخلوة، والمنافق يحب الخلطة والملأ، والمؤمن يزرع ويخشى الفساد، والمنافق يقلع ويرجو الحصاد، والمؤمن ينهى لسياسة دينية ويصلح، والمنافق يأمر وينهى لرياسة دنيوية ويفسد بل يأمر بالمنكر، وينهى عن المعروف، كما قال الله تعالى: ﴿ **الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ**

ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون * وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها هي حسبهم ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم ﴾ . وقال الله تعالى : ﴿ **إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا** ﴾ [النساء : ١٤٠] يعنى : إن ماتوا على كفرهم ونفاقهم، فبدأ بالمنافقين لأنهم شر من الكفار، وجعل مأواهم جميعًا النار ، وقال تعالى : ﴿ **إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا** ﴾ [النساء : ١٤٥] . والمنافق اشتقاقه فى اللغة من نافقاء اليربوع . ويقال : إن لليربوع حجرتين إحداهما النافقاء ، والأخرى القاصعاء . فيظهر نفسه فى إحداهما ويخرج من الأخرى ، ولهذا سمى المنافق منافقًا ؛ لأنه يظهر من نفسه أنه مسلم ، ويخرج من الإسلام إلى الكفر .

وفى الحديث : « مثل المنافق كمثل الشاة ترعى بين قطيعين من الغنم ، تارة تسير إلى هذا القطيع ، وتارة إلى هذا القطيع، ولا تسكن لواحد منهما؛ لأنها غريبة ليست منهما»،وكذلك المنافق لا يستقر مع المسلمين بالكلية ،ولا مع الكافرين، وإن الله خلق النار لها سبعة أبواب، كما قال الله تعالى:﴿ **لها سبعة أبواب**﴾ [الحجر: ٤٤] من حديد مطبقة ، وعليها ظهارة النحاس وبطانة الرصاص[1] ،وفى أصلها العذاب،وفوقها السخط وأرضها من نحاس وزجاج وحديد، ورصاص النار من فوق أهلها، والنار من تحتهم، والنار عن يمينهم، والنار عن شمالهم، وطبقاتها بعضها فوق بعض ، وأعد للمنافقين منها الدرك الأسفل.وجاء فى الخبر أن جبريل أتى النبىﷺ فقال:«صف لى النار وحرّها» فقال:إن الله عز وجل خلق النار فأوقدها ألف عام حتى احمرت،ثم أوقدها ألف عام حتى ابيضت،ثم أوقدها ألف عام حتى اسودت،فهى سوداء مظلمة.والذى بعثك بالحق نبيا،لو أن ثوبًا من ثياب أهل النار ظهر لأهل الأرض لماتوا جميعًا، ولو أن دلوًا من شرابها،صب على ماء الأرض جميعه، لقتل من ذاقه، ولو أن ذراعًا من السلسلة التى ذكرها الله تعالى بقوله:﴿ **ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه** ﴾ [الحاقة:٣٢] . الآية كل ذراع

(١) أصل الظهارة ما ظهر من الثوب والبطانة بعكسها .

طوله من المشرق إلى المغرب، لو وضع على جبال الدنيا لذابت ولو أن رجلا دخل النار، ثم أخرج منها، لمات أهل الأرض من نتن ريحه. وسأل ﷺ جبريل فقال: «يا جبريل، صف لى أبواب جهنم، أهى كأبوابنا هذه؟» فقال: يا رسول الله، لا، ولكنها طباق بعضها أسفل من بعض، من الباب إلى الباب مسيرة سبعين سنة، كل باب منها أشد حرًا من الذى يليه بسبعين ضعفًا. وسأله أيضًا عن مكان هذه الأبواب، فقال: أما الأسفل ففيه المنافقون واسمه الهاوية. كما قال الله تعالى ﴿**إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ**﴾ [النساء: ١٤٥].

والباب الثانى فيه المشركون واسمه الجحيم.

والباب الثالث فيه الصابئون واسمه سقر.

والباب الرابع فيه إبليس عليه اللعنة ومن تبعه من المجوس واسمه لظى.

والباب الخامس فيه اليهود واسمه الحطمة.

والباب السادس فيه النصارى واسمه السعير.

ثم أمسك جبريل عليه السلام، فقال له ﷺ: «لِمَ لَمْ تخبرنى عن سكان الباب السابع؟» فقال جبريل: يا محمد لا تسألنى عنه، فقال له: «أخبرنى عنه»، فقال: فيه أهل الكبائر من أمتك الذين ماتوا ولم يتوبوا.

روى أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿ **وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا** ﴾ [مريم: ٧١]، اشتد خوفه ﷺ على أمته وبكى بكاء شديدًا، فالعارف بالله وبشدة سطوته وقهره، يخافه خوفًا شديدًا، ويبكى على نفسه وتفريطه قبل أن يرى هذه الشدائد، ويعاين هذه الدار المخوفة المهولة وقبل أن تنتهك الأستار ويعرض على المنتقم الجبار، ويؤمر به إلى النار، فكم من شيخ ينادى فى النار: وا شيبتاه؟ وكم من شاب ينادى فى النار: وا شباباه؟ وكم من امرأة فى النار تنادى: وا فضيحتاه؟ وا هتك ستراه؟ وقد اسودت وجوههم وأجسادهم، وانكسرت ظهورهم. فلا يكرم كبيرهم، ولا يرحم صغيرهم، ولا تستر نساؤهم. اللهم أجرنا من النار، ومن عذاب النار، ومن كل عمل يقربنا إلى النار، وأدخلنا الجنة مع الأبرار، برحمتك يا عزيز يا غفار. اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا وأقلنا من عثراتنا، ولا تفضحنا بين يديك، يا أرحم الراحمين.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب الثامن .. في

التوبـــــة

التوبة واجبة على كل مسلم ومسلمة قال الله تعالى : ﴿ **تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا** ﴾ [التحريم : ٨] ، والأمر للوجوب، وقال تعالى: ﴿**وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ** ﴾ [الحشر : ١٩] يعنى عاهدوا الله ونبذوا كتابه وراء ظهورهم ، ﴿**فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ** ﴾ [الحشر : ١٩] ، يعنى : حالهم حتى لم ينهوا أنفسهم ولم يقدموا لها خيرًا ، وقال ﷺ : « من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله كره اللهُ لقاءه » ، ﴿ **أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴾ [الحشر : ١٩] يعنى : العاصون الناقضون عهدهم الخارجون عن طريق الهداية والرحمة والمغفرة ، والفاسق على نوعين : فاسق كافر ، وفاسق فاجر .

فالفاسق الكافر : هو من لم يؤمن بالله ورسوله ، وخرج عن الهداية ودخل فى الضلالة، كما قال الله تعالى : ﴿ **فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ** ﴾ [الكهف : ٥٠] يعنى : خرج عن طاعة أمر ربه بالإيمان .

والفاسق الفاجر: هو الذى يشرب الخمر، ويأكل الحرام، ويزنى ويعصى الله تعالى،ويخرج من طريق العبادة، ويدخل فى المعصية،ولا يأتى الشرك .

والفرق بينهما : أن الفاسق الكافر لا يرجى غفرانه إلا بالشهادة والتوبة قبل موته ، والفاسق الفاجر يرجى غفرانه بالتوبة قبل الموت ؛ فإن كل معصية أصلها من الشهوة النفسانية يرجى غفرانها ، وكل معصية أصلها من الكبر لا يرجى غفرانها . ومعصية إبليس كان أصلها من الكبر، فينبغى لك أن تتوب من ذنوبك قبل الموت،رجاء أن يقبلك الله كما قال الله تعالى: ﴿**وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ** ﴾ [الشورى : ٢٥] الآية : يعنى يتجاوز عما عملوا بقبول التوبة . وقال ﷺ : «التائب من الذنب كمن لا ذنب له» .

حكى أن رجلاً كان كلما أذنب يكتب ذنبه فى ديوان ، فأذنب يومًا ما ذنبًا ، فنشر ديوانه ليكتبه فيه ، فلم يجد فيه إلا قوله تعالى : ﴿ **فَأُوْلَئِكَ**

يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ﴾ [الفرقان: ٧٠] الآية . يعنى : يبدل مكان الشرك الإيمان ، ومكان الزنا العفو ، ومكان المعصية العصمة والطاعة .

حكى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه مر وقتًا من الأوقات من سكك المدينة ، فاستقبله شاب وهو حامل قارورة تحت ثيابه ، فقال عمر : أيها الشاب، ما الذى تحمل تحت ثيابك ؟ - وكان فيها خمر - فخجل الشاب أن يقول خمرًا . وقال فى سره : إلهى لا تخجلنى عند عمر ، ولا تفضحنى واسترنى عنده ، فلا أشرب الخمر أبدًا ، ثم قال : يا أمير المؤمنين، الذى أحمل هو خل . فقال : أرنى حتى أراها ، فكشفها بين يديه ، فرآها عمر صارت خلا . فانظر إلى مخلوق تاب من خوف مخلوق ، فبدل الله سبحانه وتعالى خمره بالخل ، لما علم منه إخلاص التوبة . فلو تاب العاصى المفلس عن الأعمال الفاسدة توبة نصوحًا وندم على ذنبه ، بدل الله سبحانه وتعالى خمو سيئاته بخلّ الطاعة .

وذكر عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : خرجت ذات ليلة بعدما صليت العشاء الآخرة مع رسول الله ﷺ فإذا أنا بامرأة فى الطريق ، فقالت: يا أبا هريرة إنى ارتكبت ذنبًا فهل لى من توبة ؟ فقلت : وما ذنبك ؟ قالت: إنى زنيت وقتلت ولدى من الزنا ، فقلت لها : هلكت وأهلكت ، والله ما لك من توبة . فخرّت مغشيا عليها ، فمضيت فقلت فى نفسى : أفتى ورسول الله ﷺ بين أظهرنا ؟ فرجعت إليه وأخبرته بذلك . فقال : «هلكت وأهلكت ؟ فأين أنت من هذه الآية : ﴿ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ﴾ [الفرقان : ٦٨ ــ ٧٠] الآية » . فخرجت وقلت : من يدلنى على امرأة سألتنى مسألة ؟ والصبيان يقولون : جن أبو هريرة . حتى أدركتها وأخبرتها بذلك ، فشهقت شهقة من السرور وقالت : إن لى حديقة جعلتها صدقة لله ورسوله .

حكاية : عن عتبة الغلام رحمه الله تعالى - وكان من أهل الفسق والفجور مشهورًا بالفساد وشرب الخمر - أنه دخل يومًا مجلس « الحسن البصرى » وهو يقرأ فى تفسير قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن

تخشع قلوبهم لذكر الله﴾[الحديد : ١٦] يعنى : ألم يجىء وقت تخاف قلوبهم ؟ فوعظ الشيخ فى تفسير هذه الآية وعظًا بليغًا، حتى أبكى الناس ، فقام من بينهم شاب، فقال: يا تقى المؤمنين ، أيقبل الله تعالى الفاجر مثلى إذا تاب ؟

فقال الشيخ : نعم يقبل الله توبة فسقك وفجورك ، فلما سمع عتبة الغلام هذا الكلام ، اصفر وجهه، وارتعدت فرائصه ، وصاح صيحة، وخرّ مغشيا عليه، فلما أفاق ، دنا منه « الحسن » وقال هذه الأبيات :

أيا شابا لرب العرش عاصى أتدرى ما جزاء ذوى المعاصى ؟
سعير للعصاة لها زفير وغيظ يوم يؤخذ بالنواصى
فإن تصبر على النيران فاعصه وإلا كن عن العصيان قاصى
وفيم ؟ وقد كسبت من الخطايا وهنت النفس فاجهد فى الخلاص

فصاح صيحة عظيمة وخرّ مغشيا عليه ، فلما أفاق قال : يا شيخ هل قبل الرب الرحيم توبة مثلى اللئيم ؟ فقال الشيخ : هل يقبل توبة العبد الجافى إلا الرب المعافى ؟ ثم رفع رأسه ودعا ثلاث دعوات :

الأولى : قال : إلهى إن كنت قبلت توبتى وغفرت ذنوبى ، فأكرمنى بالفهم والحفظ ؛ حتى أحفظ كل ما سمعت من العلم والقرآن .

والثانية : قال : إلهى أكرمنى بحسن الصوت ؛ حتى إن كل من سمع قراءتى يزداد رقة فى قلبه ، وإن كان قاسى القلب .

والثالثة : قال : إلهى أكرمنى بالرزق الحلال وارزقنى من حيث لا أحتسب. فاستجاب الله جميع دعائه حتى زاد فهمه وحفظه، وكان إذا قرأ القرآن تاب كل من سمع قراءته. وكان يوضع فى بيته كل يوم قصعة من المرق، ورغيفان، ولا يدرى أحد من يضعها، وكان على هذه الحالة حتى فارق الدنيا . وهذا حال من ثاب إلى الله تعالى؛ لأن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً . وسئل بعض العلماء : هل يعرف العبد إذا تاب أن توبته قبلت أم ردت؟ فقال : لا حكم فى ذلك ، ولكن لذلك علامات : أن يرى نفسه معصومة من المعصية ، ويرى الفرح عن قلبه غائبًا والرب شاهدًا ، ويقارب أهل الخير ويباعد أهل الفسق ، فيرى القليل من الدنيا كثيرًا والكثير من عمل الآخرة قليلاً ، ويرى قلبه مشتغلاً بما فرض الله تعالى عليه ، ويكون حافظًا للسانه دائم الفكرة ملازم الغم والندامة على ما فرط من ذنوبه .

الباب التاسع ..فى

المحبـــة

ذكر أن رجلاً رأى صورة قبيحة فى البادية ، فقال : من أنت ؟ قالت : أنا عملك القبيح ، قال : فما النجاة منك ؟ قالت : الصلاة على النبى ﷺ، كما قال ﷺ : « الصلاة عليّ نور على الصراط ، ومن صلى عليّ يوم الجمعة ثمانين مرة ، غفر الله له ذنوب ثمانين عامًا » .

وحكى أن رجلاً كان غافلاً عن الصلاة على سيدنا محمد ، فرأى النبى ﷺ ليلة فى المنام ولم يلتفت إليه ، فقال : يا رسول الله أأنت عليّ غضبان ؟ قال : « لا » ، قال : فلم لا تنظر إليّ ؟ قال : « لأنى لا أعرفك»، فقال : كيف لا تعرفنى وأنا رجل من أمتك ، وقد روى العلماء أنك أعرف بأمتك من الوالدة بالولد ؟ فقال : « صدقوا ، ولكنك بالصلاة لا تذكرنى ، وإن معرفتى بأمتى بقدر صلاتهم عليّ » . ثم انتبه الرجل وأوجب على نفسه أن يصلى على النبى ﷺ كل يوم مائة مرة ففعل ذلك، ثم رآه بعد ذلك فى المنام ، فقال : « أعرفك الآن وأشفع لك » أى لأنه صار محبًا لرسول الله ﷺ . انتهى .

قال الله تعالى : ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ** ﴾ [آل عمران : ٣١] الآية، سبب نزولها : أن رسول الله ﷺ لما دعا كعب بن الأشرف وأصحابه إلى الإسلام قالوا : نحن فى المنزلة أبناء الله، ولنحن أشد حبا لله ، فقال الله تعالى لنبيه : ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي** ﴾ [آل عمران : ٣١] على دينى ، فإنى رسول الله أؤدى رسالته إليكم وحجته عليكم ﴿ **يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [آل عمران : ٣١] وحب المؤمنين لله اتباعهم أمره وإيثار طاعته وابتغاء مرضاته، وحب الله للمؤمنين ثناؤه عليهم، وثوابه لهم ، وعفوه عنهم ، وإنعامه عليهم برحمته ، وعصمته وتوفيقه .

قال الإمام فى « **إحيائه** » [1]: من ادعى أربعًا من غير أربع فهو كذاب ؛

(١) أي الإمام الغزالي في إحياء علوم الدين .

من ادعى حب الجنة ولم يعمل بالطاعة فهو كذاب، ومن ادعى حب النبى ﷺ ولم يحب العلماء والفقراء فهو كذاب، ومن ادعى الخوف من النار ولم يترك المعاصى فهو كذاب، ومن ادعى حب الله تعالى وشكا من البلوى فهو كذاب.
كما قالت رابعة :

تعصى الإله وأنت تظهر حبه ؟ هذا لعمرى فى القياس بديع
لو كان حبك صادقًا لأطعته إن المحب لمن يحب مطيع

وعلامة المحبة : موافقة المحبوب واجتناب خلافه .

حكى أن جماعةً دخلوا على « الشبلى » ـ رحمه الله تعالى ـ فقال: من أنتم ؟ فقالوا : أحباؤك ، فأقبل ، ثم رماهم بالحجارة ، فهربوا منه ، فقال لهم : تهربون منى ؟ لو كنتم أحبائى ما فررتم من بلائى ، ثم قال الشبلى رحمه الله : أهل المحبة شربوا بكأس الوداد فضاقت عليهم الأرض والبلاد ، وعرفوه حق معرفته ، وتاهوا فى عظمته ، وتحيروا فى قدرته ، وشربوا بكأس حبه ، وغرقوا فى بحر أنسه ، وتلذذوا بمناجاته . ثم أنشد :

ذكر المحبة يا مولاى أسكرنى وهل رأيت محبًا غير سكران ؟

ويقال : إن البعير إذا سكر لا يأكل العلف أربعين يومًا ، ولو حمل عليه أضعاف ما يحمله لحمله ؛ لأنه إذا هاج قلبه ما ذكر محبوبه ، ولا يحب العلف ، ولا يعيا من الحمل الثقيل ؛ لاشتياقه إلى محبوبه ، فإذا كان من شأن الإبل أن تترك شهوتها وتحمل الحمل الثقيل لأجل محبوبها ، فهل أنتم تركتم شهوة محرمة لأجل الله تعالى ؟ وهل تركتم طعامًا وشرابًا لأجل الله تعالى ؟ وهل حملتم على أنفسكم حملاً ثقيلاً لأجل الله تعالى ؟ فإن لم تفعلوا شيئًا من الخيرات مما ذكرت ، فدعواكم اسم بلا معنى ، لا تنفع فى الدنيا ولا فى العقبى ، ولا عند الخلق ولا عند الخالق . وعن عليّ كرّم الله وجهه قال : من اشتاق إلى الجنة سارع إلى الخيرات، ومن خاف من النار نهى نفسه عن الشهوات ، ومن تيقن الموت هانت عليه اللذات .

وسئل إبراهيم الخواص عن المحبة ، فقال : محو الإرادات ، وإحراق جميع الصفات والحاجات ، وإغراق نفسه فى بحر الإشارات .

الباب العاشر .. في

العشــق

الحب : عبارة عن ميـل الطبع إلى الشيء المُلذّ ، فإن تأكـد ذلك الميل وقوى سمى عـشقًا ، فيجـاوز إلى أن يكون رقيقًا لمحبـوبه ، وينفق ما يملك لأجله ، ألا ترى إلى « زليـخا » بلغ بهـا من محـبة يوسف عليـه السلام أن ذهب مالها وجـمالها ، وكان لها مـن الجواهر والقلائد وقر سبـعين جملاً ، وقد أنفـقتهـا كلها فى محـبة يوسف ، وكل من قـال رأيت يوسف اليوم ، أعطتـه قلادة تغنيـه حتى لم يبق لهـا شيء ، وكانت تسـمّى كل شيء باسم يوسف ، وقد نسيت كل شيء سواه ؛ من فـرط العشق ، وإذا رفعت رأسها إلى السماء رأت اسم يوسف مكتوبًا على الكواكب .

وروى أنهـا لما آمنت وتزوجت به عليـه السلام ، انفـردت عنه وتخلت للعبادة وانـقطعت إلى الله تعالى، فكان يدعوها إلى فراشـها نهارًا، فتـدافعه إلى الليل، فإذا دعاها ليلاً سوفت به إلى النهار وقالت : يا يوسف إنما كنت أحبك قبل أن أعرفه ، فلما أن عرفته فما أبقت محبته محبة لسواه ، وما أريد به بدلاً . حتى قال لها : إن الله جل ذكره أمـرنى بذلك وأخبرنى أنه مخرج منك ولدين وجاعلهمـا نبيين . فقالت : أما إذا كـان الله تعالى أمرك بذلك وجعلنى طريقًا إليه ، فطاعة لأمر الله تعالى ، فعندها سكنت إليه .

وحكى أن مجنون « ليلى » قيل له : ما اسمك ؟ قال : ليلى . وقيل له يومًا : أو ماتت ليلى ؟ قال : إن ليلى فى قلبى لم تمت ، أنا ليلى . ومر يومًا على دار ليلى فنـظر إلى السمـاء ، فـقـيل له : يا مـجنون لا تنظر إلى السماء ، ولكن انظر إلى جدار ليلى لعلك تراها ، قال : أنا أكتفى بنجم يقع ظله على دار ليلى .

وحكى أن منصور الحلاج ــ رحمه الله تعالـى ــ أنهم حبسوه ثمانية عشر يـومًا ، فجاءه الشبلى رضى الله عنه ، فـقال : يا منصور مـا المحبة ؟ فقال : لا تسألنى اليوم واسألنى غدًا . فـلما جاء الغد وأخرجوه من السجن

ونصبوا النطع لأجل قتله ، مر الشبلى بين يديه ، فنادى : يا شبلى ، المحبة أولها حرق وآخرها قتل. إشارة لما تحقق للحلاج - رضى الله عنه فى نظره - أن كل شىء ما خلا الله باطل ، وعلم أن الله هو الحق ، نسى عند تحقيق اسم الحق ، اسم نفسه ، فسئل من أنت ؟ فقال : أنا الحق.

وروى أن صدق المُحِبّ فى ثلاث خصال : أن يختار كلام حبيبه على كلام غيره ، وأن يختار مجالسة حبيبه على مجالسة غيره ، وأن يختار رضا حبيبه على رضا غيره ، كذا فى « المنتهى » .

وقيل : العشق : هتك الأستار ، وكشف الأسرار ، والوجد : عجز الروح عن احتمال غلبة الشوق عند وجود حلاوة الذكر ، حتى لو قطع عضو من أعضائه لا يحس ولا يشعر .

وحكى أن رجلاً كان يغتسل فى الفرات، فسمع رجلاً يقرأ: ﴿**وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ**﴾ [يس : ٥٩] فلم يزل يضطرب حتى غرق ومات .

وعن محمد بن عبد الله البغدادى قال : رأيت فى البصرة شابا على سطح مرتفع قد أشرف على الناس ، وهو يقول : من مات عاشقًا فليمت هكذا ، لا خير فى عشق بلا موت . ثم رمى بنفسه ، فحمل ميتًا .

قال الجنيد رحمه الله : التصوف ترك الاختيار .

وحكى أن ذا النون المصرى رحمه الله دخل المسجد الحرام فرأى شابا عريانًا مطروحًا مريضًا تحت اسطوانة ، وله أنين من قلب حزين ، قال : فدنوت منه وسلمت عليه ، وقلت : من أنت يا غلام ؟ قال : أنا غريب عاشق . فعلمت عما يقول ، قلت : وأنا مثلك . فبكى وبكيت أنا لبكائه . قال : أتبكى أنت ؟ فقلت : أنا مثلك ، فبكى بأعلى صوته وصاح صيحة عظيمة عالية ، فخرجت روحه من ساعته ، فطرحت عليه ثوبى وخرجت من عنده لطلب الكفن ، فاشتريت الكفن ورجعت إليه ، فلم أجده مكانه ، فقلت : سبحان الله ، فسمعت هاتفًا يقول : يا ذا النون إن هذا الغريب الذى طلبه الشيطان فى الدنيا فما وجده ، وطلبه مالك فلم يره ، وطلبه رضوان فى الجنة فما وجده . قلت: فأين هو ؟ قال : فسمعت هاتفًا يقول:

﴿ **فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ** ﴾ [القمر : ٥٥] بسبب محبته وكثرة طاعته وتعجيل توبته . كذا فى « **زهر الرياض** » .

وسئل بعض المشايخ عن المحب ، فقال : قليل الخلطة ، كثير الخلوة ، دائم الفكر ، ظاهر الصمت ، لا يبصر إذا نظر ، ولا يسمع إذ نودى ، ولا يفهم إذ كلم ، ولا يحزن إذا أصيب بمصيبة ، وإذا أصيب بجوع فلا يدرى ، ويعرى ولا يشعر ، ويشتم ولا يخشى ، ينظر إلى الله تعالى فى خلوته ويأنس به ويناجيه ، ولا ينازع أهل الدنيا فى دنياهم .

وقد قال أبو تراب النخشبى فى علامات المحبة أبياتًا :

لا تخدعن فللحبيب دلائل ... ولديه من تحف الحبيب وسائل
منها تنعمه بمر بلائه ... وسروره فى كل ما هو فاعل
فالمنع منه عطية مقبولة ... والفقر إكرام وبر عاجل
ومن الدلائل أن يرى من عزمه ... طوع الحبيب ، وإن ألح العاذل
ومن الدلائل أن يرى متبسمًا ... والقلب فيه من الحبيب بلابل
ومن الدلائل أن يرى متفهمًا ... لكلام من يحظى لديه السائل
ومن الدلائل أن يرى متقشفًا ... متحفظًا من كل ما هو قائل

حكاية : مرّ عيسى عليه السلام بشاب يسقى بستانًا ، فقال الشاب لعيسى : سل ربك أن يرزقنى من محبته مثقال ذرة ، فقال عيسى : لا تطيق مقدار ذرة ، فقال : نصف ذرة ، فقال عيسى عليه السلام : يا رب ارزقه نصف ذرة من محبتك ، ومضى عيسى عليه السلام .

فلما كان بعد مدة طويلة مرّ بمحل ذلك الشاب ، فسأل عنه ، فقالوا : جُنّ . وذهب إلى الجبال . فدعا الله عيسى عليه السلام أن يريه إياه ، فرآه بين الجبال فوجده قائمًا على صخرة شاخصًا طرفه إلى السماء ، فسلم عليه عيسى عليه السلام ، فلم يرد عليه ، فقال أنا عيسى ، فأوحى الله تعالى إلى عيسى : كيف يسمع كلام الآدميين من كان فى قلبه مقدار نصف ذرة من محبتى ، فوعزتى وجلالى لو قطعته بالمنشار لما علم بذلك ! .

ومن ادعى ثلاثة ولم يتطهر من ثلاثة فهو مغرور :

أولها : من ادعى حلاوة ذكر الله وهو يحب الدنيا .

وثانيها: من ادعى محبة الإخلاص فى العمل ويحب تعظيم الناس له .

وثالثها : من ادعى محبة خالقه من غير إسقاط نفسه .

وقال رسول الله ﷺ : « سيأتى زمان على أمتى يحبون خمسًا وينسون خمسًا ، يحبون الدنيا وينسون الآخرة ، ويحبون المال وينسون الحساب ، ويحبون الخلق وينسون الخالق ، ويحبون الذنوب وينسون التوبة ، ويحبون القصور وينسون المقبرة » ، وقال منصور بن عمار لشاب يعظه : يا شاب لا يغررك شبابك ، فكم من شاب أخَّر التوبة وأطال الأمل ، ولم يذكر موته فقال : إنى أتوب غدًا وبعد غد ، فجاءه ملك الموت وهو غافل عن التوبة ، فصار فى جوف القبر لا ينفعه مال ولا عبد ولا ولد ولا أب ولا أم ، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ * إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء : ٨٨ ـ ٨٩] .

اللهم ارزقنى التوبة قبل الموت ، ونبهنا عند الغفلة ، وانفعنا بشفاعة نبينا خير المرسلين ﷺ .

وصفة المؤمن أن يتوب من يومه وساعته ، ويندم على ما فعله من ذنوبه، ويرضى بالقوت من الدنيا ، ولا يشتغل بالدنيا بل يشتغل بعمل الآخرة ، ويعبد الله تعالى بالإخلاص .

حكاية : كان رجل بخيل منافق حلف على زوجته بالطلاق أن لا تتصدق بصدقة ، فجاء سائل على باب داره ، وقال : يا أهل الدار بحق الله ألا أعطيتمونى شيئًا ؟ فأعطته المرأة ثلاثة أرغفة ، فاستقبله المنافق ، وقال : من أعطاك هذه الأرغفة ؟ قال : أعطونى من الدار الفلانية ، فكانت داره ، فدخل المنافق داره وقال لامرأته : ألست قد حلفت عليك أن لا تعطى أحدًا شيئًا ؟ فقالت : أعطيت لأجل الله عزّ وجل ، فذهب المنافق وأوقد التنور حتى حمى ، ثم قال : قومى فألقى نفسك فى التنور لأجل الله ، فقامت المرأة وأخذت حللها ، فقال المنافق : دعى الحلل ، فقالت المرأة : الحبيب يتزين لحبيبه ، وأنا زائرة لحبيبى ، ثم ألقت نفسها فى التنور، فأطبق المنافق

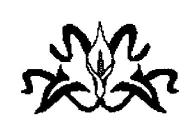
عليها ومضى . فلما تمّ لها ثلاثة أيام جاء المنافق ، ففتح عليها رأس التنور ، فرأى المرأة سالمة بقدرة الله تعالى ، فتعجب الرجل من تلك الحال ، فهتف به هاتف يقول : أما علمت أن النار لا تحرق أحبابنا .

وحكى أن آسية امرأة فرعون كانت تكتم إيمانها عن فرعون ، فلما علم فرعون بإيمانها أمر بها أن تعذب ، فعذبوها بأنواع العذاب ، وقال : ارتدى ، فلم ترتد . فأتى بأوتاد وضربوها على أعضائها ، ثم قال : ارتدى . فقالت: إنك تغلب نفسى ، وقلبى فى عصمة ربى ، لو قطعتنى إربًا إربًا ما ازددت إلا حبا . فمرّ موسى عليه السلام بين يديها فنادت موسى : أخبرنى أراضٍ عنى ربى أم ساخط ؟ فقال موسى عليه السلام : يا آسية ، ملائكة السموات فى انتظارك - أى مشتاقة إليك - والله يباهى بك ، فاسألينى حاجتك فإنها مقضية ، فقالت : **﴿ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾** [التحريم : ١١] .

وعن سلمان رضى الله عنه ، قال : كانت امرأة فرعون تعذب بالشمس ، فإذا انصرفوا عنها أظلتها الملائكة بأجنحتها ، وكانت ترى بيتها فى الجنة .

وعن أبى هريرة : أن فرعون وتد لامرأته أربعة أوتاد وأضجعها ، وجعل على صدرها رحى، واستقبل بها عين الشمس. فرفعت رأسها إلى السماء ، فقالت: **﴿ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ ﴾** [التحريم:١١] الآية .

قال الحسن: فنجاها الله أكرم نجاة، ورفعها إلى الجنة ، فهى تأكل وتشرب . وفيه دليل على أن الاستعاذة بالله والالتجاء إليه ومسألة الخلاص منه عند المحن والنوازل، من سير الصالحين وديدن المؤمنين.



الباب الحادي عشر .. في

طاعة الله ومحبة رسوله ﷺ

قال الله تعالى : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ [آل عمران : ٣١] . اعلم رحمك الله أن محبة العبد لله ولرسوله : طاعته لهما واتباعه أمرهما ، ومحبة الله للعباد : إنعامه عليهم بالغفران. قيل: العبد إذا علم أن الكمال الحقيقى ليس إلا لله، وأن كل ما يراه كمالاً من نفسه أو من غيره فهو من الله وبالله ، لم يكن حبه إلا لله وفى الله، وذلك يقتضى إرادة طاعته والرغبة فيما يقربه إليه ، ولذلك فسرت المحبة بإرادة الطاعة ، وجعلت مستلزمة لاتباع الرسول ﷺ فى عبادته والحث على طاعته .

وعن الحسن : قال أقوام على عهد رسول الله ﷺ : يا محمد إنا لنحب ربنا . فأنزل الله هذه الآية . وعن بشر الحافى رضى الله عنه قال : رأيت النبى ﷺ فى المنام ، فقال : يا بشر أتدرى بم رفعك الله من بين أقرانك ؟ قلت : لا يا رسول الله ، قال : بخدمتك للصالحين، ونصيحتك لإخوانك ، ومحبتك لأصحابك وأهل سنتى ، واتباعك لسنتى .

وقال ﷺ: « من أحيا سنتى فقد أحبنى ، ومن أحبنى كان معى يوم القيامة فى الجنة » . وجاء فى الآثار المشهورة: أن المتمسك بسنة سيد الخلائق والمرسلين عند فساد الخلق واختلاف المذاهب،له أجر مائة شهيد، كذا فى «شرعة الإسلام» ، وقال : «كل أمتى يدخلون الجنة إلا من أبى»، قالوا: ومن أبى ؟ قال : « من أطاعنى دخل الجنة ، ومن عصانى فقد أبى ، كل عمل ليس على سنتى فهو معصية » .

وقال بعضهم: لو رأيت شيخًا يطير فى الهواء ، أو يمشى على البحر ، أو يأكل النار ، أو غير ذلك وهو يترك فرضًا من فرائض الله تعالى أو سنة من السنن عامدًا ، فاعلم أنه كذاب فى دعواه ، ليس فعله كرامة بل هو استدراج . نعوذ بالله منه .

قال الجنيد رحمه الله : ما يوصل أحد إلى الله إلا بالله ، والسبيل إلى الوصول متابعة المصطفى ﷺ .

وقال أحمد الحوارى رحمه الله: كل عمل بغير اتباع السنة باطل . كما قال ﷺ:«من ضيع سنتى حرمت عليه شفاعتى» كذا فى «شرعة الإسلام» .

حكى أن رجلاً رأى من بعض المجانين ما استجهله فيه ، فأخبر بذلك معروفًا الكرخى رحمه الله ، فتبسم ، ثم قال : يا أخى ، له محبون صغار وكبار ، وعقلاء ومجانين ، فهذا الذى رأيته من مجانينهم .

وحكى عن الجنيد أنه قال : مرض أستاذنا السرى رحمه الله ، فلم نعرف لعلته دواء ، ولا عرفنا لها سببًا ، فوصف لنا طبيب حاذق ، فأخذنا قارورة مائه فنظر إليه الطبيب ، وجعل ينظر إليه مليًا ، ثم قال : أراه بول عاشق ، قال : الجنيد : فصعقت وغشى علىّ ووقعت القارورة من يدى ، ثم رجعت إلى السرى ، فأخبرته ، فتبسم ثم قال : قاتله الله ما أبصره ، قلت : يا أستاذ ، وتبين المحبة فى البول ؟ قال : نعم .

قال الفضيل رحمه الله : إذا قيل لك أتحب الله ؟ فاسكت ، فإنك إن قلت : لا ، كفرت، وإن قلت : نعم ، فليس وصفك وصف المحبين ، فاحذر المقت .

وقال سفيان : من أحب من يحب الله تعالى ، فإنما أحب الله ، ومن أكرم من يكرم الله تعالى فإنما يكرم الله تعالى .

وقال سهل رحمه الله : علامة حب الله : حب القرآن ، وعلامة حب الله وحب القرآن : حب النبى ﷺ ، وعلامة حبه ﷺ : حب السنة ، وعلامة حب السنة : حب الآخرة ، وعلامة حب الآخرة : بغض الدنيا ، وعلامة بغض الدنيا : أن لا يأخذ منها إلا زادًا وبلغة إلى الآخرة .

قال أبو الحسن الزنجانى : أصل العبادة على ثلاثة أركان : العين والقلب واللسان ، فالعين بالعبرة ، والقلب بالفكرة ، واللسان بالصدق والتسبيح والذكر ، كما قال الله تعالى : ﴿ **اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيراً * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً** ﴾ [الأحزاب : ٤١ ــ ٤٢] يعنى : غدوا وعشيا .

حكى أن عبد الله وأحمد بن حرب حضرا موضعًا ، فقطع أحمد بن حرب قطعة من حشيش الأرض ، فقال له عبد الله : حصل عليك خمسة أشياء : شغلت قلبك بها عن تسبيح مولاك ، وعودت نفسك الاشتغال بغير ذكر الله تعالى، وجعلت ذلك طريقًا يقتدى بك فيه، ومنعته عن تسبيح ربه، وألزمت نفسك حجة الله عزّ وجلّ يوم القيامة . كذا فى «**رونق المجالس**» .

وعن السرى رضى الله عنه قال : رأيت مع الجرجانى سويقًا يستف منه، فقلت : لماذا لا تأكل طعامًا غيره ؟ قال إنى حسبت ما بين المضغ والاستفاف تسعين تسبيحة ، فما مضغت الخبز منذ أربعين سنة . وكان سهل بن عبد الله يأكل فى كل خمسة عشر يومًا مرة ، فإذا دخل رمضان لم يأكل فيه إلا أكلة واحدة، ويصبر فى بعض الأوقات عن الطعام سبعين يومًا. وكان إذا أكل ضعف ، وإذا جاع قوى . وجاور أبو حماد الأسود فى المسجد الحرام ثلاثين سنة ، وما رؤى أنه أكل أو شرب ولا يخلو ساعة من ذكر الله .

وحكى أن عمرو بن عبيد كان لا يخرج من منزله إلا لثلاث : للصلاة مع الجماعة ، ولعيادة المريض ، ولحضور الجنازة .

ويقول : رأيت الناس سراقًا وقطاعًا للطريق ، العمر جوهر نفيس لا قيمة له ، فينبغى أن تملأ منه خزانة باقية فى الآخرة ، واعلموا بأن طالب الآخرة لا بد له من الزهد فى الحياة الدنيا ؛ ليصير همه هما واحدًا ولا يفترق باطنه من ظاهره ، ولا يمكن حفظ الحال إلا بضبط الظاهر والباطن .

وقال الشبلى رحمه الله : كنت أول بدايتى إذا غلبنى النوم اكتحلت بالملح ، فإذا زاد علىّ الأمر أحمى الميل فأكتحل به .

وحكى عن إبراهيم بن الحاكم أنه قال : كان أبى إذا جاءه النوم ، دخل البحر فيسبح، فتجتمع إليه حيتان البحر يسبحون معه .

وحكى أن وهب بن منبه دعا الله أن يرفع عنه النوم بالليل فذهب عنه النوم أربعين سنة. وكان حسن الحلاج قيد نفسه من كعبه إلى ركبته بثلاثة عشر قيدًا . وكان يصلى مع ذلك كل يوم وليلة ألف ركعة . وكان الجنيد يأتى إلى السوق فى بداية أمره فيفتح حانوته فيدخله ، ويسبل الستر ، فيصلى أربعمائة

ركعة ، ثم يرجع إلى بيته . وصلّى حبشى بن داود صلاة الغداة أربعين سنة على طهر العشاء . فينبغى للمؤمن أن يكون دائمًا على طهارة ، وكلما أحدث يتطهر ويصلى ركعتين لله، ويجتهد أن يستقبل القبلة فى كل مجلسه، ويصور فى نفسه أنه جالس بين يدى رسول الله ﷺ على قدر الحضور والمراقبة ، حتى يلازم السكينة والوقار فى الفعل ، ويحتمل الأذى ، ولا يقابل المسىء بإساءته ، ويستغفر لكل مسىء ، ولا يعجب بنفسه ولا بعلمه ؛ فإن العجب من صفة الشيطان ، وينظر إلى نفسه بعين الحقارة ، ويرى الصالحين بعين الاحترام والتعظيم ، فمن لم يعرف حرمة الصالحين حرمه الله تعالى صحبتهم ، ومن لم يعرف حرمة الطاعة نزع من قلبه حلاوتها .

سئل الفضيل بن عياض فقيل له : يا أبا علىّ متى يكون الرجل صالحًا؟ قال : إذا كانت النصيحة فى نيته ، والخوف فى قلبه ، والصدق فى لسانه ، والعمل الصالح فى جوارحه. قال الله تعالى فى معراج النبى ﷺ : يا أحمد، إن أحببت أن تكون أورع الناس فازهد فى الدنيا، وارغب فى الآخرة، فقال : « إلهى كيف أزهد فى الدنيا ؟ ؟ » فقال : خذ من الدنيا بقدر الطعام والشراب واللباس، ولا تدخر لغد، ودم على ذكرى، فقال: «يا رب كيف أدوم على ذكرك؟» فقال : بالخلوة عن الناس، واجعل نومك الصلاة، وطعامك الجوع. وقال ﷺ: «الزهد فى الدنيا يريح القلب والبدن، والرغبة فيها تكثر الهم والحزن، حب الدنيا رأس كل خطيئة ، والزهد فيها رأس كل خير وطاعة » .

وحكى أن بعض الصالحين مرّ على جماعة ، فإذا بطبيب يصف الداء والدواء ، فقال : يا معالج الأجسام ، هل تعالج القلوب ؟ فقال الطبيب : نعم ، صف لى داءه ، فقال : قد أظلمته الذنوب فقسا وجفا ، فهل له من علاج ؟ فقال الطبيب : علاجه التضرع والابتهال ، والاستغفار آناء الليل وأطراف النهار ، والمبادرة إلى طاعة العزيز الغفار ، والاعتذار إلى الملك الجبار . فهذه معالجة القلوب ، والشفاء من علام الغيوب . فصاح الرجل الصالح ومضى باكيًا، وقال : نِعْمَ الطبيب أنت ، أصبت علاج قلبى . فقال الطبيب : هذا معالجة قلب من تاب ورجع بقلبه إلى البرّ التواب .

وحكى أن رجلا اشترى غلامًا ، فقال الغلام : يا مولاى إن لى معك ثلاثة شروط :

أحدها : أن لا تمنعنى عن الصلاة المكتوبة إذا جاء وقتها .

والثانى : أن تأمرنى بالنهار ما شئت ولا تأمرنى بالليل .

والثالث : أن تجعل لى منزلاً فى بيتك لا يدخله غيرى .

فقال له الرجل : لك هذه الشروط ، ثم قال الرجل : انظر فى البيوت، فطاف الغلام فوجد فيها بيتًا خرابًا . فقال : أخذت هذا . فقال : يا غلام ، اخترت بيتًا خرابًا ، فقال الغلام : يا مولاى أما علمت أن الخراب مع الله بستان ؟! فكان يخدم مولاه بالنهار ، ويتفرغ بالليل لعبادة ربه سبحانه وتعالى . فبينما هو كذلك إذ طاف مولاه ذات ليلة فى الدار ، فبلغ حجرة الغلام ، فإذا هى منورة والغلام ساجد ، وعلى رأسه قنديل من النور ، معلق بين السماء والأرض ، والغلام يناجى ربه ويتضرع ، ويقول : إلهى أوجبت علىّ حق مولاى ، وخدمته بالنهار ، ولولا ذلك ما اشتغلت ليلى ولا نهارى إلا بخدمتك ، فاعذرنى يا رب . ومولاه ينظر إليه حتى انفجر الصبح ، ورد القنديل وانضم سقف البيت ، فرجع وأخبر امرأته بذلك . فلما كانت الليلة الثانية أخذ بيد امرأته وجاء إلى باب الحجرة ، فإذا الغلام فى السجود والقنديل على رأسه،فوقفا على الباب ينظران إليه ويبكيان حتى أصبحا ، فدعا الغلام ، فقال له : أنت عتيق لوجه الله تعالى حتى تتفرغ لعبادة من كنت تعتذر إليه ، فرفع الغلام يديه إلى السماء وقال :

يا صاحب السرّ إن السرّ قد ظهرا ... ولا أريد حياتى بعد ما اشتهرا

ثم قال : إلهى أسألك الموت ، فخر الغلام ميتًا . هكذا أحوال الصالحين والعاشقين والطالبين .

وفى « **زهر الرياض** » : أن موسى عليه السلام كان له صديق يأنس به ، فقال له ذات يوم : يا موسى ادع الله أن يعرفنى إياه حق معرفته . فدعا موسى عليه السلام فاستجيب له ، فلحق صاحبه بالجبال مع الوحوش ، وفقده موسى ، فقال : يا رب أخى ومؤنسى فقدته ، فقيل له : يا موسى

من عرفنى حق معرفتى لا يصحب مخلوقًا أبدًا .

وجاء فى الأخبار : أن يحيى وعيسى عليهما السلام كانا يمشيان فى السوق ، فصدمتهما امرأة ، فقال يحيى : والله ما شعرت بذلك ، فقال عيسى : سبحان الله بدنك معى وقلبك أين ؟ قال : يا ابن الخالة ، لو اطمئن قلبى إلى غير ربى طرفة عين ، لظننت أنى ما عرفت الله . ويقال : صدق المعرفة أن يطلق الدنيا والعقبى ، ويتجرد للمولى ، وأن يسكر من شراب المحبة، فلا يصحو إلا عند الرؤية ﴿**فهو على نور من ربه**﴾ .

الباب الثانى عشر..فى

ذكر إبليس وعذابه

قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ **فَإِن تَوَلَّوْا** ﴾ [آل عمران : ٣٢] أى أعرضوا عن طاعة الله ورسوله ﴿ **فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ** ﴾ يعنى: لا يغفر لهم ولا يقبل توبتهم ، كما لم يقبل توبة إبليس لكفره واستكباره . وتاب على آدم عليه السلام وقبل توبته ؛ لأنه أقر على نفسه بالذنب وندم عليه ولام نفسه ، وهذا وإن لم يكن ذنبًا حقيقة ؛ لأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام معصومون لا تقع منهم المعصية أبدًا ، لا قبل النبوة ولا بعدها – على الصحيح – لكنه على صورة الذنب ، ولذلك قال هو وحواء عليهما السلام: ﴿ **رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾ [الأعراف : ٢٣] فندم عليه السلام وأسرع بالتوبة ، ولم يقنط من رحمة الله تعالى ﴿ **لا تَقْنَطُوا من رَّحْمَةِ الله** ﴾ [الزمر : ٥٣] وإبليس لم يقر على نفسه بالذنوب ، ولم يندم عليها ولم يلم نفسه ولم يسرع بالتوبة ، وقنط من رحمة الله تعالى وتكبر . فمن كان له مثل حال إبليس لم تقبل توبته ، ومن كان حاله مثل حال آدم قبل الله توبته؛ لأن كل معصية أصلها من الشهوة ، فإنه يرجى غفرانها ، وكل معصية أصلها من الكبر، فإنه لا يرجى غفرانها ،

ومعصية آدم أصلها من الشهوة ومعصية إبليس أصلها من الكبر .

حكى أن إبليس جاء إلى موسى عليه السلام فقال له : أنت الذى اصطفاك الله برسالته وكلمك تكليمًا ؟ فقال له موسى : نعم . فما الذى تريد يا هذا ؟ ومن أنت ؟ فقال إبليس : يا موسى قل لربك خلق من خلقك قد سألك التوبة ، فأوحى الله إلى موسى : قل له : إنى قد استجبت لك فيما سألت ، ومره يا موسى أن يسجد لقبر آدم فإذا سجد له قبلت توبته ، وغفرت له ذنوبه . فأخبره موسى فغضب إبليس واستكبر ، وقال : يا موسى أنا لم أسجد له فى الجنة ، فكيف أسجد له وهو ميت ؟ .

وروى أن إبليس يشتد عليه العذاب فى النار ، فيقال له : كيف وجدت عذاب الله ؟ فيقول : أشدّ ما يكون . فيقال له: إن آدم فى رياض الجنة ، فاسجد له واعتذر حتى يغفر لك ، فيأبى ، فيشتد عليه العذاب بقدر عذاب أهل النار سبعين ألف ضعف .

وجاء فى الخبر : « أن الله تعالى يخرج إبليس من النار ، كل مائة ألف سنة ، ويخرج آدم ، ويأمره بالسجود له، فيأبى ، ثم يرده إلى النار » .

إخوانى: إن أردتم النجاة من إبليس، فاعتصموا بالمولى واستعيذوا به .

وإذا كان يوم القيامة يوضع كرسى من النار ، فيقعد عليه إبليس ـ عليه اللعنة ـ فتجتمع الشياطين والكفار عنده ، وله صوت كصوت الحمار ، ينهق، ويقول : يا أهل النار كيف وجدتم اليوم ما وعد ربكم ؟ قالوا : حقا. ثم يقول : هذا يوم أيست فيه من الرحمة . فيأمر الله تعالى الملائكة أن يضربوه ومن تبعه بمقامع من نار ، فيهوون فيها أربعين سنة ، فلا يسمعون الأمر بالخروج أبد الأبد ـ نعوذ بالله منها ـ .

وورد أنه يؤتى بإبليس يوم القيامة فيؤمر به أن يجلس على كرسى من نار ، وعلى عنقه طوق اللعنة ، ويأمر الله عزّ وجلّ الزبانية أن يجروه على الكرسى ويلقوه فى النار ، فيتعلقون به ، ليلقوه ، فلا يقدرون ، ثم يأمر الله تعالى جبريل مع ثمانين ألف ملك بذلك ، فلا يقدرون ، ثم يأمر إسرافيل ثم عزرائيل أيضًا ، ومع كل واحد منهما ثمانون ألف ملك ، فلا يقدرون ،

فيقول الله تعالى لهم : لو اجتمع عليه أضعاف ما خلقت من الملائكة لما قدروا على أن ينقلوه وطوق اللعنة على عنقه .

وروى أن إبليس كان اسمه فى سماء الدنيا«العابد»،وفى الثانية «الزاهد» وفى الثالثة «العارف»، وفى الرابعة «الولى»، وفى الخامسة «التقى » ، وفى السادسة «الخازن»، وفى السابعة «عزازيل»، وفى اللوح المحفوظ « إبليس » ، وهو غافل عن عاقبة أمره ، فأمره الله أن يسجد لآدم، فقال: أتفضله علىَّ . ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ [الأعراف : ١٢] ، فقال تعالى : أنا أفعل ما أشاء ، فرأى لنفسه شرفًا ، فولى آدم ظهره أنفة وكبرًا ، وانتصب قائمًا إلى أن سجدت الملائكة المدة المقررة .

فلما رفعوا رؤوسهم ورأوه لم يسجد ، وهم قد وقفوا للسجود ، سجدوا ثانيًا شكرًا ، وهو قائم يرى معرضًا عنهم غير عازم على الاتباع ، ولا نادم على الامتناع ، فمسخه الله من الصورة البهية ، فنكسه كالخنزير ، وجعل رأسه كرأس البعير ، وصدره كسنام الجمل الكبير ، ووجهه بينهما وجه القردة ، وعينيه مشقوقتين فى طول وجهه ، ومنخريه مفتوحتين ككوز الحجام ، وشفتيه كشفتى الثور ، وأنيابه خارجة كأنياب الخنزير ، وفى لحيته سبع شعرات ، وطرده من الجنة ، بل من السماء ، بل من الأرض إلى الجزائر ، فلا يدخل الأرض إلا خفية ، ولعنه الله إلى يوم الدين ؛ لأنه صار من الكافرين . وانظر ، كان بهى الصورة ، رباعى الأجنحة ، كثير العلم ، كثير العبادة ، طاووس الملائكة وأعظمهم ، سيد الكروبيين ، إلى غير ذلك ، فلم يغن ذلك عنه شيئًا ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى ﴾ [ق : ٣٧] .وفى الأثر : لما مكر بإبليس بكى جبريل وميكائيل ، فقال الله لهما : ما يبكيكما ؟ قالا : ربنا ما أمنا مكرك ، فقال تعالى : هكذا كونا ، لا تأمنا مكرى .

وروى أن إبليس قال : يا رب أخرجتنى من الجنة لأجل آدم ، وأنا لا أقدر عليه إلا بتسليطك، قال : أنت متسلط عليه ، أى على أولاده ـ لعصمة الأنبياء منه ـ قال : زدنى ، قال: لا يولد له ولد إلا ولد لك مثلاه. قال : زدنى . قال : صدورهم مساكن لك تجرى فيها مجرى الدم . قال : زدنى . قال : ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ أى استعن عليهم بأعوانك من

راكب وماش ﴿ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ ﴾ أى بحملهم على كسبها وصرفها فى الحرام ﴿ وَالأَوْلادِ ﴾ أى بالحث على التوصل إليهم بالسبب المحرم ، كالوطء فى الحيض ، والإشراك فيهم بتسميتهم بنحو عبد العزى ، والتضليل بالحمل على الأديان الباطلة ، والحرف الذميمة والأفعال القبيحة ، ﴿ وَعِدْهُمْ ﴾ [الإسراء: ٦٤] أى المواعيد الباطلة كشفاعة الآلهة، والاتكال على كرامة الآباء، وتأخير التوبة بطول الأمل . وهذا عن طريق التهديد ، فاعملوا ما شئتم .

فقال آدم : يا رب قد سلطته علىّ ، فلا أمتنع عنه إلا بك ، قال : لا يولد لك ولد إلا وكلت به من يحفظه من الملائكة . قال زدنى : قال : الحسنة بعشر أمثالها. قال: زدنى ، قال. لا أنزع منهم التوبة ما دامت أرواحهم فى أبدانهم . قال : زدنى ، قال : أغفر لهم ولا أبالى . قال : اكتفيت .

فقال إبليس : يا رب جعلت فى بنى آدم الرسل ، وأنزلت عليهم الكتب ، فما رسلى ؟ قال : الكهان . قال : فما كتبى ؟ قال : الوشم . قال: فما حديثى ؟ قال : الكذب . قال : فما قرآنى ؟ قال : الشعر . قال: فما مؤذنى ؟ قال: المزمار. قال: فما مسجدى؟ قال : الأسواق . قال : فما بيتى؟ قال : الحمام . قال : فما طعامى ؟ قال : الذى لم يذكر عليه اسمى. قال : فما شرابى ؟ قال : السكر . قال : فما مصائدى ؟ قال : النساء .



الباب الثالث عشر .. في

الأمانـــة

قال الله تعالى : ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا﴾ [الأحزاب: ٧٢] أى امتنعن من قبولها ﴿وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ أى خفن من الأمانة أن لا يؤدينها فيلحقهن العقاب ، أو خفن من الخيانة فيها .

ومـعنى الأمـــانة فى هذه الآية : الطاعة والـفرائض التى يتعلـق بأدائها الثواب والعقاب .

قال القرطبى : « الأمانة : تعم جـميع وظائف الدين ــ على الصحيح من الأقوال ــ وهو قول الجمهور » .

واختلف فى تفاصيل بعضها . فقال ابن مسعود : هى فى أمانة الأموال كالودائع وغيرها . وروى عنه : أنها فى كل الفرائض ، وأشدها أمانة المال .

وقال أبو الدرداء : غسل الجنابة أمانة .

وقال ابن عـمر : أول ما خلق اللـه من الإنسان فرجـه ، وقال : هذه أمانة استـودعتكها ، فلا تلبسهـا إلا بحق ، فإن حفظتها حـفظتك ، فالفرج أمانة ، والأذن أمانة ، والعين أمانة ، واللســان أمانة ، والبطن أمانة ، واليد والرجل أمانة ، ولا إيمان لمن لا أمانة له .

قـال الحسن : إن الأمـانة عرضت عـلى السمـوات والأرض والجبـال فاضطـربت وما فيـها ، فـقال الله لهـا : إن أحسنت أجـرتك ، وإن أسأت عذبتك ، فقالت : لا .

قال مجاهد : فلما خلق الله آدم عرضها عليه، وقال له ذلك ، فقال : قـد تحملتـهـا . ولا يخفى أن عـرض هذه الأمـانة على السمـوات والأرض والجبال عرض تخيير ، لا عرض إلزام ، ولو ألزمهن لم يمتنعن من حملها .

وقـال القفـال وغـيـره : العرض فى هذه الآيـة ضرب مـثل . أى أن السـموات والأرض والجبـال على كبـر أجرامـها ، لو كـانت بحيث يـجوز

تكليفهــا، لثقل عليها تقلد الشـرائع ، لما فيها من الثـواب والعقاب ، أى أن التكليف أمر عظيم حقه أن تعجز عنه السموات والأرض والجبال.

وقد كلفـها الإنسان كما قـال تعالى : ﴿ **وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ** ﴾ أى التزم بحقها آدم بعد عرضها عليه في عالم الذر عند خروج ذريته من ظهره ، وأخذ الميثاق عليهم ﴿ **إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً** ﴾ [الأحزاب : ٧٢] أى وهو فى ذلك الحمل ظلوم لنفسه ، جهول بقدر ما دخل فيه ، أو جهول بأمر ربه. وعن ابن عباس قال: عرضت الأمانة على آدم، فقيل: خذها بما فيها، فإن أطعت غفرت لك ، وإن عصيت عذبتك ، وقبلها بما فيها ، فما كان إلا ما بين العصر إلى الليل من ذلك اليوم ، حـتى أكل من الشجرة ، لولا أن تداركه الله برحـمته فتاب عليه وهدى . والأمانة مشتـقة من الإيمان ، فمن حفظ أمانة الله حفظ الله إيمانه، قال ﷺ : « لا إيمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا عهد له » .

وقال الشاعر :

تبا لمـن رضـى الخيـانـة مهيعًا[1] وازور[2] عن صون الأمانـة جانبه
رفض الديانة والمروءة فاغتـدى تترى عليه من الزمـان مصائبه

وقال آخر :

أخلق بمن رضى الخيانة شيـمة أن لا يرى إلا صريـع حوادث
ما زالت الأرزاء ينـزل بؤسهـا أبدًا بغـادر ذمـة أو ناكـث

وقال رسول الله ﷺ : « يطبع المؤمن على كل خـلق ، ليس الخيـانة والكذب ». وقال رسـول الله ﷺ : « لا تزال أمتى بخـير مـا لم تر الأمانة مغنمًا ، والصدقـة مغرمًا » . وقال ﷺ : « أدّ الأمانة إلى من ائـتمنك ولا تخن من خانك » . وفى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « آية المـنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعـد أخلف ، وإذا ائتمن خان »[3] أى إذا ائتمنه أحد بكلمة خانه بإفشائها للناس ، أو بوديعة

(١) أصل المهيع من الطرق البين والمراد ذم من يتخذ الخيانة طريقا .
(٢) أزور : أي مال .
(٣) وقد روى البـخاري هذا الحديث بسند ومتن آخر « آية المنافق ثـلاث : إذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر » .

خانه بإنكارها وعدم حفظهـا ، أو استعمالها بغير إذنه ، فـحفظ الأمانة صفة الملائكة المقربين والأنبياء والمرسلين وشيمة الأبرار المتقين .

قال الله سبـحانه وتعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا** ﴾ [النساء : ٥٨] قال المفسرون : هذه الآية مشتملة على كثير من أمهات الشرع . والمخاطب بها عمـوم المكلفين، الولاة وغيرهم ، فيجب على الولاة إنصاف المظلوم وإظهـار حقه ، وذلك أمانـة وحفظ أموال المسلمين لا سيـما اليتامى . ويجب علـى العلماء تعليم العوام أحكام دينهم ، فهى أمـانة اختار لحفظها العلماء ، ويجب على الوالد رعاية ولده بحسن التأديب ، إذ هو أمانة عنده ، قال ﷺ : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » .

وفى « **زهر الـرياض** » : يؤتى بالعبـد يوم القيامة فـيوقف بين يدى الله تعالى ، فيقول الله تعالى : أرَدَدْتَ أمانة فـلان ؟ فيقول : لا يا رب . فيأمر الله تعالى ملكًا فيأخذ بيده وينطلق به إلى جهنم ، ويريه الأمانة بعينه فى قعر جهنم ، فيهوى فيها سبعين عامًا حتى ينتهى إلى قعرها ، ثم يصعد بالأمانة، فإذا بلغ أعلى جهنم زلت قدمه ، فيهوى فيها كذلك ، ثم يصعد ثم يهبط ، وهكذا حـتى يدركه لطف ربه بشـفاعـة المصطفى ﷺ فيـرضى عنه صاحب الأمانة .

وروى عن سلمة قال : بينما نحن جلوس عند النبى ﷺ إذ أتى بجنازة ليصلى عليهـا ، فقال : «هل عليه دين ؟» قالوا : لا . فـصلى عليها ، ثم أتى بجنازة أخرى ، فـقال : «هل عليه دين ؟» قالوا : نعم . قـال : «فهل ترك شيئًا ؟» فقالوا : ثلاث دنانير . فصلـى عليها . ثم أتى بثالثة . فقال : «هل عليه دين ؟» قـالوا نعم . فقال ﷺ : «هل ترك شيـئًا ؟» قالوا : لا ، قال : « صـلوا على صاحـبكم » . وعن قتـادة رضى الله عنه قـال : قال رجل: يا رسول الله أرأيت إن قتلت فى سبيل الله صابرًا محـتسبًا مقبلاً غير مدبر يكفر الله خطاياى ؟ قال : « نـعم » ، فلما أدبر الرجل ناداه ، فقال : « يغفر الله للشهيد كل ذنب إلا الدَّين » .

الباب الرابع عشر .. في

إتمام الصلاة بالخضوع والخشوع

قال الله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾[المؤمنون: ١، ٢] اعلم أن الخشوع، منهم من جعله من أفعال القلوب كالخوف والرهبة، ومنهم من جعله من أفعال الجوارح كالسكون وترك الالتفات والعبث. وقد اختلفوا فى الخشوع هل هو من فرائض الصلاة، أو من فضائلها؟ على قولين . واستدل من قال بالأول بحديث : « ليس للعبد من صلاته إلا ما عقل » ، وبقوله تعالى : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي ﴾ [طه : ١٤] ، والغفلة تضاد الذكر ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٥] .

أخرج البيهقى عن محمد بن سيرين قال: نبئت أن رسول الله ﷺ كان إذا دعا رفع بصره إلى السماء فنزلت الآية. وزاد عبد الرزاق عنه: فأمره بالخشوع، فرمى ببصره نحو مسجده. وأخرج الحاكم والبيهقى عن أبى هريرة : كان ﷺ إذا صلّى رفع بصره إلى السماء . فنزلت هذه الآية . فطأطأ رأسه .

وروى عن الحسن أن النبى ﷺ قال : « مثل الصلوات الخمس كمثل نهر جار على باب أحدكم ، كثير الماء ، يغتسل فيه كل يوم خمس مرات ، فهل يبقى عليه من الدرن شىء ؟» يعنى: أن الصلوات تطهر من الذنوب ولا تبقى منها شيئًا فيما دون الكبائر . وهذا إذا صلى بخشوع وحضور قلب ، وإلا فهى مردودة عليه ، وقال ﷺ : « من صلى ركعتين لم يحدث نفسه فيهما بشىء من الدنيا ، غفر الله له ما تقدم من ذنبه » . وقال ﷺ : « إنما فرضت الصلاة وأمر بالحج والطواف وأشعرت المناسك ، لإقامة ذكر الله تعالى » ، فإذا لم يكن فى قلبك للمذكور الذى هو المقصود والمبتغى عظمة ولا هيبة ، فما قيمة ذكرك ؟ . وقال ﷺ : « من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر ، لم يزدد من الله إلا بعدًا » . وقال بكر بن عبد الله : يا ابن آدم إذا شئت أن تدخل على مولاك بغير إذن وتكلمه بلا ترجمان دخلت. قيل: وكيف ذلك ؟ قال : تسبغ وضوءك ، وتدخل محرابك ، فإذا

أنت قد دخلت على مولاك فتكلمه بغير ترجمان . وعن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ يحدثنا ونحدثه . فإذا حضرت الصلاة فكأنه لم يعرفنا ولم نعرفه ؛ اشتغالاً بعظمة الله عزّ وجلّ .

وقال ﷺ: «لاينظر الله إلى صلاة لا يحضر الرجل فيها قلبه مع بدنه».

وكان إبراهيم الخليل إذا قام إلى الصلاة يسمع وجيب قلبه عن ميلين . وكان سعيد التنوخى إذا صلى لم تنقطع الدموع عن خديه على لحيته، ورأى رسول الله ﷺ رجلاً يعبث بلحيته فى الصلاة ؟ فقال : « لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه » .

وروى أن عليًا كرم الله وجهه كان إذا حضرت الصلاة يتزلزل ويتلون وجهه، فيقال له: ما لك يا أمير المؤمنين؟ فيقول: جاء وقت أمانة عرضها الله على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملتها . ويروى عن على بن الحسين أنه إذا توضأ اصفر لونه. فيقول له أهله : ما هذا الذى يعتريك عند الوضوء ؟ فيقول : أتدرون بين يدى من أريد أن أقوم ؟

وروى عن حاتم الأصم أنه سئل عن صلاته ، فقال : إذا حانت الصلاة أسبغت الوضوء، ثم أقوم إلى الصلاة ، وأجعل الكعبة بين حاجبى ، والصراط تحت قدمى، والجنة عن يمينى ، والنار عن شمالى ، وملك الموت ورائى ، وأظنها آخر صلاتى ، ثم أقوم بين الرجاء والخوف ، وأكبر تكبيرًا بتحقيق ، وأقرأ قراءة بترتيل ، وأركع ركوعًا بتواضع ، وأسجد سجودًا بتخشع ، وأقعد على الورك الأيسر ، وأفرش ظهر قدمها وأنصب القدم اليمنى على الإبهام ، وأتبعها بالإخلاص ، ثم لا أدرى قبلت منى أم لا ؟

وقال ابن عباس رضى الله عنهما : ركعتان مقتصدتان فى تفكر ، خير من قيام ليلة والقلب ساه . وقال ﷺ : « يأتى فى آخر الزمان ناس من أمتى يأتون المساجد فيقعدون فيها حلقًا؟ ذكرهم الدنيا وحب الدنيا ، لا تجالسوهم ؛ فليس لله بهم حاجة » . وعن الحسن : أن النبى ﷺ قال : «ألا أخبركم بأسوأ الناس سرقة؟» ، قالوا : من هو يا رسول الله ؟ قال : « الذى يسرق من صلاته»، قالوا : وكيف يسرق من صلاته ؟ قال : « لا يتم ركوعها ولا سجودها » . وقال ﷺ : « أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة ،

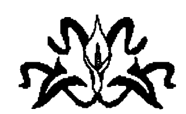
فإن كان قد أتمها هون الله عليه الحساب وإن كان قد انتقص منها شيئًا ، قال تعالى لملائكته : هل لعبدى من تطوع ، فأتموا الفريضة منه ؟ ».

وقال ﷺ : « ما أعطى عبد عطاء خيرًا من أن يؤذن له فى ركعتين يصليهما » .

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه إذا أراد القيام إلى الصلاة ترتعد فرائصه ، وتصطك أسنانه ، فقيل له فى ذلك ، قال : حان وقت أداء الأمانة وقضاء الفريضة ، ولا أدرى كيف أؤديها ؟

وحكى عن خلف بن أيوب أنه كان قائمًا فى الصلاة ، فلدغه زنبور ، فسال منه الدم ، وهو لا يشعر ، حتى خرج ابن سعيد ، فأعلمه بذلك . فغسل ثوبه ، فقيل له : يلدغك زنبور يسيل منك الدم ولم تشعر به ؟ فقال: أيشعر بمثل هذا من يكون واقفًا بين يدى الملك الجبار ، وملك الموت على قفاه، والنار عن شماله ، والصراط المستقيم تحت قدميه ؟ .

ووقعت الأكلة فى يد عمرو بن ذر وكان جليلاً فى الزهد والعبادة ، فقال له الأطباء : لا بدّ من قطع هذه اليد ، فقال : اقطعوها ، فقالوا : لا نقدر على قطعها إلا أن نشدك بالحبال ، فقال : لا ، ولكن إذا شرعت فى الصلاة فاقطعوها حينئذ . فلما دخل فى الصلاة ، قطعت ولم يشعر بذلك .



الباب الخامس عشر .. في

الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من صلى علىّ مرة ، خلق الله تعالى من نفس المصلى غمامة بيضاء ، ثم يأمرها الله تعالى أن تأخذ من بحر الرحمة ، فتأخذ ، ثم يأمرها الله أن تمطر ، فإذا أمطرت فأى قطرة قطرت على الأرض يخلق الله الذهب منها ، وأى قطرة قطرت على الجبال يخلق الله تعالى منها الفضة ، وأى قطرة قطرت على كافر، رزقه الله تعالى الإيمان » ، قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ** ﴾ [آل عمران: ١١٠] قال الكلبى : هذه الآية على قولين ، واستدل من قال بالأول بحديث : «ليس للعبد من صلاته إلا ما عقل » .

وبقوله : تتضمن بيان حال هذه الأمة فى الفضل على غيرها من الأمم، وفيها دليل على أن هذه الأمة الإسلامية خير الأمم على الإطلاق ، وأن هذه الخيرية مشتركة بين أول هذه الأمة وآخرها ، بالنسبة إلى غيرها من الأمم . وإن كانت متفاضلة فى ذاتها ، كما ورد فى فضل الصحابة على غيرهم . ويعنى ﴿ **أُخْرِجَتْ** ﴾ أظهرت للناس أى لنفعهم ومصالحهم فى جميع الأعصار حتى تميزت وعرفت ، وقوله تعالى : ﴿ **تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ** ﴾ [آل عمران : ١١٠] كلام مستأنف يتضمن بيان كونهم خير أمة ، مع ما يشتمل عليه من أنهم خير أمة ، ما أقاموا على ذلك واتصفوا به ، فإذا تركوا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر زال عنهم . فجعلهم الله خير الناس للناس ؛ لأنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويقاتلون الكفار ليسلموا ، فترجع منفعتهم على غيرهم . كما قال ﷺ : « خير الناس من ينفع الناس ، وشر الناس من يضر الناس » .

﴿ **وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ** ﴾ أى تصدقون بتوحيد الله ، وتثبتون على ذلك، وتقرون أن محمدًا نبى الله ؛ لأن من كفر بمحمد ﷺ لم يؤمن بالله ؛ لأنه يزعم أن الآيات المعجزات التى أتى بها من عند نفسه ، وقال ﷺ : « من

رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان » يعنى أضعف فعل أهل الإيمان .

قال بعضهم : التغيير باليد للأمراء ، وباللسان للعلماء ، وبالقلب للعوام. وقال بعضهم : كل من يقدر على ذلك ، فالواجب عليه أن يغيره ، كما قال الله تعالى : ﴿ **وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ** ﴾ [المائدة : ٢] الآية . ومن التعاون : الحث عليه وتسهيل طرق الخير إليه وسد سبيل الشرور والعدوان ، بحسب الإمكان .

وقال ﷺ فى حديث آخر : « من انتهر صاحب بدعة ملأ الله قلبه أمنًا وإيمانًا، ومن أهان صاحب بدعة آمنه الله يوم الفزع الأكبر، ومن أمر بالمعروف ونهى عن المنكر فهو خليفة الله فى الأرض، وخليفة كتابه وخليفة رسوله » .

وعن حذيفة رضى الله عنه قال : يأتى زمان على الناس لأن تكون فيهم جيفة حمار ، أحب إليهم من مؤمن يأمرهم وينهاهم .

وقال موسى : يا رب ما جزاء من دعى أخاه وأمره بالمعروف ونهاه عن المنكر ؟ قال : أكتب له بكل كلمة عبادة سنة وأستحى أن أعذبه بنارى .

وفى الحديث القدسى يقول الله تعالى : « يا ابن آدم لا تكن ممن يؤخر التوبة ويطول الأمل ، ويرجع إلى الآخرة بغير عمل ، ويقول قول العابدين ، ويعمل عمل المنافقين، إن أعطى لم يقنع، وإن منع لم يصبر، يحب الصالحين وليس منهم ، ويبغض المنافقين وهو منهم ، يأمر بالخير ولا يفعله، وينهى عن قول الشر ولم ينته » .

وعن علىّ كرّم الله وجهه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول: «سيأتى قوم فى آخر الزمان أحداث الأسنان ، نواقص العقل ، يقولون من قول خير البرية، لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية» .

وقال رسول الله ﷺ : « رأيت ليلة أُسرى بى إلى السماء رجالاً تقرض شفاههم بمقاريض من النار ، قلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء خطباء أمتك الذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم » ، كما قال الله تعالى فى حقهم : ﴿ **أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ**

أفلا تعقلون ﴾ [البقرة : ٤٤] يعنى : تتلون كتاب الله لا تعملون بما فيه . فكانوا يأمرون بالصدقة ولا يتصدقون، فيجب على المؤمنين أن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر ولا ينسون أنفسهم . كما قال الله تعالى : ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ﴾[التوبة:٧١] الآية. فقد نعت المؤمنين بأنهم يأمرون بالمعروف، فالذى حجر الأمر بالمعروف خارج على هؤلاء المنعوتين فى هذه الآية ، وقد ذم الله أقوامًا بترك الأمر بالمعروف فقال: ﴿كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ يعنى لا ينهى بعضهم بعضًا ﴿ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [المائدة : ٧٩] .

روى عن أبى الدرداء رضى الله عنه أنه قال : لتأمرن بالمعروف وتنهون عن المنكر ، أو ليسلطن الله عليكم سلطانًا ظالما ، لا يجل كبيركم ولا يرحم صغيركم ، ويدعو أخياركم فلا يستجاب لهم ، ويستنصرون فلا ينصرون ، ويستغفرون فلا يغفر لهم . وعن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : «عذّب الله أهل قرية فيها ثمانية عشر ألفًا عملهم عمل الأنبياء»، قالوا : يا رسول الله كيف ؟ قال : « لم يكونوا يغضبون لله ولا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر » .

وقال أبو ذر الغفارى : قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : يا رسول الله ، هل من جهاد غير قتال المشركين ؟ فقال رسول الله ﷺ : « نعم يا أبا بكر ، إن لله تعالى مجاهدين فى الأرض أفضل من الشهداء ، أحياء مرزوقين ، يمشون على الأرض ، يباهى الله بهم ملائكة السماء ، وتزين لهم الجنة كما تزينت أم سلمة لرسول الله » ، فقال أبو بكر رضى الله عنه : يا رسول الله ومن هم ؟ قال : « الآمرون بالمعروف ، والناهون عن المنكر ، والمحبون لله ، والمبغضون فى الله » ، قال : « والذى نفسى بيده إن العبد ليكون فى الغرفة فوق الغرفات فوق غرف الشهداء ، لكل غرفة منها ثلثمائة باب ، منها الياقوت والزمرد الأخضر ، على كل باب نور ، والرجل منهم ليتزوج بثلثمائة ألف حوراء قاصرات الطرف عين ، كلما التفت إلى واحدة منهن ، فنظر إليها ، تقول له : أتذكر يوم كذا وكذا ، أمرت فيه بالمعروف

ونهيت عن المنكر ؟ وكلما التفت إلى واحدة منهن ذكرت له مقامًا أمر فيه بالمعروف ونهى عن المنكر » .

وفي الخبر : « أن الله تعالى قال : يا موسى هل عملت لى عملاً قط؟ قال : إلهى صليت لك ، وصمت لك، وتصدقت لأجلك ، وسجدت لك، وحمدت لك ، وقرأت كتابك ، وذكرتك ، قال الله تعالى : يا موسى ، أما الصلاة فلك برهان ، وأما الصوم فلك جنة ، وأما الصدقة فلك ظل ، وأما التسبيح فلك أشجار فى الجنة،وأما قراءة كتابى فلك حور وقصور،وأما الذكر فلك نور ، فأى عمل عملت لى ؟ قال موسى : دلنى يا رب على عمل أعمله لك ؟ قال : يا موسى هل واليت لى وليا قط ؟ هل عاديت لى عدوا قط ؟ فعلم موسى أن أفضل الأعمال : الحب لله والبغض لله ولأعدائه .

وقال أبو عبيدة بن الجراح رضى الله عنه قلت : يا رسول الله أى الشهداء أكرم على الله عز وجل ؟ قال : « رجل قام إلى والٍ جائر ، فأمره بالمعروف ونهاه عن المنكر ، فقتله ، فإن لم يقتله فإن القلم لا يجرى عليه بعد ذلك ، وإن عاش ما عاش » .

وقال الحسن البصرى رحمه الله : قال رسول الله ﷺ : « أفضل شهداء أمتى رجل قام إلى إمام جائر ، فأمره بالمعروف ونهاه عن المنكر ، فقتله على ذلك ، فذلك الشهيد ، منزلته فى الجنة بين حمزة وجعفر » .

وأوحى الله إلى يوشع بن نون عليه السلام : إنى مهلك من قومك أربعين ألفًا من خيارهم ، وستين ألفًا من شرارهم ، فقال : هؤلاء الأشرار فما بال الأخيار؟ قال : إنهم لم يغضبوا لغضبى وآكلوهم وشاربوهم . وعن أنس رضى الله عنه قال : قلنا : يا رسول الله لا نأمر بالمعروف حتى نعمل به كله، ولا ننهى عن المنكر حتى نجتنبه كله؟ فقال ﷺ: «بل مروا بالمعروف، وإن لم تعملوا به كله ، وانهوا عن المنكر ، وإن لم تجتنبوه كله » .

وأوصى بعض السلف بنيه فقال : إذا أراد أحدكم أن يأمر بالمعروف ، فليوطن نفسه على الصبر ، وليثق بالثواب من الله ، ومن وثق بالثواب من الله لم يجد مس الأذى .

الباب السادس عشر .. في

عداوة الشيطان

يجب على المؤمن أن يحب العلماء والصلحاء ، ويلازم مجالستهم ، ويسأل ما لا بد له ، ويتعظ بنصحهم ، ويجتنب الأعمال القبيحة ، ويتخذ الشيطان عدوا . كما قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ [فاطر : ٦] أى فعادوه بطاعة الله تعالى ، ولا تطيعوه فى معاصى الله تعالى ، وكونوا على حذر منه فى جميع أحوالكم وأفعالكم وعقائدكم من صميم قلوبكم ، وإذا فعلتم فعلاً فتفطنوا له ، فإنه ربما يدخل عليكم فيه الرياء ويزين لكم القبائح واستعينوا عليه بربكم .

قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : خط لنا رسول الله ﷺ خطا، وقال : « هذه سبيل الله » ، ثم خط خطوطًا عن يمين الخط وعن شماله ، ثم قال : « هذه سبل ، على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه » ، ثم تلا : ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام : ١٥٣] فبين لنا ﷺ كثرة طرق الشيطان .

وروى عن النبى ﷺ أنه قال : « كان راهب فى بنى إسرائيل فعمد الشيطان إلى جارية ، فخنقها وألقى فى قلوب أهلها : أن دواءها عند الراهب، فأتوا بها إليه ، فأبى أن يقبلها ، فلم يزالوا به حتى قبلها . فلما كانت عنده ليعالجها ، أتاه الشيطان فزين له مقاربتها ، ولم يزل به حتى واقعها ، فحملت منه ، فوسوس إليه ، وقال : الآن يأتيك أهلها وتفتضح ، فاقتلها ، فإن سألوك ، فقل : ماتت . فقتلها ودفنها ، فأتى الشيطان أهلها، فوسوس إليهم وألقى فى قلوبهم: أنه أحبلها ثم قتلها ودفنها . فأتاه أهلها فسألوه عنها . فقال : ماتت . فأخذوه ليقتلوه بها . فأتاه الشيطان فقال : أنا الذى خنقتها ، وأنا الذى ألقيت فى قلوب أهلها ، فأطعنى تنج وأُخلصك منهم ، قال : بماذا ؟ قال : اسجد لى سجدتين ، ففعل ، فقال له الشيطان: إنى برىء منك فهو الذى قال الله تعالى فيه : ﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ

للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك ﴾ [الحشر : ١٦] » .

وروى أن إبليس سأل الإمام الشافعى رضى الله عنه : ما قولك فيمن خلقنى كما اختار، واستعملنى فيما أختار ، وبعد ذلك إن شاء أدخلنى الجنة وإن شاء أدخلنى النار ؟ أَعَدَلَ فى ذلك أم جَار ؟ فنظر فى كلامه ، ثم قال : يا هذا إن كان خلقك لما تريد أنت فقد ظلمك، وإن كان خلقك لما يريده هو ، فلا يسأل عما يفعل ، فاضمحل إلى أن صار لا شىء ، ثم قال : والله يا شافعى لقد أخرجت بمسألتى هذه سبعين ألف عابد من ديوان العبودية .

واعلم أن مثال القلب : مثال حصن ، والشيطان عدو ، يريد أن يدخل الحصن ، فيملكه ويستولى عليه ، ولا يقدر على حفظ الحصن من العدو إلا بحراسة أبواب الحصن ومداخله ومواضع ثلمه[1]، ولا يقدر على حراسة أبوابه من لا يدريها، فحماية القلب عن وسواس الشيطان واجب، وهو فرض عين على كل مكلف ، وما لا يتوصل إلى الواجب إلا به فهو أيضًا واجب[2]، ولا يتوصل إلى دفع الشيطان إلا بمعرفة مداخله، فصارت معرفة مداخله واجبة .

ومداخله وأبوابه : صفات العبد وهى كثيرة :

منها : الغضب والشهوة ، فإن الغضب غول العقل ، وإذا ضعف العقل هجم جند الشيطان ، وكلما غضب الإنسان لعب الشيطان به ، كما يلعب الصبى بالكرة . وقد ذكر أن بعض الأولياء قال لإبليس : أرنى كيف تغلب ابن آدم ؟ فقال : آخذه عند الغضب وعند الهوى .

ومنها : الحسد والحرص فمهما كان العبد حريصًا على كل شىء ، أعماه حرصه وأصمه ، فحينئذ يجد الشيطان فرصة ، فيحسن عند الحريص كل ما يوصله إلى شهوته ، وإن كان منكرًا أو فاحشًا .

وقد روى أن نوحًا عليه السلام لما ركب السفينة وحمل فيها من كل زوجين اثنين ، كما أمره الله تعالى رأى فى السفينة شيخا لم يعرفه ، فقال له نوح : ما أدخلك ؟ فقال : دخلت لأصيب قلوب أصحابك ، فتكون قلوبهم معى ، وأبدانهم معك ، فقال له نوح : اخرج منها يا عدو الله فإنك لعين ، فقال له إبليس : خمس أهلك بهن الناس وسأحدثك منهن بثلاث ، ولا

(١) أي مواضع الضعف . (٢) وهي قاعدة شرعية جليلة .

أحدثك باثنتين ، فأوحى الله إلى نوح : إنه لا حاجة لك بالثلاث ، فليحدثك بالاثنتين ، فقال له نوح : ما الاثنتان ؟ فقال : هما اللتان لا تكذباني ، هما اللتان لا تخلفاني ، بهما أهلك الناس ، الحرص والحسد ، فبالحسد لعنت وجعلت رجيمًا ، وأما الحرص فإنه أبيح لآدم الجنة كلها إلا الشجرة فأصبت حاجتي منه بالحرص .

ومنها : الشبع من الطعام ، وإن كان حلالاً صافيًا ؛ فإن الشبع يقوى الشهوات ، وهى أسلحة الشيطان ، فقد روى أن إبليس ظهر ليحيى عليه السلام ، فرأى عليه معاليق من كل شىء ، فقال له يا إبليس : ما هذه المعاليق ؟ قال : هذه الشهوات التى أصبت بها ابن آدم ، فقال: فهل لى فيها من شىء ؟ قال : ربما شبعت فشغلناك عن الصلاة وعن الذكر ، قال : فهل غير ذلك ؟ قال : لا . قال : ولله علىَّ أن لا أملأ بطنى من الطعام أبدًا . فقال له إبليس : ولله علىَّ أن لا أنصح مسلمًا أبدًا .

ومنها : حب التزيين من الأثاث والثياب والدار ؛ فإن الشيطان إذا رأى ذلك غالبًا على قلب الإنسان باض فيه وفرخ ، فلا يزال يدعوه إلى عمارة الدار وتزيين سقوفها وحيطانها ، وتوسيع أبنيتها ويدعوه إلى التزين بالثياب والدواب ، ويستسخره فيها طول عمره ، فإذا أوقعه فى ذلك فقد استغنى أن يعود إليه ثانية . فإن بعض ذلك يجره إلى البعض ، إلى أن يساق إلى أجله، فيموت وهو فى سبيل الشيطان واتباع الهوى ، ويخشى من ذلك سوء العاقبة. نعوذ بالله .

ومنها : الطمع فى الناس ، فقد روى صفوان بن سليم : أن إبليس تمثل لعبد الله بن حنظلة ، قال له : يا ابن حنظلة احفظ عنى شيئًا أعلمك به، فقال : لا حاجة لى به ، قال : انظر فإن كان خيرًا أخذت ، وإن كان شرًا رددت ، فقال : يا ابن حنظلة لا تسأل أحدًا غير الله سؤال رغبة ، وانظر كيف تكون إذا غضبت ، فإنى أملكك إذا غضبت .

ومنها : العجلة وترك التثبت فى الأمور ، قال ﷺ : « العجلة من الشيطان ، والتأنى من الله تعالى » ، فعند الاستعجال يروج الشيطان شره على الإنسان من حيث لا يدرى ، فقد روى أنه لما ولد عيسى ابن مريم عليه

السلام أتت الشياطين إبليس فقالوا له : أصبحت الأصنام قد نكست رؤوسها، فقال : هذا حادث قد حدث ، مكانكم ، فطار حتى أتى خافقى الأرض، فلم يجد شيئًا ، ووجد عيسى عليه السلام قد ولد ، وإذا بالملائكة حافين به ، فرجع إليهم ، فقال : إن نبيا ولد البارحة ما حملت أنثى قط ولا وضعت إلا وأنا حاضرها إلا هذا . فيئسوا من أن تعبد الأصنام بعد هذه الليلة ، ولكن ائتوا بنى آدم من قبل العجلة والخفة .

ومنها : الدراهم والدنانير وسائر أصناف الأموال والعروض والدواب والعقار ، فإن كل ما يزيد على قدر القوت والحاجة فهو مستقر الشيطان .

وقال ثابت البنانى : لما بعث رسول الله ﷺ قال إبليس لشياطينه : لقد حدث أمر فانظروا ما هو ؟ فانطلقوا حتى أعيوا . ثم جاءوه . وقالوا : ما ندرى ؟ قال : أنا آتيكم بالخبر ، فذهب ثم جاء وقال قد بعث الله محمدًا ﷺ قال : فجعل يرسل شياطينه إلى أصحاب النبى ﷺ فينصرفون خائبين، ويقولون : ما صحبنا يومًا قط مثل هؤلاء ، نصيب منهم ، ثم يقومون إلى صلاتهم فيمحق ذلك ، فقال لهم إبليس : رويدًا بهم عسى الله أن يفتح لهم الدنيا ، فنصيب منهم حاجتنا . وروى أن عيسى عليه السلام توسد يومًا حجرًا ، فمر به إبليس فقال : يا عيسى ، أرغبت فى الدنيا ؟ فأخذه عيسى ـ عليه السلام ـ فرمى به من تحت رأسه . وقال : هذا لك مع الدنيا .

ومنها : البخل وخوف الفقر ، فإن ذلك هو الذى يمنع من الإنفاق والتصدق ويدعو إلى الادخار والكنز والعذاب الأليم ، ومن آفات البخل : الحرص على ملازمة الأسواق لجمع المال ، وهى معشش الشياطين .

ومنها : التعصب للمذاهب والأهواء ، والحقد على الخصوم ، والنظر لهم بعين الاحتقار، وذلك مما يهلك العباد والفساق جميعًا . قال الحسن رضى الله عنه : بلغنا أن إبليس قال : سولت لأمة محمد ﷺ المعاصى ، فقصموا ظهرى بالاستغفار ، فسولت لهم ذنوبًا لا يستغفرون الله منها ، وهى الأهواء ، وقد صدق الملعون ؛ فإنهم لا يعلمون أن ذلك من الأسباب التى تجر إلى المعاصى ، فكيف يستغفرون منها .

ومنها : سوء الظن بالمسلمين، فيجب الاحتراز عنه وعن تهمة الأشرار،

فمهما رأيت إنسانًا يسيء الظن بالناس طلبًا للعيوب ، فاعلم أنه خبيث باطنًا وأن ذلك خبثه يترشح منه ، فيجب على الإنسان قطع هذه الأبواب من القلب ، ويعينه عليها ذكر الله تعالى .

وقال ابن إسحاق : لما رأى كفار قريش هجرة الصحابة وعرفوا أنه صار له ﷺ أصحاب من غيرهم ، حذروا خروجه ، وعرفوا أنه أجمع لحربهم ، فاجتمعوا فى دار الندوة وهى دار قصى بن كلاب ــ وسميت بذلك لاجتماع الندى فيها ــ يتشاورون ، وكانت قريش لا تقضى أمرًا إلا فيها ولا يدخلون فيها غير قرشى ، إلى أن يبلغ أربعين سنة ، بخلاف القرشى ، وقد أدخلوا أبا جهل واجتمعوا يوم السبت ، ولذا ورد « يوم السبت مكر وخديعة » ومعهم إبليس فى صورة شيخ نجدى . وذلك أنه وقف على باب الدار فى هيئة شيخ جليل ، عليه بت ــ قيل كساء غليظ أو طيلسان من خز ــ فقالوا : من الشيخ ؟ فقال من نجد ، سمع بالذى قعدتم له ، فحضر ليسمع ما تقولون ، وعسى أن لا يعدمكم رأيا ونصحًا . قالوا : ادخل فدخل ، فتشاوروا فى أمر النبى ﷺ وكانوا مائة رجل . وقيل كانوا خمسة عشر رجلاً، فقال: أبو البخترى - المقتول كافرًا ببدر - : احبسوه فى الحديد ، وأغلقوا عليه بابًا ، ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء قبله . فقال النجدى : ما هذا برأى ، والله لو حبستموه فى الحديد ليخرجن أمره من وراء الباب الذى أغلقتم دونه إلى أصحابه ، فلأوشكوا أن يثبوا عليكم فينتزعوه من أيديكم ، ثم يكابروكم به ، حتى يغلبوكم على أمركم . ما هذا برأى . فانظروا فى غيره ، فقال أبو الأسود ربيعة بن عمرو العامرى: نخرجه من بين أظهرنا فننفيه من بلادنا فلا نبالى إلى أين ذهب. فقال النجدى - لعنه الله -: ما هذا برأى. ألم تروا حسن حديثه وحلاوة منطقه وغلبته على قلوب الرجال بما يأتى، والله لو فعلتم ذلك ما أمنت أن يحل على حى من العرب، فيغلب بذلك عليهم من قوله ، حتى يتابعوه عليكم ، ثم يسير بهم إليكم فيأخذ أمركم من أيديكم ، ثم يفعل بكم ما أراد ، أديروا فيه رأيًا غير هذا .

فقال أبو جهل : والله إن لى فيه رأيًا ما أراكم وقعتم عليه ، أرى أن تأخذوا من كل قبيلة فتى شابا جلدًا نسيبًا وسيطًا ، ثم يعطى كل فتى منهم

سيفًا صارمًا ، ثم يعمدوا إليه ، فيضربوه ضربة رجل واحد ، فيقتلوه فنستريح منه ، ويتفرق دمه فى القبائل ، فلا تقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعًا ، فنعقله لهم . فقال النجدى ـ لعنه الله ـ : القول ما قال . لا أرى غيره . فأجمع رأيهم على قتله ﷺ وتفرقوا على ذلك ، ثم أتى جبريل النبى ﷺ فقال : لا تبت هذه الليلة على فراشك الذى كنت تبيت عليه ، فلما كان الليل اجتمعوا على بابه يرصدونه حتى ينام ، فيثبوا عليه فأمر ﷺ عليًا فنام مكانه وغُطِّىَ ببرد له ﷺ أخضر ، كان يشهد به الجمعة والعيدين بعد ذلك عند فعلهما ، فكان أول من شرى نفسه فى الله ووقى بها رسول الله ﷺ . وفى ذلك يقول علىّ رضى الله عنه :

وقيت بنفسى خير من وطئ الثرى ومن طاف بالبيت العتيق وبالحجر
رسول إله خاف أن يمكروا به فنجاه ذو الطول الإله من المكر
وبات رسول الله فى الغار آمنا موقى وفى حفظ الإله وفى ستر
وبت أراعيهم وما يتهموننى وقد وطنت نفسى على القتل والأسر

ثم خرج ﷺ من الباب عليهم ، وقد أخذ الله على أبصارهم ، فلم يَرَه أحد منهم ونثر على رؤوسهم كلهم ترابًا كان فى يده ، وهو يتلو قوله تعالى : ﴿ **يسٓ** ﴾ [يس: ١] إلى قوله : ﴿ **فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ** ﴾ [يس:٩] وانصرف حيث أراد. فأتاهم آت ممن لم يكن معهم فقال : ما تنتظرون ههنا ؟ قالوا : محمدا ، قال : خيبكم الله ، والله خرج عليكم ، ما ترك منكم رجلاً إلا وضع على رأسه ترابًا ، وانطلق لحاجته ، فما ترون ما بكم ؟ فوضع كل يده على رأسه ، فإذا عليه تراب ، ثم جعلوا يتطلعون فيرون عليًا على الفراش متسجيا ببرد رسول الله ﷺ فيقولون: والله أن هذا لمحمد نائم، عليه برده ، فلم يزالوا كذلك حتى أصبحوا ، فقام « علىّ » من الفراش .

فقالوا : لقد صدقنا الذى حدثنا . وفى هذا نزل قوله تعالى : ﴿ **وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ** ﴾ [الأنفال : ٣٠] الآية .

لا تجزعن فبعد العسر تيسير وكل شىء له وقت وتقدير
وللمقدر فى أحوالنا نظرٌ وفوق تدبيرنا لله تدبير

ثم أذن الله تعالى لنبيه ﷺ فى الهجرة . فقال ابن عباس بقوله تعالى:

﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٠] ، وأمره جبريل أن يستصحب أبا بكر رضى الله عنه .

وروى الحاكم عن عليّ رضى الله عنه : أن النبى ﷺ سأل جبريل : «من يهاجر معى ؟ » قال: أبو بكر الصديق ، وأخبر ﷺ عليا بمخرجه ، وأمره أن يتخلف بعده ، حتى يؤدى عنه الودائع التى كانت عنده للناس .

قالت عائشة رضى الله عنها : فبينما نحن جلوس يومًا فى بيت أبى بكر فى نحر الظهيرة، أى أول الزوال، وهو أشد ما يكون من حرارة النهار .

وروى الطبرانى فى حديث أسماء : كان النبى ﷺ يأتينا بمكة كل يوم مرتين ، بكرة وعشية ، فلما كان يوم من ذلك ، جاءنا فى الظهيرة ، فقلت: أبت ، هذا رسول الله ﷺ مقنعًا ــ أى مغطيًا رأسه ــ فى ساعة لم يكن يأتينا فيها ، قال أبو بكر رضى الله عنه : فدى له أبى وأمى ، والله ما جاء به فى هذه الساعة إلا أمر . قالت عائشة رضى الله عنها : فجاء رسول الله ﷺ فاستأذن ، فأذن له أبو بكر ، فدخل فتنحى أبو بكر عن سريره وجلس عليه رسول الله ﷺ فقال لأبى بكر : « أخرج من عندك » ، فقال أبو بكر : إنما هم أهلك ــ يعنى عائشة وأسماء ــ وفى رواية : فقال أبو بكر : لا عين عليك ، إنما هم ابنتاى، فقال ﷺ : « فإنه قد أذن لى فى الخروج » ، فقال أبو بكر : الصحبة بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، قال ﷺ : « نعم » . قالت عائشة رضى الله عنها : فرأيت أبا بكر يبكى ، وما كنت أحسب أحدًا يبكى من الفرح ، فقال أبو بكر : فخذ بأبى أنت وأمى يا رسول الله إحدى راحلتى هاتين . قال ﷺ : « لا بل بالثمن» . وفى رواية : فقال : « بثمنها إن شئت » . وإنما أخذها بالثمن لتكون هجرته ﷺ إلى الله تعالى بنفسه وماله رغبة منه عليه السلام فى استكماله فضل الهجرة إلى الله تعالى، قالت عائشة : فجهزناهما أحث ــ أى أسرع الجهاز ــ وفى رواية: أحب الجهاز ، ووضعنا لهما سفرة ــ أى زادا فى جراب ــ .

زاد الواقدى : أنه كان فى السفرة شاة مطبوخة ، قالت : فقطعت

أسماء قطعة من نطاقها . فربطت بها على فم الجراب ، فبذلك سميت ذات النطاقين ــ تثنية نطاق بكسر النون: ما يشد به الوسط ــ قالت عائشة رضى الله عنها : ثم لحق رسول الله ﷺ وأبو بكر بغار ثور ، فمكثا فيه ثلاث ليال ــ وهو جبل بمكة نزل فيه ثور بن عبد مناة ، فنسب له ــ .

وروى أنهما خرجا من خوخة ــ أى باب صغير ــ لأبى بكر فى ظهر بيته ليلاً إلى الغار . وروى : أن أبا جهل لقيهما فأعمى الله بصره عنهما حتى مضيا . قالت أسماء بنت أبى بكر : وخرج أبو بكر بماله خمسة آلاف درهم، ولما فقدت قريش رسول الله ﷺ طلبوه بمكة أعلاها وأسفلها ، وبعثوا القافة ــ جمع قائف وهو الذى يعرف الأثر فى كل وجه ــ فوجد الذى ذهب جهة ثور ، أثره هناك ، فلم يزل يتبعه حتى انقطع الأثر ، ولما انتهى إلى ثور ، شق على قريش خروجه ، وجزعوا لذلك وجعلوا مائة ناقة لمن رده .

وروى القاضى عياض : أنه ﷺ ناداه ثبير : اهبط عنى ؛ فإنى أخاف أن تقتل على ظهرى ، فأعذب ، فناداه حراء : إلىّ يا رسول الله .

وروى أنه لما دخل الغار وأبو بكر معه ، أنبت الله على بابه الراءة ــ وهى شجرة معروفة بأم غيلان ــ فحجبت عن الغار أعين الكفار ، وأن الله عز وجل أمر العنكبوت فنسجت على وجه الغار ، وأرسل حمامتين وحشيتين فوقفتا على وجه الغار ، فعششتا على بابه . وأن ذلك مما صدّ المشركين عنه، وأن حمام الحرم من نسل تلك الحمامتين ﴿ جَزَاءً وِفَاقًا ﴾ [النبأ : ٢٦] ؛ فإنه لما حصلت بهما الحماية، جوزيا بالنسل وحمايته فى الحرم، فلا يتعرض له .

ثم أقبل فتيان قريش من كل بطن بعصيهم وهراويهم وسيوفهم ، فجعل بعضهم ينظر فى الغار ، فرأى حمامتين وحشيتين بفم الغار ، فرجع إلى أصحابه ، فقالوا له : ما لك ؟ فقال : رأيت وحشيتين فعرفت أنه ليس فيه أحد ، فسمع النبى ﷺ ما قال : فعلم أن الله قد درأ عنه.

وقال آخر : ادخلوا الغار ، فقال أمية بن خلف : وما أربكم ــ أى حاجتكم ــ إلى الغار، إن فيه لعنكبوتًا أقدم من ميلاد محمد ، لو دخل لكسر البيض وتفسخ العنكبوت ؟ وهذا أبلغ فى الإعجاز من مقاومة القوم بالجنود ، فتأمل كيف أظلت الشجرة المطلوب وأضلت الطالب ، وجاءت

عنكبوت فسدت باب الطلب ، وحاكت وجه المكان ، فحاكت ثوب نسجها حتى عمى على القائف الطلب ، ولقد حصل لها بذلك الشرف ، ما أحسن قول ابن النقيب :

ودود القزّ أن نسجت حريراً ... ليجعل لبسه فى كل شى
فإن العنكبوت أجل منها ... بما نسجت على رأس النبى

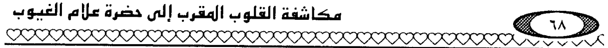
وروى الشيخان عن أنس قال: حدثنى أبو بكر قال : قلت للنبى ﷺ ونحن فى الغار: لو أن أحدهم نظر إلى قدمه لرآنا. فقال له رسول الله ﷺ : «ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟»، وذكر بعض أهل السير: أن أبا بكر لما قال له ﷺ:«لو جاءونا من ههنا لذهبنا من ههنا » ، فنظر الصديق إلى الغار ، قد انفرج من الجانب الآخر، وإذا البحر قد اتصل به وسفينة مشدودة إلى جانبه .

وعن الحسن البصرى ــ بلاغًا ــ أن أبا بكر ليلة انطلق معه ﷺ إلى الغار ، كان يمشى بين يديه ساعة ، ومن خلفه ساعة ، فسأله فقال : أذكر الطلب ، فأمشى خلفك ، وأذكر الرصد فأمشى أمامك ، فقال : « لو كان شىء أحببت أن تقتل دونى؟» قال : أى والذى بعثك بالحق ، فلما انتهيا إلى الغار . قال: مكانك يا رسول الله، حتى أستبرئ لك الغار . فاستبرأه فجعل يلتمس بيده، فكلما رأى جحرًا قطع من ثوبه وألقمه الجحر ، حتى فعل ذلك بثوبه أجمع . وبقى جحر فوضع عقبه عليه ؛ لئلا يخرج ما يؤذى رسول الله ﷺ، فدخل رسول الله ﷺ ووضع رأسه فى حجر أبى بكر ونام، فلدغ أبو بكر فى رجله من الجحر ، ولم يتحرك لئلا يوقظ المصطفى ﷺ فسقطت دموعه على وجه رسول الله ﷺ فقال : ما لك يا أبا بكر ؟ قال : لدغت فداك أبى وأمى . . فتفل عليه رسول الله ﷺ فذهب ما بجسده.

ولقد أحسن حسان بن ثابت رضى الله عنه حيث قال :

وثانى اثنين فى الغار المنيف وقد ... طاف العدو به إذ صاعد الجبلا
وكان حب رسول الله قد علموا ... من الخلائق لم يعدل به بدلا

وكان خروجه ﷺ من مكة يوم الخميس ، وخرج من الغار ليلة الإثنين؛ لأنه أقام فيه ثلاث ليال ، من أول ربيع الأول . ودخل المدينة يوم

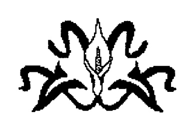


الجمعة اثنتى عشرة ليلة خلت منه .

وحكى أن زاهدًا من الزهاد اسمه « زكريا » مرض مرضًا شديدًا ، ودنا وقت أجله ، فأتاه صديقه فى سكرات الموت ولقنه : لا إله إلا الله محمد رسول الله . فأعرض الزاهد بوجهه ، ولم يقل . فقال له ثانيًا ، فأعرض ، فقال له ثالثة ، فقال : لا أقول ، فغشى على صديقه . فلما كان بعد ساعة وجد الزاهد خفة ، ففتح عينيه ، فقال : هل قلتم لى شيئًا ؟ قالوا : نعم . عرضنا عليك الشهادة ثلاثًا ، فأعرضت فى مرتين ، وقلت فى الثالثة : لا أقول . فقال : أتانى إبليس عليه اللعنة ، ومعه قدح من الماء ، ووقف عن يمينى وهو يحرك القدح ، فقال لى : أتحتاج إلى الماء ، قلت : بلى ، قال : قل عيسى ابن الله . فأعرضت عنه . ثم أتانى من قبل رجلى فقال لى كذلك، فأعرضت عنه وفى الثالثة قال لى كذلك . فقلت : لا أقول . فضرب القدح على الأرض وولى هاربًا . فأنا رددت على إبليس ، لا عليكم، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله .

وروى عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله قال : سأل بعضهم ربه أن يريه موضع الشيطان من قلب ابن آدم ، فرأى فى النوم جسد رجل شبه البلور، يرى داخله من خارجه ، ورأى الشيطان فى صورة ضفدع قاعد على منكبه الأيسر بين منكبه وأذنه ، له خرطوم طويل دقيق ، أدخله من منكبه الأيسر إلى قلبه ، يوسوس إليه . فإذا ذكر الله تعالى خنس .

اللهم لا تسلط علينا شيطانًا مريدًا، أو لسانًا حسودًا، وأعنا على ذكرك وشكرك،بجاه خاتم أنبيائك ورسولكﷺ وعلى آله وشرف وكرم.



الباب السابع عشر.. في

بيان الأمانة والتوبة

روى عن محمد بن المنكدر أنه قال : سمعت أبي يقول : بينما سفيان الثورى يطوف ، إذ رأى رجلا لا يرفع قدمًا ولا يضع قدما ، إلا وهو يصلى على النبى ﷺ قال : فقلت : يا هذا، إنك قد تركت التسبيح والتهليل ، وأقبلت بالصلاة على النبى ﷺ هل عندك فى هذا شىء ؟ قال : من أنت ؟ عافاك الله . فقلت : أنا سفيان الثورى ، قال : لولا أنك زاهد أهل زمانك ما أخبرتك عن حالى ولا أطلعتك على سرى . ثم قال لى : خرجت ووالدى حاجا إلى بيت الله الحرام ، حتى إذا كنت فى بعض المنازل مرض والدى ، فقمت بشأنه ، حتى مات ، فاسود وجهه ، فقلت : إنا لله وإنا إليه راجعون ، وغطيت وجهه فغلبتنى عيناى فنمت حزينًا ، فرأيت رجلاً لم أر أحسن منه وجهًا ولا أنظف منه ثوبًا ، ولا أطيب منه ريحًا ، يرفع قدمًا ويضع أخرى ، حتى دنا من والدى ، فكشف الإزار عن وجهه ، فأمَرَّ بيده على وجهه فابيض ، ثم ولّى راجعًا فتعلقت بثوبه ، وقلت : يا عبد الله من أنت الذى منَّ الله على والدى بك فى أرض الغربة ؟ قال : أوما تعرفنى ؟ أنا محمد بن عبد الله صاحب القرآن . أما والدك فكان مسرفًا على نفسه ، ولكن كان يكثر الصلاة علىّ ، فلما نزل به ما نزل استغاث بى ، وأنا غياث لمن أكثر الصلاة علىّ، فانتبهت وإذا وجه أبى قد ابيض. وروى عن عمرو بن دينار عن أبى جعفر عن النبى ﷺ أنه قال : «من نسى الصلاة علىّ فقد أخطأ طريق الجنة » . اعلم أن الأمانة مأخوذة من الأمن ؛ لأنه يؤمن معها من منع الحق. وضدها الخيانة من الخون، وهو النقص؛لأنك إذا خنت أحدًا فى شىء فقد أدخلت عليه النقصان . قال رسول الله ﷺ : « المكر والخديعة والخيانة فى النار » . وقال ﷺ : « من عامل الناس فلم يظلمهم ، وحدثهم فلم يكذبهم، فهو ممن كملت مروءته ، وظهرت عدالته ، ووجبت أخوته » .

ومدح أعرابى قومًا ، فقال : شغفوا برعى الأمانة فلا يغدرون بذمة ولا ينتهكون لمسلم حرمة ، ولم تعلق بهم ذمة ، فهم خير أمة .

أقول : وهؤلاء الذين مدحهم الأعرابى قد انقرضوا فلم نر فى هذه الأزمان إلا ذئابًا فى ثياب . كما قال الشاعر :

بمن يثق الإنسان فيما ينوبه ... ومن أين للحر الكريم صحاب ؟
وقد صار هذا الناس ــ ألا أقلهم ــ ... ذئابًا على أجسادهن ثياب

وكما قال آخر :

ذهب الذين يقال عند فراقهم ... ليت البلاد وما بها تتصدع

وعن حذيفة رضى الله عنه قال : أن رسول الله ﷺ قال : « إن الأمانة سترفع ويصبح الناس يتبايعون ، وما يكاد أحد منهم أن يؤدى الأمانة، وحتى يقال : إن فى بنى فلان أمينًا » .

واعلم أن التوبة واجبة بالأخبار والآيات . قال الله تعالى : ﴿**وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ [النور : ٣١] وهذا أمر على العموم. وقال الله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا**﴾ [التحريم : ٨] الآية . ومعنى النصوح : الخالص لله تعالى خاليًا عن الشوائب ، مأخوذ من النصح ، ويدل على فضل التوبة قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ** ﴾[البقرة : ٢٢٢] ، وقوله ﷺ : «التائب حبيب الله » ، و « التائب من الذنب كمن لا ذنب له » .

وقال رسول الله ﷺ : « لله أفرح بتوبة العبد المؤمن من رجل نزل فى أرض دوية مهلكة ، معه راحلته ، عليها طعامه وشرابه ، فوضع رأسه فنام نومة ، فاستيقظ وقد ذهبت راحلته ، فطلبها حتى إذا اشتد عليه الحر والعطش ، أو ما شاء الله ، قال : أرجع إلى مكانى الذى كنت فيه فأنام حتى أموت، فوضع رأسه على ساعده ليموت فاستيقظ ، فإذا راحلته عنده ، عليها زاده وشرابه ، فالله أشد فرحًا بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته » .

ويروى عن الحسن قال : لما تاب الله على آدم عليه السلام هنأته الملائكة وهبط عليه جبريل وميكائيل عليهما السلام ، فقالا : يا آدم قرت عينك بتوبة الله عليك ، فقال آدم عليه السلام : يا جبريل . فإن كان بعد

هذه التوبة سؤال ، فأين مقامى ؟ فأوحى الله إليه يا آدم ورثت ذريتك التعب والنصب ، وورثتهم التوبة . فمن دعانى منهم لبيته كما لبيتك ، ومن سألنى المغفرة لم أبخل عليه ؛ لأنى قريب مجيب ، يا آدم وأحشر التائبين من القبور مستبشرين ضاحكين ، ودعاؤهم مستجاب . وقال ﷺ : « إن الله عز وجل يبسط يـده بالتوبة لمسيء الليل إلى النهـار ، ولمسيء النهار إلى اللـيل ، حتى تطلع الشمس من مغربها » ، وبسط اليد : كناية عن طلب التوبة . والطالب وراء القابل . فربَّ قابل ليس بطالب، ولا طالب إلا وهو قابل. وقال ﷺ : «لو عملتم الخطايا حتى تبلغ السماء، ثم ندمتم لتاب الله عليكم». وقال ﷺ: «إن العبد ليذنب الذنب فيدخل به الجنة»، فقيل : كيف ذلك يا رسول الله ؟ قال :«يكون نصب عينه تائبًا منه ، فارا ، حتى يدخل الجنة » . وقال ﷺ : «كفارة الذنب: الندامة». وقال ﷺ: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له » .

ويروى أن « حبشيًّا » قال: يا رسول الله ، إنى كنت أعمل الفواحش، فهل لى من توبة؟ قال : نعم ، فولّى ثم رجع ، فـقال : يا رسول الله أكان يرانى وأنا أعملها ؟ قال : نعم. فصاح الحبشى صيحة خرجت فيها روحه .

ويروى أن الله عـز وجل لما لعن إبليس سـأله النظرة. فـأنظره إلى يوم القيامة. فقال: وعزتك لا خرجت من قلب ابن آدم ما دام فيه الروح . فقال الله تعالى: وعزتى وجلالى لا حجبت عنه التوبة ما دام فيه الروح. وقال ﷺ: « إن الحسنات يذهبن السيئات كما يذهب الماء الوسخ » .

وعن سعيد بن المسيب : نزل قوله تعالى : ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾ [الإسراء : ٢٥] فى الرجل يذنب ثم يتـوب ، ثم يذنب ثم يتـوب . وقال الفضيل : قـال الله تعالى : بشر المذنبين بأنهم إن تابوا قـبلت منهم، وحذر الصديقين إنى إن وضعت عليـهم عدلى عذبتهم . وقال عبـد الله بن عمر : من ذكر خطيئة ألم بها ، فوجل منها قلبه ، محيت عنه فى أم الكتاب .

ويروى : أن نبيا مـن الأنبياء أذنب ، فـأوحى الله إليه : وعـزتى لئن عـدت لأعـذبنك ، فـقـال: يا رب أنت أنـت ، وأنا أنا ، وعـزتك إن لم تعصمنى لأعودن ، فعصمه الله تعالى .

ويروى : أن رجلاً سأل ابن مسعود عن ذنب ألم به . هل له من توبة؟

فأعرض عنه ابن مسعود . ثم التفت إليه فرأى عينيه تذرفان . فقال : إن للجنة ثمانية أبواب كلها تفتح وتغلق ، إلا باب التوبة ؛ فإن عليه ملكًا موكلاً به ، لا يغلق . فاعمل ولا تيأس .

ويروى أنه كان فى بنى إسرائيل شاب عَبَدَ الله عشرين سنة ، ثم عصاه عشرين سنة ، ثم نظر فى المرآة فرأى الشيب فى لحيته . فساءه ذلك ، فقال: إلهى أطعتك عشرين سنة ثم عصيتك عشرين سنة . فإن رجعت إليك أتقبلنى؟ فسمع قائلا يقول ولا يرى شخصه : أحببتنا فأحببناك وتركتنا فتركناك ، وعصيتنا فأمهلناك ، وإن رجعت إلينا قبلناك .

وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما : أن رسول الله ﷺ قال : «إذا تاب العبد تاب الله عليه ، وأنسى الحفظة ما كانوا كتبوا من مساوئ عمله ، وأنسى جوارحه ما عملت من الخطايا ، وأنسى مكانه من الأرض ومقامه من السماء ، ليجيء يوم القيامة وليس شيء من الخلق يشهد عليه » .

وروى عن علىّ كرّم الله وجهه عن النبى ﷺ أنه قال : « مكتوب حول العرش قبل أن يخلق الخلق بأربعة آلاف عام : ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴾ [طه : ٨٢] » . واعلم أن التوبة فرض عين من الذنوب الكبائر والصغائر فورًا . فإن الإصرار على الصغائر يلحقها بالكبائر . قال الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ﴾ [آل عمران : ١٣٥] الآية . والتوبة النصوح: أن يتوب العبد ظاهرًا وباطنًا نادمًا غير عازم على العود . ومثل من تاب ظاهرًا فقط كمثل مزبلة بسط عليها ديباج ، والناس ينظرون إليها ويتعجبون منها ، فإذا كشف الغطاء أعرضوا عنها . فكذلك الخلق ينظرون إلى أهل الطاعة الظاهرة ، فإذا كشف الغطاء يوم القيامة ﴿ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴾ [الطارق : ٩] أعرضت الملائكة عنهم . ولذا قال ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم» . وعن ابن عباس رضى الله عنهما: كم من تائب يجيء يوم القيامة يظن أنه تائب وليس بتائب، أى لأنه لم يحكم أبواب التوبة من الندم، والعزم على عدم

العود، ورد المظالم لأربابها إن أمكن، واستحلالهم منها أن تيسروا ، وإلا أكثر من الاستغفار له ولهم ، عسى الله يرضيهم عنه ، ونسيان الذنب من أقبح المصائب، فعلى العاقل أن يحاسب نفسه ولا ينسى ذنبه. كما قيل :

يا أيها المذنب المحصى جرائمه لا تنس ذنبك واذكر منه ما سلفا

وتب إلى الله قبل الموت وانزجر يا عاصيًا واعترف إن كنت معترفا

وروى الفقيه أبو الليث بسنده : قال : دخل عمر رضى الله عنه على رسول الله ﷺ باكيًا . فقال رسول الله ﷺ: «ما يبكيك يا عمر ؟»، فقال : يا رسول الله بالباب شاب قد أحرق فؤادى وهو يبكى ، فقال له رسول الله ﷺ: « أدخله يا عمر » قال : فدخل وهو يبكي. فقال له رسول الله ﷺ : « ما يبكيك يا شاب ؟ » ، قال: يا رسول الله أبكتنى ذنوبٌ كثيرة ، وخفتُ من جبار غضبان علىَّ ، فقال رسول الله ﷺ : « أشركت بالله شيئًا ؟ » ، قال : لا ، قال : « أقتلت نفسًا بغير حق ؟ » ، قال : لا، قال : « فإن الله يغفر ذنبك ولو كان مثل السموات السبع والأرضين والجبال»، قال : يا رسول الله ذنبى أعظم من ذلك، قال:« ذنبك أعظم أم الكرسى؟ » ، قال : ذنبى أعظم يا رسول الله، قال: « ذنبك أعظم أم العرش ؟»، قال : ذنبى أعظم ، قال: «ذنبك أعظم أم إلهك ؟» يعنى عفو الله قال : بل أعظم وأجل. قال : « فإنه لا يغفر الذنب العظيم إلا الرب العظيم » يعنى عظيم التجاوز .

ثم قال له رسول الله ﷺ : «أخبرنى عن ذنبك» ، قال : إنى أستحى منك يا رسول الله. قال: «بل أخبرنى»، قال : يا رسول الله إنى كنت أنبش القبور منذ سبع سنين، حتى ماتت جارية من بنات الأنصار، فنبشت قبرها وأخذت كفنها ومضيت غير بعيد، فغلب الشيطان علىَّ، فرجعت فجامعتها، ثم مضيت غير بعيد ، وإذا بالجارية قامت وقالت : ويلك يا شاب ، أما تستحى من ديان يأخذ للمظلوم من الظالم. تركتنى عريانة فى عسكر الموتى ، وأوقفتنى جنبًا بين يدى الله عزّ وجلّ . قال : فوثب رسول الله ﷺ وهو يدفع فى قفاه ، ويقول: « يا فاسق ما أحوجك إلى النار ، اخرج عنى » ، فخرج الشاب تائبًا إلى الله تعالى أربعين ليلة . فلما تم له أربعون ليلة رفع رأسه إلى السماء، وقال: يا إله محمد وآدم وإبراهيم إن كنت غفرت لى فأعلم محمدًا وأصحابه وإلا فأرسل نارًا من السماء وأحرقنى بها ، ونجنى من عذاب

الآخرة ، قال : فهبط جبريل على النبى ﷺ وقال : يا محمد إن الله تعالى يقرئك السلام، ويقول لـك: أنت خلقت الخلق؟ فقال: «بل هو الذى خلقنى وخلقهم ورزقنى ورزقهم»، قال جبريل عليه السلام : يقول لك الله تعالى : إنى تبت على الشاب ، فدعا النبى ﷺ الشاب وبشره بأن الله تاب عليه .

وحكى أنه كان فى زمن موسى عليه السلام رجل لا يستقيم على التوبة كلما تاب أفسد، فمكث على ذلك عشرين سنة، فأوحى الله تعالى إلى موسى قل لعبدى فـلان : إنى غضبت عليه ، فبلغ موسى عليـه السلام الرسالة إلى ذلك الرجل . فحزن وذهب إلى الصحراء قائلاً : إلهى أنفدت رحمتك ، أم ضرتك معصيتى ، أم نفدت خزائن عفوك ، أم بخلت على عبادك ؟ أى ذنب أعظم من عفوك ، والـكرم من صفاتك القديمة واللؤم من صـفاتى الحادثة ؟ أفتغلب صفتى صفتك؟ وإذا حجبت عبادك عن رحمتك، فإلى من يرجعون ؟ وإن طردتهم فإلى من يقصدون ؟ إلهى إن كانت رحـمتك قد نفدت وكان لا بد من عذابى ، فاحمل علىَّ جميع عذاب عبادك ، فإنى قد فديتهم بنفسى . فقال الله تعالى: يا موسى اذهب إليه وقل له : لو كانت ذنوبك ملء الأرض لغفرتها لك بعدما عرفتنى بكمال القدرة والعفو والرحمة . وقال ﷺ : « ما من صوت أحب إلى الله من صوت عبد مذنب تائب، يقول: يا رب، فيقول الرب : لبيك يا عبدى ، سل مـا تريد أنت عندى كبعض ملائكتى ، أنا عن يمينك، وعن شمالك، وفوقك، وقريب من ضمير قلبك ، اشهدوا يا ملائكتى أنى قد غفرت له». قال ذو النون المصرى رحمه الله : إن عبادًا نصبوا أشجار الخطايا، نصب روامق القلوب، وسقوها بماء التوبة، فأثمرت ندمًا وحزنًا، فجنوا من غير جنون، وتلذذوا من غير عى ، ولا بكم ، وإنهم هم البلغاء الفصحاء العارفون بالله ورسوله، ثم شربوا بكأس الصفاء فورثوا الصبر على طول البلاء ثم تولهت قلوبهم فى الملكوت وجالت أفكارهم بين سرايا حجب الجبروت ، واستظلوا تحت رواق الندم وقرأوا صحيفة الخطايا، فأورثوا أنفسهم الجزع حتى وصلوا إلى علو الزهد بسلم الورع ، فاستعـذبوا مرارة الطرق للدنيا واستلانوا خشـونة المضجع ، حـتى ظفروا بحـبل النجاة وعـروة السلامـة ، وسرحت أرواحهم فى العلا ، حتى أناخوا فى رياض النعـيم ، وخاضوا فى بحر الحياة وردمـوا خنادق الجزع ، وعـبروا جـسور الهـوى ، حـتى نزلوا بفناء العلم، واستقوا من غدير الحكمة ، وركـبوا سفينة الفطنة ، وأقلعوا برياح النجاة فى بحر السلامة ، حتى وصلوا إلى رياض الراحة ، ومعدن العز والكرامة .

الباب الثامن عشر .. في

فضل الترحم

قال رسول الله ﷺ : « لا يدخل الجنة إلا رحيم » ، قالوا : يا رسول الله كلنا رحيم ، قال : « ليس الرحيم من يرحم نفسه خاصة ، ولكن الرحيم من يرحم نفسه وغيره » ، ومعنى رحمته لنفسه : أن يرحمها من عذاب الله بترك المعاصى ، والتوبة منها ، وفعل الطاعات والإخلاص فيها . ومعنى رحمته لغيره : أن لا يسعى فى أذية المسلم .

وقال ﷺ : « المسلم من سلم الناس من يده ولسانه » .

ويرحم البهائم فلا يكلفها ما لا تطيق ، فقد ورد أن رسول الله ﷺ قال : « بينما رجل يمشى فى الطريق فاشتد عليه العطش ، فوجد بئرًا ، فنزل بها وشرب ثم طلع ، فإذا كلب يلهث من العطش ، فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى بلغ منى ، فملأ خفه ماء ، ثم أمسكه بفيه فسقى الكلب ، فشكر الله تعالى ، فغفر له » ، قالوا : يا رسول الله إن لنا فى البهائم لأجرًا ؟ قال : « فى كل ذات كبد رطبة أجر » .

وعن أنس بن مالك قال : بينما عمر رضى الله عنه يعسُّ ذات ليلة ، إذ مرَّ برفقة نزلت فخشى عليهم السرقة ، فلقى عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه فقال : ما الذى جاء بك فى هذه الساعة يا أمير المؤمنين ؟ قال : مررت برفقة قد نزلت ، فحدثتنى نفسى أنهم إذا باتوا ناموا فخشيت عليهم السارق ، فانطلق بنا نحرسهم ، قال : فانطلقا فقعدا قريبًا من الرفقة يحرسان حتى إذا طلع الفجر نادى عمر رضى الله عنه : يا أهل الرفقة ، الصلاة ، حتى إذا رآهم تحركوا ، انصرف .

فعلينا أن نقتدى بالصحابة رضى الله عنهم ، فقد مدحهم الله تعالى بقوله : ﴿ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح : ٢٩] ، وكانوا رحماء على المسلمين ، وعلى جميع الخلق ، وكانوا يرحمون أهل الذمة ، فقد روى عن عمر رضى الله عنه أنه رأى رجلاً من أهل الذمة يسأل على أبواب الناس وهو شيخ

كبير، فقال له عمر رضى الله عنه: ما أنصفناك ، أخذنا منك الجزية ما دمت شابا. ثم ضيعناك اليوم ، وأمر بأن يجرى عليه قوته من بيت مال المسلمين .

وروى عن علىّ رضى الله عنه قال: رأيت عمر رضى الله عنه على قتب وهو يغدو بالأبطح ، فقلت له : يا أمير المؤمنين ، أين تصير ؟ قال : بعير شذ من الصدقة فأنا أطلبه . فقلت له : لقد أذللت الخلفاء من بعدك . فقال : لا تلمنى يا أبا الحسن ، فوالذى بعث محمدًا ﷺ بالنبوة ، لو أن عقالاً ذهب بشاطىء الفرات ، لأخذ بها عمر يوم القيامة ؛ لأنه لا حرمة لوال ضيّع المسلمين ولا لفاسق روع المؤمنين .

وعن الحسن عن رسول الله ﷺ أنه قال : « بدلاء أمتى لا يدخلون الجنة بكثرة صلاة ولا صيام ، ولكن يدخلونها بسلامة الصدور ، وسخاء النفوس والرحمة لجميع المسلمين». وعن رسول الله ﷺ أنه قال: «الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء » . وعنه ﷺ : «من لا يرحم لا يُرحم ، ومن لا يغفر لا يُغفر له». وقال مالك بن أنس : قال رسول الله ﷺ : « أربع من حق المسلمين عليك: أن تعين محسنهم ، وأن تستغفر لمذنبهم ، وأن تعود مريضهم ، وأن تحب تائبهم » .

وروى أن موسى عليه السلام قال : يا رب بأى شىء اتخذتنى صفيًا ؟ قال : برحمتك على خلقى .

وعن أبى الدرداء رضى الله عنه أنه كان يتبع الصبيان فيشترى منهم العصافير فيرسلها، ويقول : اذهبى فعيشى . وقال رسول الله ﷺ : « مثل المؤمنين فى تراحمهم وتوادهم وتواصلهم ، كمثل الجسد إذا اشتكى عضو منه ، تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر » .

حكاية : مرّ عابد من بنى إسرائيل على كثيب من رمل ، وقد أصابت بنى إسرائيل مجاعة عظيمة ، فتمنى فى نفسه أن هذا لو كانَ دقيقًا لأشبع به بنى إسرائيل ، فأوحى الله إلى نبى بنى إسرائيل : أن قُل لفلان : إن الله تعالى قد أوجب لك من الأجر ما لو كان دقيقًا وأشبعت به الناس . ولذلك قال رسول الله ﷺ : « نية المؤمن خير من عمله » .

حكى أن عيسى عليه السلام خرج يومًا فلقى إبليس وبيده عسل وفى

الأخرى رماد . فقال : ما تفعل يا عـدو الله بهذا العسل والرماد ؟ قال : أما العسل فأجعله على شفاه المغتابين حتى يبلغوا منها . وأما الرماد فأضعه على وجه اليتامى حتى يـبغضهم الناس . وقال ﷺ : « إن اليتـيم إذا ضُرِب اهتز عرش الـرحمن لبكائه ، فـيقـول الله عز وجل : يا مـلائكتى من أبكى هذا الصبى الذى غـيبت أباه فى التـراب؟» . وقال ﷺ : « من آوى يتـيـمًا إلى طعامه وشرابه أوجب الله له الجنة » .

وفى « روضــة العلماء » : كـان إبراهيم عليه الســلام إذا أراد أن يأكل طعامًا مشى الميل والميلين يطلب من يأكل معه .

وبكى علىّ كرم الله وجهه يومًا ، فـقيل : ما يبكيك ؟ قال : لم يأتنى ضيف منذ سبـعة أيام ، فأخاف أن يكون الله قـد أهاننى . وقال رسول الله ﷺ : « من أطعم جائعًا يريد به وجه الله وجبت له الجنة ، ومن منع الطعام عن الجائع منع الله عنه فضله يوم القيامة وعذبه فى النار » .

وقال رسول الله ﷺ : « السخى قريب من اللـه قريب من الجنة قريب من الناس ، بعيد من النار ، والبـخيل بعيد من الله بعيـد من الجنة بعيد من الناس ، قريب من النار » . وقال ﷺ : « الجاهل السخى أحب إلى الله من العابد البخيل » . وقال ﷺ : « إذا كان يوم القيامـة يدخل الجنة أربعة بغير حساب : العـالم الذى يعمل بعلمه ، ومن حج ولم يرفث ولم يفـسق حتى مات ، والشهيد الذى قتل فى المعـركة لإعلاء كلمة الإسلام ، والسخى الذى اكتسب مالاً من الحلال وأنفقه فى سبيل الله بغير رياء ، فهؤلاء ينازع بعضهم بعضًا أيهم يدخل الجنة أولاً » .

وعن ابن عباس قـال : قال رسول الله ﷺ : « إن لله عبادًا يخـتصهم بالنعم لمنافع العـباد ، فمن بخل بتلك المنافع علـى العباد ، نقلهـا الله تعالى عنه وحولها إلى غيره » . وقال رسول الله ﷺ : « السخاء شجرة من شجر الجنة ، أغصانها متدلية إلى الأرض ، فمن أخذ بغصن منها قاده ذلك الغصن إلى الجنة». وعن جابر رضى الله عنه قال: قيل : يا رسول الله أى الأعمال أفضل ؟ قال : «الصـبـر والسمـاحة» . وروى المقدام بن شـريح عن أبيه عن جده قـال : قلت يا رسول الله دلنى على عمـل يدخلنى الجنة ، قال : « إن من موجبات المغفرة بذل الطعام ، وإفشاء السلام ، وحسن الكلام».

الباب التاسع عشر .. فى

بيان الخشوع فى الصلاة

جاء فى الخبر : أن جبريل عليه السلام جاء يومًا إلى النبى ﷺ وقال : يا رسول الله ، كنت رأيت ملكًا فى السماء على سرير وحوله سبعون ألف ملك صفوفًا يخدمونه ، وكل نفس يتنفس ذلك الملك يخلق الله من نفسه ملكًا . والآن رأيت ذلك الملك على جبل قاف منكسر الجناح وهو يبكى ، فلما رآنى قال لى : أتشفع لى ؟ قلت : ما جرمك ؟ قال : كنت على السرير ليلة المعراج ، فمرّ بى محمد ﷺ فما قمت له ، فعاقبنى الله بهذه العقوبة ، وجعلنى فى هذا المكان كما ترى ، قال : فتضرعت إلى الله فشفعت له ، فقال الله تعالى : يا جبريل قل له حتى يصلى على محمد ، فصلى ذلك الملك عليك ، فعفا الله عنه ، وأنبت جناحيه .

اعلم أنه ورد أن أول ما ينظر فيه من عمل العبد يوم القيامة الصلاة، فإن وجدت تامة قبلت منه، وسائر عمله . وإن وجدت ناقصة ردت إليه ، وسائر عمله. وقال ﷺ : «مثل الصلاة المكتوبة كمثل الميزان ، من أوفى استوفى» .

وقال يزيد الرقاشى : كانت صلاة رسول الله ﷺ مستوية كأنها موزونة . وقال ﷺ : « إن الرجلين من أمتى ليقومان إلى الصلاة وركوعهما وسجودهما واحد ، وإن ما بين صلاتيهما ما بين السماء والأرض » وأشار إلى الخشوع . وقال ﷺ :«لاينظر الله يوم القيامة إلى العبد الذى لا يقيم صلبه بين ركوعه وسجوده» . وقال ﷺ : « من صلى صلاة لوقتها وأسبغ وضوءها وأتم ركوعها وسجودها وخشوعها عرجت وهى بيضاء مسفرة ، تقول : حفظك الله كما حفظتنى . ومن صلى صلاة لغير وقتها ولم يسبغ وضوءها ولم يتم ركوعها ولا سجودها ولا خشوعها عرجت وهى سوداء مظلمة ، تقول : ضيعك الله كما ضيعتنى، حتى إذا كانت حيث شاء الله ، لفت كما يلف الثوب الخلق ، فيضرب بها وجهه » . وقال ﷺ : « أسوأ

الناس سرقة الذى يسرق من صلاته » .

وقال ابن مسعود رضى الله عنه : الصلاة مكيال ، فمن أوفى استوفى، ومن طفف فقد علم ما قال الله : ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴾ [المطففين : ١] .

وقال بعض العلماء : مثل المصلى مثل التاجر الذى لا يحصل له الربح حتى يخلص له رأس المال ، وكذلك المصلى لا تقبل له نافلة حتى يؤدى الفريضة . وكان أبو بكر رضى الله عنه يقول : إذا حضرت الصلاة قوموا إلى نار ربكم التى أوقدتموها ، أطفئوها . وقال ﷺ : « إنما الصلاة تمسكن وتواضع » . وقال ﷺ : « من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر ، لم يزدد من الله إلا بعدًا » . وصلاة الغافل لا تمنع من الفحشاء والمنكر . وقال ﷺ : «كم من قائم وليس له من قيامه إلا التعب والنصب» . وما أراد به الغافل . وقال ﷺ : « ليس للعبد من صلاته إلا ما عقل منها » .

وقال أهل المعرفة : الصلاة أربعة أشياء : الشروع مع العلم ، والقيام مع الحياء ، والأداء مع التعظيم ، والخروج مع الخوف .

وقال بعض المشايخ: من لم يجتمع قلبه على الحقيقة،فسدت صلاته . وقال رسول الله ﷺ:«فى الجنة نهر يقال له الأفيح،فيه جوارى خلقهن الله من الزعفران،يلعبن بالدر والياقوت، يسبحن الله بسبعين ألف لغة، أصواتهن أطيب من صوت داود عليه السلام، ويقلن : نحن لمن صلى صلاته بالخشوع والحضور ، فيقول الله تعالى : لأسكننه دارى ولأجعلنه من زوارى » .

وروى: أن الله تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام : يا موسى إذا ذكرتنى فاذكرنى وأنت تنتفض أعضاؤك ، وكن عند ذكرى خاشعًا مطمئنا ، وإذا ذكرتنى فاجعل لسانك من وراء قلبك ، وإذا أقمت بين يدى ، فقم قيام العبد الذليل ، وناجنى بقلب وجل ولسان صادق .

وروى: أن الله تعالى أوحى إليه:قل لعصاة أمتك:لا يذكرونى؛ فإنى آليت على نفسى أن من ذكرنى ذكرته،فإذا ذكرونى ذكرتهم باللعنة وهذا فى عاص غير غافل فى ذكره ، فكيف إذا اجتمعت الغفلة والعصيان ؟

وقال بعض الصحابة رضى الله عنهم: يحشر الناس يوم القيامة على

مثال هيئتهم فى الصلاة من الطمأنينة والهدوء، ومن وجود النعيم بها واللذة. ورأى النبى ﷺ رجلاً يعبث بلحيته فى صلاته ، فقال : « لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه » . وقال : « من لم يخشع قلبه ردت صلاته » .

واعلم: أن الله مدح الخاشعين المتواضعين فى الصلاة فى غير آية ، فقال : ﴿ **فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ** ﴾ [المؤمنون : ٢] ، ﴿ **عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ** ﴾ [المؤمنون:٩] ، ﴿ **عَلَىٰ صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ** ﴾ [المعارج: ٢٣] ، قيل : إن المصلين كثير ، والخاشعين فى الصلاة قليل، والحاج كثير، والبار قليل ، والطير كثير، والعندليب قليل. والعالم كثير، والعامل قليل، والصلاة محل الخضوع ومعدن التواضع والخشوع ، وهذا علامة القبول . فإن للجواز شرطًا وللقبول شرطًا ، وشرط الجواز أداء فرضها ، وشرط القبول الخشوع .

قال الله تعالى : ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ** ﴾ [المؤمنون : ١-٢] الآية ، والتقوى قال الله تعالى : ﴿ **إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ** ﴾ [المائدة : ٢٧] . وقال ﷺ : « من صلى ركعتين مقبلاً فيهما على الله بقلبه، خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه» . واعلم إنه لا يلهى عن الصلاة إلا الخواطر الواردة الشاغلة ، فلا بد من دفعها ، ودفعها قد يكون بالصلاة فى مظلم أو خال عن الشواغل من الأصوات والفرش المنقوشة والتجرد عن الملابس المزينة بحيث تلهيه إذا نظر إليها فى الصلاة .

كما روى أنه ﷺ لما لبس الخميصة[1] التى أتاه بها « أبو جهم » وعليها علم ، وصلى بها، نزعها بعد صلاته ، وقال : « اذهبوا بها إلى أبى جهم ، فإنها ألهتنى آنفًا عن صلاتى » . وأمر ﷺ بتجديد شراك نعله ، ثم نظر إليه فى صلاته إذ كان جديدًا ، فأمر أن ينزع منها ، ويرد الشرك الخلق . وكان ﷺ فى يده خاتم من ذهب قبل التحريم، وكان على المنبر فرماه، وقال : «شغلنى هذا ، نظرة إليه ونظرة إليكم » . وروى أن أبا طلحة صلى فى حائط له ، فيه شجرة ، فأعجبه دبسى طار فى الشجرة ، يلتمس مخرجًا فأتبعه بصره ساعة ، ثم لم يدر كم صلى، فذكر لرسول الله ﷺ ما أصابه من

(١) الخميصة : ثوب أسود أو أحمر له أعلام .

الفتنة ، ثم قال : يا رسول الله هو صدقة، فضعه كيف شئت .

وعن رجل آخر : أنه صلى فى حائط له، والنخل مطوقة بثمرها، فنظر إليها فأعجبته، ولم يدر كم صلى، فذكر ذلك لعثمان رضى الله عنه، وقال: هو صدقة فاجعله فى سبيل الله عز وجل ، فباعه عثمان بخمسين ألفًا .

وقال بعض السلف : أربعة فى الصلاة من الجفاء : الالتفات ، ومسح الوجه ، وتسوية الحصا ، وأن تصلى بطريق من يمر بين يديك . قال ﷺ : « إن الله عز وجل مقبل على المصلى ما لم يلتفت ».

وكان الصديق رضى الله عنه فى صلاته كأنه وتد، وكان يسكن فى ركوعه بحيث تقع العصافير عليه ، كأنه جماد ، وكل ذلك يقتضيه الطبع بين يدى من يعظم من أبناء الدنيا ، فكيف لا يقتضاه بين يدى ملك الملوك .

وفى التوراة مكتوب : « يا ابن آدم لا تعجز أن تقوم بين يدى مصليًا باكيًا ، فأنا الله الذى اقتربت من قلبك وبالغيب رأيت نورى » .

وروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال على المنبر: إن الرجل ليشيب عارضاه فى الإسلام، وما أكمل لله تعالى صلاة، قيل: وكيف ذلك؟ قال : لا يتم خشوعها ولا تواضعها وإقباله على الله عز وجل فيها .

وسئل أبو العالية عن قوله تعالى : ﴿ **الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ** ﴾ [الماعون : ٥] قال : هو الذى يسهو فى صلاته ، فلا يدرى على كم ينصرف . أعلى شفع أم على وتر ؟ وقال الحسن : هو الذى يسهو عن وقت الصلاة ، حتى تخرج . وقال ﷺ : « قال الله تعالى : لا ينجو منى عبدى، إلا بأداء ما افترضته عليه » .



الباب العشرون .. في

بيان الغيبة والنميمة

اعلم أن الله سبحانه وتعالى نص على ذم الغيبة في كتابه ، وشبّه صاحبها بآكل لحم الميتة ، فقال تعالى : ﴿**وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ**﴾ [الحجرات : ١٢] .

وقال ﷺ : « كل المسلم على المسلم حرام، دمه وماله وعرضه » .

وقال ﷺ : « إياكم والغيبة ، فإن الغيبة أشد من الزنا ، فإن الرجل قد يزنى ويتوب فيتوب الله عليه ، وإن صاحب الغيبة لا يغفر له حتى يعفو له صاحبها». وقال: « مثل من يغتاب الناس كمثل من نصب منجنيقًا ، فهو يرمى بها يمينًا وشمالاً ، فهو يرمى بحسناته كذلك » . وقال ﷺ : «من رمى أخاه بغيبة يريد بها شينه أوقفه الله تعالى على جسر جهنم يوم القيامة حتى يخرج مما قال» . وقال رسول الله ﷺ :«الغيبة ذكرك أخاك بما يكره» ، أى سواء ذكرته بنقصان بدنه أو نسبه أو فعله أو قوله أو دينه أو دنياه ، حتى فى ثوبه وردائه ودابته. حتى ذكر بعض المتقدمين لو قلت: إن فلانًا ثوبه طويل أو قصير ، يكون ذلك غيبة ، فكيف ما يكره من نفسه؟ . وروى : أن امرأة قصيرة دخلت على النبى ﷺ فى بعض حاجاتها فلما خرجت قالت عائشة رضى الله عنها : ما أقصرها ؟ فقال النبى ﷺ : « اغتبتيها يا عائشة » .

وقال ﷺ :«إياكم والغيبة، فإن فيها ثلاث آفات: لا يستجاب لصاحبها دعاء، ولا تقبل له حسنة، وتتراكم عليه السيئات». وقال رسول الله ﷺ فى ذمهم«شر الناس يوم القيامة ذو وجهين، النمام الذى يأتى هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه. من كان ذا وجهين فى الدنيا كان له يوم القيامة لسانان من نار». وعن النبى ﷺ أنه قال: «لا يدخل الجنة نمام». فإن قيل: ما الحكمة فى أن الله تعالى خلق كل مخلوق ذا لسان ناطق وغير ناطق وليس للسمك لسان أصلاً؟ فقيل : لأن الله تعالى لما خلق آدم أمر الملائكة بالسجود له، فسجدوا كلهم إلا إبليس

فلعنه الله وأخرجه من الجنة ، ومسخه ، فأهبط إلى الأرض ، فجاء إلى البحار ، فأول ما رآه السمك ، فأخبره بخلق آدم ، وقال : إنه يصطاد ويأخذ دواب البحر والبر، فبلغ السمك دواب البحر بخبر آدم ، فأذهب الله لسانه .

حكى عن عمرو بن دينار أنه قال : كان رجل من أهل المدينة له أخت فى ناحية المدينة، فاشتكت ، فكان يأتيها يعودها ، ثم ماتت فجهزها وحملها إلى القبر ، فلما دفنت ، رجع إلى أهلها ، ثم ذكر أن له كيسًا كان معه فضيعه فى القبر ، فاستعان برجل من أصحابه ، فأتيا القبر ، فنبشاه ، فوجدا الكيس، فقال للرجل: تنحى عنى حتى أنظر على أى حال هى ، فرفع بعض ما على اللحد، فإذا القبر يشتعل نارًا ، فرجع إلى أمه ، فقال أخبرينى علام كانت أختى؟ فقالت: كانت أختك تأتى أبواب الجيران فتلقى أذنها إلى أبوابهم حتى تستمع الحديث، لكى تمشى بالنميمة، فعلم أن هذا سبب عذاب القبر ، فمن أراد أن ينجو من عذاب القبر ، فليحترز من النميمة والغيبة .

وحكى عن أبى الليث البخارى أنه خرج حاجا فجعل فى جيبه درهمين وحلف إن اغتبت أحدًا فى طريق مكة ذاهبًا أو آيبًا فلله علىّ أن أتصدق بهما ، فذهب إلى مكة ورجع إلى منزله والدرهمان فى جيبه . فقيل له فى ذلك : قال : لأن أزنى مائة مرة أحبّ إلىّ من أن أغتاب مرة واحدة .

وقال أبو حفص الكبير : لو لم أصم رمضان أحب إلىّ من أن أغتاب إنسانًا . ثم قال : من اغتاب فقيهًا جاء يوم القيامة مكتوبًا على وجهه : هذا آيس من رحمة الله . وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «مررت ليلة أُسرى بى على أقوام يخمشون وجوههم بأظافيرهم ويأكلون الجيفة ، فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس فى الدنيا » . وقال الحسن رضى الله عنه : والله للغيبة أسرع فى دين الرجل المؤمن من الأكلة فى الجسد .

وقال أبو هريرة رضى الله عنه: يبصر أحدكم القذى فى عين أخيه، ولا يبصر الجذع فى عين نفسه. وروى: أن سلمان كان فى سفر مع أبى بكر وعمر وكان يطبخ لهما، فنزلوا منزلاً فلم يتهيأ أن يصلح لهم من الطعام، فبعثاه إلى النبى ﷺ لينظر عنده شيئًا من الطعام ، فلم يجد، فرجع إليهما ، فقالا : إنه لو ذهب إلى بئر كذا ليبس ماؤها. فنزلت هذه الآية: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم

بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ [الحجرات: ١٢] .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أكل لحم أخيه فى الدنيا، قدم إليه لحمه يوم القيامة، ويقال: كله ميتًا فإنك أكلته حيا، فيأكله» ثم تلا قوله تعالى : ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا ﴾ .

وروى عن جابر بن عبد الله الأنصارى رضى الله عنهما أن ريح الغيبة كانت تبين فى عهد رسول الله ﷺ وذلك لقلتها ، وأما فى هذه الأزمان فقد كثرت الغيبة ، وامتلأت الأنوف منها، فلا تتميز رائحتها ، ومثل ذلك كمثل رجل دخل دار الدباغين فلم يقدر على القرار فيها من شدة الرائحة ونتنها ، وأهلها المقيمون فيها يأكلون الطعام ويشربون فيها ، ولا يتبين لهم تلك الرائحة المنتنة ؛ لأنها ملأت أنوفهم ، فكذلك أمر الغيبة فى أيامنا هذه .

قال كعب رضى الله عنه : قرأت فى بعض الكتب : أن من مات تائبًا من الغيبة كان آخر من يدخل الجنة ، ومن مات مصرا عليها كان أول من يدخل النار . وقال الله تعالى : ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾ [الهمزة : ١] أى أشد العذاب للهمزة الذى يعيبك فى الغيب ، واللمزة الذى يعيبك فى وجهك ، والآية نزلت فى الوليد بن المغيرة ، وكان يغتاب النبى ﷺ والمسلمين فى وجوههم ، ويجوز أن يكون السبب خاصا والوعيد عاما .

وقال رسول الله ﷺ : « إياكم والغيبة فإنها أشد من الزنا » ، قالوا : كيف تكون الغيبة أشد من الزنا ؟ قال : « إن الرجل يزنى ثم يتوب ، فيتوب الله عليه ، وإن صاحب الغيبة لا يغفر له حتى يعفو عنه صاحبه» ، فالواجب على المغتاب أن يندم ويتوب ليخرج من حق الله، ثم يستحل المغتاب ليحله ، فيخرج من مظلمته . وقال ﷺ : « من اغتاب أخاه المسلم حول الله وجهه إلى دبره يوم القيامة » ، وينبغى لصاحب الغيبة أن يستغفر الله تعالى قبل القيام من المجلس، وقبل أن تصل إلى المغتاب ؛ لأنه إذا تاب صاحب الغيبة قبل وصولها إلى المغتاب ، تقبل توبته ، أما إذا بلغته فلا يرتفع عنه الإثم بالتوبة، ما لم يجعله فى حل ، وكذلك إذا زنى بامرأة لها زوج ، فبلغه الخبر لا يرتفع بالتوبة ، ما لم يجعله فى حل ، وأما ترك الصلاة والزكاة والصوم والحج فلا يرتفع بالتوبة ، بل بقضاء الفائت من ذلك والله أعلم .

الباب الحادي والعشرون .. في

بيان الزكـــــاة

قال الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴾ [المؤمنون : ٤] يعني يؤدون ، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي منها حقها إلا إذا كان يوم القيامة صفحت له صفائح من نار ، فأحمي عليها في نار جهنم ، فيكوى بها جنبه وظهره ، ويوسع جسمه لها كلها وإن كثرت ، كلما بردت أعيدت له ، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، حتى يقضى بين العباد ، فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار » الحديث . وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ [التوبة: ٣٤ ـ ٣٥] وقال رسول الله ﷺ: «ويل للأغنياء من الفقراء يوم القيامة، يقولون: ظلمونا حقوقنا التي فرضت عليهم، فيقول الله تعالى : وعزتي وجلالي لأدنينكم ولأباعدنهم»، ثم تلا رسول الله ﷺ عليهم: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ * لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ [المعارج: ٢٤ـ ٢٥] . وروى أنه ﷺ مر ليلة أُسرى به على قوم على أدبارهم رقاع، وعلى أقبالهم رقاع، يسرحون كما تسرح الأغنام إلى الضريع والزقوم ورضف جهنم، قال: «من هؤلاء يا جبريل ؟» قال : هؤلاء الذين لا يؤدون صدقات أموالهم، وما ظلمهم الله ، وما الله بظلام للعبيد .

وحكى : أن جماعة من التابعين خرجوا لزيارة أبي سنان ، فلما دخلوا عليه وجلسوا عنده ، قال : قوموا بنا نزور جارنا مات أخوه ، ونعزيه فيه ، قال محمد بن يوسف الفريابي : فقمنا معه ودخلنا على ذلك الرجل

فوجدناه كثير البكاء والجزع على أخيه ، فجعلنا نعزيه ونسليه وهو لا يقبل تسلية ولا عزاء فقلنا له : أما تعلم أن الموت سبيل لا بد منه ؟ قال : بلى ، ولكن أبكى على ما أصبح وأمسى فيه أخى من العذاب . فقلنا له : قد أطلعك الله على الغيب ؟ قال : لا ولكن لما دفنته وسويت عليه التراب ، وانصرف الناس ، جلست عند قبره ، وإذا صوت من قبره يقول : آه أفردونى وحيدًا أُقاسى العذاب ، قد كنت أصوم وقد كنت أصلى ، قال : فأبكانى كلامه ، فنبشت التراب عنه لأنظر حاله ، وإذا القبر يلمع عليه نارًا وفى عنقه طوق من نار ، فحملتنى شفقة الأخوة ومددت يدى لأرفع الطوق من رقبته ، فاحترقت أصابعى ويدى ، ثم أخرج إلينا يده ، فإذا هى سوداء محترقة . قال : فرددت عليه التراب وانصرفت ، فكيف لا أبكى على حاله وأحزن عليه ؟ فقلنا : فما كان أخوك يعمل فى الدنيا ؟ قال : كان لا يؤدى الزكاة من ماله . قال : فقلنا : هذا تصديق قوله تعالى : ﴿ **وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ** ﴾ [آل عمران : ١٨٠] ، وأخوك عجل له العذاب فى قبره إلى يوم القيامة . قال : ثم خرجنا من عنده وأتينا أبا ذر صاحب رسول الله ﷺ وذكرنا له قضية الرجل . وقلنا له : يموت اليهودى والنصرانى ولا نرى فيهم ذلك . فقال : أولئك لا شك أنهم فى النار ، وإنما يريكم الله فى أهل الإيمان لتعتبروا ، قال الله تعالى : ﴿ **فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ** ﴾ [الأنعام : ١٠٤] . وجاء فى الخبر عن النبى ﷺ أنه قال : « مانع الزكاة عند الله تعالى بمنزلة اليهود والنصارى ، ومانع العشر عند الله تعالى بمنزلة المجوس ، ومن يمنع الزكاة والعشر من ماله ملعون على لسان الملائكة والنبى ﷺ ولا تقبل شهادته » . وقال : « طوبى له إن أدى الزكاة والعشر ، وطوبى لمن ليس عليه عذاب القبر ، وحرم الله لحمه على النار ، وأوجبت له الجنة بغير حساب ولا يصله عطش يوم القيامة » .

الباب الثاني والعشرون .. في بيان الزنـــا

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿**والَّذينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُون**﴾ [المؤمنون: ٥] أى عن الفواحش وعما لا يحل لهم ، كما قال الله تعالى فى آية أخرى : ﴿ **وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ** ﴾ [الأنعام : ١٥١] يعنى ما كبر وهو الزنا ، وما صغر وهو القبلة واللمس والنظر .كما جاء فى الخبر عن سيد البشر ﷺ أنه قال : « اليدان تزنيان والرجلان تزنيان والعينان تزنيان » .

وقال الله تعالى : ﴿ **قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَىٰ لَهُم** ﴾ [النور : ٣٠] الآية ، فقد أمر الله تعالى الرجال والنساء بغض البصر عن الحرام ، وبحفظ الفرج عن الحرام ، وقد حرم الله الزنا فى آيات كثيرة . قال الله تعالى : ﴿ **وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا** ﴾ [الفرقان: ٦٨] يعنى عقابًا فى النار، ويقال: واديًا فى النار، ويقال: جب فى النار إذا فتح فمه صاح أهل جهنم من خبث رائحته. وروى عن بعض الصحابة أنه قال: إياكم والزنا فإن فيه ست خصال، ثلاث فى الدنيا، وثلاث فى الآخرة : فأما التى فى الدنيا : فنقصان الرزق ، وقطع الأجل ، وسواد الوجه . وأما التى فى الآخرة: فغضب الله، وشدة الحساب، ودخول النار. وروى أن موسى عليه السلام قال : يا رب ما لمن زنا ؟ قال الله تعالى: ألبسه درعًا من النار لو وضع على جبل شاهق لأصبح رمادًا . وورد أن امرأة فاجرة أحب إلى إبليس من ألف فاجر. وفى «**المصابيح**» قال رسول الله ﷺ : « إذا زنى العبد خرج منه الإيمان ، وكان فوق رأسه كالظلة ، فإذا خرج من ذلك العمل رجع إليه الإيمان». وفى كتاب « **الإقناع** » قال النبى ﷺ : « ما من ذنب أعظم عند الله من نطفة يضعها الرجل فى رحم من لا تحل له». واللواط أشد من الزنا . لما روى عن أنس بن مالك - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ أنه قال : « من لاط لا يجد رائحة الجنة ، وإن رائحتها لتوجد من مسيرة خمسمائة عام » .

وحكى أن عبد الله بن عمر كان جالسًا على باب داره ، فرأى غلامًا جميلاً، يريد أن يدخل عليه، فولى عبد الله هاربًا، وأغلق بابه ، فلما مكث ساعة قال: هل ذهبت هذه الفتنة أم لا؟ فقالوا: ذهبت. فخرج من الدار فقيل

له : يا عبد الله ما فعل هذا فى نفسك ؟ أسمعت فيه شيئًا من رسول الله ﷺ ؟ قال : النظر إليهم حرام ، والكلام معهم حرام ، ومجالستهم حرام .

قال القاضى رحمه الله : سمعت بعض المشايخ يقول : إن مع كل امرأة شيطانًا ، ومع كل غلام ثمانية عشر شيطانًا . وروى من قبّل غلامًا لشهوة عذبه الله تعالى فى النار خمسمائة عام ، ومن قبل امرأة بشهوة ، فكأنما زنى بسبعين بكرًا ، ومن زنى بالبكر فكأنما زنى بسبعين ألف ثيب .

وفى « **رونق التفاسير** » قال الكلبى : إن أول من عَملَ عَمَلَ قوم لوط إبليس لعنه الله فتصور لهم فى صورة غلام أمرد جميل ، ثم دعاهم إلى نفسه فنكحوه ، فصار ذلك عادة لهم فى كل غريب ، فأرسل إليهم لوط عليه السلام فنهاهم عن ذلك ودعاهم إلى عبادة الله ، وتوعدهم على إصرار المعصية بعذاب الله ، فقالوا له : ﴿ **ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ** ﴾ [العنكبوت : ٢٩] فسأل لوط عليه السلام ربه أن ينصره عليهم فقال : ﴿ **رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ** ﴾[العنكبوت : ٣٠]فأمر الله السماء أن تمطر عليهم الحجارة، مكتوب على كل حجر اسم من رمى به وهو معنى قوله: ﴿ **مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ** ﴾ [هود:٨٣] أى معلمة أى عليها علامة فى خزائن الله وفى حكمه .

وحكى أن رجلاً تاجرًا من قوم لوط كان بمكة ، فجاء حجر ليصيبه فى الحرم، فقالت الملائكة للحجر: ارجع من حيث جئت؛ فإن الرجل فى حرم الله فرجع، فوقف خارج الحرم أربعين يومًا بين السماء والأرض حتى قضى الرجل تجارته، فلما خرج أصابه الحجر خارجًا من الحرم ، فأهلكه . وكان لوط قد أخرج امرأته معه ، ونهى من تبعه أن لا يلتفت خلفه ، إلا امرأة لوط ، فإنها لما سمعت هذا العذاب التفتت وقالت: واقوماه، فأدركها حجر فوقع على رأسها فقتلها .وقال مجاهد: لما أصبحوا غدا جبريل على قريتهم وقلعها من أركانها، ثم أدخل جناحه، ثم حملها على خوافى جناحه بما فيها، ثم صعد بها إلى السماء، حتى سمع أهل السماء صياح ديكتهم، ونباح كلابهم، ثم قلبها . فكان أول ما سقط منها سرادقها، فلم يصب قومًا ما أصابهم. ثم إن الله طمس على أعينهم، ثم قلبت قريتهم، وهى خمس مدائن أكبرها سدوم- وهى المؤتفكات المذكورة فى سورة براءة - يقال : كان فيها أربعة آلاف ألف .

الباب الثالث والعشرون ..في

صلة الرحم وحقوق الوالدين

قال تعالى : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ﴾[1] [النساء: ١] . أي واتقوا الأرحام أن تقطعوها . وقال تعالى : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ * أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴾ [محمد : ٢٢ ، ٢٣] . وقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [البقرة : ٢٧] .

وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ [الرعد : ٢٥]. وأخرج الشيخان عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله تعالى خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم ، فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة . قال: نعم. أما ترضين أن أصل من وصلك ، وأقطع من قطعك ؟ قالت : بلى ، قال: فذاك لك». ثم قال رسول الله ﷺ : « اقرءوا إن شئتم :﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ * أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴾ [محمد : ٢٢ ، ٢٣] » . ورواه أيضًا الترمذى وقال : حديث حسن صحيح ، وابن ماجه والحاكم وقال صحيح الإسناد .

عن أبى بكر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من ذنب أجدر – أى أحق – أن يعجل الله لصاحبه العقوبة فى الدنيا ، ما يدخر له فى الآخرة ، من البغى وقطيعة الرحم » .

والشيخان :«لا يدخل الجنة قاطع». قال سفيان : يعنى قاطع رحم .

وأحمد بسند رواته ثقات : « أن أعمال بنى آدم تعرض كل خميس

(١) أي والأرحام معطوفة على لفظ الجلالة والعطف على نية تكرار العامل .

وليلة جمعة فلا يقبل عمل قاطع رحم » .

والبيهقى : « أنه أتانى جبريل عليه السلام فقال : هذه ليلة النصف من شعبان ، ولله فيها عتقاء من النار بعدد شعر غنم بنى كلب لا ينظر الله فيها إلى مشرك ، ولا إلى مشاحن ، ولا إلى قاطع رحم ، ولا إلى مسبل ــ أى إزاره ــ خيلاء ، ولا إلى عاق لوالديه ، ولا إلى مدمن خمر » الحديث .

وابن حبان وغيره : «ثلاثة لا يدخلون الجنة : مدمن الخمر ، وقاطع الرحم ، ومصدق بالسحر » .

وأحمد مختصرًا وابن أبى الدنيا والبيهقى : « يبيت قوم من هذه الأمة على طعام وشرب ولهو ولعب ، فيصبحوا قد مسخوا قردة وخنازير ، وليصيبنهم خسف وقذف حتى يصبح الناس ، فيقولون : خسف الليلة ببنى فلان ، وخسف الليلة بدار فلان ، ــ خواص ـــ ولترسلن عليهم حجارة من السماء كما أرسلت على قوم لوط ، وعلى قبائل فيها ، وعلى دور ، ولترسلن عليهم الريح العقيم ، التى أهلكت عادًا ، على قبائل فيها ، وعلى دور ؛ بشربهم الخمر، ولبسهم الحرير ، واتخاذهم القينات ، وأكلهم الربا ، وقطيعتهم الرحم » . وخصلة نسيها (جعفر والطبرانى فى الأوسط) .

عن جابر رضى الله عنه قال : خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن مجتمعون ، فقال : « يا معشر المسلمين اتقوا الله وصلوا أرحامكم ؛ فإنه ليس من ثواب أسرع من صلة الرحم ، وإياكم والبغى ؛ فإنه ليس أسرع من عقوبة البغى ، وإياكم وعقوق الوالدين ؛ فإن ريح الجنة يوجد من مسيرة ألف عام ، والله لا يجدها عاق ، ولا قاطع رحم ، ولا شيخ زان ، ولا جار إزاره خيلاء، إنما الكبرياء لله رب العالمين » . والأصبهانى : كنا جلوسًا عند رسول الله ﷺ فقال : «لا يجالسنا اليوم قاطع رحم » فقام فتى من الحلقة ، فأتى خالة له قد كان بينهما لبعض الشىء ، فاستغفر لها فاستغفرت له . ثم عاد إلى المجلس ، فقال النبى ﷺ: « إن الرحمة لا تنزل على قوم فيهم قاطع رحم » ، وهذا مؤيد لما روى أن أبا هريرة رضى الله عنه كان يحدث عن رسول الله ﷺ فقال : أحرج علىّ كل قاطع رحم إلا قام من عندنا ، فقام شاب إلى عمة له قد صرمها منذ سنين ، فصالحها ، فسألته عن السبب

فذكره لها ، فقالت : ارجع واسأله لم ذاك؟ فسأله فقال : لأنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الرحمة لا تنزل على قوم فيهم قاطع رحم » .
والطبرانى: « إن الملائكة لا تنزل على قوم فيهم قاطع رحم» . والطبرانى بسند صحيح عن الأعمش، قال: كان ابن مسعود رضى الله عنه جالسًا بعد الصبح فى حلقة فقال: أنشد الله قاطع رحم لما قام عنا، فإنا نريد أن ندعوا ربنا، وإن أبواب السماء مرتجة -أى بضم ففتح والجيم مخففة مغلقة- دون قاطع رحم .
والشيخان: «الرحم معلقة بالعرش تقول: من وصلنى وصله الله، ومن قطعنى قطعه الله»، وأبو داود والترمذى، وقال : حديث حسن صحيح . واعترض تصحيحه بأنه منقطع ، وراويه وصله . وقال البخارى : حدث عبد الرحمن ابن عوف رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « قال الله عز وجل : أنا الله وأنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسمًا من اسمى، فمن وصلها وصلته ، ومن قطعها قطعته ، أو قال بتته » - أى قطعته - .

وأحمد بإسناد صحيح : «إن من أربى الربا الاستغابة فى عرض المسلم بغير حق ، وإن هذه الرحم شجنة من الرحمن عز وجل ، فمن قطعها حرم الله عليه الجنة » . وأحمد بإسناد جيد وقوى وابن حبان فى صحيحه : « أن الرحم شجنة من الرحمن تقول: يا رب إنى قطعت، يا رب إنى أسىء إلىّ ، يا رب إنى ظلمت ، فيجيبها : ألا ترضين أن أصل من وصلك ، وأقطع من قطعك؟»، والشجنة بكسر أوله المعجم وضمه وإسكان الجيم: القرابة المشتبكة ، كاشتباك العروق ، ومعنى من الرحم : أى مشتق لفظها من لفظ اسمه الرحمن ، كما يأتى فى الحديث على الأثر .

والبزار بإسناد حسن : « الرحم حجنة متمسكة بالعرش تتكلم بلسان ذلق ، اللهم صل من وصلنى ، واقطع من قطعنى . فيقول الله تبارك وتعالى: أنا الرحمن الرحيم ، وإنى شققت الرحم من اسمى ، فمن وصلها وصلته ، ومن بتكها بتكته » ، الحجنة بفتح الحاء المهملة والجيم وتخفيف النون : صنارة المغزل ، أى الحديدة العقفاء التى يعلق بها الخيط ، ثم يفتل الغزل . والبتك : القطع . والبزار : « ثلاث متعلقات بالعرش ؛ الرحم تقول : اللهم إنى بك فلا أقطع ، والأمانة تقول : اللهم إنى لك فلا أُخان ،

والنعمة تقول : اللهم إنى بك فلا أكفر» والبزار واللفظ له. والبيهقى: «الطابع معلق بقاعة العرش ، فإذا اشتكت الرحم وعمل بالمعاصى واجترئ على الله تعالى ، بعث الله الطابع فيطبع على قلبه فلا يعقل بعد ذلك شيئًا » .

وأخرج الشيخان : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت » ، وأخرجا أيضًا : « من أحب أن يبسط له فى رزقه ، وينسأ - أى يؤخر وهو بضم أوله وتشديد ثالثه المهمل وبالهمز - له فى أثره - أى أجله - فليصل رحمه » . وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:«من سره أن يبسط له فى رزقه ، أو ينسأ فى أثره - أى أجله - فليصل رحمه» رواه البخارى والترمذى ولفظه قال:«تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم؛ فإن صلة الرحم محبة فى الأهل، مثراة فى المال ، منسأة فى الأثر» أى بها زيادة فى العمل . وعبد الله ابن الإمام أحمد فى زوائد المسند والبزار بإسناد جيد والحاكم: «من سره أن يمد له فى عمره، ويرفع عنه ميتة السوء،فليتق الله وليصل رحمه» والبزار بإسناد لا بأس به، والحاكم وصححه، أنه ﷺ قال:«مكتوب فى التوراة : من أحب أن يزاد فى عمره وفى رزقه، فليصل رحمه».وأبو يعلى : « أن الصدقة وصلة الرحم يزيد الله بهما فى العمر ، ويدفع بهما المكروه والمحذور » .

وأبو يعلى بإسناد جيد عن رجل من خثعم ، قال : أتيت النبى ﷺ وهو فى نفر من أصحابه ، فقلت : أنت الذى تزعم أنك رسول الله ؟ قال: « نعم » . قال : قلت : يا رسول الله أى الأعمال أحب إلى الله ؟ قال : «الإيمان بالله » . قلت : يا رسول الله ثم مه ؟ قال : « ثم صلة الرحم » ، قلت: يا رسول الله أى الأعمال أبغض إلى الله ؟ قال : « الإشراك بالله » . قلت : يا رسول الله ثم مه ؟ قال : « ثم قطيعة الرحم » ، قلت : يا رسول الله ثم مه ؟ قال : « ثم الأمر بالمنكر والنهى عن المعروف » .

والبخارى ومسلم واللفظ له : عرض أعرابى لرسول الله ﷺ وهو فى سفر فأخذ بخطام ناقته أو بزمامها ثم قال : يا رسول الله أو يا محمد أخبرنى بم يقربنى من الجنة ويباعدنى من النار ، فكف النبى ﷺ ثم نظر فى أصحابه ثم قال : « لقد وفق هذا » ، أو « لقد هدى » ، قال : « كيف قلت » ، فأعادها . فقال النبى ﷺ : « تعبد الله لا تشرك به شيئًا ، وتقيم الصلاة ،

وتؤتى الزكاة، وتصل الرحم». دع الناقة. وفى رواية: «وتصل ذا رحمك» ، فلما أدبر قال رسول الله ﷺ : « إن تمسك بما أمرته به دخل الجنة » .

والطبراني بإسناد حسن : « إن الله ليعمر بالقوم الديار وينمى لهم الأموال ، وما نظر إليهم منذ خلقهم بغضاً لهم » ، قيل : وكيف ذاك يا رسول الله ؟ قال : « بصلتهم أرحامهم » .وأحمد بسند رواته ثقات إلا أن فيه انقطاعًا : « إنه من أعطى الرفق فقد أعطى حظه من خير الدنيا للآخرة ، وصلة الرحم وحسن الجوار وحسن الخلق يعمرن الديار ويزدن الأعمار » .

وأبو الشيخ وابن حبان والبيهقى : يا رسول الله من خير الناس ؟ قال: «أتقاهم للرب وأوصلهم للرحم وآمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر» .

والطبراني وابن حبان فى صحيحه واللفظ له عن أبى ذر رضى الله عنه، قال : أوصانى خليلى ﷺ بخصال من الخير ، أوصانى : أن لا أنظر إلى من هو فوقى وأن أنظر إلى من هو دونى ، وأوصانى بحب المساكين والدنو منهم ، وأوصانى أن أصل رحمى وإن أدبرت ، وأوصانى أن لا أخاف فى الله لومة لائم ، وأوصانى أن أقول الحق وإن كان مرًّا ، وأوصانى أن أكثر من لا حول ولا قوة إلا بالله فإنها كنز من كنوز الجنة .والشيخان وغيرهما عن ميمونة رضى الله عنها أنها أعتقت وليدة لها ، ولم تستأذن النبى ﷺ ، فلما كان يومها الذى يدور عليها فيه ، قالت : أشعرت يا رسول الله أنى أعتقت وليدتى ؟ قال : « أوفعلت ؟ » فقالت : نعم ، قال : « أما إنك لو أعطيتها أخوالك كان أعظم لأجرك ». وابن حبان والحاكم : أتى النبى ﷺ رجل فقال: إنى أذنبت ذنبًا عظيمًا فهل لى من توبة؟ قال:«هل لك من أم ؟ » قال : لا . قال: «وهل لك من خالة؟» قال: نعم. قال: «فبرها» .والبخارى وغيره : «ليس الواصل بالمكافىء ، ولكن الواصل الذى إذا قطعت رحمه وصلها ». والترمذى وقال حسن : « لا تكونوا إمعة ، تقولون إن أحسن الناس أحسنا ، وإن ظلموا ظلمنا ، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أساءوا أن لا تظلموا » . والإمعة بكسر ففتح وتشديد فمهملة : هو الذى لا رأى له فهو يتبع كل أحد على رأيه(1).

ومسلم : يا رسول الله إن لى قرابة أصلهم ويقطعوننى ، وأحسن إليهم

(1) الإمع : الذي يقول لكل أحد : أنا معك ولا يثبت على شئ لضعف رأيه ، والمقلد في الدين والمتردد الذي لا يثبت على شئ ، وتزاد فيه التاء فيقال أمعة .

ويسيئون إلىّ ، وأحلم عليهم ويجهلون علىّ . فقال : « إن كنت كما قلت فكأنما تسفهم الملّ ــ أى بفتح وتشديد الرماد الحار ــ ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك » . والطبرانى وابن خزيمة فى صحيحه والحاكم ، وقال صحيح على شرط مسلم : «أفضل الصدقة صدقة على ذى الرحم الكاشح » أى الذى يضمر عداوته فى كشحه أى خصره ، كناية عن باطنه . وهو معنى قوله ﷺ : «وتصل من قطعك » .

والبزار والطبرانى والحاكم وصححه - واعترض بأن فيه وهنا - « ثلاث من كن فيه حاسبه الله حسابًا يسيرًا وأدخله الجنة برحمته » . قالوا : وما هى يا رسول الله ؟ قال : « تعطى من حرمك ، وتصل من قطعك ، وتعفو عمن ظلمك ، فإذا فعلت ذلك يدخلك الجنة » . وأحمد بإسنادين أحدهما رواته ثقات عن عقبة بن عامر رضى الله عنه قال : لقيت رسول الله ﷺ فأخذت بيده، فقلت : يا رسول الله أخبرنى بفواضل الأعمال ؟ فقال : « يا عقبة صل من قطعك ، وأعط من حرمك ، واعف عمن ظلمك » . زاد الحاكم : « ألا ومن أراد أن يمد فى عمره ويبسط فى رزقه فليصل رحمه» .

والطبرانى بسند محتج به : «ألا أدلك على أكرم أخلاق الدنيا والآخرة؟ أن تصل من قطعك ، وتعطى من حرمك ، وأن تعفو عمن ظلمك» . والطبرانى : « إن أفضل الفضائل أن تصل من قطعك ، وتعطى من حرمك، وتصفح عمن شتمك». والبزار : «ألا أدلكم على ما يرفع الله به الدرجات». وفى رواية للطبرانى: «ألا أنبئكم بما يشرف الله به البنيان ويرفع به الدرجات؟» قالوا : نعم يا رسول الله . قال : « تحلم على من جهل عليك ، وتعفو عمن ظلمك ، وتعطى من حرمك ، وتصل من قطعك » . وابن ماجه : «أسرع الخير ثوابًا البر ، وصلة الرحم ، وأسرع الشر عقوبة البغى ، وقطيعة الرحم » . والطبرانى : « ما من ذنب أجدر أن يعجل الله لصاحبه العقوبة فى الدنيا مع ما يدخر له فى الآخرة من قطيعة الرحم والخيانة والكذب ، وإن أعجل البر ثوابًا صلة الرحم ، حتى إن أهل البيت ليكونن فجرة ، فينمون ويكثر عددهم إذا تواصلوا .



الباب الرابع والعشرون ..في

بـــر الوالدين

أخرج الشيخان عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : سألت رسول الله ﷺ أى العمل أحب إلى الله تعالى ؟ قال : «الصلاة لوقتها» ، قلت : ثم أى ؟ قال : «بر الوالدين» ، قلت : ثم أى؟ قال: «الجهاد فى سبيل الله» .

ومسلم وغيره : « لا يجزى ولد والده إلا أن يجده مملوكًا فيشتريه فيعتقه » . ومسلم : أقبل رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : أُبايعك على الهجرة والجهاد ، أبتغى الأجر من الله تعالى. قال: «فهل من والديك أحد حى؟» ، قال : نعم . بل كلاهما حى ، قال : « فتبتغى الأجر من الله ؟ » قال: نعم، قال : « فارجع إلى والديك فأحسن صحبتهما » .

وأبو يعلى والطبرانى بسند جيد : أتى رجل رسول الله ﷺ فقال : إنى أشتهى الجهاد ولا أقدر عليه، قال: «هل بقى من والديك أحد؟»، قال : أمى ، قال : « فاسأل الله فى برّها، فإذا فعلت ذلك فأنت حاج ومعتمر » .

ومجاهد والطبرانى : يا رسول الله إنى أريد الجهاد فى سبيل الله قال : « أمك حية ؟»، قال: نعم، قال : « الزم رجلها فثم الجنة » . وابن ماجه: يا رسول الله ما حق الوالدين على ولدهما؟ قال: «هما جنتك ونارك».

وابن ماجه والنسائى واللفظ له والحاكم وصححه : يا رسول الله إنى أردت أن أغزو ، وقد جئت أستشيرك ، فقال : « هل لك من أم ؟ » قال : نعم ، قال : « الزمها فإن الجنة عند رجليها » . وفى رواية صحيحة : «ألك والدان ؟ » ، قال : نعم ، قال : « الزمهما فإن الجنة تحت أرجلهما » .

والترمذى وصححه عن أبى الدرداء رضى الله عنه: أن رجلاً أتاه فقال: إن لى امرأة وإن أمى تأمرنى بطلاقها . فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول : « الوالد أوسط أبواب الجنة ، فإن شئت فأضع ذلك الباب أو احفظه » .

وابن حبان فى صحيحه : أن رجلا أتى أبا الدرداء فقال : إن أبى لم يزل بى حتى زوجنى ، وإنه الآن يأمرنى بطلاقها ؟ قال : ما أنا بالذى آمرك أن تعق والديك، ولا بالذى آمرك أن تطلق زوجتك، غير أنك إن شئت حدثتك

بما سمعت من رسول الله ﷺ سمعته يقول : « الوالد أوسط أبواب الجنة ، فحافظ على ذلك إن شئت أو دع »، قال : وأحسب عطاء قال : فطلقها .

وأصحاب السنن الأربعة وابن حبان فى صحيحه ، وقال الترمذى حديث حسن صحيح عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : كان تحتى امرأة أحبها وكان عمر يكرهها ، فقال لى : طلقها ، فأبيت ، فأتى عمر رسول الله ﷺ فذكر ذلك له، فقال لى رسول الله ﷺ : «طلقها».

وأحمد بسند صحيح : « من سره أن يمد له فى عمره ، ويزاد فى رزقه ، فليبرّ والديه ، طوبى له زاد الله فى عمره » .

وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه واللفظ له والحاكم وصححه : « إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه ، ولا يرد القدر إلا الدعاء ، ولا يزيد فى العمر إلا البرّ » . وفى رواية للترمذى وقال حسن غريب : « لا يرد القضاء إلا الدعاء ، ولا يزيد فى العمر إلا البرّ » .

والحاكم وصححه : « عفُّوا عن نساء الناس تعف نساؤكم ، وبرّوا آباءكم تبرّكم أبناؤكم ومن أتاه أخوه متنصلاً فليقبل ذلك محقا كان أو مبطلاً، فإن لم يفعل لم يرد على الحوض » . والطبرانى بإسناد حسن : « برّوا آباءكم تبركم أبناؤكم ، وعفوا تعف نساؤكم » . ومسلم : « رغم أنفه ، ثم رغم أنفه ، ثم رغم أنفه » أى لصق بالرغام وهو التراب من الذل ، قيل : من يا رسول الله قال : « من أدرك والديه عند الكبر أو أحدهما ثم لم يدخل الجنة أو لا يدخلانه الجنة » . والطبرانى بأسانيد أحدها حسن ، صعد النبى ﷺ المنبر فقال : « آمين، آمين ، آمين » ، ثم قال : « أتانى جبريل عليه السلام فقال : يا محمد : من أدرك أحد أبويه ثم لم يبرّهما فمات فدخل النار فأبعده الله ، قل : آمين، فقلت: آمين ، فقال : يا محمد من أدرك شهر رمضان فمات فلم يغفر له فأدخل النار فأبعده الله ، قل : آمين ، فقلت : آمين ، قال : ومن ذكرت عنده فلم يصل عليك فمات فدخل النار فأبعده الله ، قل : آمين ، فقلت : آمين». ورواه ابن حبان فى صحيحه إلا أنه قال فيه : «من أدرك أبويه أو أحدهما فلم يبرهما فمات فدخل النار فأبعده الله . قل : آمين ، فقلت : آمين » .

ورواه الحاكم وغيره ، وقال فى آخره : « فلما رقيت الثالثة ، قال بَعُدَ من أدرك أبويه الكبر عنده أو أحدهما فلم يدخلاه الجنة، قلت: آمين » .

ورواه الطبرانى وفيه : « من أدرك والديه أو أحدهما فلم يبرّهما دخل النار فأبعده الله واستحقه ، قلت : آمين ». وأحمد من طرق أحدها حسن : « من أعتق رقبة مسلمة فهى فداؤه من النار ، ومن أدرك أحد والديه ، ثم لم يُغفر له فأبعده الله » زاد فى رواية : « واستحقه » .

والشيخان : يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتى ؟ قال : «أمك» ، قال : ثم من ؟ قال : « أمك » ، قال : ثم من ؟ قال : « أمك » قال : ثم من ؟ قال : « أبوك » . والشيخان عن أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما : قدمت على أمى وهى مشركة فى عهد رسول الله ﷺ فاستفتيت رسول الله ﷺ فقلت : قدمت على أمى وهى راغبة عن الإسلام أو فيما عندى ، أفأصل أمى ؟ قال: « نعم صلى أمك » .

وابن حبان فى صحيحه والحاكم وقال صحيح على شرط مسلم : «رضا الله فى رضا الوالد ـ أو قال الوالدين ـ وسخط الله فى سخط الوالد ـ أو قال الوالدين ـ». وفى رواية للطبرانى ; « طاعة الله فى طاعة الوالد - أو قال : الوالدين - ومعصيته فى معصية الوالد - أو قال: الوالدين - » .

وفى أخرى للبزار : « رضا الرب تبارك وتعالى فى رضا الوالدين ، وسخط الرب تبارك وتعالى فى سخط الوالدين » .

والترمذى واللفظ له ، وابن حبان فى صحيحه والحاكم وقال صحيح على شرطهما : أتى النبى ﷺ رجل فقال : إنى أذنبت ذنبًا عظيمًا فهل لى من توبة ؟ قال : « هل لك من أم ؟ » قال : لا . قال : « فهل لك من خالة ؟ » ، قال : نعم ، قال : « فبرّها » . وأبو داود وابن ماجه : يا رسول الله هل بقى من بر أبوىّ شىء أبرهما به بعد موتهما ؟ قال : « نعم ، الصلاة عليهما ـ أى الدعاء لهما والاستغفار لهما ـ وإنفاذ عهدهما من بعدهما وصلة الرحم التى لا توصل إلا بهما وإكرام صديقهما » . ورواه ابن حبان فى صحيحه بزيادة قال الرجل : ما أكثر هذا يا رسول الله وأطيبه ؟ قال: « فاعمل به » . ومسلم أن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما لقيه رجل من الأعراب بطريق مكة فسلم عليه عبد الله بن عمر،وحمله على حمار كان يركبه،وأعطاه عمامة كانت على رأسه، قال ابن دينار : فقلنا : أصلحكم الله إنهم الأعراب وهم يرضون باليسّير ، فقال عبد الله بن عمر : إن أبا هذا كان ودودًا لعمر بن الخطاب ، وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن أبرّ البر

صلة الولد أهل ودّ أبيه » .

وابن حبان فى صحيحه عن أبى بردة رضى الله عنه قال: قدمت المدينة فأتانى عبد الله بن عمر فقال: أتدرى لم أتيتك؟ قلت: لا، قال: فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أحب أن يصل أباه فى قبره فليصل إخوان أبيه بعده» وإنه كان بين أبى عمر وبين أبيك إخاء وود ، فأحببت أن أصل ذلك .

وفى حديث الصحيحين وغيرهما المشهور بروايات متعددة : « إن ثلاثة نفر ممن كان قبلنا خرجوا يتماشون ويرتادون لأهليهم ، فأخذهم المطر ، حتى آووا إلى غار فى الجبل ، فانحدرت على قمته صخرة ، فسدته ، فقالوا : إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تـدعوا بأصلح أعمالكم » . وفى رواية : « فقال بعضهم لبعض : انظروا أعمالاً عـملتموها لله عز وجل صالحة فادعوا الله بها لعله يفـرجها » ، وفى أخرى : « فـقال بعضهم لبـعض : عفا الأثر ووقع الحجر ولا يعلم بمكانكم إلا الله ، فادعـوا الله بأوثق أعمالكم ، فقال أحدهم : اللهم إنه كان لى أبوان شيخان كبيران وكنت لا أغبق[1] قبلهما أهلاً ولا مالاً ، فنأى بى طلب شجرة يومًا ، فلم أرح عليهما حتى ناما ، فحلبت لهما غـبوقهما فوجدتـهما نائمين ، فكرهت أن أغبق قبلهـما أهلاً أو مالاً ، فلبثت والقدح على يدى أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر ، فاستيقظا فشربا غبوقهما ، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه من الصخرة ، ففرجت شيئًا لا يستطيعون الخروج » .

وفى رواية : « ولى صـبيـة صـغار كنت أرعى ، فـإذا رحت عليـهم فحلبت ، بدأت بوالدىّ أسقيهما قبل ولدى ، وأنه نأى بى طلب شجرة يومًا فما أتيت حتى أمسيت فوجدتهمـا قد ناما فحلبت كما كنت أحلب ، فجئت بالحلاب فقعدت عند رؤوسهما أكـره أن أوقظهما من نومهما ، وأكره أن أبدأ بالصبية ، والصبية يتضاغون[2] عند قدمى ، فلم يزل ذلك دأبى ودأبهما حتى طلع الفجر ، فـإن كنت تعلم أنى قد فعلت ذلك ابتغاء وجـهك ، فأفرج لنا فرجة نرى منها السـماء ، ففرج الله لهم فرجة حتى رأوا منهـا السماء وذكر الآخر عـفته عن الزنا بابنة عمـه ، والآخر تنميـته لمال أجير فـانفرجت عنهم كلها ، وخرجوا يتماشون » .

---

(١) الغبوق : اللبن الذي يحلب بالعشى أو يشرب بالعشى .

(٢) ضغا : صاح من الألم .

الباب الخامس والعشرون .. في

الزكاة والبخل

قال الله تعالى : ﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران : ١٨٠] وقال تعالى : ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ * الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ [فصلت : ٦ ـ ٧] سماهم المشركين . وقال رسول الله ﷺ « ما من أحد لا يؤدى زكاة ماله إلا مثل له يوم القيامة شجاعًا أقرع حتى يطوق به عنقه » . وقال رسول الله ﷺ : « يا معشر المهاجرين خمس خصال إن ابتليتم بهن ونزلت بكم، أعوذ بالله أن تدركوهن : لم تظهر الفاحشة فى قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الأوجاع التى لم تكن فى أسلافهم ، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤنة وجور السلطان ، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا المطر من السماء ولولا البهائم لم يمطروا ، ولا نقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلط عليهم عدو من غيرهم فيأخذ بعض ما فى أيديهم ، وما لم يحكم أئمتهم بكتاب الله إلا جعل الله بأسهم بينهم ». وقال ﷺ : « إن الله يبغض البخيل فى حياته، والسخى عند موته»[1]. وقال ﷺ : « خصلتان لا تجتمعان فى مؤمن : البخل وسوء الخلق» . وقال ﷺ : « أقسم الله تعالى أن لا يدخل الجنة بخيل » . وقال ﷺ : « إياكم والبخل فإن البخل دعا قومًا فمنعوا زكاتهم ، ودعاهم فقطعوا أرحامهم ، ودعاهم فسفكوا دماءهم » .

وقال ﷺ : « خلق الله اللؤم فحفه بالبخل والمال » . وسئل الحسن رضى الله عنه ، قال : هو أن يرى الرجل ما أنفق تلفًا ، وما أمسك شرفًا .

وأصل البخل : حب المال ، وطول الأمل ، وخوف الفقر ، وحب الولد ، ففى الحديث : «الولد مجبنة مبخلة » . ومن الناس من لا يسمح بأداء زكاة ماله ولا بالإحسان إلى نفسه وعياله ، وإنما لذته ورغبته فى رؤية دنانيره ، وكونها فى قبضته، وهو عالم أنه يموت، وفى مثله يقول الشاعر :

(١) أي عندما يشعر بدنو أجله يجعل المال هكذا وهكذا ، والمال أصبح للورثة ، ولكن تنفق وأنت صحيح شحيح تأمل الغنى وتخشى الفقر .

أأخى إن من الرجـــال بهــيمة ... فى صــورة الرجـل اللبيب المبصر
فـطن بــكل مصــيبة فى مــاله ... فــإذا أصــيب بدينـه لم يشــعر

وقال آخر :

البخــل داء دوى لا يليــق بـذى ... مــروءة ولا عـقــل ولا ديــن
من آثر البـخل عن وفر وعـن جـدة ... فقد لعـمرى أضـحى وهو مغـبون
يا بؤس من منع الـدارين حـقهـما ... فبـــاع دنيـاه بعد الدين بالدون

وقال آخر :

إذا المال لم ينفع صديقًا ، ولم يصب ... قريبًا ، ولم يـجــبر به حال معدم
فعــقباه أن تحتــازه كـــف وارث ... وللباخـــل المورث عقبى التندم

وقال بشـر : لقاء البخـيل كرب ، والنظر إليه يقـسى القلب ، وكانت العرب تتعاير بالبخل والجبن .وقال الشاعر :

أنفق ولا تخش إقلالاً فـقـد قسمت ... على العبـاد من الرحـمن أرزاق
لا ينفع البخل مـــع دنـيـا مـولية ... ولا يـضر مع الإقـــبـال إنفاق

وقال آخر :

أرى الناس خــلان الجـواد ولا أرى ... بخــيلاً له فـــى الـعالمين خليلُ
وإنى رأيـــت البـخـل يزرى بأهله ... فأكرمت نفســى أن يقال بخيلُ

وكفى بالبخيل خسة أن يجمع لغـيره ، ويحتمل معرة ضيره ، ولا ينال لذة وفره وخيره، وفى مثله يقول وكيع :

لئيم لا يــــزال يــــلم وقــــرًا ... لــوارثه ويدفع عــــن حـــــماه
ككلب الصيد يمسـك وهو طاو ... فريســـته ليـأكلـها ســـــواه

وفى الحكم المنثورة : بشر مال البخيل بحادث أو وارث .

قال أبو حنيـفة رحمـه الله : لا أرى أن أعدِّل[1] بخيلاً ؛ لأن الـبخيل يحمله على الاسـتقصـاء فيأخذ فـوق حقه أو يغبن، ومن كـان هذا حاله لا يكون مأمـون الأمانة . ولقى يحيى عليـه السلام إبليس فـقال له : يا إبليس أخبرنى بأحب الـناس إليك ، وأبغض الناس إليك ؟ قال : أحب الناس إلىَّ المؤمن البـخيل ، وأبغض الناس إلىَّ الفـاسق السخى ، قـال : لماذا ؟ قال : لأن البخيل قـد كفانى بخله ، والفاسق السخى أخـاف أن يطلع الله عليه فى سخائه فيقبله ، ثم ولّى وهو يقول : لولا أنك « يحيى » لما أخبرتك .

---

(١) إذا كان مؤديا الشهادة فلا يقبلها منه .

الباب السادس والعشرون .. في

الأمــــل

قال ﷺ : « أخـوف مـا أخـاف عليكم اثنتـان : طول الأمل واتبـاع الهوى، وإن طول الأمل ينسى الآخرة ، واتباع الهوى يصد عن الحق » .

وقال ﷺ:«أنا زعيم لثلاثة بثلاثة: للمكب على الدنيا، والحريص عليها والشحيح بها، بفقر لا غنى بعده،وشغل لا فراغ منه، وهم لا فرج معه » .

وعن أبى الدرداء رضى الله عنه أنه أشرف على أهل حـمص ، فقال : ألا تستحيون ؟ تبنون ما لا تسكنون، وتأملون ما لا تدركون، وتجمعون ما لا تأكلون، إن الذين كانوا قبلكم بنوا شـديدًا، وجمعوا كثيـرًا ، وأملوا بعيدًا، فأصبحت مساكنهم قبـورًا ، وآمالهم غرورًا، وجمعهم بوارًا . وقال علىّ بن أبى طالب لعـمر رضى الله عنـهمـا: إذا أردت أن تلقى صاحـبيك، فـارفع قميصك، واخصف نعلك، وأقصر أملك، وكل دون الشبع. وأوصى آدم ابنه شيئًا عليهما السلام بخمسة أشياء ، وأمره أن يوصى بها أولاده من بعده :

أولها : قال له : قل لأولادك لا تطمئنوا للدنيا ؛ فإنى اطمئننت بالجنة الباقية فأخرجنى الله منها .

والثانى : قل لهم : لا تعـملوا بهوى نـسائكم ؛ فـإنى عملت بهـوى امرأتى وأكلت من الشجرة فلحقتنى الندامة .

والثالث : قل لهم : كل عمل تريدونه فانظروا عاقبته ؛ فإنى لو نظرت عاقبة الأمر لم يصبنى ما أصابنى .

والرابع : إذا اضطربت قلوبكم من شىء فاجتنبـوه ؛ فإنى حين أكلت من الشجرة اضطرب قلبى فلم أرجع فلحقنى الندم .

والخامس : استشيروا فى الأمـور ؛ فإنى لو شاورت الملائكة لم يصبنى ما أصابنى . وقال مجاهد: قال لى عبد الله بن عمر: إذا أصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء ، وإذا أمـسيت فلا تحدث نفسك بالصبـاح ، وخذ من حياتك قبل موتك ، ومن صحتك قبل سقمك ، فإنك لا تدرى ما اسمك غدًا .

وقال ﷺ لأصحابه: « أيـريد كلكم أن يدخل الجنة ؟ » ، قالوا : نعم يا رسول الله ، قـال: « قصروا الأمل ، واستـحيوا من الله حق الحـياء » .

قالوا : كلنا نستحى من الله تعالى ، قال : «ليس ذلك بالحياء من الله تعالى، الحياء أن تذكروا المقابر والبلى ، وتحفظوا الجوف وما وعى ، والرأس وما حوى ، ومن يشتهى كرامة الآخرة يدع زينة الدنيا ، فهذا هو استحياء العبد من الله حق الحياء ، وبها يصيب العبد ولاية الله تعالى ». وقال ﷺ : « أول صلاح هذه الأمة بالزهد واليقين، وهلاك آخرها بالبخل والأمل » .

وروى عن أم المنذر أنها قالت : طلع رسول الله ﷺ ذات عشية إلى الناس ، فقال : «أيها الناس أما تستحيون من الله ؟ » ، قالوا : وما ذاك يا رسول الله ؟ قال : « تجمعون ما لا تأكلون ، وتأملون ما لا تدركون ، وتبنون ما لا تسكنون » . وعن أبى سعيد الخدرى قال : اشترى أسامة بن زيد من زيد بن ثابت وليدة بمائة دينار إلى شهر ، فسمعت رسول الله ﷺ يقول : « ألا تعجبون من أسامة المشترى إلى شهر ، إن أسامة لطويل الأمل، والذى نفسى بيده ما طرفت عيناى إلا ظننت أن شفوىّ لا يلتقيان حتى يقبض الله روحى ، ولا رفعت طرفى فظننت أنى واضعه حتى أقبض ، ولا لقمت لقمة إلا ظننت أنى لا أسيغها حتى أغص بها من الموت » ، ثم قال : « يا بنى آدم إن كنتم تعقلون فعدوا أنفسكم من الموتى ، والذى نفسى بيده ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [الأنعام : ١٣٤] .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان يخرج يهريق الماء فيتمسح بالتراب ، فأقول له : يا رسول الله ، إن الماء منك قريب ، فيقول : « ما يدر بى لعلى لا أبلغه » . وروى أنه ﷺ أخذ ثلاثة أعواد فغرز عودًا بين يديه ، والآخر إلى جنبه، وأما الثالث فأبعده، فقال : « هل تدرون ما هذا ؟ » ، قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : « هذا الإنسان ، وهذا الأجل ، وذاك الأمل ، يتعاطه ابن آدم ، ويختلجه الأجل دون الأمل » .

وقيل : بينما عيسى عليه السلام جالس وشيخ يعمل بمسحاة يثير بها الأرض ، فقال عيسى : اللهم انزع منه الأمل ، فوضع الشيخ المسحاة واضطجع ، فلبث ساعة ، فقال عيسى : اللهم اردد عليه الأمل ، فقام فجعل يعمل ، فسأله عيسى عن ذلك ، فقال : بينما أنا أعمل إذ قالت لى نفسى : إلى متى تعمل وأنت شيخ كبير ؟ فألقيت المسحاة واضطجعت ، ثم قالت نفسى : والله لا بد لك من عيش ما بقيت ، فقمت إلى مسحاتى .

الباب السابع والعشرون ..في

ملازمة الطاعة وترك الحرام

معنى الطاعة : القيام بفروض الله تعالى والاجتناب لمحارمه والوقوف عند حدوده ، قال مجاهد فى قول الله عز وجل : ﴿ **وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا** ﴾ [القصص: ٧٧] هو أن يعمل العبد بطاعة الله تعالى. واعلم أن أصل الطاعة العلم بالله ، والخوف من الله ، والرجاء فى الله ، والمراقبة لله ، فإذا تجرد العبد من هذه الخصال لم يدر حقيقة الإيمان ؛ لأنه لا تصح الطاعة لله إلا بعد العلم به، والإيمان بوجوده ، خالقًا عالمًا قادرًا لا يحيط به علم ولا يتصوره وهم ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** ﴾ [الشورى : ١١] .

قال أعرابى لمحمد بن على بن الحسين رضى الله عنهم : هل رأيت الله حين عبدته ؟ قال: لم أكن أعبد من لم أره ، قال : كيف رأيته ؟ قال : لم تره الأبصار بمشاهدة العيان ، لكن رأته القلوب بحقيقة الإيمان ، لا يدرك بالحواس ولا يشبه بالناس ، معروف بالآيات ، منعوت بالعلامات ، لا يجور فى القضيات ، ذلك الله لا إله إلا هو رب الأرض والسموات . فقال الأعرابى : ﴿ **اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ** ﴾ [الأنعام : ١٢٤] .

سئل بعض العارفين عن علم الباطن قال : هو سر من أسرار الله يقذفه فى قلوب أحبابه لم يطلع عليه ملكًا ولا بشرًا. وروى أن كعب الأحبار قال : لو أن بنى آدم بلغوا من اليقين مثقال حبة من عظمة الله عز وجل ، لمشوا على الماء والريح . اهـ . فسبحان من جعل الإقرار بالعجز عن إدراك معرفتة إيمانًا ، كما جعل إقرار المنعم عليه بالعجز عن إدراك شكره شكرًا .

قال محمود الوراق :

إذا كان شكرى نعمة الله نعمة ... علىّ له فى مثلها يجب الشكر
فكيف بلوغ الشكر إلا بفضله ... وإن طالت الأيام واتصل العمرُ ؟
إذا مس بالسراء عم سرورها ... وإن مس بالضراء أعقبها الأجر
وما منهما إلا له فيه نعمة ... تضيق لها الأوهام والبر والبحر

وإذا ثبت العلم بالربوبية ، تعين الإقرار بالعبودية ، وإذا تقرر الإيمان فى القلب ، وجبت الطاعة للرب ، والإيمان نوعان : ظاهر وباطن ؛ فالظاهر : النطق باللسان ، والباطن : الاعتقاد بالقلب ، والمؤمنون متباينون فى منازل القرب ، متفاوتون فى درجات الطاعة . والإيمان جامع لهم بقدر حظ كل واحد منهم من الموهبة ، وتمكنه من علو المرتبة فى الإخلاص لله والتوكل عليه والرضا بحكمه ، فأما الإخلاص فأن لا يطلب العبد بما يعمل جزاء من الخالق ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات : ٩٦] فإن كانت الطاعة رجاء للمثوبة وخوفًا من العقوبة ، فذلك العبد لا يكون كامل الإخلاص ، فإنه لنفسه سعى . وروى أنه ﷺ قال : « لا يكن أحدكم كالكلب السوء ، إن خاف عمل، ولا كالأجير السوء ، إن لم يعط أجر لم يعمل » . وقال تعالى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ﴾ [الحج:١١] وإنما تعينت علينا عبادته ووجبت طاعته ، مما سبق له من الفضل علينا وتقدم له من الإحسان إلينا ، فضلاً عن كونه أمرنا بها ، ليرتب الجزاء عليها فضلاً، ويجازى من ضل عنها عدلاً .

وأما التوكل : فهو الاعتماد على الله سبحانه عند الحاجة ، والاستناد إليه مع الضرورة ، والثقة به عند النازلة ، مع سكون النفس وطمأنينة القلب، فالمتوكلون على ربهم علموا أنه المقدر ، والأسباب تحت حكم الخالق المدبر ، لا يركنون لآباء ولا أبناء ولا أموال ولا صنائع ، بل صرفوا بهديه جميع الأمور إليه ، ولم يعتمدوا فى حال من الأحوال إلا عليه ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ [الطلاق : ٣] .

وأما الرضا : فهو طيب النفس بما يجرى به المقدور ، قال بعض العلماء : أقرب الناس إلى الله ، أرضاهم بما قسم لهم ، ومن كلام الحكماء: رب مسرة هى الداء ، ومرض هو الشفاء ، كما قال :

كم نعمة مطوية ... لك بين أنياب النوائب
ومسرة قد أقبلت ... من حيث ترتقب المصائب

فاصبر على حدثان دهرك فالأمور لها عواقب
ولكل كرب فرجة ولكل خالصة شوائب

وحسبنا قول الله عز وجل : ﴿ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [البقرة : ٢١٦] .

واعلم : أنه لن يستكمل العبد طاعة ربه إلا برفض الدنيا ، وفى الحكم: أبلغ المواعظ ما لم يحجبها عن القلب حاجب ، وهذه الحجب إنما هى عوارض الدنيا ، ومن كلامهم : الدنيا ساعة فاجعلها طاعة .

قال أبو الوليد الباجى :

إذا كنت أعلم يقينا بأن جميع حياتى كساعه
فلم لا أكون ضنينًا بها وأجعلها فى صلاح وطاعه

وقال رجل لرسول الله ﷺ : إنى أكره الموت ، قال : « ألك مال ؟ » قال : نعم ، قال : « قدم مالك فإن المرء عند ماله » .

وروى عن عيسى عليه السلام أنه قال : البر فى ثلاثة : فى النطق ، والنظر ، والصمت . فمن كان منطقه فى غير ذكر الله فقد لغا ، ومن كان نظره فى غير اعتبار فقد سها ، ومن كان صمته فى غير فكر فقد لها . وترك الدنيا يكون بإطراح الفكرة فى أحوالها ، وترك التمنى بلذاتها ، فإن الفكرة تبعث الإرادة لتعلق النفس بالفكرة ، وليحذر من إرسال النظرة فيما لا يحل؛ فإنه سهم صائب وسلطان غالب .

قال عليه الصلاة والسلام : « النظرة سهم من سهام إبليس ، فمن تركها مخافة الله تعالى أعقبه الله إيمانًا يجعل طعمه فى قلبه » .

ومن كلام الحكماء : من أطلق طرفه كثر أسفه . إدمان النظر يكشف الخبر ويفضح البشر ، ويطول به المكث فى سقر . احفظ عينيك فإنك إن أطلقتهما أوقعتاك فى مكروه ، وإن ملكتهما ملكت سائر جوارحك .

قيل لأفلاطون : أيهما أشد ضررًا بالقلب ؟ السمع أم البصر ؟ قال : هما للقلب كالجناحين للطائر ، لا يستقل إلا بهما ولا ينهض إلا بقوتهما ، وربما قص أحدهما فنهض بالآخر على تعب ومشقة ، وقال محمد بن ضوء:

كفى بالعبد نقصانًا عند الله ، وضعة عند ذوى العقول ، أن ينظر إلى كل ما يسنح له .

ورأى بعض الزهاد رجلاً يضحك إلى غلام ، فقال له : يا خرب العقل والقلب ، ويا خرب الطرف ، أما تستحى من كرام كاتبين ، وملائكة حافظين ، يحفظون الأفعال ، ويكتبون الأعمال ، وينظرون إليك ، ويشهدون عليك بالبلاء الظاهر والغل الدخيل المخامر ، الذى أقمت نفسك فيه مقام من لا يبالى من وقف عليه ، ونظر من الخلق إليه ؟ .

وللقاضى الأرجانى :

تمتّعتما يا ناظرى بنظرة فأوردتما قلبى أشر الموارد
أعيناى كفا عن فؤادى فإنه من البغى سعى اثنين فى قتل واحد

وقال علىّ كرم الله وجهه : العيون مصائد الشيطان ، والعين أنفذ الجوارح سرعة وأشدها صرعة . فمَن أتبع جوارحه نفسه فى طاعة ربه فقد وصل أمله ، ومن أتبع جوارحه نفسه فى نيل لذته ، فقد أحبط عمله .

وأنشدوا :

إذا ما صفت نفس المريد لطاعة ولم تشبها للمعاصى شوائب
وأتبعها فعل الجوارح كلها فتلك عليه أنعم ومواهب
تلقته فى دار الخلود كرامة إذا جب للمعاصى سنام وغارب

وقال عبد الله بن المبارك : أصل الإيمان التصديق بما جاءت به الرسل، فمن صدق القرآن خرج إلى العمل به ، ونجا من الخلود فى النار ، ومن اجتنب المحارم خرج إلى التوبة ، ومن أخذ القوت من حله خرج إلى الورع، ومن أدى الفرائض صح إسلامه ، ومن صدق لسانه سلم من التبعات ، ومن رد المظالم نجا من القصاص ، ومن أتى بالسنن زكت أعماله ، ومن أخلص لله قبل عمله .

وروى عن أبى الدرداء أنه قال لرسول الله ﷺ : يا رسول الله أوصنى: قال له : اكتسب طيبًا واعمل صالحًا ، واسأل الله رزق يوم ليوم ، وعد نفسك من الموتى ، واحذر من الإعجاب بالعمل ؛ فإنه من أعظم

الآفات وأحبط للأعمال ، فإن المعجب بعمله ممتن على ربه ، وما يدريه أقبل منه أم رد عليه ؟ ورب معصية أورثت ذلا وانكسارًا خير من طاعة أورثت عزا واستكبارًا ، وليحذر أيضًا من الرياء .

قيل فى قوله تعالى : ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴾ [الزمر : ٤٧] قيل: عملوا أعمالاً كانوا يرونها فى الدنيا من الحسنات ، فبدت لهم يوم القيامة من السيئات ، وكان بعض السلف إذا قرأ هذه الآية ، قال : ويل لأهل الرياء ، وقال أيضًا فى قوله تعالى : ﴿ وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف : ١١٠] أى لا يظهرها رياء ولا يخفيها حياء ، وروى عن ابن مسعود أن آخر ما نزل من القرآن : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٢٨١] .

وقال محمد بن بشير :

مضى أمسك الأدنى شهيدًا معدلا ... ويومك هذا بالفعال شهيد
فإن تك بالأمس اقترفت إساءة ... فثن بإحسان وأنت حميد
ولا ترج فعل الخير منك إلى غد ... لعل غدًا يأتى وأنت فقيد

وقال غيره :

تعجل الذنب بما تشتهى ... وتأمل التوبة فى قابل
والموت يأتى بعد ذا غفلة ... ما ذاك فعل الحازم العاقل

وقال داود لسليمان عليهما السلام : يستدل على تقوى المؤمن بثلاث : حسن التوكل فيما لم ينل ، وحسن الرضا فيما نال ، وحسن الصبر على ما قد فات .

وفى بعض الحكم المنثورة : من صبر على البلاء وصل إلى الوفاء .

وقال :

عليك بالصبر إن نابتك نائبة ... من الزمان ولا تركن إلى الجزع
وإن تعرضت لك الدنيا بزينتها ... فالصبر عنها دليل الخير والورع
فجاهد النفس قسرًا فيهما أبدًا ... تلق الذى ترتجيه غير ممتنع

وقال آخر :

الصـــــبر مفـــتاح مـــا يرجـــى ولـــم يــــزل دائمًا يعــــين
فاصــــبر وإن طـــالت الليـــــالى فربـمـــا ساعـــد الحــــزون
وربمـــــا نيـــــل باصطـــبار مـــا قـــيل هيهـــات لا يكون

وقال الآخر :

الصــــبر أوثــــق عـــروة الإيمـان ومجـــــنة من نزغة الشيـــطان
الصــــبر فيه عواقـــــب محمـودة والطـيش فيه عـــواقب الخسران
فـــإذا لقـيت من الزمــــان ملمـــة وكـــذاك فينــــا عادة الأزمــــان
فـــتذرع الصـــبر الجمـيل تيقـنًا إن التصـــبر رائــــد الرضــــوان

والصبـر له فروع : صبر على الفـرائض ، بالمواظبة عليها بكمـالها فى أحب أوقاتها ، وصـبر على النوافل ، وصبر على أذى الأصـحاب والجار ، وصبر عـلى الأمـراض ، وصبر على الفـقـر ، والصبر عـلى المـعاصى وعن الشهوات وعـن الشبهات ، وعن فضـول جميع جوارح البـدن ، وغير ذلك .



الباب الثامن والعشرون ..في

بيان ذكر الموت

قال رسول الله ﷺ : « أكثروا من ذكر هاذم اللذات » .

معناه : نغصوا بذكره اللذات حتى ينقطع ركونكم إليها ، فتقبلوا على الله تعالى . وقال ﷺ : « لو تعلم البهائم من الموت ما يعلم ابن آدم ما أكلتم منها سمينًا » . وقالت عائشة رضى الله عنها : يا رسول الله ، هل يحشر مع الشهداء أحد ؟ قال : « نعم من يذكر الموت فى اليوم والليلة عشرين مرة » . وإنما سبب هذه الفضيلة كلها أن ذكر الموت يوجب التجافى عن دار الغرور ، ويتقاضى الاستعداد للآخرة ، والغفلة عن الموت ، تدعو إلى الانهماك فى الشهوات الدنيا .

وقال ﷺ: «تحفة المؤمن الموت»، وإنما قال هذا لأن الدنيا سجن المؤمن ؛ إذ لا يزال فيها فى عناء من مقاساة نفسه، ورياضة شهواته، ومدافعة شيطانه، فالموت إطلاق له من هذا العذاب، والإطلاق تحفة فى حقه وقال ﷺ: «الموت كفارة لكل مسلم»، وأراد بهذا المسلم حقا، المؤمن صدقًا، الذى يسلم المسلمون من لسانه ويده ، ويتحقق فى أخلاق المؤمنين ، ولم يتدنس من المعاصى إلا باللمم والصغائر ، فالموت يطهره منها ويكفرها بعد اجتنابه الكبائر وإقامته الفرائض . قال عطاء الخراسانى : مر رسول الله ﷺ بمجلس قد استعلى فيه الضحك فقال : « شوبوا مجلسكم بذكر مكدر اللذات » ، قالوا : وما مكدر اللذات ؟ قال: «الموت» . وقال أنس رضى الله عنه : قال رسول الله ﷺ : « أكثروا من ذكر الموت ؛ فإنه يمحص الذنوب ، ويزهد فى الدنيا ». وقال ﷺ : « كفى بالموت مفرقًا » . وقال ﷺ : « كفى بالموت واعظًا » .

وخرج رسول الله ﷺ إلى المسجد فإذا قوم يتحدثون ويضحكون فقال: « اذكروا الموت ، أما والذى نفسى بيده لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرًا » . وذُكر عند رسول الله ﷺ رجل فأحسنوا الثناء عليه ، فقال: «كيف ذكر صاحبكم للموت ؟ » قالوا : ما كنا نكاد نسمعه يذكر

الموت ، قال: «فإن صاحبكم ليس هنالك». وقال ابن عمر رضى الله عنهما : أتيت النبى ﷺ عاشر عشرة فقال رجل من الأنصار : من أكيس الناس ، وأكرم الناس يا رسول الله ؟ فقال : « أكثرهم ذكرًا للموت ، وأشدهم استعدادًا له ، أولئك هم الأكياس ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة » .

وقال الحسن رحمه الله تعالى : فضح الموت الدنيا فلم يترك لذى لب فرحًا .

وقال الربيع بن خيثم : ما غائب ينتظره المؤمن خيرًا له من الموت . وكان يقول : لا تشعروا بى أحدًا وسلونى إلى ربى سلا .

وكتب بعض الحكماء إلى رجل من إخوانه : يا أخى احذر الموت فى هذه الدار قبل أن تصير إلى دار تتمنى فيها الموت فلا تجده .

وكان ابن سيرين إذا ذكر عنده الموت مات عضو منه .

وكان عمر بن عبد العزيز يجمع كل ليلة الفقهاء فيتذاكرون الموت والقيامة والآخرة ثم يبكون حتى كأن بين أيديهم جنازة .

وقال إبراهيم التيمى : شيئان قطعا عنى لذة الدنيا : ذكر الموت ، والوقوف بين يدى الله عز وجل .

وقال كعب : من عرف الموت هانت عليه مصائب الدنيا وهمومها .

وقال مطرف : رأيت فيما يرى النائم كأن قائلاً يقول فى وسط مسجد البصرة : قطع ذكر الموت قلوب الخائفين ، فوالله ما تراهم إلا والهين .

وقال أشعث : كنا ندخل على الحسن فإنما هو يذكر النار ، وأمر الآخرة ، ويذكر الموت . وقالت صفية رضى الله عنها : إن امرأة اشتكت إلى عائشة رضى الله عنها قساوة قلبها فقالت: أكثرى ذكر الموت يرق قلبك، ففعلت ؛ فرق قلبها ، فجاءت تشكر عائشة رضى الله عنها .

وكان عيسى عليه السلام إذا ذكر الموت عنده يقطر جلده دمًا .

وكان داود عليه السلام إذا ذكر الموت والقيامة يبكى حتى تنخلع أوصاله ، فإذا ذكر الرحمة رجعت إليه نفسه .

وقال الحسن: ما رأيت عاقلاً قط إلا أصبته من الموت حذرًا عليه حزينًا .

وقال عمر بن عبد العزيز لبعض العلماء : عظنى ، فقال : أنت أول

خليفة تموت . قال : زدنى . قال : ليس من آبائك أحد إلى آدم إلا ذاق الموت . وقد جاءت نوبتك . فبكى عمر لذلك . وكان الربيع بن خيثم قد حفر قبرًا فى داره فكان ينام فيه كل يوم مرات يستديم بذلك ذكر الموت ، وكان يقول : لو فارق ذكر الموت قلبى ساعة واحدة لفسد .

وقال مطرف بن عبد الله بن الشخير : إن هذا الموت قد نغص على أهل النعيم نعيمهم ، فاطلبوا نعيمًا لا موت فيه .

وقال عمر بن عبد العزيز لعنبسة : أكثر ذكر الموت ، فإن كنت واسع العيش ضيقه عليك ، وإن كنت ضيق العيش وسعه عليك .

وقال أبو سليمان الدارانى : قلت لأم هارون : أتحبين الموت ؟ قالت : لا ، قلت : لم ؟ قالت : لو عصيت آدميا ما اشتهيت لقاءه ، فكيف أحب لقاءه ، وقد عصيته . وقال أبو موسى التميمى : لما توفيت امرأة الفرزدق ، خرج فى جنازتها وجوه البصرة ، وفيهم الحسن رضى الله عنه ، فقال الحسن: يا أبا فراس ماذا أعددت لهذا اليوم ؟ فقال : شهادة أن لا إله إلا الله منذ ستين سنة . فلما دفنت قام الفرزدق على قبرها . فقال :

أخاف وراء القبر إن لم تعافنى ... أشد من القبر التهابًا وأضيقا
إذا جاءنى يوم القيامة قائد ... عنيف وسواق يسوق الفرزدقا
لقد خاب من أولاد آدم من مشى ... إلى النار مغلوق القلادة أزرقا

وقد أنشد فى أهل القبور :

قف بالقبور وقل على ساحتها ... من منكم المغمور فى ظلماتها
ومن المكرم منكم فى قعرها ... قد ذاق برد الأمن من روعاتها
أما السكون لذى العيون فواحد ... لا يستبين الفضل فى درجاتها
لو جاوبوك لأخبروك بألسن ... تصف الحقائق بعد من حالاتها
أما المطيع فنازل فى روضة ... يفضى إلى ما شاء من دوحاتها
والمجرم الطاغى بها متقلب ... فى حفرة يأوى إلى حياتها
وعقارب تسعى إليه فروحه ... فى شدة التعذيب من لدغاتها

وقال مالك بن دينار : مررت بالمقبرة فأنشدت أقول :

أتيت القبور فناديتها ... فأين المعظم والمحتقر ؟
وأين المدل بسلطانه ... وأين المزكى إذا ما افتخر ؟

قال : فنوديت من بينها أسمع صوتًا ولا أرى شخصًا ، وهو يقول :

تفانوا جميعًا فما مخبر ... وماتوا جميعًا ومات الخبر
تروح وتغدو بنات الثرى ... فتمحو محاسن تلك الصور
فيا سائلي عن أناس مضوا ... أما لك فيما ترى معتبر

ووجد مكتوبًا على قبر :

تناجيك أحداث وهن صموت ... وسكانها تحت التراب خفوت
أيا جامع الدنيا لغير بلاغة ... لمن تجمع الدنيا وأنت تموت

وقال ابن السماك : مررت على المقابر ، فإذا على قبر مكتوب :

يمر أقاربي جنبات قبري ... كأن أقاربي لم يعرفوني
ذوو الميراث يقتسمون مالي ... وما يألون إن جحدوا ديوني
وقد أخذوا سهامهم وعاشوا ... فيا لله أسرع ما نسوني

ووجد على قبر مكتوبًا :

إن الحبيب من الأحباب محتبس ... لا يمنع الموت بواب ولا حرس
فكيف تفرح بالدنيا ولذتها ... يا من يعد عليه اللفظ والنفس ؟
أصبحت يا غافلاً في النقص منغمسًا ... وأنت دهرك في اللذات منغمس
لا يرحم الموت ذا جهل لغرته ... ولا الذي كان منه العلم يقتبس
كم أخرس الموت في قبر وقفت به ... عن الجواب لسانًا ما به خرس
قد كان قصرك معمورًا له شرف ... فقبرك اليوم في الأجداث مندرس

ووجد على قبر مكتوبًا :

وقفت على الأحبة حين صفت ... قبورهم كأفراس الرهان
فلئن بكيت وفاض دمعي ... رأت عيناي بينهم مكاني

ووجد على قبر طبيب مكتوبًا :

قد قلت لما قال لي قائل ... قد صار لقمان إلى رمسه
فأين من يوصف من طبه ... وحذقه في الماء مع جسه
هيهات لا يدفع عن غيره ... من كان لا يدفع عن نفسه

ووجد على قبر آخر مكتوبًا :

يا أيها الناس قد كان لي أمل ... قصر بي عن بلوغه الأجل
فليتق اللهَ ربه رجلٌ ... أمكنه في حياته العمل
ما أنا وحدي نقلت حيث ترى ... كل إلى مثله سينتقل

الباب التاسع والعشرون.. في

ذكر السموات والأجناس المختلفة

روى : أول ما خلق الله جوهرة ، فنظر إليها بنظر الهيبة ، فذابت وارتعدت من خوف ربها ، فصارت ماء ، ثم نظر إليها بنظر الرحمة ، فجمد نصفها ، فخلق منه العرش ، فارتعد العرش ، فكتب الله عليه : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فسكن العرش وترك الماء على حاله يرتعد إلى يوم القيامة ، وذلك قوله تعالى ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ﴾ [سورة هود : ٧] .

ثم تلاطم وتموج وصعدت منه أدخنة وارتفع بعضها متراكمًا على بعض، وكان له زبد، فخلق الله تعالى منه السموات والأرض طباقًا، فكانتا رتقًا ، فخلق الريح فيها فتفتق بين أطباق السماء وأطباق الأرض ، كما أخبر سبحانه وتعالى بقوله: ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ ﴾ [فصلت:١١] .

قال أهل الحكمة : إنما خلق الله تعالى السماء من دخان ، ولم يخلقها من بخار ؛ لأن الدخان خلق متماسك الأجزاء يستقر منتهاه ، والبخار متراجع . وذلك من كمال علمه سبحانه وحكمته ، ثم نظر تعالى إلى الماء بعين الرحمة فجمد ، كما جاء في الحديث .

فائدة : بين سماء الدنيا والأرض ، وكذا بين كل سماء وسماء خمسمائة عام . وغلظ كل سماء كذلك .

وقيل : إن **السماء الدنيا** : أشد بياضًا من اللبن ، وإنما اخضرت من خضرة جبل قاف . واسم تلك السماء رقيعة .

والثانية : من حديد تلألأ نورًا ، واسمها فيدوم أو ماعون .

والثالثة : من نحاس يقال لها : ملكوت أو هاريون .

والرابعة: من فضة بيضاء يكاد نورها يخطف الأبصار، واسمها: الزاهرة .

والخامسة : من ذهب أحمر يقال لها : المزينة أو المسهرة .

والسادسة : من جوهرة يتلألأ نورها ، واسمها الخالصة .

والسابعة : من ياقوتة حمراء واسمها اللابية أو الدامعة . وفيها البيت المعمور ، له أربعة أركان : ركن من ياقوتة حمراء ، وركن من زبرجدة خضراء ، وركن من فضة بيضاء ، وركن من ذهب .

وورد أن البيت المعمور من العقيق ، يدخله كل يوم سبعون ألفًا من الملائكة ، لا يعودون إليه إلى يوم القيامة .

والمعتمد : أن الأرض أفضل من السماء؛ لأن الأنبياء خلقوا منها ودفنوا فيها ، وأفضل طبقات الأرض : أعلاها لما ذكر لأنه محل انتفاع العالم .

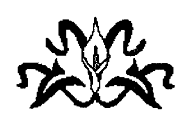
وعن ابن عباس : أفضل السموات هى التى يلى سقفها عرش الرحمن، وهى الكرسى لقربها من العرش ؛ ولأن جميع النجوم المنتفع بها مثبتة فيها غير السبعة السيارة . أما المثبتة فى السموات السبع : فزحل فى السابعة وهو ليوم السبت ، والمشترى فى السادسة وهو ليوم الخميس ، والمريخ فى الخامسة وهو ليوم الثلاثاء ، والشمس فى الرابعة وهو ليوم الأحد، والزهرة فى الثالثة وهى ليوم الجمعة ، وعطارد فى الثانية وهو ليوم الأربعاء ، والقمر فى الأولى وهو ليوم الاثنين .

نكتة لطيفة : من عجيب صنع البارى تبارك وتعالى أن خلق السموات السبع من دخان مع كون كل سماء لا تشبه صاحبتها، وأنزل من السماء ماء، فأخرج به من أنواع النبات والأثمار المختلفة اللون والطعم .

كما قال تعالى : ﴿ **وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ** ﴾ .

[الرعد : ٤] .

وخلق أولاد آدم على طبقات شتى منهم الأبيض والأسود، والسهل والحزن،والمؤمن والكافر ، والعالم والجاهل ، مع أن الأصل آدم . فسبحان من أتقن كل شىء خلقه .



الباب الثلاثون .. في

بيان الكرسي والعرش والملائكة المقربين والأرزاق والتوكل

قال الله تعالى : ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] قيل : كرسيه مجاز عن علمه ، وقيل : ملكه ، وقيل : الفلك المعروف ، وروى عليّ كرم الله وجهه : أن الكرسي لؤلؤة ، وطوله لا يعلمه إلا الله تعالى ، وفي الخبر : « ما السموات السبع والأرضون السبع من الكرسي إلا كحلقة في فلاة » وأخرج ابن ماجه : « أن السموات في جوف الكرسي ، والكرسي بين يدي العرش » .

وعن عكرمة : قال : الشمس جزء من سبعين جزءا من نور الكرسي ، والعرش جزء من سبعين جزءا من نور الستور ، يعني بها الحجب .

وورد : أن بين حملة العرش وحملة الكرسي سبعين حجابًا من ظلمة وسبعين حجابًا من نور ، كل حجاب مسيرة خمسمائة عام ، ولولا ذلك لاحترق حملة الكرسي من نورهم . والعرش جسم نوراني علوي فوق الكرسي ، فهو غيره . خلافًا للحسن البصري ، قيل : من ياقوتة حمراء ، وقيل : من جوهرة خضراء ، وقيل : من درة بيضاء ، وقيل : من نور . والأولى : الإمساك عن القطع بحقيقته ، ويسميه الفلكيون بالفلك التاسع ، والفلك الأعلى ، وفلك الأفلاك ، والفلك الأطلس ــ أي الخالي من الكواكب ــ إذ كلها على ما قال قدماء أهل الهيئة : ثوابت في الفلك الثامن ــ المسمى عندهم بفلك البروج ، وعند أهل الشرع بالكرسي ، والعرش سقف المخلوقات فلا شيء يخرج عن دائرته ، فهو في منتهى ، لا مجال للعباد للإدراك وراءه ، ولا مطلب لطالب فوقه . .

قال الله تعالى : ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ [التوبة : ١٢٩] وصفه بالعظيم ؛ لأنه

أعظم المخلوقات .

وقد تحلى ﷺ بالتوكل كما أمر ، ولذا سمى فى التوراة وغيرها بالمتوكل . كيف والتوكل فرع التوحيد والمعرفة ، وهو ﷺ سيد الموحدين ورأس العارفين ، ولا ينافى التوكل الأخذ فى الأسباب ، كما قد يتوهم ، بل هو أيضًا مأمور به ، فقد قال له ﷺ أعرابى : أأعقل ناقتى أم أتركها وأتوكل ؟ فقال : « اعقلها وتوكل » ، وقال ﷺ : « لو توكلتم على الله حق توكله ، لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصًا ــ أى جياعًا ــ وتروح بطانًا » ، أى شباعًا ، فأشار بقوله : « تغدو » إلى التسبب .

حكاية : التقى إبراهيم بن أدهم وشقيق البلخى بمكة ، فقال له إبراهيم: ما بدو أمرك الذى بلغك هذا ؟ قال : مررت ببعض الفلوات فرأيت طيرًا مكسور الجناحين فى فلاة فى الأرض ، فقلت : أنظر من يرزق هذا ؟ فقعدت بحذائه ، فإذا أنا بطير قد أقبل ، وفى منقاره جرادة ، فوضعها فى منقار الطير المكسور الجناحين ، فقلت لنفسى : إن الذى قيض هذا الطير لهذا الطير ، قادر أن يرزقنى حيث كنت ، فتركت التكسب واشتغلت بالعبادة ، فقال إبراهيم: ولم لا تكون أنت الطير الصحيح الذى أطعم الطير العليل حتى تكون أفضل منه ؟ أما سمعت عن النبى : « اليد العليا خير من السفلى ؟ »، ومن علامة المؤمن أن يطلب أعلى الدرجتين فى أموره كلها ، حتى يبلغ منازل الأبرار ، فأخذ شقيق البلخى بيد إبراهيم فقبلها ، وقال : أنت أستاذنا يا أبا إسحاق ، ثم إذا تسبب الإنسان فليجتهدن ألا ينظر إلى أسبابه ولا يقف عندها، بل يجعل مولاه مطمح نظره ، ومرمى قصده، كالسائل يقصد الناس بوعاء فى يده ولا ينظر إليه وإنما ينظر إلى الذين يعطونه ، وفى الحديث : «من سره أن يكون أغنى الناس ، فليكن بما عند الله أوثق منه بما فى يده » .

وقد قيل لحذيفة المرعشى-وكان قد خدم إبراهيم بن أدهم-: ما أعجب ما رأيت منه؟ فقال : بقينا فى طريق مكة أيامًا لم نجد طعامًا ثم دخلنا الكوفة فلوينا إلى مسجد خراب، فنظر إلىّ إبراهيم، وقال:يا حذيفة أرى بك الجوع؟ فقلت: هو ما رأى الشيخ، فقال : علىّ بدواة وقرطاس ، فجئت به فكتب

بعد البسملة : أنت المقصود بكل حال ، والمشار إليه بكل معنى . وكتب :

أنا حامد أنا شاكر أنا ذاكر أنا جائع أنا ضائع أنا عارى
هى ستة وأنا الضمين لنصفها فكن الضمين لنصفها يا بارى
مدحى لغيرك لهب نار خضتها فأجر عبيدك من دخول النار

ثم دفع الرقعة ، فقال : اخرج ، ولا تعلق قلبك بغير الله تعالى وادفع الرقعة إلى أول من يلقاك ، فخرجت ، فأول من لقينى كان رجلاً على بغلة فناولته الرقعة، فأخذها ، فلما وقف عليها بكى، وقال: ما فعل صاحب هذه الرقعة؟ فقلت : هو فى المسجد الفلانى ، فدفع إلىَّ صرة فيها ستمائة دينار ، ثم لقيت رجلاً آخر فسألته عن راكب البغلة ، فقال : هذا نصرانى . فجئت إلى إبراهيم وأخبرته بالقصة ، فقال : لا تمسها ؛ فإنه يجئ الساعة . فلما كان بعد ساعة دخل النصرانى ، وأكب على رأس إبراهيم يقبله وأسلم .

فائدة : قال ابن عباس : لما خلق الله تعالى حملة العرش . قال لهم : احملوا عرشى، فلم يطيقوا، فخلق مع كل واحد منهم مثل من فى السموات السبع من الملائكة. فقال: احملوا عرشى . فلم يطيقوا . فخلق مع كل واحد منهم مثل من فى السموات السبع من الملائكة ، ومن فى الأرض من الخلق ، وقال : احملوا عرشى ، فلم يطيقوا ، فقال : قولوا : لا حول ولا قوة إلا بالله . فلما قالوها حملوه . فنفذت أقدامهم فى الأرض السابعة على متن الريح ، فلما لم تستقر أقدامهم على شىء تمسكوا بالعرش، ولم يفتروا عن قولهم : لا حول ولا قوة إلا بالله ؛ خيفة أن ينقلب أحدهم فلا يعرف أين يهوى . فهم حاملون العرش وهو حاملهم . والكل محمول بالقدرة . وروى: من قال إذا أصبح وأمسى:«حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم - سبع مرات - كفاه الله تعالى ما أهمه صادقًا كان أو كاذبًا » ، وفى رواية : « كفاه الله تعالى ما أهمه من أمر آخرته ودنياه » .



الباب الحادى والثلاثون ..فى

ترك الدنيا وذمها

الآيات الواردة فى ذم الدنيا وأمثلتها كثيرة . وأكثر القرآن مشتمل على ذم الدنيا وصرف الخلق عنها ، ودعوتهم إلى الآخرة ، بل هو مقصود الأنبياء ــ عليهم الصلاة والسلام ــ ولم يبعثوا إلا لذلك . فلا حاجة إلى الاستشهاد بآيات القرآن لظهورها ، وإنما نورد بعض الأخبار الواردة فيها : فقد روى أن رسول الله ﷺ مرّ على شاة ميتة ، فقال : « أترون هذه الشاة هينة على أهلها ؟ » ، قالوا : من هوانها ألقوها ، قال : « والذى نفسى بيده للدنيا أهون على الله من هذه الشاة على أهلها ، ولو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرًا منها شربة ماء » .

وقال ﷺ : « الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر » . وقال رسول الله ﷺ : « الدنيا ملعونة ملعون ما فيها ، إلا ما كان لله منها » .

وقال أبو موسى الأشعرى : قال رسول الله ﷺ : « من أحب دنياه أضر بآخرته ، ومن أحب آخرته أضر بدنياه ، فآثر ما يبقى على ما يفنى » . وقال ﷺ : « حب الدنيا رأس كل خطيئة » .

وقال زيد بن أرقم : كنا مع أبى بكر الصديق رضى الله عنه فدعا بشراب فأتى بماء وعسل ، فلما دنا من فيه بكى حتى أبكى أصحابه ، وسكتوا وسكت ، ثم عاد وبكى حتى ظنوا أنهم لا يقدرون على مسألته ، قال : ثم مسح عينيه . فقالوا : يا خليفة رسول الله ما أبكاك ؟ قال : كنت مع رسول الله ﷺ فرأيته يدفع عن نفسه شيئًا ولم أر معه أحدًا ، فقلت : يا رسول الله ما الذى تدفع عن نفسك ؟ قال : « هذه الدنيا مثلت لى ، فقلت لها : إليك عنى . ثم رجعت ، فقالت : إنك أن أفلت منى ، لم يفلت منى من بعدك » .

وقال ﷺ : « يا عجبا كل العجب للمصدق بدار الخلود ، وهو يسعى

لدار الغرور » .

وروى أن رسول الله ﷺ وقف على مزبلة ، فقال : « هلموا إلى الدنيا » . وأخذ خرقًا قد بليت على تلك المزبلة وعظامًا قد نخرت ، فقال : « هذه الدنيا » ، وهذه إشارة إلى أن زينة الدنيا ستخلق مثل تلك الخرق ، وأن الأجسام التى ترى بها ستصير عظامًا بالية .

وقال ﷺ : « إن الدنيا حلوة خضرة ، وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون ، إن بنى إسرائيل لما بسطت لهم الدنيا ومهدت ، تاهوا فى الحلية والنساء والطيب والثياب » .

وقال عيسى عليه السلام : « لا تتخذوا الدنيا فتتخذكم عبيدًا ، أكنزوا عند من لا يضيعه، فإن صاحب كنز الدنيا يخاف عليه الآفة ، وصاحب كنز الله لا يخاف عليه الآفة » .

وقال عليه أفضل الصلاة والسلام[1] أيضًا : « يا معشر الحواريين إنى قد كببت لكم الدنيا على وجهها ، فلا تنعشوها بعدى ، فإن من خبث الدنيا أن عصى الله فيها ، وإن من خبث الدنيا أن الآخرة لا تدرك إلا بتركها ، ألا فاعبروا الدنيا ولا تعمروها ، واعلموا أن أصل كل خطيئة حب الدنيا ، ورب شهوة ساعة أورثت حزنًا طويلاً » . وقال أيضًا : « بطحت لكم الدنيا وجلستم على ظهرها ، فلا ينازعكم فيها إلا الملوك والنساء ، فأما الملوك فلا تنازعوهم الدنيا ، فإنهم لن يعرضوا لكم ما تركتموهم ودنياهم ، وأما النساء فاتقوهن بالصوم والصلاة ». وقال أيضًا : « الدنيا طالبة ومطلوبة ، فطالب الآخرة تطلبه الدنيا ، حتى يستكمل فيها رزقه ، وطالب الدنيا تطلبه الآخرة حتى يجىء الموت فيأخذ بعنقه » .

وقال أبو موسى بن يسار : قال النبى ﷺ : « إن الله عز وجل لم يخلق خلقًا أبغض إليه من الدنيا ، وأنه منذ خلقها لم ينظر إليها » .

وروى أن سليمان بن داود عليهما السلام مرّ فى موكبه والطير تظلله ، والجن والإنس عن يمينه وشماله ، قال : فمر بعابد من بنى إسرائيل ،

١) هو عيسى أيضا على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام .

فقال: والله يا ابن داود لقد آتاك الله ملكًا عظيمًا . قال : فسمع سليمان ، وقال : لتسبيحة فى صحيفة مؤمن خير مما أوتى ابن داود ، فأما ما أعطى ابن داود فإنه يذهب والتسبيحة تبقى .

وقال ﷺ : « ألهاكم التكاثر ، يقول ابن آدم : مالى مالى ، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت،أو تصدقت فأبقيت ؟ » .

وقال ﷺ : « الدنيا دار من لا دار له ، ومال من لا مال له ، ولها يجمع من لا عقل له ، وعليها يعادى من لا علم له ، وعليها يحسد من لا فقه له ، ولها يسعى من لا يقين له » .

وقال ﷺ : « من أصبح والدنيا أكثر همه ، فليس من الله فى شىء ، وألزم الله قلبه أربع خصال : هما لا ينقطع عنه أبدًا ، وشغلاً لا يتفرغ منه أبدًا ، وفقرًا لا يبلغ غناه أبدًا ، وأملاً لا يبلغ منتهاه أبدًا » .

وقال أبو هريرة : قال لى رسول الله ﷺ : « يا أبا هريرة ألا أريك الدنيا جميعها بما فيها؟ » ، فقلت : بلى يا رسول الله ، فأخذ بيدى وأتى بى واديًا من أودية المدينة ، فإذا مزبلة فيها رؤوس أناس وعذرات وخرق وعظام ثم قال : « يا أبا هريرة هذه رؤوس كانت تحرص كحرصكم ، وتأمل كتأملكم ، ثم هى اليوم عظام بلا جلد ، ثم هى صائرة رمادًا ، وهذه العذرات هى ألوان أطعمتهم اكتسبوها من حيث اكتسبوها ، ثم قذفوها فى بطونهم ، فأصبحت والناس يتحامونها ، وهذه الخرق البالية كانت رياشهم ولباسهم فأصبحت والرياح تصفقها ، وهذه العظام عظام دوابهم التى كانوا ينتجعون عليها أطراف البلاد ، فمن يك باكيًا على الدنيا فليبك » . قال : فما برحنا حتى اشتد بكاؤنا .

ويروى : أن الله عز وجل لما أهبط آدم إلى الأرض قال له : ابن للخراب ، ولد للفناء[1] .

وقال داود بن هلال : مكتوب فى صحف إبراهيم عليه السلام: يا دنيا

(١) وما أجمل ما قال الشاعر :

لدوا للموت وابنوا للخراب فكلكم يصير إلى تباب

ما أهـونك على الأبرار الذين تصنعت وتزينت لهم ، إنى قـذفت فى قلوبهم بغـضك والصـدود عنك ، وما خـلقت خلقًا أهون علىّ منك ، كل شـأنك صغيـر وإلى الفناء يصير ، قضيت عليـك يوم خلقتك أن لا تدومى لأحد ، ولا يدوم لك أحد، وإن بخل بك صاحبك وشح عليك، طوبى للأبرار الذين أطلعونى من قلوبهم على الرضـا،ومن ضميرهم على الصدق والاستـقامة ، طوبى لهم . مـا لهم عندى من الجـزاء إذا وفدوا إلىّ مـن قبـورهم إلا النور يسعى أمامهم ، والملائكة حافون بهم ، حتى أبلغهم ما يرجون من رحمتى .

وقال رسول الله ﷺ : « الدنيا موقوفة بين السماء والأرض منذ خلقها الله تعالى لم ينظر إليها ، وتقول يوم القيامة : يا رب اجعلنى لأدنى أوليائك اليوم نصـيبًا فيقول : اسكـتى يا لا شىء . إنى لم أرضك لهم فى الدنيا ، أأرضاك لهم اليوم » .

وروى فى أخبار آدم عليه السلام أنه لما أكل من الشـجرة تحركت معدته لخـروج الثقل ، ولم يكـن ذلك مجـعولاً فى شـىء من أطعمـة إلا فى هذه الشجـرة ، فلذلك نهيـا عن أكلها . قال : فـجعل يدور فى الجنة فـأمر الله تعالى ملكًا يخـاطبه . فقـال له : قل : أى شىء تريد ؟ قال آدم : أريد أن أضع ما فى بطنى من الأذى . فقيل للملك : قل له : فى أى مكان تريد أن تضـعه ؟ أعَلى الفـرش؟ أم على السـرر ؟ أم على الأنهـار ؟ أم تحت ظـلال الأشجار ؟ هل ترى ههنا مكانًا يصلح لذلك ؟ اهـبط إلى الدنيا .

وقال ﷺ : « ليجيئن أقوام يوم القيامة وأعمالهم كجبال تهامة ، فيؤمر بهم إلى النار » . قـالوا : يا رسـول الله مـصلين ؟ قـال : « نعم ، كـانوا يصلون ويصومون ويأخذون هنة من الـليل ، فإذا عرض لهم شىء من الدنيا وثبوا عليه » . وقال ﷺ فى بعض خطبه : « المؤمن بين مخـافتين بين أجل قد مـضى لا يدرى ما الله صانع فـيه ، وبين أجل قـد بقى لا يدرى ما الله قاض فيه ، فليتزود العبد من نفـسه لنفسه ، ومن دنياه لآخرته ، ومن حياته لموته ، ومن شبابه لهرمه ، فـإنها خلقت لكم وأنتم خلقتم للآخرة ، والذى نفسى بيـده ما بعد الموت من مسـتعتب ولا بعـد الدنيا من دار ، إلا الجنة أو النار » .

وقال عيسى عليه السلام : « لا يستقيم حب الدنيا والآخرة فى قلب المؤمن ، كما لا يستقيم الماء والنار فى إناء واحد » .

وروى أن جبريل عليه السلام قال لنوح عليه السلام : يا أطول الأنبياء عمرًا كيف وجدت الدنيا ؟ فقال : كدار لها بابان ، دخلت من أحدهما وخرجت من الآخر .

وقيل لعيسى عليه السلام : لو اتخذت بيتًا يكفك ، قال : يكفنا خلقان من كان قبلنا .

وقال نبينا ﷺ : « احذروا الدنيا فإنها أسحر من هاروت وماروت » .

وعن الحسن قال : خرج ﷺ ذات يوم على أصحابه فقال : « هل منكم من يريد أن يذهب الله عنه العمى ، ويجعله بصيرًا ؟ ألا إنه من رغب فى الدنيا وطال أمله فيها أعمى الله قلبه على قدر ذلك ، ومن زهد فى الدنيا وقصر فيها أمله أعطاه الله علمًا بغير تعلم ، وهدى بغير هداية ، إلا أنه سيكون بعدكم قوم لا يستقيم لهم الملك إلا بالقتل والتجبر ، ولا الغنى إلا بالفجر والبخل ، ولا المحبة إلا باتباع الهوى ، ألا فمن أدرك ذلك الزمان منكم فصبر على الفقر وهو يقدر على الغنى ، وصبر على البغضاء وهو يقدر على المحبة ، وصبر على الذل وهو يقدر على العز ، لا يريد بذلك إلا وجه الله تعالى ، أعطاه الله ثواب خمسين صديقًا ».

وروى أن عيسى عليه السلام اشتد عليه المطر والرعد والبرق يومًا ، فجعل يطلب شيئًا يلجأ إليه ، فوقعت عينه على خيمة من بعيد ، فأتاها ، فإذا فيها امرأة فحاد عنها ، فإذا هو بكهف فى جبل فأتاه ، فإذا فيه أسد ، فوضع يده عليه ، وقال : إلهى جعلت لكل شىء مأوى ، فأوحى الله تعالى إليه : مأواك فى مستقر رحمتى ، لأزوجنك يوم القيامة مائة حوراء خلقتها بيدى ، ولأطعمن فى عرسك أربعة آلاف عام ، يوم منها كعمار الدنيا ، ولآمرن مناديًا ينادى : أين الزهاد فى الدنيا ؟ زوروا عرس الزاهد فى الدنيا عيسى ابن مريم .

وقال عيسى ابن مريم عليه السلام : ويل لصاحب الدنيا ، كيف يموت

ويتركها وما فيها وتغره ويأمنها ، ويثق بها وتخذله ، وويل للمغترين كيف أرتهم ما يكرهون ، وفارقهم ما يحبون ، وجاءهم ما يوعدون ، وويل لمن الدنيا همه والخطايا عمله ، كيف يفتضح غداً ذنبه .

وقيل : أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام : يا موسى ما لك ولدار الظالمين ؟ إنها ليست لك بدار ، أخرج منها همك وفارقها بعقلك ، فبئست الدار هى إلا لعامل يعمل فيها فنعمت الدار ، يا موسى إنى مرصد للظالم حتى آخذ منه للمظلوم .

وروى : أن رسول الله ﷺ بعث أبا عبيدة بن الجراح فجاءه بمال من البحرين ، فسمعت الأنصار بقدوم أبى عبيدة فوافوا صلاة الفجر مع رسول الله ﷺ ، فلما صلى رسول الله ﷺ انصرف ، فتعرضوا له ، فتبسم رسول الله ﷺ حين رآهم ، ثم قال : « أظنكم سمعتم أن أبا عبيدة قدم بشىء ؟ »، قالوا : أجل يا رسول الله ، قال : « فأبشروا وأملوا ما يسركم ، فوالله ما الفقر أخشى عليكم ، ولكننى أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا ، كما بسطت على من كان قبلكم ، فتنافسوها كما تنافسوها ، فتهلككم كما أهلكتهم » .

وقال أبو سعيد الخدرى : قال رسول الله ﷺ : « إن أكثر ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من بركات الأرض » ، فقيل : ما بركات الأرض ؟ قال : « زهرة الدنيا » . وقال ﷺ : « لا تشغلوا قلوبكم بذكر الدنيا» فنهى عن ذكرها ، فضلاً عن إصابة عيبها .

وقال عمار بن سعيد : مرّ عيسى عليه السلام بقرية ، فإذا أهلها موتى فى الأبنية والطرق. فقال : يا معشر الحواريين إن هؤلاء ماتوا عن سخطة ، ولو ماتوا عن غير ذلك لدفنوا، فقالوا : يا روح الله وددنا لو علمنا خبرهم. فسأل الله تعالى فأوحى إليه : إذا كان الليل فنادهم يجيبوك ، فلما كان الليل أشرف على نشز ثم نادى : يا أهل القرية ، فأجابه مجيب : لبيك يا روح الله ، فقال : ما حالكم ؟ وما قصتكم ؟ قال : بتنا فى عافية وأصبحنا فى الهاوية ، قال : وكيف ذاك ؟ قال: بحبنا الدنيا وطاعتنا أهل المعاصى ، قال: وكيف كان حبكم للدنيا ؟ قال: حب الصبى لأمه ، إذا أقبلت فرحنا بها ،

وإذا أدبرت حزنا وبكينا عليها، قال فما بال أصحابك لم يجيبونى، قال: لأنهم ملجمون بلجم من نار بأيدى ملائكة غلاظ شداد، قال: فكيف أجبتنى أنت من بينهم؟ قال: لأنى كنت فيهم ولم أكن منهم، فلما نزل بهم العذاب أصابنى معهم، فأنا معلق على شفير جهنم لا أدرى أنجو منها أم أكبكب فيها ؟ .

فقال المسيح للحواريين : لأكل خبز الشعير بالملح الجريش ، ولبس المسوح والنوم على المزابل ، كثير مع عافية الدنيا والآخرة .

وقال أنس : كانت ناقة رسول الله ﷺ العضباء لا تسبق ، فجاء أعرابى بناقة له فسبقها، فشق ذلك على المسلمين ، فقال ﷺ : «إنه حق على الله أن لا يرفع شيئًا من الدنيا إلا وضعه» .

وقال عيسى عليه السلام :

من الذى يبنى على موج البحر دارًا ؟ تلكم الدنيا فلا تتخذوها قرارًا

وقيل لعيسى عليه السلام : علمنا علمًا واحدًا يحبنا الله عليه ، قال : ابغضوا الدنيا يحبكم الله تعالى .

وقال أبو الدرداء : قال رسول الله ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرًا » . أو :« لهانت عليكم الدنيا ، ولآثرتم الآخرة » .

ثم قال أبو الدرداء من قبل نفسه : لو تعلمون ما أعلم لخرجتم إلى الصعدات تجأرون وتبكون على أنفسكم ، ولتركتم أموالكم لا حارس لها ولا راجع إليها ، إلا ما لا بد لكم منه ، ولكن غيب عن قلوبكم ذكر الآخرة الأملُ ، فصارت الدنيا ملكًا بأعمالكم ، وصرتم كالذين لا يعلمون ، فبعضكم شر من البهائم التى لا تدع هواها ، مخافة مما فى عاقبته . ما لكم لا تحابون ولا تناصحون ، وأنتم إخوان ؟ ودين الله ما فرق بين أهوائكم إلا خبث سرائركم ، ولو اجتمعتم على البرّ لتحاببتم . ما لكم تناصحون فى أمر الدنيا ، ولا تناصحون فى أمر الآخرة ؟ ولا يملك أحدكم النصحية لمن يحبه ويعينه على أمر آخرته . ما هذا إلا من قلة الإيمان فى قلوبكم ، لو كنتم توقنون بخير الآخرة وشرها كما توقنون بالدنيا لآثرتم طلب الآخرة لأنها أملك لأموركم .

فإن قلتم : حب العاجلة غالب . فـإنا نراكم تدعون العاجل من الدنيا للآجل منهـا ، تكدون أنفسكم بالمشـقة والاحـتراف فى طلب أمـر لعلكم لا تدركونه ، فـبئس القوم أنتم مـا حققـتم إيمانكم بما يعرف به الإيمـان البالغ فيكم ، فـإن كنتم فى شك مما جاء به محـمد ﷺ فأتونا لنبين لكم ولنريكم من النور مـا تطمـئن إليـه قلوبكم ، والله مـا أنتم بالمنقـوصة عـقـولكم ، فنعذركم، إنكم تستـسيغون صواب الرأى فى دنيـاكم ، وتأخذون بالحزن فى أموركم ، ما لكم تفرحون باليسير من الدنيـا تصيبونه ، وتحزنون على اليسير منهـا يفـوتكم ، حـتى يتـبين ذلـك فى وجوهكـم ، ويظهر عـلى ألسنتكم وتسمـونها المصائب ، وتقـيمون فيـها المآتم ، وعامـتكم قد تركوا كثـير من دينهم، ثم لا يتبين ذلك فى وجوهكم ولا يتـغير حالكم ، إنى لأرى الله قد تبرأ منكم يلقى بعضكم بعضًا بالسرور ، وكلكم يكره أن يسـتقبل صاحبه بما أن يكره ، مخافة أن يستقبله صاحبه بمثله .

فأصبـحتم على الغل ، ونبتت مراعيكم على الأمل ، وتصـافيتم على رفض الأجل ، ولوددت أن الله تعـالى أراحنـى منكم ، وألحـقنى بمن أحب رؤيته ، ولو كان حيا لم يصابركم ، فإن كان فيكم خير فقد أسمعتكم ، وإن تطلبوا ما عند الله تجدوه يسيرًا ، وبالله أستعين على نفسى وعليكم .

وقال عيسـى عليه السلام : يا معشر الحـواريين ارضوا بدنىء الدنيا مع سلامة الدين ، كما رضى أهل الدنيا بدنئ الدين مع سلامة الدنيا .

وفى معناه قيل :

أرى رجالاً بأدنى الدين قد قنعـــوا   وما أراهم رضـوا فى العيـش بالدون
واستغنوا بالدين عـن دنيا المـلـــوك   كما استغنى الملوك بدنياهم عن الدين

وقال عيسى عليه السلام : يا طالب الدنيا لتبر ، وتركك الدنيا أبر .

وقال نبينا ﷺ : «لتأتيـنكم بعدى دنيا تأكـل إيمانكم كمـا تأكل النار الحطب » .

وأوحى الله تعـالى إلى موسى عليـه السلام : يا مـوسى لا تركنن إلى حب الدنيا ، فلن تأتينى بكبيرة هى أشد منها .

ومرّ موسى عليه السلام برجل وهو يبكى ، ورجع وهو يبكى ، فقال موسى : يا رب عبدك يبكى من مخافتك ، فقال : يا ابن عمران لو سال دماغه مع دمع عينه ورفع يديه حتى يسقطا، لم أغفر له، وهو يحب الدنيا .

الآثار : قال على رضى الله عنه : من جمع فيه ست خصال لم يدع للجنة مطلبًا ، ولا عن النار مهربًا ، من عرف الله فأطاعه ، وعرف الشيطان فعصاه ، وعرف الحق فاتبعه، وعرف الباطل فاتقاه، وعرف الدنيا فرفضها، وعرف الآخرة فطلبها .

وقال الحسن : رحم الله أقوامًا كانت الدنيا عندهم وديعة ، فأدوها إلى من ائتمنهم عليها، ثم راحوا خفافًا ، وقال أيضًا رحمه الله : من نافسك فى دينك فنافسه ، ومن نافسك فى دنياك فألقها فى نحره .

وقال لقمان عليه السلام لابنه : يا بنى إن الدنيا بحر عميق ، وقد غرق فيه ناس كثير ، فلتكن سفينتك فيها تقوى الله عز وجل ، وحشوها الإيمان بالله تعالى وشراعها التوكل على الله عز وجل ، لعلك تنجو ، وما أراك ناجيًا .

وقال الفضيل : طالت فكرتى فى هذه الآية : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا * وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ [الكهف : ٧ ـ ٨] .

وقال بعض الحكماء : إنك لن تصبح فى شىء من الدنيا ، إلا وقد كان له أهل قبلك ، وسيكون له أهل بعدك ، وليس لك من الدنيا إلا عشاء ليلة وغداء يوم . فلا تهلك فى أكلة ، وصم عن الدنيا وأفطر على الآخرة ، وإن رأس مال الدنيا الهوى ، وربحها النار .

وقيل لبعض الرهبان : كيف ترى الدهر ؟ قال : يخلق الأبدان ، ويجدد الآمال ، ويقرب المنية ، ويبعد الأمنية ، قيل : فما حال أهله ؟ قال: من ظفر به تعب ، ومن فاته نصب ، وفى ذلك قيل :

ومن يحمد الدنيا لعيش يسره ... فسوف لعمرى عن قليل يلومها
إذا أدبرت كانت على المرء حسرة ... وإن أقبلت كانت كثيرًا همومها

وقال بعض الحكماء : كانت الدنيا ولم أكن فيها ، وتذهب الدنيا ولا أكون فيها ، فلا أسكن إليها ، فإن عيشها نكد ، وصفوها كدر ، وأهلها منها على وجل ، إما بنعمة زائلة ، أو بلية نازلة ، أو منية قاضية .

وقال بعضهم : عيب من الدنيا أنها لا تعطى أحدًا ما يستحق لكنها إما أن تزيد وإما أن تنقص .

وقال سفيان : أما ترى النعم كأنها مغضوب عليها ، قد وضعت فى غير أهلها .

وقال أبو سليمان الداراني : من طلب الدنيا على المحبة لها ، لم يعط منها شيئًا إلا أراد أكثر ، ومن طلب الآخرة على المحبة لها ، لم يعط منها شيئًا إلا أراد أكثر ، وليس لهذا غاية ولا لهذا غاية .

وقال رجل لأبى حازم : أشكو إليك حب الدنيا وليست لى بدار . فقال : انظر ما آتاكه الله عز وجل منها فلا تأخذه إلا من حله ، ولا تضعه إلا فى حقه ، ولا يضرك حب الدنيا ، وإنما قال هذا لأنه لو آخذ نفسه بذلك لأتعبه حتى يتبرم بالدنيا ويطلب الخروج منها .

وقال يحيى بن معاذ : الدنيا حانوت الشيطان فلا تسرق من حانوته شيئًا ، فيجيء فى طلبه فيأخذك .

وقال الفضيل : لو كانت الدنيا من ذهب يفنى ، والآخرة من خزف يبقى ، لكان ينبغى لنا أن نختار خزفًا يبقى على ذهب يفنى . فكيف وقد اخترنا خزفًا يفنى على ذهب يبقى .

وقال أبو حازم : إياكم والدنيا ؛ فإنه بلغنى أنه يوقف العبد يوم القيامة إذا كان معظمًا للدنيا ، فيقال : هذا أعظم ما حقره الله .

وقال ابن مسعود : ما أصبح أحد من الناس إلا وهو ضيف وماله عارية . فالضيف مرتحل والعارية مردودة ، وفى ذلك قيل :

وما المال والأهلون إلا وديعة ... ولا بد يومًا أن ترد الودائع

وزار « رابعة » أصحابها ، فذكروا الدنيا فأقبلوا على ذمها ، فقالت : اسكتوا عن ذكرها ، فلولا موقعها من قلوبكم ما أكثرتم من ذكرها ، ألا من

أحب شيئًا أكثر من ذكره .

وقيل لإبراهيم بن أدهم : كيف أنت ؟ فقال :

نرقـــع دنيانا بتمزيق ديننا فلا ديننا يبقى ولا ما نرقع
فطوبى لعبد آثر الله ربه وجاد بدنياه لما يتوقع

وقيل أيضًا فى ذلك :

أرى طالب الدنيا وإن طال عمره ونال من الدنيا سرورًا وأنعما
كبان بنى بنيانه فأقامه فلما استوى ما قد بناه تهدّما

وقيل أيضًا فى ذلك :

هب الدنيا تساق إليك عفوًا أليس مصير ذاك إلى انتقال ؟
وما دنياك إلا مثل فىء أظلك ثم آذن بالزوال

وقال لقمان لابنه : يا بنى بع دنياك بآخرتك تربحهما جميعًا ، ولا تبع آخرتك بدنياك ، تخسرهما جميعًا .

وقال مطرف بن الشخير : لا تنظر إلى خفض عيش الملوك ولين رياشهم ، ولكن انظر إلى سرعة ظعنهم وسوء منقلبهم .

وقال ابن عباس: إن الله تعالى جعل الدنيا ثلاثة: جزء للمؤمن، وجزء للمنافق ، وجزء للكافر ، فالمؤمن يتزود ، والمنافق يتزين ، والكافر يتمتع .

وقال بعضهم : الدنيا جيفة فمن أراد منها شيئًا فليصبر على معاشرة الكلاب ، وفى ذلك قيل :

يا خاطب الدنيا إلى نفسها تنح عن خطبتها تسلم
إن التى تخطب غدارة قريبة العرس من المأتم

وقال أبو الدرداء : من هوان الدنيا على الله أنه لا يعصى الله إلا فيها، ولا ينال ما عنده إلا بتركها . وفى ذلك قيل:

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت له عن عدو فى ثياب صديق

وقيل أيضًا :

يا راقد الليل مسرورًا بأوله إن الحوادث قد يطرقن أسحارا
أفنى القرون التى كانت منعمة كرّ الجديدين إقبالاً وإدبارا

كم قد أبادت صروف الدهر من ملك ... قـد كان فى الدهر نفاعًا وضرارًا
يا من يعـانق دنيا لا بـــقـاء لهـا ... يمسى ويصبح فى دنياه سـفارا
هلا تركت من الدنيـا معـانقـة ... حـتى تعانق فى الفـردوس أبكارا
إن كنت تبـغـى جنان الخلد تسكنهـا ... فيـنبـغى لـك أن لا تأمن النارا

وقال أبو أمامة الباهلى رضى الله عنه : لما بعث محمد ﷺ أتت إبليس جنوده فقالوا : قـد بعث نبى وأخرجت أمة . قال: يحبـون الدنيا ؟ قالوا : نعم ، قال : لئن كانوا يحبون الدنيا ما أبالى إلا أن لا يعبدوا الأوثان . وإنما أغدو عليهم وأروح بثلاث : أخذ المال من غير حقه ، وإنفاقه فى غير حقه ، وإمساكه عن حقه ، والشر كله من هذا نبع .

وقال رجل لعلىّ كـرم الله وجهه : يا أميـر المؤمنين صف لى الدنيا ، قال : وما أصف لك من دار ، من صـح فيها سقم ، ومن أمن فـيها ندم ، ومن افتقر فيها حزن ، ومن استـغنى فيها افتتن . فى حلالها الحساب ، وفى حرامها العقـاب ، وفى متشابهها العتاب ، وقـيل له ذلك مرة أخرى فقال : أطول أم أقصر ؟ فقال : حلالها حساب ، وحرامها عذاب .

وقال مالك بن دينار : اتقـوا السحارة ، فإنها تسـحر قلوب العلماء ـ يعنى الدنيا ـ .

وقال أبو سليـمان الدارانى : إذا كانت الآخرة فى القلب جـاءت الدنيا تزاحمـها ، فإذا كـانت الدنيا فى القلب لم تزاحـمها الآخـرة ؛ لأن الآخرة كريمة والدنيا لئيمة . وهذا تشديد عظيم ، ونرجو أن يكون ما ذكره سيار بن الحكم صحيـح إذ قال : الدنيا والآخرة يجتـمعان فى القلب ، فأيـهما غلب كـان الآخر تبعًا له .

وقـال مالك بن دينار : بقـدر ما تحـزن للدنيـا يخرج هم الآخـرة من قلبك، وبقدر ما تحزن للآخرة يخـرج هم الدنيا من قلبك ، وهذا اقتباس مما قاله علىّ كـرم الله وجهـه حيث قال : « الدنيـا والآخرة ضـرتان فبقـدر ما ترضى إحداهما تسخط الأخرى » .

وقال الحـسن : والله لقد أدركت أقـوامًا كانت الدنيا أهون عـليهم من

التراب الذى يمشون عليه ، ما يسألون أشرقت الدنيا أم غربت ؟ ذهبت إلى ذا أو ذهبت إلى ذا ؟ .

وقال رجل للحسن : ما تقول فى رجل آتاه الله مالاً ، فهو يتصدق منه ويصل منه أيحسن له أن يتعيش فيه ؟ يعنى يتنعم ، فقال : لا ، لو كانت له الدنيا كلها ، ما كان له منها إلا الكفاف ، ويقدم ذلك ليوم فقره .

وقال الفضيل : لو أن الدنيا بحذافيرها عرضت علىَّ حلالاً ، لا أُحاسب عليها فى الآخرة لكنت أتقذرها كما يتقذر أحدكم الجيفة إذا مر بها أن تصيب ثوبه .

وقيل : لما قدم عمر رضى الله عنه الشام استقبله أبو عبيدة بن الجراح على ناقة مخطومة بحبل فسلم وسار معه ثم أتى منزله فلم ير فيه إلا سيفه وترسه ورحله ، فقال له عمر رضى الله عنه : لو اتخذت متاعًا ، فقال : يا أمير المؤمنين إن هذا يبلغنا المقيل .

وقال سفيان : خذ من الدنيا لبدنك ، وخذ من الآخرة لقلبك . وقال الحسن : والله لقد عبدت بنو إسرائيل الأصنام بعد عبادتهم الرحمن بحبهم للدنيا . وقال وهب : قرأت فى بعض الكتب : الدنيا غنيمة الأكياس ، وغفلة الجهال ، لم يعرفوها حتى خرجوا منها ، فسألوا الرجعة فلم يرجعوا. وقال لقمان لابنه : يا بنى إنك استدبرت الدنيا من يوم نزلتها ، واستقبلت الآخرة فأنت إلى دار تقرب منها أقرب من دار تباعدت عنها .

وقال سعيد بن مسعود : إذا رأيت العبد تزداد دنياه وتنقص آخرته ، وهو به راضٍ فذلك المغبون الذى يلعب بوجهه وهو لا يشعر . وقال عمرو ابن العاص على المنبر : والله ما رأيت قومًا قط أرغب فيما كان رسول الله ﷺ يزهد فيه منكم ، والله ما مرّ برسول الله ﷺ ثلاث إلا والذى عليه أكثر من الذى له .

وقال الحسن بعد أن تلا قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ [لقمان: ٣٣] من قال ذا ، قيل له : من خلقها ومن هو أعلم بها ؟ إياكم وما شغل من الدنيا ؛ فإن الدنيا كثيرة الأشغال ، لا يفتح رجل على نفسه باب

شغل إلا أوشك ذلك الباب أن يفتح عليه عشرة أبواب .

وقال أيضًا : مسكين ابن آدم ، رضى بدار حلالها حساب ، وحرامها عذاب ، إن أخذه من حلال حوسب به ، وإن أخذه من حرام عذب به ، ابن آدم يستقل ماله ولا يستقل عمله ، يفرح بمصيبته فى دينه ، ويجزع من مصيبته فى دنياه .

وكتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز : **سلام عليك .**

أما بعد : فكأنك بآخر من كتب عليه الموت قد مات .

فأجابه عمر : **سلامٌ عليك .**

كأنك بالدنيا ولم تكن ، وكأنك بالآخرة لم تزل .

وقال الفضيل بن عياض : الدخول فى الدنيا هين ، ولكن الخروج منها شديد .

وقال بعضهم : عجبًا لمن يعرف أن الموت حق ، كيف يفرح ؟ وعجبًا لمن يعرف أن النار حق ، كيف يضحك ؟ وعجبًا لمن رأى تقلب الدنيا بأهلها كيف يطمئن إليها ؟ وعجبًا لمن يعلم أن القدر حق كيف ينصب ؟ .

وقدم على معاوية رضى الله عنه رجل من نجران عمره مائتا سنة ، فسأله عن الدنيا كيف وجدها ؟ فقال : سنيات بلاء ، وسنيات رخاء ، ويوم فيوم ، وليلة فليلة ، يولد ولد ، ويهلك هالك . فلولا المولود لباد الخلق ، ولولا الهالك لضاقت الدنيا بمن فيها . فقال له : سل ما شئت، قال : عمر مضى فترده ، أو أجل حضر فتدفعه ؟ قال : لا أملك ذلك ، قال : لا حاجة لى إليك .

وقال داود الطائى رحمه الله : يا ابن آدم فرحت ببلوغ أملك ، وإنما بلغته بانقضاء أجلك ، ثم سوفت بعملك كأن منفعته لغيرك .

وقال بشر : من سأل الله الدنيا فإنما يسأله طول الوقوف بين يديه .

وقال أبو حازم : ما فى الدنيا شىء يسرك إلا وقد ألصق الله إليه شيئًا يسوءك .

وقال الحسن : لا تخرج نفس ابن آدم من الدنيا إلا بحسرات ثلاث ،

أنه لم يشبع مما جمع ، ولم يدرك ما أمل ، ولم يحسن الزاد لما قدم عليه .

وقيل لبعض العباد : قد نلت الغنى ، فقال : إنما ينال الغنى من عتق من رق الدنيا .

وقال أبو سليمان : لا يصبر عن شهوات الدنيا إلا من كان فى قلبه ما يشغله بالآخرة .

وقال مالك بن دينار : اصطلحنا على حب الدنيا ، فلا يأمر بعضنا بعضًا ، ولا ينهى بعضنا بعضا ، ولا يدعنا الله على هذا ، فليت شعرى أى عذاب الله ينزل علينا .

وقال أبو حازم : يسير الدنيا يشغل عن كثير الآخرة .

وقال أبو الحسن : أهينوا الدنيا ، فوالله ما هى لأحد بأهنأ منها لمن أهانها . وقال أيضًا : إذا أراد الله بعبد خيرًا أعطاه من الدنيا عطية ، ثم يمسك، فإذا نفد أعاد عليه ، وإذا أهان عليه عبد بسط له الدنيا بسطًا .

وكان بعضهم يقول فى دعائه : يا ممسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنك ، أمسك الدنيا عنى .

وقال محمد بن المنكدر : أرأيت لو أن رجلاً صام الدهر لا يفطر ، وقام الليل لا ينام ، وتصدق بماله وجاهد فى سبيل الله ، واجتنب محارم الله ، غير أنه يؤتى به يوم القيامة فيقال : إن هذا عظم فى عينيه ما صغره الله ، وصغر فى عينيه ما عظمه الله ، كيف ترى يكون حاله ؟ فمن منا ليس هكذا ؟ الدنيا عظيمة عنده مع ما اقترفنا من الذنوب والخطايا .

وقال أبو حازم : اشتدت مئونة الدنيا والآخرة ، فأما الآخرة فإنك لا تجد عليها أعوانًا ، وأما مئونة الدنيا فإنك لا تضرب بيدك إلى شىء منها ، إلا وجدت فاجرًا قد سبقك إليه .

وقال أبو هريرة : الدنيا موقوفة بين السماء والأرض ، كالشن البالى تنادى ربها منذ خلقها إلى يوم يفنيها : يا رب ، يا رب ، لم تبغضنى ؟ فيقول لها : اسكتى يا لا شىء .

وقال عبد الله بن المبارك : حب الدنيا والذنوب فى القلب قد احتوشته

فمتى يصل الخير إليه ؟ .

وقال وهب بن منبه : من فرح قلبه بشيء من الدنيا ، فقد أخطأ الحكمة ، ومن جعل شهوته تحت قدميه فرق الشيطان من ظله ، ومن غلب علمه هواه فهو الغالب .

وقيل لبشر : مات فلان . فقال : جمع الدنيا وذهب إلى الآخرة ، وضيع نفسه . قيل له : إنه كان يفعل ويفعل . وذكروا أبوابًا من البرّ . فقال: وما ينفع هذا وهو يجمع الدنيا .

وقال بعضهم : الدنيا تبغض إلينا نفسها ونحن نحبها . فكيف لو تحببت إلينا .

وقيل لحكيم : الدنيا لمن هى ؟ قال : لمن تركها ، فقيل : الآخرة لمن هى ؟ قال : لمن طلبها .

وقال حكيم : الدنيا دار خراب وأخرب منها قلب من يعمرها ، والجنة دار عمران وأعمر منها قلب من يطلبها .

وقال الجنيد : كان الشافعى رحمه الله من المريدين الناطقين بلسان الحق فى الدنيا ، وقد وعظ أخًا له فى الله وخوفه بالله ، فقال : يا أخى إن الدنيا مرحض مزلة ودار مذلة ، عمرانها إلى الخراب صائر ، وساكنها إلى القبور زائر ، شملها على الفرقة موقوف ، وغناها إلى الفقر مصروف ، والإكثار فيها اعتبار ، والإعسار فيها يسار ، فافزع إلى الله وارض برفق الله ، لا تتسلف من دار فنائك إلى دار بقائك ، فإن عيشك فىء زائل وجدار مائل ، أكثر من عملك وأقصر من أملك .

وقال إبراهيم بن أدهم لرجل : أدرهم فى المنام أحب إليك أم دينار فى اليقظة ؟ فقال : دينار فى اليقظة . فقال : كذبت . لأن الذى تحبه فى الدنيا كأنك تحبه فى المنام ، والذى لا تحبه فى الآخرة كأنك لا تحبه فى اليقظة .

وعن إسماعيل بن عياش قال: كان أصحابنا يسمون الدنيا خنزيرة. فيقولون : إليك عنا يا خنزيرة، فلو وجدوا لها اسمًا أقبح من هذا لسموها به . وقال كعب : لتحببن إليكم الدنيا حتى تعبدوها و أهلها .

وقال يحيى بن معاذ الرازى رحمه الله تعالى : العقلاء ثلاثة : من ترك الدنيا قبل أن تتركه ، وبنى قبراً قبل أن يدخله ، وأرضى خالقه قبل أن يلقاه .

وقال أيضًا : الدنيا بلغ من شؤمها أن تمنيك لها يلهيك عن طاعة الله . فكيف الوقوع فيها ؟ .

وقال بكر بن عبد الله : من أراد أن يستغنى عن الدين بالدنيا كان كمطفىء النار بالتبن .

وقال بندار : إذا رأيت أبناء الدنيا يتكلمون فى الزهد ، فاعلم أنهم فى سخرة الشيطان .

وقال أيضًا : من أقبل على الدنيا أحرقته نيرانها – يعنى الحرص – حتى يصير رمادًا ، ومن أقبل على الآخرة صفته بنيرانها ، فصار سبيكة ذهب ينتفع به ، ومن أقبل على الله عز وجل أحرقته نيران التوحيد ، فصار جواهر لا حدَّ لقيمته .

وقال علىّ كرم الله وجهه : إنما الدنيا ستة أشياء : مطعوم ، ومشروب، وملبوس ، ومركوب ، ومنكوح ، ومشموم ، فأشرف المطعومات: العسل ، وهو مذقة ذباب ، وأشرف المشروبات الماء ويستوى فيه البر والفاجر ، وأشرف الملبوسات الحرير وهو نسج دودة ، وأشرف المركوبات الفرس وعليه يقتل الرجال ، وأشرف المنكوحات المرأة وهى مبال فى مبال وإن المرأة لتزين أحسن شىء منها ، ويراد أقبح شىء منها وأشرف المشمومات المسك - وهو دم - .



الباب الثاني والثلاثون ..في

ذم الدنيا أيضًا

قال بعضهم : يا أيها الناس اعملوا على مهل ، وكونوا من الله على وجل ، ولا تغتروا بالأمل ونسيان الأجل ، ولا تركنوا إلى الدنيا فإنها غدارة خداعة ، قد تزخرفت لكم بغرورها ، وفتنتكم بأمانيها ، وتزينت لخطابها ، فأصبحت كالعروس المجلية ، العيون إليها ناظرة ، والقلوب عليها عاكفة ، والنفوس لها عاشقة ، فكم من عاشق لها قتلت ، ومطمئن إليها خذلت ؟ فانظروا إليها بعين الحقيقة ، فإنها دار كثير بوائقها ، وذمها خالقها ، جديدها يبلى ، وملكها يفنى ، وعزيزها يذل ، وكثيرها يقل ، ودّها يموت ، وخيرها يفوت ، فاستيقظوا رحمكم الله من غفلتكم ، وانتبهوا من رقدتكم، قبل أن يقال : فلان عليل مدنف ثقيل ، فهل على الدواء من دليل ؟ أو هل إلى الطبيب من سبيل ؟ فتدعى لك الأطباء ، ولا يرجى لك الشفاء ، ثم يقال : فلان أوصى ، ولماله أحصى .

ثم يقال: قد ثقل لسانه، فما يكلم إخوانه، ولا يعرف جيرانه ، وعرق عند ذلك جبينك ، وتتابع أنينك وثبت يقينك وطمحت جفونك ، وصدقت ظنونك وتلجلج لسانك وبكى إخوانك ، وقيل لك هذا ابنك فلان، وهذا أخوك فلان، ومنعت من الكلام فلا تنطق، وختم على لسانك فلا ينطلق، ثم حل بك القضاء وانتزعت نفسك من الأعضاء، ثم عرج بها إلى السماء فاجتمع عند ذلك إخوانك وأحضرت أكفانك، فغسلوك وكفنوك، فانقطع عوادك واستراح حسادك،وانصرف أهلك إلى مالك،وبقيت مرتهنًا بأعمالك .

وقال بعضهم لبعض الملوك : إن أحق الناس بذم الدنيا وقلاها من بسط له فيها ، وأعطى حاجته منها ؛ لأنه يتوقع آفة تعدو على ماله فتجتاحه ، أو على جمعه فتفرقه ، أو تأتي سلطانه فتهدمه من القواعد أو تدب إلى جسمه فتسقمه أو تفجعه بشيء وهو ضنين به بين أحبابه .

فالدنيا أحق بالذم ، هي الآخذة ما تعطي ، الراجعة فيما تهب ، بينا

هى تضحك صاحبها، إذ أضحكت منه غيره، وبينا هى تبكى له إذ أبكت عليه وبينا هى تبسط كـفه بالإعطاء ، إذ بسطتـها بالاسترداد ، فـتعقـد التاج على رأس صاحبها اليوم، وتعفـره فى التراب غدًا. سواء عليها ذهاب ما ذهب ، وبقاء ما بقى، تجد فى الباقى من الذاهب خلفًا وترضى بكل من كل بدلاً .

وكتب الحسن البصرى إلى عمر بن عبد العزيز :

أما بعد :

فإن الدنيـا دار ظعن ليست بدار إقامة ، وإنما أنزل آدم عليـه السلام من الجنة إليها عقوبة ، فاحذرها يا أمير المؤمنين ؛ فإن الزاد منها تركها ، والغنى منها فقرها ، لها فى كل حين قتـيل ، تذل من أعزها ، وتفقر من جمعها ، هى كالسم ، يأكله من لا يـعرفه وفيـه حتفه، فـكن فيها المداوى جـراحه ، يحتمى قلـيلاً مخافة مـا يكن به طويلاً ، ويصبر على شدة الدواء ، مـخافة طول الداء ، فـاحذر هذه الدار الغـدارة الختـالة الخـداعة ، التى قـد تزينت بخداعها ، وفتنت بغرورها ، وحلت بآمالها ، وسوفت بخطابها ، فأصبحت كالعروس المجلية ، العيون لهـا ناظرة ، والقلوب عليها والهة ، والنفوس لها عاشقة ، وهى لأزواجها كلهم قالية ، فـلا الباقى بالماضى معتبر ، ولا الآخر بالأول مزدجر ، ولا العارف بالله عز وجل حين أخـبره عنها مدكر ، فعاشق لها قد ظفر منها بحاجته ، فاغتر وطغى ، ونسى المعاد ، فشغل فيها لبه حتى زلت به قدمه ، فـعظمت ندامته وكثـرت حسرته ، واجتمـعت عليه سكرات الموت وتألمه ، وحسرات الموت بغصته ، وراغب فيها لم يدرك منها ما طلب، ولم يروح نفسه من التعب ، فخرج بغير زاد ، وقدم على غير مهاد .

فاحـذرها يا أمير المؤمنيـن ، وكن أسر ما تكون فـيها أحـذر ما تكون لها، فإن صاحب الدنيا كلما اطمأن منها إلى سرور ، أشخصته إلى مكروه ، والضار فى أهلهـا غار ، والنافع فـيها غـدار ضار ، وقد وصل الرخـاء منها بالبلاء ، وجعل البقاء فيهـا إلى فناء ، فسرورها مشوب بالأحزان ، لا يرجع منها ما ولّى وأدبر ، ولا يدرى ما هو آت فينتظر . أمانيها كاذبة وآمالها باطلة وصفوها كدر ، وعيشها نكد ، وابن آدم فيها على خطر ، إن عقل ونظر فهو

من النعمـاء على خطر ، ومن البلاء على حـذر ، فلو كان الخالق لم يخـبر عنهـا خبراً ، ولـم يضرب لـهـا مثـلاً ، لكانت الدنيا قـد أيقظت النائم ، ونبـهت الغافل ، فكيف وقـد جاء مـن الله عز وجل عنهـا زاجر ، وفـيهـا واعظ، فما لهـا عند الله جل ثناؤه قدر ، وما نظر إليها منذ خلقـها ، ولقد عرضت على نبيك ﷺ بمفاتيحـها وخزائنها ، لا ينقـصه ذلك عند الله جناح بعوضـة ، فأبى أن يقبلهـا ، أذكره أن يخالف على الله أمـره ، أو يحب ما أبغضه خالقـه ، أو يرفع ما وضعه مليكه ، فزواها عن الصالحـين اختبارًا ، وبسطها لأعدائه اغترارًا ، فيظن المغرور بها المقتدر عليها أنه أكرم بها ، ونسى ما صنع الله عز وجل بمحمد ﷺ حين شد الحجر على بطنه .

ولقد جاءت الرواية عنه عن ربه جل وعز أنه قال لموسى عليه السلام : إذا رأيت الغنى مقـبلاً ، فقل ذنب عجلت عقـوبته ، وإذا رأيت الفقر مـقبلاً فقل مرحبًا بشعار الصالحـين . وإن شئت اقتديت بصاحب الروح والكلمة ، عيـسى ابن مريم عليـه السلام ، فإنه كـان يقول : إدامى الجوع ، وشـعارى الخوف ، ولباسى الصوف، وصلائى فى الشـتاء الشمس ، وسراجى القمر ، ودابتى رجلاى ، وطعامى وفاكـهتى ما أنبتت الأرض ، أبيت وليس لى شيء وأصبح وليس لى شيء وليس على الأرض أحد أغنى منى .

وقال وهب بن منبـه : لما بعث الله عز وجل مـوسى وهارون عليهـما السلام إلى فرعـون ، قال : لا يروعنكما لباسه الـذى لبس من الدنيا ؛ فإن ناصيته بيدى ليس ينطق ولا يطرف ولا يـتنفس إلا بإذنى ، ولا يعجبنكما ما تمتع به منها فإنما هو زهرة الحياة الدنيـا وزينة المترفين ، فلو شئت أن أزينكما بزينة من الدنيـا يعرف فـرعون حين يراهـا أن قدرته تعجـز عمـا أوتيتـما ، لفعلـت، ولكنى أرغب بكما عن ذلك فـأزوى ذلك عنكما ، وكـذلك أفعل بأوليائى إنى لأذودهم عن نعـيمها كـما يذود الراعى الشفيق غنمـه من مراتع الهلكة ، وإنى لأجنبـهم ملاذها كـما يجـنب الراعى الشفـيق إبله عن منازل الغرة ، ومـا ذاك لهوانهم علىّ ولكن ليـستكملوا نصيـبهم من كرامـتى سالمًا موفرًا ، إنما يتـزين لى أوليائى بالذل والخوف والخضـوع ، والتقوى تنبت فى قلوبهم وتظهـر على أجـسادهم ، فـهى ثيابهم الـتى يلبسـون ودثارهم الذى

يظهرون ، وضميرهم الذى يستشعرون ، ونجاتهم التى يفوزون ، ورجاؤهم الذى إياه يأملون ، ومجدهم الذى به يفخرون ، وسيماهم التى بها يعرفون ، فإذا لقيتهم فاخفض لهم أجناحك وذلل لهم قلبك ولسانك .

واعلم : أنه من أخاف لى وليـا فقد بارزنى بالمحـاربة ، ثم أنا الثائر له يوم القيامة .

وخطب علىّ كرم الله وجـهه يومًا خطبة ، فـقال فيهـا : اعلموا أنكم ميتون مبعوثون من بعد الموت ، وموقوفون على أعمالكم ومجزيون بها ، فلا تغرنكم الحياة الدنيا؛ فإنها بالبلاء محفوفة وبالفناء معروفة، وبالنذر موصوفة، وكل ما فيها إلى زوال ، وهى بين أهلها دول وسجال ، لا تدوم أحوالها ولا يسلم من شرها نزالهـا ، بينا أهلها منها فى رخاء وسـرور ، إذا هم منها فى بلاء وغرور ، وأحوال مختلفة وتارات منصرفة ، العيش فيها مذموم والرخاء فيـها لا يدوم . وإنما أهلها فـيها أغـراض مستهـدفة ، ترميـهم بسهامـها ، وتقصيهم بحمامها ، وكل حتفه فيها مقدور ، وحظه فـيها موفـور .

واعلموا عبـاد الله أنكم وما أنتم عليه من هذه الدنيـا ، على سبيل من قد مـضى ممن كان أطول منـكم أعمارًا ، وأشـد منكم بطشًا وأعـمر ديارًا ، وأبعـد آثارًا ، فأصـبحت أصـواتهم هامدة خـامدة من بعـد طور تقلبـها ، وأجسادهم بالية ، وديارهم على عروشها خاوية ، وآثارهم عافية ، واستبدلوا بالقصور المـشيدة والسرر والنمارق المـمهدة ، الصخور والأحـجار المسندة فى القبور اللاطية الملحدة ، فـمحلها مغترب وساكنها مـغترب ، بين أهل عمارة موحـشين وأهل محلـة متشـاغلين ، لا يستأنسـون بالعمـران ولا يتواصلون تواصل الجيـران والإخوان ، على مـا بينهم من قرب المكـان والجوار ، ودنو الدار ، وكـيف يكون بينهم تواصل وقـد طحنهم بـكلكله البلى ، وأكلتـهم الجنادل والثرى ، وأصبحوا بعد الحيـاة أمواتًا وبعد نضارة العيش رفاتًا ، فجع بهم الأحـباب ، وسكنوا تحت التـراب ، وظعنوا فليس لهم إياب ، هيـهات هيهات : ﴿ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [المؤمنون : ١٠٠] فكأن قد صـرتم إلى ما صاروا إليـه من البلى والوحدة فى

دار المثوى ، وارتهنتم فى ذلك المضجع ، وضمكم ذلك المستودع ، فكيف بكم لو عاينتم الأمور ، وبعثرت القبور ، وحصل ما فى الصدور ، وأوقفتم للتحصيل بين يدى الملك الجليل ، فطارت القلوب لإشفاقها من سالف الذنوب، وهتكت عنكم الحجب والأستار، وظهرت منكم العيوب والأسرار، هنالك تجزى كل نفس بما كسبت إن الله عز وجل يقول : ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾ [النجم : ٣١] وقال تعالى : ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ ﴾ [الكهف:٤٩]. الآية .

جعلنا الله وإياكم عاملين بكتابه متبعين لأوليائه ، حتى يحلنا وإياكم دار المقامة من فضله إنه حميد مجيد .

وقال بعض الحكماء : الأيام سهام ، والناس أغراض ، والدهر يرميك كل يوم بسهامه ، ويخترمك بلياليه وأيامه ، حتى يستغرق جميع أجزائك ، فكيف بقاء سلامتك مع وقوع الأيام بك وسرعة الليالى فى بدنك ، لو كشف لك عما أحدثت الأيام فيك من النقص ، لاستوحشت من كل يوم يأتى عليك ، واستثقلت مر الساعات بك ، ولكن تدبير الله فوق تدبير الاعتبار ، وبالسلو عن غوائل الدنيا وجد طعم لذاتها ، وإنها لأمرّ من العلقم إذا عجنها الحكيم ، وقد أعيت الواصف لعيوبها بظاهر أفعالها ، وما تأتى به من العجائب أكثر مما يحيط به الواعظ ، اللهم أرشدنا إلى الصواب .

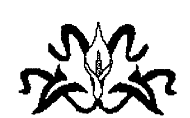
وقال بعض الحكماء وقد استوصف الدنيا وقدر بقائها ، فقال : الدنيا وقتك الذى يرجع إليك فيه طرفك ؛ لأن ما مضى عنك فقد فاتك إدراكه ، وما لم يأت فلا علم لك به ، والدهر يوم مقبل تنعاه ليلته ، وتطويه ساعاته، وأحداثه تتوالى على الإنسان بالتغيير والنقصان ، والدهر موكل بتشتيت الجماعات وانخرام الشمل وتنقل الدول ، والأمل طويل والعمر قصير ، وإلى الله تصير الأمور .

وخطب عمر بن عبد العزيز رحمة الله عليه فقال : يا أيها الناس إنكم خلقتم لأمر إن كنتم تصدقون به فإنكم حمقى ، وإن كنتم تكذبون به فإنكم

هلكى ، ما خلقتم لأبد ولكنكم من دار إلى دار تنتقلون ، عباد الله إنكم فى دار لكم فيها من طعامكم غصص ، ومن شرابكم شرق ، لا تصفو لكم نعمة تسرون بها إلا بفراق أخرى تكرهون فراقها ، فاعملوا لما أنتم صائرون إليه وخالدون فيه ، ثم غلبه البكاء ونزل .

وقال علىّ كرم الله وجهه فى خطبته : أوصيكم بتقوى الله ، والترك للدنيا التاركة لكم وإن كنتم لا تحبون تركها ، المبلية أجسامكم وأنتم تريدون تجديدها ، فإنما مثلكم ومثلها كمثل قوم فى سفر سلكوا طريقًا وكأنهم قد قطعوه ، وأفضوا إليها فكأنهم بلغوه ، وكم عسى أن يجرى المجرى حتى ينتهى إلى الغاية ، وكم عسى أن يبقى من له يوم فى الدنيا ، وطالب حثيث يطلبه حتى يفارقها ، فلا تجزعوا لبؤسها وضرائها ، فإنه إلى انقطاع ، ولا تفرحوا بمتاعها ونعمائها ، فإنه إلى زوال ، عجبت لطالب الدنيا والموت يطلبه ، وغافل وليس بمغفول عنه .

وقال محمد بن الحسين : لما علم أهل الفضل والعلم والمعرفة والأدب أن الله عز وجل قد أهان الدنيا ، وأنه لم يرضها لأوليائه ، وأنها عنده حقيرة ذليلة ، وأن رسول الله زهد فيها وحذر أصحابه من فتنتها ، أكلوا منها قصدًا، وقدموا فضلاً ، وأخذوا منها ما يكفى ، وتركوا ما يلهى ، لبسوا من الثياب ما يستر العورة ، وأكلوا من الطعام أدناه مما سد الجوعة ، ونظروا إلى الدنيا بعين أنها فانية ، وإلى الآخرة أنها باقية فتزودوا من الدنيا كزاد الراكب، فخربوا الدنيا وعمروا بها الآخرة ، ونظروا إلى الآخرة بقلوبهم ، لما علموا أنهم سينظرون إليها بأعينهم ، فارتحلوا إليها بقلوبهم ، لما علموا أنهم سيرتحلون إليها بأبدانهم ، تعبوا قليلاً وتنعموا طويلاً ، كل ذلك بتوفيق مولاهم الكريم ، أحبوا ما أحب لهم وكرهوا ما كره لهم.



الباب الثالث والثلاثون ..في

فـــضل القناعة

اعلم أنه ينبغـى أن يكون الفقيـر قانعًا منقطع الطمع عن الخلق ، غـير ملتفت إلى مـا فى أيديهم ، ولا حريصًا على اكتسـاب المال كيف كان ، ولا يمكنه ذلك إلا بأن يقنع بقدر الضرورة من المطعم والملبس والمسكن ، ويقتصر على أقله قدرًا وأخسه نوعًا ، ويرد أمله إلى يومه أو إلى شهره ، ولا يشتغل قلبه بما بعد شهر ، فإن تشوق إلى الكثير أو طول أمله ، فإنه بعد عن القناعة وتدنس لا محالة بالطمع ، وذل الحرص ، وجره الحرص والطمع إلى مساوئ الأخـلاق وارتكاب المنكرات الخـارقة لـلمروءات ، وقـد جـبل الآدمى على الحرص والطمع وقلة القناعة .

قال رسول الله ﷺ : « لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتـغى لهما ثالثًا ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب » .

وعن أبى واقد الليـثى قال : كـان رسول الله ﷺ إذا أوحى إليـه أتيناه يعلمنا مما أوحى إليه، فجئتـه ذات يوم ، فقال : إن الله عز وجل ، يقول : «إنا أنزلنا المال لإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، ولو كان لابن آدم واد من ذهب ، لأحب أن يكون له ثان ، وإن كان له الثـانى لأحب أن يكون له ثالث ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب » .

وقال أبو موسى الأشعرى : نزلت سورة نحو براءة ، ثم رفعت وحفظ منهـا : « إن الله يؤيد هـذا الدين بأقـوام لا خـلاق لهم ، ولو أن لابن آدم واديين من مـال لتـمنى واديًا ثالثًا ، ولا يمـلأ جـوف ابن آدم إلا التـراب ، ويتوب الله على من تاب » .

وقال ﷺ : « منهومان لا يشبعان منهوم العلم ومنهوم المال » .

وقال ﷺ : « يهرم ابن آدم ويشب معه اثنتان : الأمل ، وحب المال ». أو كما قال .

ولما كانت هذه جبلة للآدمى مضلة وغريزة مهلكة ، أثنى الله تعالى ورسوله على القناعة ، فقال رسول الله ﷺ : « طوبى لمن هدى للإسلام ، وكان عيشه كفافًا وقنع به » .

وقال ﷺ : « ما من أحد فقير ولا غنى إلا ود يوم القيامة أنه ما كان أوتى قوتًا فى الدنيا » .

وقال ﷺ : « ليس الغنى عن كثرة العرض ، إنما الغنى غنى النفس » .

ونهى عن شدة الحرص والمبالغة فى الطلب ، فقال : « ألا أيها الناس أجملوا فى الطلب ، فإنه ليس لعبد إلا ما كتب له ، ولن يذهب عبد من الدنيا حتى يأتيه ما كتب له من الدنيا وهى راغمة » .

وروى أن موسى عليه السلام سأل ربه تعالى فقال : أى عبادك أغنى ؟ قال : أقنعهم بما أعطيته ، قال: فأيهم أعدل ؟ قال : من أنصف من نفسه .

وقال ابن مسعود: قال رسول الله ﷺ: «إن روح القدس نفث فى روعى: أن نفسًا لن تموت حتى تستكمل رزقها ، فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب » .

وقال أبو هريرة : قال لى رسول الله ﷺ : « يا أبا هريرة إذا اشتد بك الجوع ، فعليك برغيف وكوز من ماء، وعلى الدنيا الدمار» . وقال أبو هريرة رضى الله عنه : قال رسول الله ﷺ : « كن ورعًا تكن أعبد الناس ، وكن قنعًا تكن أشكر الناس ، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مؤمنًا » .

ونهى رسول الله ﷺ عن الطمع ، فيما رواه أبو أيوب الأنصارى أن أعرابيا أتى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله عظنى وأوجز ، فقال : « إذا صليت فصل صلاة مودع ، ولا تحدثن بحديث تعتذر منه غدًا ، واجمع اليأس مما فى أيدى الناس » .

وقال عوف بن مالك الأشجعى : كنا عند رسول الله ﷺ تسعة أو ثمانية أو سبعة ، فقال : « ألا تبايعون رسول الله ؟ » قلنا : أوليس قد بايعناك يا رسول الله ، ثم قال : « ألا تبايعون رسول الله ؟ » ، فبسطنا أيدينا فبايعناه ، قال قائل منا : قد بايعناك ، فعلى ماذا نبايعك ؟ قال : « أن لا تعبدوا إلا الله ولا تشركوا به شيئًا ، وتصلوا الخمس ، وأن تسمعوا

وتطيعوا » ، وأسر كلمة خفية : « ولا تسألوا الناس شيئًا » ، فلقد كان بعض أولئك النفر يسقط سوطه ، فلا يسأل أحدا أن يناوله إياه .

وقال عمر رضى الله عنه : إن الطمع فقر ، وإن اليأس غنى ، وإنه من ييأس عما فى أيدى الناس استغنى عنهم .

وقيل لبعض الحكماء: ما الغنى؟ قال : قلة تمنيك ورضاك بما يكفيك ، وفى ذلك قيل :

العيش ساعات تمر وخطوب أيام تكر
اقنع بعيشك ترضه واترك هواك تعيش حر
فلرب حتف ساقه ذهب وياقوت ودرّ

وكان محمد بن واسع يبل الخبز اليابس بالماء ويأكله ، ويقول : من قنع بهذا لم يحتج إلى أحد .

وقال سفيان : خير دنياكم ما لم تبتلوا به ، وخير ما ابتليتم به ما خرج من أيديكم .

وقال ابن مسعود : ما من يوم إلا وملك ينادى : يا ابن آدم قليل يكفيك خير من كثير يطغيك .

وقال سميط بن عجلان : إنما بطنك يا ابن آدم شبر فى شبر ، فلم يدخلك النار ؟ .

وقيل لحكيم : ما مالك ؟ قال : التجمل فى الظاهر ، والقصد فى الباطن ، واليأس مما فى أيدى الناس .

ويروى أن الله عز وجل قال : يا ابن آدم لو كانت الدنيا كلها لك لم يكن لك منها إلا القوت ، وإذا أنا أعطيتك منها القوت وجعلت حسابها على غيرك فأنا إليك محسن .

وقال ابن مسعود : إذا طلب أحدكم الحاجة فليطلبها طلبًا يسيرًا . ولا يأتى الرجل ، فيقول : إنك وإنك ، فيقطع ظهره ، فإن ما يأتيه ما قسم له من الرزق أو ما رزق . وكتب بعض بنى أمية إلى أبى حازم يعزم عليه إلا رفع إليه حوائجه . فكتب إليه : قد رفعت حوائجى إلى مولاى فما أعطانى

منها قبلت ، وما أمسك عنى قنعت . وقيل لبعض الحكماء : أيما شىء أسر للعاقل وأيما شىء أعون على دفع الحزن ؟ فقال : أسرها إليه ما قدم من صالح العمل ، وأعونها على دفع الحزن : الرضا بمحتوم القضاء . وقال بعض الحكماء وجدت أطول الناس غما الحسود ، وأهنأهم عيشًا القنوع ، وأصبرهم على الأذى الحريص إذا طمع ، وأخفضهم عيشًا أرفضهم للدنيا ، وأعظمهم ندامة العالم المفرط ، وفى ذلك قيل :

ارفه ببال فتى أمسى على ثقة   إن الذى قسم الأرزاق يرزقه
فالعرض منه مصون لا يدنسه   والوجه منه جديد ليس يخلقه
إن القناعة من يحلل بساحتها   لم يلق فى دهره شيئًا يؤرقه

وقد قيل أيضًا :

حتى متى أنا فى حل وترحال   وطول سعى وإدبار وإقبال
ونازح الدار لا أنفك مغتربًا   عن الأحبة لا يدرون ما حالى
بمشرق الأرض طورًا ثم مغربها   لا يخطر الموت من حرصى على بالى
ولو قنعت أتانى الرزق فى دعة   إن القنوع الغنى لا كثرة المال

وقال عمر رضى الله عنه : ألا أخبركم بما أستحل من مال الله تعالى ؟ حلتان لشتائى وقيظى ، وما يسعنى من الظهر لحجى وعمرتى ، وقوتى بعد ذلك كقوت رجل من قريش ، لست بأرفعهم ولا بأوضعهم ، فوالله ما أدرى أيحل ذلك أم لا ؟ كأنه شك فى أن هذا القدر هل هو زيادة على الكفاية التى تجب القناعة بها ؟ وعاتب أعرابى أخاه على الحرص ، فقال : يا أخى أنت طالب ومطلوب ، يطلبك من لا تفوته ، وتطلب أنت ما قد كفيته ، وكأن ما غاب عنك قد كشف لك ، وما أنت فيه قد نقلت عنه ، كأنك يا أخى لم تر حريصًا محرومًا وزاهدًا مرزوقًا . وفى ذلك قيل :

أراك يزيدك الإثراء حرصًا   على الدنيا كأنك لا تموت
فهل لك غاية إن صرت يومًا   إليها ؟ وقلت : حسبى قد رضيت

وقال الشعبى : حكى أن رجلاً صاد قنبرة ، فقالت : ما تريد أن تصنع بى ؟ قال : أذبحك وآكلك ، قالت : والله ما أشفى من قرم ، ولا أشبع من جوع ، ولكن أعلمك ثلاث خصال هن خير لك من أكلى : أما واحدة

فأعلمك وأنا فى يدك ، وأما الثانية فإذا صرت على الشجرة ، وأما الثالثة فإذا صرت على الجبل . قال : هات الأولى ، قالت : لا تلهفن على ما فاتك. فخلاها . فلما صارت على الشجرة، قالت: هاك الثانية: لا تصدقن بما لا يكون أنه يكون. ثم طارت فصارت على الجبل، تقول: يا شقى لو ذبحتنى لأخرجت من حوصلتى درتين، زنة كل درة عشرون مثقالاً. قال: فعض على شفته، وتلهف ، وقال : هات الثالثة : قالت : أنت نسيت اثنتين ، فكيف أخبرك بالثالثة ؟ ألم أقل لك : لا تلهفن على ما فاتك ، ولا تصدقن بما لا يكون ؟ أنا لحمى ودمى وريشى لا يكون عشرين مثقالاً ، فكيف يكون فى حوصلتى درتان كل واحدة عشرون مثقالاً ؟ ثم طارت فذهبت ، وهذا مثال لفرط طمع الآدمى ، فإنه يعميه عن درك الحق ، حتى يقدر ما لا يكون .

وقال ابن السماك : إن الرجاء حبل على قلبك ، وقيد فى رجلك ، فأخرج الرجاء من قلبك ، يخرج القيد من رجلك .

وقال أبو محمد اليزيدى : دخلت على الرشيد فوجدته ينظر فى ورقة مكتوبًا فيها بالذهب ، فلما رآنى تبسم ، فقلت : فائدة أصلح الله أمير المؤمنين ؟ قال : نعم ، وجدت هذين فى بعض خزائن بنى أمية ، فاستحسنتهما ، وقد أضفت إليهما ثالثًا ، وأنشدنى :

إذا سد باب عنك دون حاجة ... فدعه لأخرى ينفتح لك بابها
فإن قراب البطن يكفيك ماءه ... ويكفيك سوءات الأمور اجتنابها
ولا تك مبذولاً لعرضك واجتنب ... ركوب المعاصى يجتنبك عقابها

وقال عبد الله بن سلام لكعب : ما يذهب العلوم من قلوب العلماء بعد تذوقها وعقلها؟ قال : الطمع وشره النفس وطلب الحوائج .

وقال رجل للفضيل: فسر لى قول كعب، قال: يطمع الرجل فى الشيء يطلبه، فيذهب عليه دينه . وأما الشره فشره النفس فى هذا وفى هذا، حتى لا تحب أن يفوتها شيء ويكون لك إلى هذا حاجة وإلى هذا حاجة، فإذا قضاها لك خرم أنفك وقادك حيث شاء واستمكن منك وخضعت له، فمن أحببته للدنيا سلمت عليه إذا مررت به ، وعدته إذا مرض ، ولم تسلم عليه لله عز وجل ، ولم تعده لله ، فلو لم يكن لك إليه حاجة كان خيرًا لك .

الباب الرابع والثلاثون .. في

فـضل الفقراء

قال ﷺ : « خيـر هذه الأمة فـقراؤها ، وأسـرعهـا تضجـعًا فى الجنة ضعفاؤها » .

وقال ﷺ : « إن لى حرفـتين اثنتين فـمن أحبهـما فقـد أحبنى، ومن أبغضهما فقد أبغضنى : الفقر والجهاد » .

وروى أن جبريل عليه السلام نزل على رسول الله ﷺ فقال : يا محمد إن الله عـز وجل يقـرأ عليك السلام ، ويقـول لك : أتحب أن أجـعل هذه الجبال ذهبًا وتكون معك أينما كنت ؟ فأطرق رسول الله ﷺ ساعة ، ثم قال: « يا جبريل : إن الدنيا دار من لا دار له ، ومال من لا مال له ، ولها يجمع من لا عقل له » فقال له جبريل : يا محمد ثبتك الله بالقول الثابت .

وروى أن المسيح عليه السلام مرّ فى سياحته برجل نائم ملتف فى عباءة فأيقظه ، وقال : يا نائم قم فاذكر الله تعـالى . فقال : ما تريد منى إنى قد تركت الدنيا لأهلها ؟ فقال له : فنم إذًا يا حبيبى .

ومـرّ موسى عليـه السلام برجل نـائم على التراب ، وتحت رأسـه لبنة ووجهه ولحيته فى التراب ، وهو متـزر بعباءة ، فقال : يا رب عبدك هذا فى الدنيا ضـائع ، فأوحى الله تعالى إليه : يا مـوسى أما علمت أنى إذا نظرت إلى عبد بوجهى كله زويت عنه الدنيا كلها .

وعن أبى رافع أنه قال : ورد عـلى رسول الله ﷺ ضيف ، فلم يجد عنده ما يصلحه ، فأرسلنى إلى رجل من يهود خيبر ، وقال : قل له : يقول لك محمد أسلفنى أو بعنى دقيقًا إلى هلال رجب ، قـال : فأتيته ، فقال : لا والله إلا برهن . فأخـبرت رسول الله ﷺ بذلك ، فقـال: « أما والله إنى لأمين فى أهل السمـاء أمين فى أهل الأرض ، ولو باعنى أو أسلفنى لأديت إليـه ، اذهب بدرعى هذا إليـه فارهنه » . فلمـا خـرجت نزلت هذه الآية :

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [طه:١٣١] الآية ، وهذه الآية لرسول الله ﷺ عن الدنيا .

وقال ﷺ : «الفقر أزين للمؤمن من العذار الحسن على خد الفرس» .

وقال ﷺ : « من أصبح منكم معافى فى جسده ، آمنًا فى سربه ، عنده قوت يومه ، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها » .

وقال كعب الأحبار : قال الله تعالى لموسى عليه السلام : يا موسى : إذا رأيت الفقر مقبلاً ، فقل مرحبًا بشعار الصالحين .

وقال عطاء الخراسانى : مرّ نبى من الأنبياء بساحل ، فإذا هو برجل يصطاد حيتانًا . فقال : باسم الله وألقى الشبكة ، فلم يخرج فيها شىء ، ثم مرّ بآخر فقال : باسم الشيطان وألقى شبكته فخرج من الحيتان ما كان يتقاعس من كثرتها ، فقال النبى : يا رب ما هذا ، وقد علمت أن كل ذلك بيدك ؟ فقال الله تعالى للملائكة : اكشفوا لعبدى عن منزلتيهما ، فلما رأى ما أعد الله تعالى لهذا من الكرامة ولذلك من الهوان قال : رضيت يا رب .

وقال نبينا ﷺ: «اطلعت فى الجنة، فرأيت أكثر أهلها الفقراء ، واطلعت فى النار، فرأيت أكثر أهلها الأغنياء والنساء». وفى لفظ آخر : «فقلت : أين الأغنياء؟ فقيل: حبسهم الجد » ، وفى حديث آخر : «فرأيت أكثر أهل النار النساء، فقلت: ما شأنهن؟ فقيل : شغلهن الأحمران الذهب والزعفران » .

وقالﷺ: «تحفة المؤمن فى الدنيا الفقر،وآخر الأنبياء دخولاً الجنة سليمان بن داود عليهما السلام لمكان ملكه ، وآخر أصحابى دخولاً الجنة عبد الرحمن بن عوف لأجل غناه » . وفى حديث آخر : « رأيته دخل الجنة زحفًا » .

وقال المسيح عليه السلام : بشدة يدخل الغنى الجنة .

وفى خبر آخر عن أهل البيت رضى الله عنهم أنه ﷺ قال : « إذا أحب الله عبدًا ابتلاه ، فإذا أحبه الحب البالغ اقتناه » ، قيل : وما اقتناه ؟ قال : «لم يترك له أهلاً ولا مالاً » .

وفى الخبر : « إذا رأيت الفقر مقبلاً فقل : مرحبًا بشعار الصالحين ، وإذا رأيت الغنى مقبلاً ، فقل : ذنب عجل عقوبته » .

وقال موسى عليه السلام : يا رب من أحباؤك من خلقك حتى أحبهم لأجلك ؟ فقال : كل فقير ، ويمكن أن يراد به الشديد الضر . وقال المسيح صلوات الله وسلامه عليه: إنى لأحب المسكنة وأبغض النعماء .

وكان أحب الأسامى إليه صلوات الله عليه أن يقال له : يا مسكين ، ولما قالت سادات العرب وأغنياؤهم للنبى ﷺ : اجعل لنا يومًا ولهم يومًا ، يجيئون إليك ولا نجيء ، ونجيء إليك ولا يجيئون ، يعنون بذلك الفقراء ، مثل بلال وسلمان وصهيب وأبى ذر وخباب بن الأرت وعمار بن ياسر وأبى هريرة وأصحاب الصفة من الفقراء رضى الله عنهم أجمعين ، أجابهم النبى ﷺ إلى ذلك ، وذلك لأنهم شكوا إليه التأذى برائحتهم ، وكان لباس القوم الصوف فى شدة الحر ، فإذا عرقوا فاحت الروائح من ثيابهم ، فاشتد ذلك على الأغنياء منهم : الأقرع بن حابس التميمى ، وعيينة بن حصن الفزارى، وعباس بن مرداس السلمى وغيرهم ، فأجابهم رسول الله ﷺ : أن لا يجمعهم وإياهم مجلس واحد ، فنزل عليه قوله تعالى : ﴿ **وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ** ﴾ [الكهف: ٢٨] يعنى الفقراء ﴿ **تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا** ﴾ يعنى الأغنياء: ﴿ **وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا** ﴾ يعنى الأغنياء ﴿ **وَقُلِ الْحَقُّ من رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ** ﴾ [الكهف : ٢٩] الآية ، واستأذن ابن أم مكتوم على النبى ﷺ وعنده رجل من أشراف قريش ، فشق ذلك على النبى ﷺ فأنزل الله تعالى : ﴿ **عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ * أَن جَاءَهُ الأَعْمَىٰ * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ** ﴾ يعنى ابن أم مكتوم ﴿ **أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ * فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ** ﴾ [عبس : ١ ـ ٦] يعنى هذا الشريف .

وعن النبى ﷺ أنه قال : « يؤتى بالعبد يوم القيامة ، فيعتذر الله تعالى إليه كما يعتذر الرجل للرجل فى الدنيا ، فيقول : وعزتى وجلالى ما زويت الدنيا عنك لهوانك علىّ ، ولكن لما أعددت لك من الكرامة والفضيلة ، اخرج يا عبدى إلى هذه الصفوف فمن أطعمك فىّ أو كساك فىّ ، يريد

بذلك وجهى ، فخذ بيده ، فهو لك ، والناس يومئذ قد ألجمهم العرق فيتخلل الصفوف وينظر من فعل ذلك به ، فيأخذ بيده ويدخله الجنة » .

وقال عليه السلام : «أكثروا معرفة الفقراء واتخذوا عندهم الأيادى ؛ فإن لهم دولة » ، قالوا : يا رسول الله وما دولتهم ؟ قال : « إذا كان يوم القيامة قيل لهم : انظروا من أطعمكم كسرة ، أو سقاكم شربة ، أو كساكم ثوبًا ، فخذوا بيده ثم امضوا به إلى الجنة » .

وقال ﷺ : « دخلت الجنة فسمعت حركة أمامى ، فنظرت ، فإذا بلال ونظرت فى أعلاها فإذا فقراء أمتى وأولادهم ، ونظرت فى أسفلها فإذا فيه من الأغنياء والنساء قليل، فقلت: يا رب ما شأنهم؟ قال: أما النساء فأضرّ بهن الأحمران الذهب والحرير، وأما الأغنياء فاشتغلوا بطول الحساب، وتفقدت أصحابى فلم أر عبد الرحمن بن عوف، ثم جاء بعد ذلك وهو يبكى، فقلت: ما خلفك عنى؟ قال: يا رسول الله، والله ما وصلت إليك حتى لقيت المشيبات وظننت أنى لا أراك ، فقلت : ولم ؟ قال : كنت أحاسب بمالى» .

فانظر إلى هذا ، وعبد الرحمن صاحب السابقة العظيمة مع رسول الله ﷺ وهو من العشرة المخصوصين بأنهم من أهل الجنة ، وهو من الأغنياء الذين قال فيهم رسول الله ﷺ : «إلا من قال المال هكذا ، هكذا » ، ومع هذا فقد استضر بالغنى إلى هذا الحد» . ودخل رسول الله ﷺ على رجل فقير فلم ير له شيئًا. فقال : «لو قسم نور هذا على أهل الأرض لوسعهم» .

وقال ﷺ : « ألا أخبركم بملوك أهل الجنة ؟ » قالوا : بلى يا رسول الله . قال : « كل ضعيف مستضعف أغبر أشعث ذى طمرين لا يؤبه له ، لو أقسم على الله لأبره » .

وقال عمران بن حصين : كانت لى من رسول الله ﷺ منزلة وجاه ، فقال : « يا عمران إن لك عندنا منزلة وجاهًا ، فهل لك فى عيادة فاطمة بنت رسول الله ﷺ ؟ » قلت : نعم بأبى وأمى يا رسول الله ، فقام وقمت معه حتى وقف بباب فاطمة ، فقرع الباب ، وقال : « السلام عليكم أأدخل؟» ، فقالت : ادخل يا رسول الله ، قال :« أنا ومن معى ؟ » ، قالت : ومن معك يا رسول الله ؟ قال عمران : فقالت فاطمة : والذى

بعثك بالحق نبيا ما علىّ إلا عباءة ، قال : «اصنعى بها هكذا وهكذا » وأشار بيده ، فقالت : هذا جسدى قد واريته ، فكيف برأسى ؟ فألقى إليها ملاءة كانت عليه خلقة ، فقال : شدى بها على رأسك ، ثم أذنت له ، فدخل ، فقال : « السلام عليكم يا ابنتاه ، كيف أصبحت ؟ » ، قالت : أصبحت والله وجعة ، وزادنى وجعاً على ما بى أنى لست أقدر على طعام آكله ، فقد أضرّ بى الجوع ، فبكى رسول الله ﷺ وقال : « لا تجزعى يا ابنتاه ، فوالله ما ذقت طعامًا منذ ثلاث ، وإنى لأكرم على الله منك ، ولو سألت ربى لأطعمنى ولكنى آثرت الآخرة على الدنيا » .

ثم ضرب بيده على منكبها، وقال لها : «أبشرى فوالله إنك لسيدة نساء أهل الجنة » ، قالت : فأين آسية امرأة فرعون ، ومريم بنت عمران ؟ قال : « آسية سيدة نساء عالمها، ومريم سيدة نساء عالمها، وأنت سيدة نساء عالمك ، إنكنّ فى بيوت من قصب، لا أذى فيها ولا صخب ولا نصب»،ثم قال لها: «اقنعى بابن عمك ، فوالله لقد زوجتك سيدًا فى الدنيا وسيدًا فى الآخرة» .

وروى عن علىّ كرم الله وجهه أن رسول الله ﷺ قال : « إذا أبغض الناس فقراءهم ، وأظهروا عمارة الدنيا ، وتكالبوا على جمع الدراهم ، رماهم الله بأربع خصال : بالقحط من الزمان ، والجور من السلطان ، والخيانة من ولاة الأحكام ، والشوكة من الأعداء » .

قال أبو الدرداء رضى الله عنه : « ذو الدرهمين أشد حبسًا » أو قال : « أشد حسابًا من ذى الدرهم » .

وأرسل عمر رضى الله عنه إلى سعيد بن عامر بألف دينار فجاء حزينًا كئيبًا فقالت امرأته : أحدث أمر ؟ قال : أشد من ذلك ، ثم قال : أرينى درعك الخلق ؟ فأرته إياه ، فشقه وجعله صرارًا ، وفرقه ، ثم قام يصلى ويبكى إلى الغداة ، ثم قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : «يدخل فقراء أمتى الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام ، حتى أن الرجل يدخل فى غمارهم ، فيؤخذ بيده ، فيستخرج » .

وقال أبو هريرة : « ثلاثة يدخلون الجنة بغير حساب : رجل يريد أن

يغسل ثوبه فلم يكن له خلق يلبسه ، ورجل لم ينصب على مستوقد قدرين، ورجل دعا بشرابه فلا يقال له : أيها تريد ؟ » .

وقيل : جاء فقير إلى مجلس الثورى رحمه الله ، فقال له : تخط لو كنت غنيا لما قربتك، وكان من الأغنياء أصحابه يودون أنهم فقراء ؛ لكثرة تقريبه للفقراء وإعراضه عن الأغنياء ، وقال المؤمل : ما رأيت الغنى أذل منه في مجلس الثورى ، ولا رأيت الفقير أعز منه فى مجلس الثورى رحمه الله.

وقال بعض الحكماء : مسكين ابن آدم لو خاف من النار كما يخاف من الفقر لنجا منهما جميعًا ، ولو رغب فى الجنة كما يرغب فى الغنى ، لفاز بهما جميعًا ، ولو خاف الله فى الباطن كما يخاف خلقه فى الظاهر لسعد فى الدارين جميعًا .

وقال ابن عباس : ملعون من أكرم بالغنى وأهان بالفقر .

وقال لقمان عليه السلام لابنه: لا تحقرن أحدًا لخلقان ثيابه ، فإن ربك وربه واحد .

وقال يحيى بن معاذ : حبك للفقراء من أخلاق المرسلين ، وإيثارك مجالستهم من علامة الصالحين ، وفرارك من صحبتهم من علامة المنافقين .

وفى الأخبار عن الكتب السالفة أن الله تعالى أوحى إلى بعض أنبيائه عليهم السلام : احذر أن أمقتك فتسقط من عينى ، فأصب عليك الدنيا صبا .

ولقد كانت عائشة رضى الله تعالى عنها تفرق مائة ألف درهم فى يوم واحد يوجهها إليها معاوية وابن عامر وغيرهما ، وإن درعها لمرقوع ، وتقول لها الجارية : لو اشتريت لك بدرهم لحمًا تفطرين عليه وكانت صائمة ، فقالت : لو ذكرتينى لفعلت ، وكان قد أوصاها رسول الله ﷺ وقال : إن أردت اللحوق بى ، فعليك بعيش الفقراء وإياك ومجالسة الأغنياء ، ولا تنزعى درعك حتى ترقعيه .

وجاء رجل إلى إبراهيم بن أدهم بعشرة آلاف درهم ، فأبى عليه أن يقبلها ، فألح عليه الرجل ، فقال له إبراهيم : أتريد أن أمحو اسمى من

ديوان الفقراء بعشرة آلاف درهم ؟ لا أفعل ذلك أبدًا ـ رضى الله عنه ـ .

وقال رسول الله ﷺ : « طوبى لمن هدى إلى الإسلام وكان عيشه كفافًا وقنع به . وقال ﷺ : « يا معشر الفقراء أعطوا الله الرضا من قلوبكم تظفروا بثواب فقركم ، وإلا فلا » ، فالأول القانع ، وهذا الراضى يكاد يشعر هذا بمفهومه : أن الحريص لا ثواب له على فقره ، ولكن المعلومات الواردة فى فضل الفقر تدل على أن له ثوابًا كما سيأتى تحقيقه ، فلعل المراد بعدم الرضا: هو الكراهة لفعل الله فى حبس الدنيا عنه ، ورب راغب فى المال لا يخطر بقلبه إنكار على الله تعالى ، ولا كراهة فى فعله . فتلك الكراهة هى التى تحبط ثواب الفقر.

وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال : إن لكل شيئًا مفتاحًا ومفتاح الجنة حب المساكين ، والفقراء لصبرهم هم جلساء الله تعالى يوم القيامة .

وروى عن علىّ كرم الله وجهه عن النبى ﷺ أنه قال : « أحب العباد إلى الله تعالى الفقير برزقه ، الراضى عن الله تعالى » .

وقال ﷺ : « اللهم اجعل قوت آل محمد كفافًا » .

وقال : « ما من أحد غنى ولا فقير إلا ود يوم القيامة أنه كان أوتى قوتًا فى الدنيا » .

وأوحى الله تعالى إلى إسماعيل عليه السلام : اطلبنى عند المنكسرة قلوبهم ، قال : ومن هم ؟ قال : الفقراء الصادقون .

وقال ﷺ : « لا أحد أفضل من الفقير إذا كان راضيًا » .

وقال ﷺ : « يقول الله تعالى يوم القيامة : أين صفوتى من خلقى ؟ فتقول الملائكة : ومن هم يا ربنا ؟ فيقول : فقراء المسلمين القانعون لعطائى، الراضون بقدرى ، أدخلوهم الجنة ، فيدخلونها ويأكلون ويشربون، والناس فى الحساب يترددون » ، فهذا فى القانع الراضى ، وأما الزاهد فسنذكر فضله إن شاء الله تعالى . وأما الآثار فى الرضا والقناعة فكثيرة ، ولا يخفى أن القناعة يضادها الطمع ، وقد قال عمر رضى الله عنه : إن الطمع فقر ،

واليأس غنى ، وأنه من يئس عما فى أيدى الناس وقنع ، استغنى عنهم .

وقال ابن مسعود رضى الله تعالى عنه : ما من يوم إلا وملك ينادى من تحت العرش : يا ابن آدم قليل يكفيك خير من كثير يطغيك .

وقال أبو الدرداء رضى الله تعالى عنه : ما من أحد إلا وفى عقله نقص ، وذلك أنه إذا أتته الدنيا بالزيادة ظل فرحًا مسرورًا ، والليل والنهار دائبان فى هدم عمره ، ثم لا يحزنه ذلك ، ويح ابن آدم ما ينفع مال يزيد وعمر ينقص .

وقيل لبعض الحكماء : ما الغنى ؟ قال: قلة تمنيك ورضاك بما يكفيك.

وقيل : كان إبراهيم بن أدهم من أهل النعمة بخراسان ، فبينما هو يشرف من قصر له ذات يوم إذ نظر إلى رجل فى فناء القصر ، وفى يده رغيف يأكله ، فلما أكل نام ، فقال لبعض غلمانه : إذا قام فجئنى به ، فلما قام جاء به إليه ، فقال إبراهيم : أيها الرجل أكلت الرغيف وأنت جائع ؟ قال : نعم : قال : فشبعت ؟ قال : نعم ، قال : ثم نمت طيبًا ؟ قال : نعم، فقال إبراهيم فى نفسه : فما أصنع أنا بالدنيا والنفس تقنع بهذا القدر ؟

ومرّ رجل بعامر بن عبد القيس وهو يأكل ملحًا وبقلاً ، فقال له : يا عبد الله أرضيت من الدنيا بهذا ؟ فقال : ألا أدلك على من رضى بشر من هذا ؟ قال : بلى ، فقال : من رضى بالدنيا عوضًا عن الآخرة .

وكان محمد بن واسع رحمة الله عليه يخرج خبزًا يابسًا فيبله بالماء ويأكله بالملح ، ويقول : من رضى من الدنيا بهذا ، لم يحتج إلى أحد .

وقال الحسن رحمه الله : لعن الله أقوامًا أقسم لهم الله تعالى ثم لم يصدقوه ، ثم قرأ : ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ * فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَق ﴾ [الذاريات:٢٢-٢٣] الآية .

وكان أبو ذر رضى الله عنه يومًا جالسًا فى الناس، فأتته امرأة ، فقالت له : أتجلس بين هؤلاء والله ما فى البيت هفة ولا سفة ؟ فقال : يا هذه إن بين أيدينا عقبة كؤود ، لا ينجو منها إلا كل مخف ، فرجعت وهى راضية .

وقال ذو النون رحمه الله: أقرب الناس إلى الكفر ذو فاقة لا صبر له .

وقيل لبعض الحكماء : ما مالك ؟ فقال : التجمل فى الظاهر ، والقصد فى الباطن ، واليأس مما فى أيدى الناس .

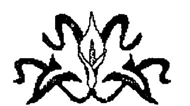
ويروى أن الله عز وجل قال فى بعض الكتب السالفة المنزلة : يا ابن آدم لو كانت الدنيا كلها لك لم يكن لك منها إلا القوت ، فإذا أنا أعطيتك منها القوت وجعلت حسابها على غيرك ، فأنا محسن إليك .

وقد قيل فى القناعة :

اضرع إلى الله لا تضرع إلى الناس ... واقنع بيأس فإن العز فى الياس
واستغنى عن ذى قربى وذى رحم ... إن الغنى من استغنى عن الناس

وقد قيل فى هذا المعنى أيضًا :

يا جامعًا مانعًا والدهر يرمقه ... مقدرًا أى باب منه يغلقه
مفكرًا كيف تأتيه منيته ... أغاديًا أم بها يسرى فتطرقه
جمعت مالا فقل لى هل جمعت له ... يا جامع المال أيامًا تفرقه
المال عندك مخزون لوارثه ... ما المال مالك إلا يوم تنفقه
أرفه ببال فتى يغدو على ثقة ... إن الذى قسم الأرزاق يرزقه
فالعرض منه مصون ما يدنسه ... والوجه منه جديد ليس يخلقه
إن القناعة من يحلل بساحتها ... لم يلق فى ظلها هما يؤرقه



الباب الخامس والثلاثون .. في

اتخاذ ولي من دون الله سبحانه وتعالى وفي بيان العرصات

قال الله تعالى : ﴿ وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ ﴾ [هود: ١١٣] ، الآية .

قال بعض المفسرين : أجمع أهل اللغة على أن الركون: مطلق الميل والسكون، يسيرًا أو كثيرًا .

وقال عبد الرحمن بن زيد : الركون هنا : الإذعان ، وذلك أن لا ينكر عليهم كفرهم ، وعن عكرمة : لا تصطنعوهم ، والظاهر من الآية : عموم النهى عن الركون إلى المشركين وفسقة المسلمين .

وقال النيسابورى فى تفسيره : قال المحققون الركون المنهى عنه هو الرضا بما عليه الظلمة، أو تزيين طريقتهم وتحسينها عند غيرهم ، ومشاركتهم فى شىء من أبواب المظالم ، فأما مداخلتهم لدفع شىء من الضرّ أو اجتلاب منفعة عاجلة ، فغير داخلة فى الركون . قال : وأقول هذا من طريق المعاش والرخصة ، ومقتضى التقوى : هو الاجتناب عنهم بالكلية ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ [الزمر : ٣٦] ؟ اهـ .

قلت : ولقد صدق فحسم مادة الركون إليهم ، ولا سيما فى هذه الأزمان التى لا يمكن فيها إنكار المنكر والأمر بالمعروف مع ما فى الركون إليهم من الغرور والغرر ، وإذا كان حال الميل فى الجملة إلى من وجد منه ظلم ، ما فى الإفضاء إلى مساس النار هكذا ، فما ظنك بمن يميل إلى الراسخين فى الظلم والعدوان ميلاً عظيمًا ويتهالك على صحبتهم ومنادمتهم ويلقى شراره على مؤانستهم ومعاشرتهم ، ويبتهج بالتزين بزيهم ، ويمد عينيه إلى زهرتهم الفانية ويغبطهم بما أوتوا من القطوف الدانية ، وهو فى الحقيقة من الحبة : طفيف ، ومن جناح البعوضة : خفيف ، بمعزل عن أن

تميل إليه القلوب ﴿ ضعف الطالب والمطلوب ﴾ [الحج : ٧٣] .

قال ﷺ : « المرء على دين خليله . فلينظر أحدكم من يخالل » .

وروى : « مثل الجليس الصالح مثل حامل المسك إن لم يعطك أصابك من ريحه ومثل الجليس السوء كمثل صاحب الكير إن لم يحرقك أصابك من دخانه » .

وقال الله تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا من دُون اللَّه أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوت اتَّخَذَتْ بَيْتًا ﴾ [العنكبوت : ٤١] الآية .

وقال ﷺ : « من عظم غنيا لغناه ، فقد ذهب ثلث دينه » .

وقال ﷺ : « إذا مدح الفاسق غضب الرب واهتز لذلك العرش» .

وقال الله تعالى : ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِم ﴾ [الاسراء : ٧١] يعنى فى عرصات القيامة ، وقد اختلف المفسرون فى تعيين الإمام الذى يدعى كل أناس به ، فقال ابن عباس وغيره : إنه كتاب كل إنسان الذى فيه عمله ، أى يدعى كل إنسان بكتاب عمله ويؤيد هذا قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِه ﴾ [الحاقة : ١٩] الآية .

وقال ابن زيد : الإمام هو : الكتاب المنزل فيقال : يا أهل التوراة ، يا أهل الإنجيل ، يا أهل القرآن .

وقال مجاهد وقتادة : إمامهم نبيهم ، فيقال : هاتوا متبعى إبراهيم ، هاتوا متبعى موسى، هاتوا متبعى عيسى ، هاتوا متبعى محمد ﷺ .

وقال علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه المراد بالإمام : إمام عصرهم ، فيدعى أهل كل عصر بإمامهم ، الذى كانوا به يأتمرون بأمره وينتهون بنهيه . وفى الحديث الصحيح عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة ، رفع لكل غادر لواء ، فيقال : هذه غدرة فلان ابن فلان » .

وروى الترمذى وغيره عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ فى تفسير هذه الآية : « يدعى أحدهم فيعطى كتابه بيمينه ، ويمد له فى جسمه ستين ذراعًا ويبيض وجهه ، ويجعل على رأسه تاج من لؤلؤ

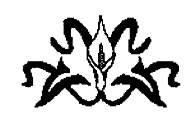
يتلألأ ، فينطلق إلى أصحابه فيرونه من بعيد ، فيقولون : اللهم ائتنا بهذا وبارك لنا فى هذا ، حتى يأتيهم فيقول : أبشروا لكل رجل منكم مثل هذا ، وأما الكافر فيسود وجهه ، ويمد له فى جسمه ستين ذراعًا على صورة آدم ، ويلبس تاجًا فيراه أصحابه فيقولون : نعوذ بالله من شر هذا ، اللهم لا تأتنا بهذا » .

قال : « فيأتيهم فيقولون : اللهم اخزه ، فيقول : أبعدكم الله ، فإن لكل رجل منكم مثل هذا » .

وقال الله تعالى : ﴿ **إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا** ﴾ [الزلزلة : ١ ــ ٢] إلى آخر السورة ، قال ابن عباس رضى الله عنهما : أى تحركت من أسفلها وأخرجت ما فى جوفها من الأموات والدفائن .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ **يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا** ﴾ [الزلزلة : ٤] قال : « أتدرون ما أخبارها ؟ » ، قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : « فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد وأمة بكل عمل عمل على ظهرها » .

وعن رسول الله ﷺ أنه قال : «تحفظوا من الأرض فإنها أمكم ، وإنه ليس من أحد عامل عليها خيرًا أو شرا إلا وهى مخبرة ». أخرجه الطبرانى .



الباب السادس والثلاثون .. في

النفخ والفزع والحشر من المقابر

قال رسول الله ﷺ : « كيف أنعم ؟ وصاحب الصور قد التقم القرن وحنى الجبهة ، وأصغى بالأذن ، ينتظر متى يؤمر ، فينفخ » .

قال مقاتل : الصور هو القرن . وذلك أن إسرافيل عليه السلام واضع فاه على القرن كهيئة البوق ، ودائرة رأس القرن كعرض السموات والأرض، وهو شاخص ببصره نحو العرش ، ينتظر متى يؤمر ، فينفخ النفخة الأولى ، فإذا نفخ ﴿**فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ**﴾ أى مات كل حيوان من شدة الفزع ﴿ **إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ** ﴾ وهو جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت . ثم يأمر ملك الموت فيموت ثم يلبث الخلق بعد النفخة الأولى فى البرزخ أربعين سنة ، ثم يحيى الله إسرافيل فيأمره أن ينفخ الثانية . فذلك قوله تعالى : ﴿**ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ**﴾ [الزمر : ٦٨] على أرجلهم ، ينظرون إلى البعث .

وقال ﷺ : « حين البعث أتى صاحب الصور فأهوى به إلى فيه، وقدم رجلاً وأخر أخرى ، ينتظر متى يؤمر بالنفخ ، ألا فاتقوا النفخة » .

فتفكّر فى الخلائق وذلهم وانكسارهم واستكانتهم عند الانبعاث خوفًا من هذه الصعقة، وانتظارًا لما يقضى عليهم من سعادة أو شقاوة ، وأنت فيما بينهم منكسر كانكسارهم ، متحير كتحيرهم ، بل إن كنت فى الدنيا من المترفين ، والأغنياء المتنعمين ، فملوك الأرض فى ذلك اليوم أذل أهل الأرض أجمع ، وأصغرهم وأحقرهم يوطئون بالأقدام ، مثل الذر .

وعند ذلك تقبل الوحوش من البرارى والجبال ، منكسة رؤوسها ، مختلطة بالخلائق بعد توحشها ، ذليلة ليوم النشور ، من غير خطيئة تدنست بها ، ولكن حشرتهم شدة الصعقة وهول النفخة ، وشغلهم ذلك عن الهرب

من الخلق ، والتوحش منهم ، وذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير : ٥] ، ثم أقبلت الشياطين والمردة بعد تمردها وعتوها ، وأذعنت خشية من هيبة العرض على الله تعالى ، تصديقًا لقوله تعالى : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴾ [مريم : ٦٨] .

فتفكّر في حالك وحال قلبك هنالك ، ثم انظر كيف يساقون بعد البعث والنشور ، حفاة عراة غرلاً ، إلى أرض المحشر ، أرض بيضاء ﴿قَاعًا صَفْصَفًا ۞ لا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا ﴾ [طه : ١٠٦ ، ١٠٧] ولا ترى عليها ربوة يختفي الإنسان وراءها ، ولا وهدة ينخفض عن الأعين فيها ، بل هو صعيد واحد بسيط ، لا تفاوت فيه ، يساقون إليه زمرًا ، فسبحان من جمع الخلائق على اختلاف أصنافهم من أقطار الأرض ، إذ ساقهم بالراجفة ﴿تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴾ [النازعات : ٧] والراجفة : هي النفخة الأولى ، والرادفة هي الثانية ، وحقيق لتلك القلوب أن تكون يومئذ ﴿ وَاجِفَةٌ ﴾ [النازعات :٨] ولتلك الأبصار أن تكون ﴿ خَاشِعَةٌ ﴾ [النازعات : ٩] .

قال رسول الله ﷺ : « يحضر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرص النقي، ليس فيها معلم لأحد » ، قال الراوي : والعفرة بياض ليس بالناصع ، والنقي هو النقي عن القشر والنخالة ، ومعلم أي لا بناء يستر ولا تفاوت يرد البصر ، ولا تظن أن تلك الأرض مثل الدنيا ، بل لا تساويها إلا في الاسم . قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ ﴾ [ابراهيم : ٤٨] قال ابن عباس : يزاد فيها وينقص وتذهب أشجارها وجبالها وأوديتها وما فيها ، وتمد مد الأديم العكاظي ، أرض بيضاء مثل الفضة ، لم يسفك عليها دم ، ولم يعمل عليها خطيئة ، والسموات يذهب شمسها وقمرها ونجومها .

فانظر يا مسكين في هول ذلك اليوم وشدته ، فإنه إذا اجتمع الخلائق على هذا الصعيد ، تناثرت من فوقهم نجوم السماء ، وطمست الشمس والقمر ، وأظلمت الأرض ؛ لخمود سراجها، فبينما هم كذلك ، إذ دارت

السماء من فوق رؤوسهم وانشقت مع غلظها وشدتها خمسمائة عام ، والملائكة قيام على حافتها وأرجائها .

فيا هول صوت انشقاقها فى سمعك ، ويا هيبة ليوم تنشق فيها السماء مع صلابتها وشدتها ثم تنهار وتسيل كالفضة المذابة تخالطها صفرة ، فصارت وردة كالدهان ، وصارت السماء كالمهل ، وصارت الجبال كالعهن . وانتشر الناس كالفراش المبثوث ، وهم حفاة عراة مشاة . قال رسول الله ﷺ : «يبعث الناس حفاة عراة غرلاً ، قد ألجمهم العرق ، وبلغ شحوم الآذان » .

قالت سودة زوج النبى ﷺ راوية الحديث : قلت : يا رسول الله ، واسوأتاه ، ينظر بعضنا إلى بعض ؟ فقال : « شغل الناس عن ذلك بهم ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس : ٣٧] » . فأعظم بيوم تنكشف فيه العورات ، ويؤمن فيه مع ذلك النظر والالتفات ، كيف وبعضهم يمشون على بطونهم ووجوههم ، فلا قدرة لهم على الالتفات إلى غيرهم .

قال أبو هريرة رضى الله عنه : قال رسول الله ﷺ : « يحشر الناس يوم القيامة ثلاث أصناف : ركبانًا ومشاة وعلى وجوههم » ، فقال رجل : يا رسول الله ، وكيف يمشون على وجوههم ، قال : « الذى أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم » .

وفى طبع الآدمى إنكار كل ما لم يأنس به ، ولو لم يشاهد الإنسان الحية وهى تمشى على بطنها كالبرق الخاطف ، لأنكر تصور المشى على غير الرجل ، والمشى بالرجل أيضًا مستبعد عند من لم يشاهد ذلك ، فإياك أن تنكر شيئًا من عجائب يوم القيامة لمخالفته قياس ما فى الدنيا ، فإنك لو لم تكن قد شاهدت عجائب الدنيا ثم عرضت عليك قبل المشاهدة ، لكنت أشد إنكارًا لها ، فأحضر فى قلبك صورتك وأنت واقف عاريًا مكشوفًا ذليلاً مدحورًا متحيرًا مبهوتًا منتظرًا لما يجرى عليك من القضاء بالسعادة أو بالشقاء . وأعظم هذه الحال ، فإنها عظيمة .

ثم تفكر فى ازدحام الخلائق واجتماعهم حتى ازدحم على الموقف أهل السموات السبع والأرضين السبع من ملك وجن وإنس وشيطان ووحش

وسبع وطير ، فأشرقت عليهم الشمس وقد تضاعف حرها وتبدلت عما كانت عليه من خفة أمرها ، ثم أدنيت من رؤوس العالمين كقاب قوسين ، فلم يبق على الأرض ظل إلا ظل عرش رب العالمين ، ولم يمكن من الاستظلال به إلا المقربون ، فمن بين مستظل بالعرش وبين مضحى لحر الشمس قد صهرته بحرها ، واشتد كربه وغمه من وهجها ، ثم تدافعت الخلائق ودفع بعضهم بعضًا لشدة الزحام واختلاف الأقدام ، وانضاف إليه من شدة الخجلة والحياء من الافتضاح والاختزاء عند العرض على جبار السماء ، فاجتمع وهج الشمس وحر الأنفاس واحتراق القلوب بنار الحياء والخوف ، ففاض العرق من أصل كل شعرة حتى سال على صعيد القيامة ، ثم ارتفع على أبدانهم على قدر منازلهم عند الله ، فبعضهم بلغ العرق ركبتيه وبعضهم حقويه[1] وبعضهم إلى شحمة أذنيه وبعضهم يغيب فيه .

قال ابن عمر : قال رسول الله ﷺ : « يوم القيامة يقوم الناس لرب العالمين ، حتى يغيب أحدهم فى رشحه إلى أنصاف أذنيه » .

وقال أبو هريرة : قال رسول الله ﷺ : « يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم فى الأرض سبعين باعًا ويلجمهم ويبلغ آذانهم » . وكذا رواه البخارى ومسلم فى الصحيح .

وفى حديث آخر : « قيامًا شاخصة أبصارهم أربعين سنة إلى السماء ، فيلجمهم العرق من شدة الكرب » .

وقال عقبة بن عامر : قال رسول الله ﷺ : « تدنو الشمس من الأرض يوم القيامة ، فيعرق الناس ، فمن الناس من يبلغ عرقه عقبه ، ومنهم من يبلغ نصف ساقه ، ومنهم من يبلغ ركبته ، ومنهم من يبلغ فخذه ، ومنهم من يبلغ خاصرته ، ومنهم من يبلغ فاه ــ وأشار بيده ، فألجمها فاه ــ ومنهم من يغطيه العرق ــ وضرب بيده على رأسه هكذا ــ » .

فتأمل يا مسكين فى عرق أهل المحشر وشدة كربهم ، وفيهم من ينادى، فيقول : رب ارحمنى من هذا الكرب والانتظار ولو إلى النار . وكل

---

(١) الحقو : الخصر .

ذلك ولم يلقوا بعد حسابًا ولا عقابًا . فإنك واحد منهم ، ولا تدرى إلى أين يبلغ بك العرق .

واعلم أن كل عرق لم يخرجه التعب فى سبيل الله من حج وجهاد وصيام وقيام وتردد فى قضاء حاجة مسلم ، وتحمل مشقة فى أمر بمعروف ونهى عن منكر ، فسيخرجه الحياء والخوف فى صعيد القيامة ، ويطول فيه الكرب ولو سلم ابن آدم من الجهل والغرور ، لعلم أن تعب العرق فى تحمل مصاعب الطاعات أهون أمرًا وأقصر زمانًا من عرق الكرب والانتظار فى القيامة ، فإنه يوم عظيمة شدته ، طويلة مدته .



بيان القـــضاء بين الخلائق

قال أبو هريرة رضى الله عنه : قال رسول الله ﷺ : « هل تدرون من المفلس ؟» قلنا : المفلس فينـا يا رسول الله من لا درهم له ولا دينار له ولا متاع . قال : « المفلس من أمتى من يأتى يوم القيـامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتى وقد شتم هذا وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ، فيعطى هذا من حسناته وهذا من حـسناته ، وإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم ، فطرحت عليه ثم طرح فى النار » .

فانظر مصيبتك فـى مثل هذا اليوم ، إذ ليس يسلم لك حسنة من آفات الرياء ومكائد الشيطان . فإن سلمت حـسنة واحدة فى كل مدة طويلة ابتدرها خصـماك وأخذوها ، ولعلك لو حاسـبت نفسك وأنت مواظب على صـيام النهار وقيام الليل ، لعلمت أنه لا يـنقضى عنك يوم إلا ويجرى على لسانك من غبن المسلمين ما يستوفى جميع حـسناتك ، فكيف ببقية السيئات من أكل الحرام والشبهـات والتقصير فى الطاعات ؟ وكـيف ترجو الخلاص من المظالم فى يوم يقتص فيه للجماء من القرناء ؟ .

فقـد روى أبو ذر : أن رسول الله ﷺ رأى شاتين ينتطحـان ، فقال : «يا أبا ذر أتدرى فيم ينتطحـان ؟ » قلت : لا . قال : « ولكن الله يدرى ، وسيقضى بينهما يوم القيامة » .

وقـال أبو هريرة فى قوله عـز وجل : ﴿**وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم**﴾ [الأنعـام : ٣٨] : إنه يحشر الخلق كلهم يوم القيامة ، البهـائم والدواب والطير وكل شىء ، فيبلغ من عدل الله تعالى إلى أن يأخذ للجماء من القرناء ، ثم يقول : كونى ترابًا . فذلك حين يقول الكافر : ﴿ **يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا** ﴾ [النبأ : ٤٠] فكيف أنت يا مسكين فى يوم ترى صحـيفتك خاليـة من حسنات طال فيـها تعبك ، فتـقول : أين حسناتى ، فيقال : نقلت إلى صحيفة خصمائك ، وترى صحيفتك مشحونة

بسيئات طال في الصبر عنها نصبك واشتد بسبب الكف عنها عناؤك . فتقول: يا رب هذه سيئات ما قارفتها قط . فيقال : هذه سيئات القوم الذين اغتبتهم وشتمتهم وقصدتهم السوء وظلمتهم فى المبايعة والمجاورة والمخاطبة والمناظرة والمذاكرة والمدارسة ، وسائر أصناف المعاملة .

قال ابن مسعود : قال رسول الله ﷺ : « إن الشيطان قد يئس أن تعبد الأصنام بأرض العرب ، ولكن سيرضى منكم بما هو دون ذلك ، بالمحقرات ـ وهى الموبقات ـ فاتقوا الظلم ما استطعتم ، فإن العبد ليجيء يوم القيامة بأمثال الجبال من الطاعات فيرى أنهن فى جيبه فما يزال عبد يجيء فيقول : يا رب فلانًا ظلمنى بمظلمة . فيقول : امح من حسناته ، فما يزال كذلك حتى لا يبقى له من حسناته شيء ، وإن مثل ذلك مثل سفر نزلوا فلاة من الأرض ليس معهم حطب ، فتفرق القوم فحطبوا فلم يلبثوا أن أعظموا نارهم وصنعوا ما أرادوا وكذلك الذنوب».

ولما نزل قوله تعالى : ﴿ **إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ** ﴾ [الزمر : ٣٠ ـ ٣١] قال الزبير : يا رسول الله : أيكرر علينا ما كان بيننا فى الدنيا مع خواص الذنوب ؟ قال : « نعم ليكون عليكم حتى تؤدوا إلى كل ذى حق حقه » . قال الزبير : والله إن الأمر لشديد ، فأعظم بشدة يوم لا يسامح فيه بخطوة ولا يتجاوز فيه عن لطمة ولا عن كلمة ، حتى ينتقم للمظلوم من الظالم .

وقال أنس : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «يحشر الله العباد عراة غبرًا بهمًا » . قلنا : ما بهمًا ؟ قال : « ليس معهم شيء يناديهم ربهم تعالى بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب : أنا الملك الديان ، لا ينبغى لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة ، ولأحد من أهل النار مظلمة ، حتى أقتصه منه ، ولا لأحد من أهل النار أن يدخل النار ، ولأحد من أهل الجنة عنده مظلمة ، حتى أقتصه منه حتى اللطمة » ، قلنا : وكيف ، وإنما نأتى الله عز وجل عراة غبرًا بهمًا ؟ فقال : « بالحسنات والسيئات » .

فاتقوا الله عباد الله ومظالم العباد ، بأخذ أموالهم ، والتعرض

لأعراضهم ، وتضييق قلوبهم ، وإساءة الخلق فى معاشرتهم ، فإن ما بين العبد وبين الله خاصة ، فالمغفرة إليه أسرع . ومن اجتمعت عليه مظالم وقد تاب عنها وعسر عليه استحلال أرباب المظالم ، فيكثر من حسناته ليوم القصاص ، وليسر ببعض الحسنات بينه وبين الله بكمال الإخلاص ، بحيث لا يطلع عليه إلا الله فعساه يقربه ذلك إلى الله تعالى فينال به لطفه الذى ادّخره لأحبابه المؤمنين فى دفع مظالم العباد عنهم .

كما روى أنس عن رسول الله ﷺ أنه قال : بينما رسول الله ﷺ جالس إذ رأيناه يضحك حتى بدت ثناياه ، فقال عمر : ما يضحكك يا رسول الله بأبى أنت وأمى ؟ قال : « رجلان من أمتى جثيا بين يدى رب العزة ، فقال أحدهما : يا رب خذ مظلمتى من أخى ، فقال الله تعالى: أعط أخاك مظلمته ، فقال : يا رب لم يبق من حسناتى شيء . فقال الله تعالى للطالب : كيف تصنع ولم يبق من حسناته شيء ؟ قال : يا رب يتحمل عنى من أوزارى » قال : وقد فاضت عينا رسول الله ﷺ بالبكاء ، ثم قال : « إن ذلك اليوم عظيم، يوم يحتاج الناس إلى أن يحمل عنهم أوزارهم» قال: «فقال الله تعالى للطالب : ارفع رأسك وانظر فى الجنان ، فرفع رأسه ، فقال : يا رب أرى مدائن من فضة مرتفعة ، وقصورًا من ذهب مكللة باللؤلؤ ، لأى نبى هذا ، أو لأى صديق هذا ، أو لأى شهيد هذا ؟ قال : لمن أعطانى الثمن . قال : يا رب ومن يملك ثمنه ؟ قال: أنت تملكه ، قال : وما هو ؟ قال : عفوك عن أخيك . قال : يا رب إنى قد عفوت عنه ، قال الله تعالى: خذ بيد أخيك فأدخله الجنة ، ثم قال ﷺ عند ذلك : « **اتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم** » فإن الله يصلح بين المؤمنين .

فى هذا تنبيه على أن ذلك إنما ينال بالتخلق بأخلاق الله ، وهو إصلاح ذات البين وسائر الأخلاق ، فتفكر الآن فى نفسك إن خلت صحيفتك من المظالم ، أو تلطف لك ، حتى عفا عنك وأيقنت بسعادة ليس بعدها شقاء ، وبنعيم لا يدور بحواشيه الفناء ، وعند ذلك طار قلبك سرورًا وفرحًا ، وابيض وجهك واستنار ، وأشرق كما يشرق القمر ليلة البدر ، فتوهّم تبخترك بين الخلائق ، رافعًا رأسك ، خاليًا عن الأوزار ظهرك ، ونضرة

نسـيم النعيم برد ، والرضـا يتلألأ من جـبينك ، وخَلْقُ الأولين والآخـرين ينظرون إليك وإلى حـالك ، ويغـبطونك فى حسـنك وجمـالك ، والملائكة يمشون بين يديك ومن خلفك ، وينادون علـى رؤوس الأشهاد هذا فلان ابن فلان رضى الله عنه وأرضاه ، وقد سعد سعادة لا يشقى بعدها أبدًا .

فترى أن هذا المنصب ليس بأعظم من المكانة التى تنالها فى قلوب الخلق فى الدنيا بريائك ومـداهنتك ، وتصنعك وتزينك ، فإن كنت تعلم أنه خـير منه بل لا نسـبة له إليـه، فتوسل إلى إدراك هـذه الرتبة بالإخلاص الـصافى والنية الصادقة فى معاملتك مع الله، فلن تدرك ذلك إلا به،وإن تكن الأخرى والعياذ بالله بـأن خرج من صحيفـتك جريمة كنت تحسبـها هينة ، وهى عند الله عظيمة ، فمقتك لأجلها ، فقال : عليك لعنتى يا عبد السوء ، لا أتقبل منك عبادتك ، فلا تسمع هذا النداء إلا ويسود وجهك . ثم تغضب الملائكة لغضـب الله تعالـى، فيقولون : عليـك لعـنتنا ولعـنة الخلائق أجمعين .

وعند ذلك تنثال إليك الزبانية وقـد غضبت لغضب خالقـها ، فأقدمت عليك بفظاظتها وزعارتها[1] وصورها المنكرة فأخذوا بناصـيتك يسحبونك على وجـهك على ملأ مـن الخلائق ، وهم ينظـرون إلى اسوداد وجـهك ، وإلى ظهور خزيك ، وأنت تنادى بالويل والثـبور وهم يقولون لك : لا تدع اليوم ثبـورًا واحدًا وادع ثبـورًا كثـيرًا . وتنـادى الملائكة ويقولون : هذا فـلان بن فلان، كـشف الله عن فضائحـه ومخازيه ، ولعنه بقـبائح مساويه ، فـشقى شقـاوة لا يسعد بعـدها أبدًا . وربما يكون ذلك بذنب أذنبته خـفية من عـباد الله، أو طلبًا للمكانة فـى قلوبهم ، أو خوفًا من الافـتضـاح عندهم ، فمـا أعظم جهلك ، إذ يحـترز عن الافتضـاح عند طائفة يسيرة من عـباد الله فى الدنيا المنقرضة ، ثم لا تخـشى من الافتضاح العظيم فى ذلك الملأ العظيم ، من التعـرض لسخط الله وعـقابه الأليم ، والسـياق بأيدى الزبانيـة إلى سواء الجحيم ، فهذه أحوالك وأنت لم تشعر بالخطر .

---

(١) الزعارة من زعر يزعر أي الشراسة والتجهم .

الباب الثامن والثلاثون ..في

بيان ذم المال

قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [المنافقون:٩]، وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [التغابن: ١٥]

فمن اختار ماله وولده على ما عند الله فقد خسر وغبن خسرانًا عظيمًا . وقال تعالى : ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾ [التكاثر :١] وقال عز وجل : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا ﴾ [هود : ١٥] الآية ، وقال : ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴾ [العلق : ٦ ـ ٧] فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . وقال رسول الله ﷺ : « حب المال والشرف ينبتان النفاق فى القلب، كما ينبت الماء البقل » .

وقال ﷺ : « ما ذئبان ضاريان أرسلا فى زريبة غنم ، بأكثر إفسادًا فيها من حب الشرف والمال والجاه فى دين الرجل المسلم » .

وقال ﷺ : « هلك المكثرون الأمل » ، قال به فى عباد الله هكذا ، وهكذا ، وقليل ما هم .

وقيل : يا رسول الله أى أمتك شر ؟ قال : « الأغنياء » .

وقال ﷺ : « سيأتى بعدكم قوم يأكلون أطايب الدنيا وألوانها ، ويركبون فره الخيل وألوانها ، وينكحون أجمل النساء وألوانها ويلبسون أجمل الثياب وألوانها ، لهم بطون من القليل لا تشبع ، وأنفس بالكثير لا تقنع ، عاكفين على الدنيا ، يغدون ويروحون إليها ، اتخذوها آلهة من دون إلههم، وربا دون ربهم ، لأمرها ينتهون ، ولهواهم يتبعون ، فعزيمة من محمد بن عبد الله لمن أدركه ذلك الزمان ، من عقب عقبكم وخلف خلفكم : أن لا يسلم عليهم ، ولا يعود مرضاهم ، ولا يتبع جنائزهم ، ولا يوقر كبيرهم ،

فمن فعل ذلك فقد أعان على هدم الإسلام » .

وقال ﷺ : « دعوا الدنيا لأهلها ، من أخذ من الدنيـا فوق ما يكفيه ، أخذ حتفه وهو لا يشعر » . وقال ﷺ : « يقول ابن آدم مالى ، مالى ، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأبقيت».

وقال رجل : يا رسول الله ما لى لا أحب الموت ؟ فقال : « هل معك من مال ؟» قال: نعم يا رسول الله ، قال : « قدم مالك ؛ فإن قلب المؤمن مع ماله إن قدمه ، أحب أن يلحقه ، وإن خلفه أحب أن يتخلف معه».

وقال ﷺ:«أخلاء ابن آدم ثلاثة : واحد يتبعه إلى قبض روحه ، والثانى يتبعه إلى قبره، والثالث يتبعه إلى مـحشره، فالذى يتبعه إلى قبض روحه فهو ماله، والذى يتبعه إلى قبره فهو أهله، والذى يتبعه إلى محشره فهو عمله» .

وقال الحواريون لعيسى عليـه السلام : ما لك تمشى على الماء ولا نقدر على ذلك ؟ فقال لهم : مـا منزلة الدينار والدرهم عندكم ؟ قالوا : حسنة ، قال : لكنهما والمدر عندى سواء .

وكتب سلمان الفارسى إلى أبى الدرداء رضى الله عنهما : يا أخى إياك أن تجمع من الدنيا ما لا تؤدى شكره ، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقـول : « يجاء بصـاحب الدنيا الذى أطاع الله فيـها وماله بين يديه ، كلمـا تكفأ به الصراط، قال له: امض، فقد أديت حق الله فىّ، ثم يجاء بصاحب الدنيا الذى لم يطع الله فيـها وماله بين كـتفيه ، كلمـا تكفأ به الصراط ، قـال له ماله: ويلك ألا أديت حق الله فىّ ؟ فما يزال كذلك حتى يدعو بالويل والثبور » .

وقال ﷺ : «إذا مات العبد قالت الملائـكة : ما قدم ؟ وقال الناس : ما خلف » . وقال ﷺ : « لا تتخذوا الضيعة فتحبوا الدنيا »[1] .

وروى أن رجلاً نال من أبى الدرداء وأراه سوءاً، فقال : اللهم من فعل سوءًا فأصح جسمه وأطل عمره، وأكثر ماله، فانظر كيف رأى كثرة المال غاية البلاء مع صحة الجسم وطول العمر؛ لأنه لا بد وأن يفضى إلى الطغيان[2].

---

(١) أي الأرض الواسعة الصالحة للزراعة .

(٢) يقول تعالى : « . . . إن الإنسان ليطغى * أن رآه استغنى » .

ووضع عليّ كرم الله وجهه درهمًا على كفه ، ثم قال : أما إنك ما لم تخرج عنى لا تنفعنى .

وروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أرسل إلى زينب بنت جحش بعطائها ، فقالت : ما هذا ؟ قالوا : أرسله إليك عمر بن الخطاب ، قالت : غفر الله له ، ثم حلت سترًا كان لها فقطعته وجعلته صررًا وقسمته فى أهل بيتها ورحمها وأيتامها ، ثم رفعت يديها ، وقالت: اللهم لا يدركنى عطاء عمر بعد عامى هذا. فكانت أول نساء رسول الله ﷺ لحوقًا به.

وقال الحسن : والله ما أعز الدرهم أحد إلا أذله الله .

وقيل : إن أول ما ضرب الدينار والدرهم ، رفعهما إبليس ثم وضعهما على جبهته ، ثم قبلهما ، وقال : من أحبكما فهو عبدى حقا . وقال سميط ابن عجلان : إن الدراهم والدنانير أزمة المنافقين ، يقادون بها إلى النار .

وقال يحيى بن معاذ: الدرهم عقرب، فإن لم تحسن رقيته، فلا تأخذه، فإنه إن لدغك قتلك سمه، قيل: وما رقيته؟ قال: أخذه من حله ووضعه فى حقه.

وقال العلاء بن زياد : تمثلت لى الدنيا وعليها من كل زينة ، فقلت : أعوذ بالله من شرك، فقالت : إن سرك أن يعيذك الله منى ، فابغض الدرهم والدينار ، هما الدنيا كلها ، إذ يتوصل بهما إلى جميع أصنافها ، فمن صبر عنهما صبر عن الدنيا . وفى ذلك قيل :

إنى وجدت فلا تظنوا غيره ... إن التورع عند هذا الدرهم
فإذا قدرت عليه ثم تركته ... فاعلم بأن تقاك تقوى المسلم

وفى ذلك قيل أيضًا :

لا يغرنك من المرء قميص رقعه ... أو إزار فوق عظم الساق منه رقعه
أو جبين لاح فيه أثر قد خلعه ... أره الدرهم تعرف حبه أو ورعه

ويروى عن مسلمة بن عبد الملك أنه دخل على عمر بن عبد العزيز رحمه الله عند موته فقال : يا أمير المؤمنين صنعت صنيعًا لم يصنعه أحد قبلك ، تركت ولدك ليس لهم درهم ولا دينار ، وكان له ثلاثة عشر من

الولد ، فقال عمر : أقعدونى فأقعدوه ، فقال : أما قولك لم أدع لهم دينارًا ولا درهمًا ، فإنى لـم أمنعهم حقا لهـم ، ولم أعطهم حقا لغـيرهم ، وإنما ولدى أحد رجلين: إما مطيع لله فـالله كافيه ، والله يتولى الصـالحين ، وإما عاص لله فلا أبالى على ما وقع .

وروى عن محمد بن كعب القرظى أنه أصـاب مالاً كثيرًا ، فقيل له : لو ادخـرته لولدك من بعدك ، قـال : لا ، ولكن أدخره لنفـسى عند ربى ، وأدخر ربى لولدى .

ويروى أن رجـلاً قال لأبى عـبد ربه : يـا أخى لا تذهب بشر وتتـرك أولادك بخير ، فأخرج أبو عبد ربه من ماله مائة ألف درهم .

وقال يحيى بن معـاذ : مصيبتان لم يسمـع الأولون والآخرون بمثلهما للعبد فى ماله عند موته ، قيـل : وما هما ؟ قال : يؤخذ منه كله ، ويسأل عنه كله .



الباب التاسع والثلاثون ..في

الأعمال والميزان وعذاب النار

يا أخى لا تغفل عن الفكر فى الميزان ، وتطاير الكتب إلى الأيمان والشمائل ، فإن الناس بعد السؤال ثلاث : فرقة ليس لهم حسنة ، فيخرج من النار عنق أسود فيلتقطهم لقط الطير الحب ، وينطوى عليهم ويلقيهم فى النار فتبتلعهم النار ، وينادى عليهم شقاوة لا سعادة بعدها. وقسم آخر لا سيئة لهم ، فيناد مناد : ليقم الحمادون لله على كل حال ، فيقومون ويسرحون إلى الجنة ، ثم يفعل ذلك بأهل قيام الليل ، ثم بمن لم تشغله تجارة الدنيا ولا بيعها عن ذكر الله تعالى ، وينادى عليهم : سعادة لا شقاوة بعدها . ويبقى قسم ثالث وهم الأكثرون ، خلطوا عملاً صالحًا وآخر سيئًا . وقد يخفى عليهم . ولا يخفى على الله تعالى أن الغالب حسناتهم أو سيئاتهم ، ولكن يأبى الله إلا أن يعرفهم ذلك ليبين فضله عند العفو وعدله عند العقاب . فتتطاير الصحف . والكتب منطوية على الحسنات والسيئات وينصب الميزان ، وتشخص الأبصار إلى الكتب . أتقع فى اليمين أو فى الشمال ؟ ثم إلى لسان الميزان أيميل إلى جانب السيئات أو إلى جانب الحسنات؟ وهذه حالة هائلة تطيش فيها عقول الخلائق .

وروى الحسن أن رسول الله ﷺ كان رأسه فى حجر عائشة رضى الله عنها فنعس ، فذكرت الآخرة ، فبكت ، حتى سال دمعها فنقط على خد رسول الله ﷺ فانتبه . فقال : « ما يبكيك يا عائشة ؟ » قالت : ذكرت الآخرة ، هل تذكرون أهليكم يوم القيامة ؟ قال : «والذى نفسى بيده فى ثلاثة مواطن ، فإن أحدًا لا يذكر إلا نفسه : إذا وضعت الموازين ووزنت الأعمال حتى ينظر ابن آدم أيخف ميزانه أم يثقل ، وعند الصحف حتى ينظر أبيمينه يأخذ كتابه أو بشماله ، وعند الصراط » .

وعن أنس قال : يؤتى بابن آدم يوم القيامة ، حتى يوقف بين كفتى

الميزان ويوكل به ملك ، فإن ثقل ميزانه نادى الملك بصوت يسمعه الخلائق : سعد فلان سعادة لا يشقى بعدها أبدًا ، وإن خف ميزانه نادى بصوت يسمعه الخلائق : شقى فلان شقاوة لا يسعد بعدها أبدًا ، وعند خفة كفة الحسنات تقبل الزبانية وبأيديهم مقامع من حديد وعليهم ثياب من نار ، فيأخذون نصيب النار إلى النار .

وقال رسول الله ﷺ فى يوم القيامة : « إنه يوم ينادى الله تعالى فيه آدم عليه السلام ، فيقول له : قم يا آدم ، فابعث بعث النار ، فيقول: وكم بعث النار؟ فيقول: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون» فلما سمع الصحابة ذلك ألبسوا حتى ما أوضحوا بضاحكة، فلما رأى رسول الله ﷺ ما عند أصحابه، قال : « اعملوا وأبشروا ، فوالذى نفس محمد بيده إن معكم لخليقتين ما كانتا مع أحد قط إلا كثرتاه مع من هلك من بنى آدم وبنى إبليس»، قالوا : وما هما يا رسول الله ؟ قال : «يأجوج ومأجوج»، قال: فسرى عن القوم، فقال : « اعملوا وأبشروا ، فوالذى نفس محمد بيده ما أنتم فى الناس يوم القيامة إلا كالشامة فى جنب البعير ، أو كالرقمة فى ذراع الدابة » .

يا أيها الغافل عن نفسه ، المغرور بما هو فيه من شواغل هذه الدنيا المشرفة على الانقضاء والزوال ، دع التفكر فيما أنت مرتحل عنه ، واصرف الفكر إلى موردك ، فإنك أخبرت بأن النار مورد للجميع إذ قيل : ﴿ **وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا * ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا** ﴾ [مريم : ٧١ ـ ٧٢] فأنت من الورود على يقين ، ومن النجاة فى شك ، فاستشعر فى قلبك هول ذلك المورد ، فعساك تستعد للنجاة منه ، وتأمل فى حال الخلائق ، وقد قاسوا من دواهى القيامة ما قاسوا ، فبينما هم فى كربها وأهوالها وقوفًا ينتظرون حقيقة أنبائها وتشفيع شفعائها ، إذ أحاطت بالمجرمين ظلمات ذات شعب ، وأظلت عليهم نار ذات لهب ، وسمعوا لها زفيرًا وجرجرة تفصح عن شدة الغيظ والغضب .

فعند ذلك أيقن المجرمون بالعطب ، وجثت الأمم على الركب ، حتى أشفق البرءاء من سوء المنقلب ، وخرج المنادى من الزبانية قائلاً : أين فلان

ابن فلان ، المسوف نفسه فى الدنيا بطول الأمل ، المضيع عمره فى سوء العمل ؟ فيبادرونه بمقامع من حديد ويستقبلونه بعظائم التهديد ، ويسوقونه إلى العذاب الشديد ، وينكسونه فى قعر الجحيم ، ويقولون له : ﴿ **ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ** ﴾ [الدخان: ٤٩] . فأسكنوا دارًا ضيقة الأرجاء ، مظلمة المسالك ، مبهمة المهالك ، يخلد فيها الأسير ، ويوقد فيها السعير ، شرابهم فيها الحميم ، ومستقرهم الجحيم، الزبانية تقمعهم ، والهاوية تجمعهم ، أمانيهم فيها الهلاك ، وما لهم فيها فكاك ، قد شدت أقدامهم إلى النواصى، واسودت وجوههم من ظلمة المعاصى ، ينادون من أكنافها ، ويصيحون فى نواحيها وأطرافها: يا مالك قد حق علينا الوعيد ، يا مالك قد أثقلنا الحديد، يا مالك قد نضجت منا الجلود ، يا مالك أخرجنا منها فإنا لا نعود ، فتقول الزبانية : هيهات ، لات حين أمان ، ولا خروج لكم من دار الهوان، فاخسئوا فيها ولا تكلمون، ولو أخرجتم منها لكنتم إلى ما نهيتم عنه تعودون. فعند ذلك يقنطون ، وعلى ما فرطوا فى جنب الله يتأسفون ، ولا ينجيهم الندم ، ولا يغنيهم الأسف ، بل يكبون على وجوههم مغلولين ، النار من فوقهم ، والنار من تحتهم ، والنار عن أيمانهم ، والنار عن شمائلهم ، فهم غرقى فى النار ، طعامهم نار ، وشرابهم نار ، ولباسهم نار، ومهادهم نار ، فهم بين مقطعات النيران ، وسرابيل القطران ، وضرب المقامع وثقل السلاسل ، فهم يتجلجلون فى مضايقها ، ويتحطمون فى دركاتها ، ويضطربون بين غواشيها تغلى بهم النار كغلى القدور ، ويهتفون بالويل والعويل ، ومهما دعوا بالثبور ﴿ **يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ * يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ * وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ** ﴾ [الحج:١٩-٢١] تهشم بها جباههم فيتفجر الصديد من أفواههم ، وتتقطع من العطش أكبادهم، وتسيل على الخدود أحداقهم ، ويسقط من الوجنات لحومها ، ويتمعط من الأطراف شعورها ، بل جلودها ، وكلما نضجت بدلناهم جلودًا غيرها[1] ، قد عريت من اللحم عظامهم ، فبقيت الأرواح منوطة بالعروق ،

(١) إذ الجلود هي مصادر الإحساس بالألم .

وعلائق العصب وهى تنش فى لفح تلك النيران ، وهم مع ذلك يتمنون الموت فلا يموتون . فكيف بك لو نظرت إليهم وقد اسودت وجوههم أشد سواد من الحميم، وأعميت أبصارهم وأبكمت ألسنتهم ، وقصمت ظهورهم، وكسرت عظامهم ، وجدعت آذانهم ، ومزقت جلودهم ، وغلَّت أيديهم ، وجمع بين نواصيهم وأقدامهم ، وهم يمشون على النار بوجوههم ، ويطئون حسك الحديد بأحداقهم ، فلهيب النار سار فى بواطن أجزائهم ، وحياة الهاوية وعقاربها متشبثة بظواهر أعضائهم .

هذا بعض جملة أحوالهم ، وانظر الآن فى تفصيل أهوائهم ، وتفكر أيضًا فى أودية جهنم وشعابها ، فقد قال النبى ﷺ : « إن فى جهنم سبعين ألف واد ، فى كل واد سبعون ألف شعب، فى كل شعب سبعون ألف ثعبان وسبعون ألف عقرب ، لا ينتهى الكافر أو المنافق حتى يواقع ذلك كله » .

وقال علىّ كرم الله وجهه : قال رسول الله ﷺ : « تعوذوا بالله من جب الحزن أو وادى الحزن » ، قيل: يا رسول الله وما وادى أو جب الحزن ؟ قال : « واد فى جهنم تتعوذ منه جهنم كل يوم سبعين مرة أعده الله تعالى للقراء المرائين » . فهذه سعة جهنم وانشعاب أوديتها ، وهى بحسب عدد أودية الدنيا وشهواتها وعدد أبوابها بعدد الأعضاء السبعة التى بها يعصى العبد، بعضها فوق بعض، الأعلى جهنم، ثم سقر، ثم لظى ، ثم الحطمة ، ثم السعير، ثم الجحيم ، ثم الهاوية .

فانظر الآن فى عمق الهاوية فإنه لا حد لعمقها كما لا حد لعمق شهوات الدنيا ، فكما لا ينتهى أرب من الدنيا إلا إلى أرب أعظم منه ، فلا تنتهى هاوية من جهنم إلا إلى هاوية أعمق منها . قال أبو هريرة : كنا مع رسول الله ﷺ فسمعنا وجبة ، فقال رسول الله ﷺ : « أتدرون ما هذا ؟ » قلنا : الله ورسوله أعلم ، قال : « هذا حجر أرسل فى جهنم منذ سبعين عامًا ، والآن انتهى إلى قعرها » ، ثم انظر إلى تفاوت الدركات ، فإن الآخرة ﴿ **أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً** ﴾ [الإسراء: ٢١] فكما أن إكباب الناس على الدنيا يتفاوت ، فمن منهمك مستكثر كالغريق فيها ، ومن خائض فيها

إلى حدود ، فكذلك تناول النار لهم متفاوت فإن الله لا يظلم مثقال ذرة ، فلا تترادف أنواع العذاب على كل من فى النار ، كيفما كان ، بل لكل واحد حد معلوم على قدر عصيانه وذنبه، إلا أن أقلهم عذابًا لو عرضت عليه الدنيا بحذافيرها ، لافتدى بها من شدة ما هو فيه .

قال رسول الله ﷺ : « إن أدنى أهل النار عذابًا يوم القيامة ينتعل بنعلين من نار يغلى دماغه من حرارة نعليه » .

فانظر الآن إلى من خفف عليه ، واعتبر بمن شدد عليه ، ومهما تشككت فى شدة عذاب النار ، فقرب أصبعك فى النار ، وقس ذلك به ثم اعلم أنك أخطأت فى القياس ، فإن نار الدنيا لا تناسب نار جهنم ، ولكن لما كان أشد عذاب فى الدنيا عذاب هذه النار ، عرف عذاب جهنم بها هيهات لو وجد أهل الجحيم مثل هذه النار لخاضوها طائعين هربًا مما هم فيه .

وعن هذا عبّر فى بعض الأخبار حيث قيل : إن نار الدنيا غسلت بسبعين ماء من مياه الرحمة حتى أطاقها أهل الدنيا ، بل صرح رسول الله ﷺ بصفة نار جهنم فقال : « أمر الله تعالى أن يوقد على النار ألف عام حتى احمرت ، ثم أوقد عليها ألف عام حتى ابيضت ، ثم أوقد عليها ألف عام حتى اسودت فهى سوداء مظلمة » .

وقال رسول الله ﷺ:«اشتكت النار إلى ربها،فقالت:يا رب أكل بعضى بعضًا ، فأذن لها فى نفسين نفس فى الشتاء ، ونفس فى الصيف ، فأشد ما تجدونه فى الصيف من حرها ، وأشد ما تجدونه فى الشتاء من زمهريرها » .

وقال أنس بن مالك : يؤتى بأنعم الناس فى الدنيا من الكفار ، فيقال: اغمسوه فى النار غمسة ، ثم يقال له : هل رأيت نعيمًا قط ؟ فيقول : لا ، ويؤتى بأشد الناس ضرا فى الدنيا ، فيقول : اغمسوه فى الجنة غمسة ، ثم يقال له : هل رأيت ضرا قط ، فيقول : لا .

وقال أبو هريرة : لو كان فى المسجد مائة ألف أو يزيدون ، ثم تنفس رجل من أهل النار لماتوا . وقد قال بعض العلماء فى قوله : ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ [المؤمنون : ١٠٤] إنها لو لفحتهم واحدة ، لما أبقت لحمًا على

عظم ، إلا ألقته عند أعقابها .

ثم انظر بعد هذا فى نتن الصديد الذى يسيل من أبدانهم حتى يغرقوا فيه وهو الغساق. قال أبو سعيد الخدرى : قال رسول الله ﷺ : « لو أن دلوًا من غساق جهنم ألقى فى الدنيا لأنتن أهل الأرض » .

فهذا شرابهم إذا استغاثوا من العطش ، فيسقى أحدهم ﴿ **مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ * يَتَجَرَّعُهُ وَلا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ** ﴾ [إبراهيم : ١٦ - ١٧] ﴿**وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا** ﴾ [الكهف : ٢٩] .

ثم انظر إلى طعامهم وهو الزقوم كما قال الله تعالى : ﴿ **ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ * لآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ * فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ * فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ * فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ** ﴾ [الواقعة : ٥١ ــ ٥٥] . وقال تعالى : ﴿ **إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ * طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ * فَإِنَّهُمْ لآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ * ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ * ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لإِلَى الْجَحِيمِ** ﴾ [الصافات : ٦٤ ــ ٦٨] . وقال تعالى : ﴿ **تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً * تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ** ﴾ [الغاشية: ٤ ــ ٥]. وقال : ﴿ **إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالاً وَجَحِيمًا * وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا** ﴾ [المزمل : ١٢ ــ ١٣] .

وقال ابن عباس : قال رسول الله ﷺ : « لو أن قطرة من الزقوم قطرت فى بحار الدنيا ، أفسدت على أهل الدنيا معايشهم » فكيف من يكون طعامه ذلك ؟

وقال أنس : قال رسول الله ﷺ : « ارغبوا فيما رغبكم الله ، واحذروا وخافوا مما خوفكم الله به من عذابه وعقابه ، ومن جهنم ، فإنه لو كانت قطرة من الجنة معكم فى دنياكم التى أنتم فيها طيبتها لكم ، ولو كانت قطرة من النار معكم فى دنياكم التى أنتم فيها ، خبثتها عليكم » .

وقال أبو الدرداء : قال رسول الله ﷺ : « يلقى على أهل النار الجوع حتى يعدل ما هم فيه من العذاب ، فيستغيثون بالطعام ، فيغاثون بطعام من ضريع لا يسمن ولا يغنى من جوع ، ويستغيثون بالطعام ، فيغاثون بطعام ذا غصة ، فيذكرون أنهم كانوا يجيزون الغصص فى الدنيا بشراب ، فيستغيثون بشراب فيرفع إليهم الحميم ، بكلاليب الحديد ، فإذا دنت من وجوههم شوت وجوههم ، فإذا دخل الشراب بطونهم قطع ما فى بطونهم ، فيقولون: ادعوا خزنة جهنم ، قال : فيدعون خزنة جهنم : ﴿ **ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ** ﴾ [غافر : ٤٩] ، فيقولون : ﴿ **أَوَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ** ﴾[غافر : ٥٠] قال فيقولون : ادعوا مالكًا ، فيدعون : ﴿ **يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ** ﴾ [الزخرف : ٧٧] قال : فيجيبهم : ﴿ **إِنَّكُم مَّاكِثُونَ** ﴾ [الزخرف : ٧٧] قال الأعمش : أُنبئت أن بين دعائهم وبين إجابة مالك إياهم ألف عام . قال : فيقولون : ادعوا ربكم ، فلا أحد خير من ربكم ، فيقولون: ﴿ **رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ * رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ** ﴾ [المؤمنون : ١٠٦ ، ١٠٧] قال : فيجيبهم : ﴿ **اخْسَئُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ** ﴾ [المؤمنون : ١٠٨] قال : فعند ذلك يئسوا من كل خير ، وعند ذلك أخذوا فى الزفير والحسرة والويل .

وقال أبو أمامة : قال رسول الله ﷺ فى قوله تعالى : ﴿ **وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ * يَتَجَرَّعُهُ وَلا يَكَادُ يُسِيغُهُ** ﴾ [إبراهيم : ١٦ ، ١٧] قال : يقرب إليه فيتجرعه ، فإذا أدنى منه شوى وجهه ، فوقعت فروة رأسه فإذا شربه قطع أمعاءه ، حتى يخرج من دبره ، يقول الله تعالى : ﴿ **وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ** ﴾ [محمد : ١٥] وقال تعالى : ﴿ **وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ** ﴾ [الكهف : ٢٩] فهذا طعامهم وشرابهم عند جوعهم وعطشهم .

فانظر الآن إلى حيات جهنم وعقاربها ، وإلى سمومها وعظم أشخاصها وفظاعة منظرها ، وقد سلطت على أهليها وأغريت بهم، فهى لا تفتر عن النهش واللدغ ساعة واحدة .

قال أبو هريرة رضى الله عنه : قال رسول الله ﷺ : « من آتاه الله مالاً فلم يؤد زكاته ، مثل له يوم القيامة شجاعًا أقرع، له زبيبتان يطوقه يوم القيامة، ثم يأخذ بلهازمه ـ يعنى أشداقه ـ فيقول : أنا مالك ، أنا كنزك » ، ثم تلا قوله تعالى : ﴿ وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ [آل عمران : ١٨٠] الآية .

وقال رسول الله ﷺ : « إن فى النار لحيات مثل أعناق البخت ، يلسعن اللسعة فيجد حموتها أربعين خريفًا ، وإن فيها لعقارب كالبغال الموكفة، يلسعن اللسعة فيجد حموتها أربعين خريفاً ، وهذه الحيات والعقارب إنما تسلط على من سلط عليه فى الدنيا البخل وسوء الخلق وإيذاء الناس ، ومن وقى ذلك وقى هذه الحيات ، فلم تمثل له » .

ثم تفكر بعد هذا كله فى تعظيم أجسام أهل النار ، فإن الله تعالى يزيد فى أجسامهم طولاً وعرضًا ، حتى يتزايد عذابهم بسببه ، فيحسون بلفح النار ولدغ العقارب والحيات من جميع أجزائها دفعة واحدة على التوالى .

قال أبو هريرة : قال رسول الله ﷺ : « ضرس الكافر فى النار مثل أحد ، وغلظ جلده مسيرة ثلاث » وقال رسول الله ﷺ : « شفته السفلى ساقطة على صدره والعليا قالصة قد غطت وجهه » . وقال ﷺ : « إن الكافر ليجر لسانه فى سجين يوم القيامة يتواطأه الناس » . ومع عظم الأجسام كذلك تحرقهم النار مرات ، فتجدد جلودهم ولحومهم ، قال الحسن فى قوله تعالى : ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا ﴾ [النساء: ٥٦] قال : تأكلهم النار كل يوم سبعين ألف مرة ، كلما أكلتهم ، قيل لهم : عودوا فيعودون كما كانوا .

ثم تفكر الآن فى بكاء أهل النار وشهيقهم ودعائهم بالويل والثبور ، فإن ذلك يسلط عليهم فى أول إلقائهم فى النار . قال رسول الله ﷺ : «يؤتى

بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف ملك » .

وقال أنس : قال رسول الله ﷺ : « يرسل على أهل النار البكاء فيبكون حتى تنقطع الدموع ثم يبكون الدم حتى يرى فى وجوههم كهيئة الأخدود ، لو أرسلت فيها السفن لجرت » ، وما دام يؤذن لهم فى البكاء والشهيق والزفير والدعوة بالويل والثبور ، فلهم فيه مستروح ولكنهم يمنعون أيضًا فى ذلك .

وقال محمد بن كعب لأهل النار خمس دعوات يجيبهم الله عز وجل فى أربع ، فإذا كانت الخامسة لم يتكلموا بعدها أبدًا . فيقولون : ﴿ رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴾ فيقول الله تعالى مجيبًا لهم : ﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴾ [غافر: ١١ - ١٢] .

ثم يقولون : ﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا ﴾ [السجدة: ١٢] فيجيبهم الله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴾ [إبراهيم : ٤٤] فيقولون : ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ فيجيبهم الله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ [فاطر : ٣٧] .

ثم يقولون : ﴿ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ * رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴾ [المؤمنون : ١٠٦ ، ١٠٧] فيجيبهم الله : ﴿ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ [المؤمنون : ١٠٨] بعدها أبدًا ، وذلك غاية شدة العذاب .

قال مالك بن أنس رضى الله عنه : قال زيد بن أسلم فى قوله تعالى : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴾ [إبراهيم : ٢١] قال : صبروا مائة سنة ، ثم جزعوا مائة سنة ، ثم صبروا مائة سنة ، ثم قالوا : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا ﴾ [إبراهيم : ١ - ٢] .

وقال ﷺ:«يؤتى بالموت يوم القيامة، كأنه كبش أملح ، فيذبح بين الجنة والنار، ويقال: يا أهل الجنة خلود بلا موت، ويا أهل النار خلود بلا موت».

وعن الحسن قال : يخرج من النار رجل بعد ألف عام ، وليتنى ذلك الرجل . ورؤى الحسن رضى الله عنه جالسًا فى زاوية وهو يبكى ، فقيل له: لم تبكى ؟ فقال : أخشى أن يطرحنى فى النار ولا يبالى .

فهذه أصناف عذاب جهنم على الجملة ، وتفصيل غمومها وأحزانها ومحنها وحسراتها لا نهاية له .

فأعظم الأمور عليهم مع ما يلاقونه من شدة العذاب : حسرة فوت نعيم الجنة ، وفوت لقاء الله تعالى ، وفوت رضاه ، مع علمهم بأنهم باعوا كل ذلك بثمن بخس ﴿ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ ﴾ [يوسف : ٢٠] إذ لم يبيعوا ذلك إلا بشهوات حقيرة فى الدنيا ، أيامًا قصيرة ، وكانت غير صافية ، بل كانت مكدرة منغصة ، فيقولون فى أنفسهم : واحسرتاه ، كيف أهلكنا أنفسنا بعصيان ربنا ، وكيف لم نكلف أنفسنا الصبر أيامًا قلائل ؟ ولو صبرنا لكانت قد انقضت عنا أيامه ، وبقينا الآن فى جوار رب العالمين متنعمين بالرضا والرضوان . فيا لحسرة هؤلاء وقد فاتهم ما فاتهم وبلوا ما بلوا به ، ولم يبق معهم شىء من نعيم الدنيا ولذاتها ، ثم إنهم لو لم يشاهدوا نعيم الجنة ، لم تعظم حسرتهم لكنها تعرض عليهم ، فقد قال رسول الله ﷺ : « يؤتى يوم القيامة بناس من النار إلى الجنة ، حتى إذا دنوا منها واستنشقوا رائحتها ، ونظروا إلى قصورها ، وإلى ما أعد الله لأهلها فيها ، نودوا : أن اصرفوهم عنها ، لا نصيب لهم فيها ، فيرجعون بحسرة ، ما رجع الأولون والآخرون بمثلها ، فيقولون : يا ربنا لو أدخلتنا النار ، قبل أن ترينا ما أريتنا من ثوابك، وما أعددت فيها لأوليائك ، كان أهون علينا ، فيقول الله تعالى : ذاك أردت بكم ، كنتم إذا خلوتم بارزتمونى بالعظائم ، وإذا لقيتم الناس لقيتموهم مخبتين ، تراؤون الناس بخلاف ما تعطونى من قلوبكم ، هبتم الناس ولم تهابونى ، وأجللتم الناس ولم تجلونى ، وتركتم للناس ولم تتركوا لى، فاليوم أذيقكم العذاب الأليم، مع ما حرمتكم من الثواب المقيم » .

قال أحمد بن حرب : إن أحدنا يؤثر الظل على الشمس ، ثم لا يؤثر الجنة على النار .

وقال عيسى عليه السلام : كم من جسد صحيح ووجه صبيح ولسان فصيح غدًا بين أطباق النار يصيح .

وقال داود : إلهى لا صبر لى على حرّ شمسك ، فكيف صبر لى على حرّ نارك ، ولا صبر لى على صوت رحمتك ، فكيف على صوت عذابك .

فانظر يا مسكين فى هذه الأهوال ، واعلم أن الله تعالى خلق النار بأهوالها وخلق لها أهلاً ، لا يزيدون ولا ينقصون ، وأن هذا أمر قد قضى وفرغ منه .

قال الله تعالى : ﴿**وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ**﴾ [مريم : ٣٩] ولعمرى الإشارة به إلى يوم القيامة ، بل فى أزل الأزل ولكن أظهر يوم القيامة ما سبق به القضاء ، فالعجب منك حيث تضحك وتلهو وتشتغل بمحقرات الدنيا ، ولست تدرى أن القضاء بماذا سبق فى حقك ، فإن قلت : فليت شعرى ماذا موردى وإلى ماذا مآلى ومرجعى ، وما الذى سبق به القضاء فى حقى ؟ فلك علامة تستأنس بها وتصدق رجاءك بسببها ، وهو أن تنظر إلى أحوالك وأعمالك ، فإن كلا ميسر لما خلق له ، فإن كان قد يسر لك سبيل الخير ، فأبشر فأنت مبعد عن النار ، وإن كنت لا تقصد خيرًا إلا وتحيط بك العوائق فتدفعه ، ولا تقصد شرا إلا وتتيسر لك أسبابه ، فاعلم أنك مقضى عليك ، فإن دلالة هذا على العاقبة ، كدلالة المطر على النبات ودلالة الدخان على النار . فقد قال الله تعالى : ﴿ **إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۞ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ** ﴾ [الانفطار : ١٣ ـ ١٤] فاعرض نفسك على الآيتين ، وقد عرفت مستقرك من الدارين والله أعلم .



الباب الأربعون .. في

فــضل الطاعة

اعلم أن طاعة الله سبحانه وتعالى جماع الخير كله ، وقد حث الله تعالى عليها فى كتابه فى آيات متعددة ، وبها أرسل الرسل ليخرج الناس من ظلمات النفوس إلى أنوار معرفة القدوس ، وليتمتعوا فى دار النعيم التى أعدت للمتقين ، بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، فإنهم لم يخلقوا عبثا بل ﴿ **لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى** ﴾ [النجم : ٣١] وهو الغنى عن طاعتهم ولا تضره معصيتهم ولا تنقص من كمالاته شيئًا ﴿ **فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ** ﴾ [فصلت : ٣٨] ، ﴿ **مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا** ﴾ [فصلت : ٤٦ ، الجاثية : ١٥] . ﴿ **وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ** ﴾ [محمد : ٣٨] يا عجبا ، أحدنا يشترى الرقيق ، ويحب أن يكون قائما بما يلزم من الخدمة ، ناصحا فيها منقادا لمولاه الذى استولى عليها بالعرض اليسير الفانى ، ويمقته بزلة واحدة ، ويغضب عليه ، وربما منع مرتبه أو طرده أو باعه ، فما لنا لا نطيع مولانا الحقيقى الذى خلقنا وسوانا ، ونقع فى زلات عدد المطر . ومع ذلك لم يمنع نعمه عنا وإمداداته التى لولاها لهلكنا ، وهو قادر على البطش بنا بمجرد ارتكاب زلة واحدة ، لكنه يمهلنا لعلنا نتوب ، فيقبلنا ويغفر زلتنا ويستر عورتنا . فالعاقل يعرف من هو الأحق بالطاعة ، فيقبل عليه ويتوجه بكليته إليه ، وكلما أذنب تاب وإلى خالقه أناب . لا ييأس من رحمته ويتحبب إليه بشكر نعمته ، ويواظب على ذلك عسى أن يكتب من المحبين ، فيأتيه الموت وهو مشتاق إلى مولاه ، ومولاه أشد شوقًا إلى لقائه . قال أبو الدرداء لكعب رضى الله عنهما : أخبرنى عن أخص آية يعنى فى التوراة ؟ فقال: يقول الله تعالى : طال شوق الأبرار إلى لقائى ، وإنى إلى لقائهم لأشد شوقاً . قال :

ومكتوب إلى جانبها : من طلبنى وجدنى ، ومن طلب غيرى لم يجدنى . فقال أبو الدرداء : أشهد أنى لسمعت رسول الله ﷺ يقول هذا .

وفى أخبار داود عليه السلام:أن الله تعالى قال: يا داود أبلغ أهل أرضى أنى حبيب لمن أحبنى، وجليس لمن جالسنى، ومؤنس لمن أنس ذكرى، وصاحب لمن صاحبنى، ومختار لمن اختارنى، ومطيع لمن أطاعنى. ما أحبنى عبد أعلم ذلك يقيناً من قلبه، إلا قبلته لنفسى وأحببته حبا لا يتقدمه أحد من خلقى. من طلبنى بالحق وجدنى، ومن طلب غيرى لم يجدنى فارفضوا يا أهل الأرض ما أنتم عليه من غرورها، وهلموا إلى كرامتى ومصاحبتى ومجالستى وآنسوا بى أؤانسكم وأسارع إلى محبتكم. فإنى خلقت طينة أحبابى من طينة إبراهيم خليلى، وموسى نجيى، ومحمد صفيى، وخلقت قلوب المشتاقين من نورى ونعمتها بجلالى . وروى عن بعض السلف أن الله تعالى أوحى إلى بعض الصديقين : إن لى عباداً من عبادى يحبونى وأحبهم، ويشتاقون إلىّ وأشتاق إليهم، ويذكرونى وأذكرهم وينظرون إلىّ وأنظر اليهم، فإن حذوت طريقهم أحببتك، وإن عدلت عنهم مقتك. قال: يا رب وما علامتهم؟ قال: يراعون الظلال بالنهار، كما يراعى الراعى الشفيق غنمه، ويحنون إلى غروب الشمس. كما يحن الطائر إلى وكره عند الغروب، فإذا جنهم الليل واختلط بالظلام وفرشت الفرش ونصبت الأسرة، وخلا كل حبيب بحبيبه، نصبوا إلى أقدامهم، وافترشوا إلىّ وجوههم، وناجونى بكلامى وتملقوا إلى بأنعامى ، فبين صارخ وباك ، وبين متأوه وشاك، وبين قائم وقاعد ، وبين راكع وساجد، بعينى ما يتحملون من أجلى، وبسمعى ما يشتكون من حبى.

أول ما أعطيهم ثلاث : أقذف من نورى فى قلوبهم ، فيخبرون عنى كما أخبر عنهم .

والثانية : لو كانت السموات والأرض وما فيها فى موازينهم ، لاستقللتها لهم .

والثالثة : أقبل بوجهى عليهم ، فترى من أقبلت بوجهى عليه لا يعلم أحد ما أريد أن أعطيه .

و فى أخبار داود عليه السلام : أن الله تعالى أوحى إليه يا داود إلى كم تذكر الجنة ولا تسألنى الشوق إلى قال : يا رب من المشتاقون إليك .

قال: إن المشتاقين إلي الذين صفيتهم من كل كدر ونبهتهم بالحذر وخرقت من قلوبهم خرقا ينظرون إلي لأحمل بيدى فأضعها على سمائى ثم أدعو نجباء ملائكتى فإذا اجتمعوا سجدوا لى فأقول إنى لم أدعكم لتسجدوا لى ولكنى دعوتكم لأعرض عليكم قلوب المشتاقين إلى وأباهي بكم أهل الشوق إلي فإن قلوبهم لتضىء فى سمائى لملائكتى كما تضيء الشمس لأهل الأرض يا داود أنى خلقت قلوب المشتاقين من رضوانى ونعمتها بنور وجهى فاتخذتهم لنفسى محدثين وجعلت أبدانهم موضع نظرى إلى الأرض وقطعت من قلوبهم طريقًا ينظرون به إلى ويزدادون فى كل يوم شوقا قال داود: يا رب أرنى أهل محبتك فقال : يا داود ائت جبل لبنان فإن فيه أربعة عشر نفسًا فيهم شبان وفيهم شيوخ وفيهم كهول. فإذا أتيتهم فاقرئهم منى السلام وقل لهم إن ربكم يقرئكم السلام، ويقول لكم ألا تسألون حاجة فإنكم أحبائى وأصفيائى وأوليائى أفرح لفرحكم وأسارع إلى محبتكم فأتاهم داود عليه السلام فوجدهم عند عين من العيون يتفكرون فى عظمة الله عز وجل فلما نظروا إلى داود عليه السلام نهضوا ليتفرقوا عنه فقال داود إنى رسول الله إليكم جئتكم لأبلغكم رسالة ربكم فأقبلوا نحوه وألقوا أسماعهم نحو قوله وألقوا أبصارهم إلى الأرض . فقال داود : إنى رسول الله إليكم يقرئكم السلام ويقول لكم ألا تسألون حاجة ألا تنادونى أسمع صوتكم وكلامكم فإنكم أحبابى وأصفيائى وأوليائى أفرح لفرحكم وأسارع إلى محبتكم وأنظر إليكم فى كل ساعة نظرة الوالدة الشفيقة الرفيقة. قال فجرت الدموع على خدودهم . فقال شيخهم : سبحانك سبحانك نحن عبيدك وبنو عبيدك فاغفر لنا ما قطع قلوبنا عن ذكرك فيما مضى من أعمارنا. وقال الآخر : سبحانك سبحانك نحن عبيدك وبنو عبيدك فامنن علينا بحسن النظر فيما بيننا وبينك. وقال الآخر: سبحانك سبحانك نحن عبيدك وبنو عبيدك أفنجترىء على الدعاء وقد علمت أنه لا حاجة لنا فى شىء من أمورنا فأدم علينا لزوم الطريق إليك وأتمم لنا بذلك المنة علينا . وقال الآخر : نحن مقصرون فى طلب رضاك فأعنا عليه بجودك. وقال الآخر: من نطفة خلقتنا ومننت علينا بالتفكر فى عظمتك أفيجترىء على الكلام من هو مشتغل بعظمتك متفكر فى جلالك وطلبنا الدنو من نورك. وقال الآخر: كلت ألسنتنا عن دعائك لعظم شأنك وقربك من أوليائك

وكثرة منتك على أهل محبتك . وقال آخر: أنت هديت قلوبنا لذكرك وفرغتنا للاشتغال بك، فاغفر لنا تقصيرنا في شكرك. وقال الآخر: قد عرفت حاجتنا إنما هى النظر إلى وجهك . وقال الآخر: كيف يجترىء العبد على سيده إذا أمرتنا بالدعاء بجودك فهب لنا نورًا نهتدى به فى الظلمات من أطباق السموات. وقال الآخر: ندعوك أن تقبل علينا وتديمه عندنا. وقال الآخر: نسألك تمام نعمتك فيما وهبت لنا وتفضلت به علينا. وقال الآخر: لا حاجة لنا فى شئ من خلقك فامنن علينا بالنظر إلى جمال وجهك. وقال الآخر : أسألك من بينهم أن تعمى عينى عن النظر إلى الدنيا وأهلها وقلبى عن الاشتغال بغير الآخرة. وقال الآخر: قد عرفت تباركت وتعاليت أنك أنت تحب أولياءك فامنن علينا باشتغال القلب بك عن كل شيء دونك .

فأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : قل لهم قد سمعت كلامكم وأجبتكم إلى ما أحببتم فليفارق كل واحد منكم صاحبه وليتخذ لنفسه سردابًا فإنى كاشف الحجاب فيما بينى وبينكم حتى تنظروا نورى وجلالى . فقال داود: يا رب بم نالوا هذه منك. قال: بحسن الظن والكف عن الدنيا وأهلها والخلوات بى ومناجاتهم لى وإن هذا منزل لا يناله إلا من رفض الدنيا وأهلها ولم يشتغل بشيء من ذكرها وفرغ قلبه لى واختارنى على جميع خلقى فعند ذلك أعطف عليه وأفرغ نفسه واكشف الحجاب فيما بينى وبينه حتى إلى نظر الناظر بعينه إلى الشيء وأريه كرامتى فى كل ساعة وأقربه من نور وجهى إن مرض مرضته كما تمرض الوالدة الشفوقة ولدها وإن عطش أرويته وأذيقه طعم ذكرى فإذا فعلت ذلك به يا داود عميت نفسه عن الدنيا وأهلها ولم أحببها إليه لا يفتر عن الاشتغال بى يستعجلنى القدوم وأنا أكره أن أميته لأنه موضع نظرى من بين خلقى لا يرى غيرى ولا أرى غيره فلو رأيته يا داود وقد ذابت نفسه ونحل جسمه وتهشمت أعضاؤه وانخلع قلبه إذ سمع بذكرى أباهى به ملائكتى وأهل سمواتى يزداد خوفا وعبادة وعزتى وجلالى يا داود لأقعدنّه فى الفردوس لأشفين صدره من النظر إلى حتى يرضى وفوق الرضا.

وفى أخبار داود أيضًا : قل لعبادى المتوجهين إلى محبتى : ما ضركم إذا احتجبت عن خلقى ، ورفعت الحجاب فيما بينى وبينكم ، حتى تنظروا إلى بعيون قلوبكم ؟ وما ضركم ما زويت عنكم من الدنيا إذا بسطت دينى

لكم ؟ وما ضركم مسخطة الخلق إذا التمستم رضائى ؟ .

وفى أخبار داود أيضًا: أن الله تعالى أوحى إليه تزعم أنك تحبنى فإن كنت تحبنى فأخرج حب الدنيا من قلبك فإن حبى وحبها لا يجتمعان فى قلب يا داود خالص تحبنى مخلصة وخالط أهل الدنيا مخالطة ودينك فقلدنه ولا تقلد دينك الرجال أما ما استبان لك مما وافق محبتى فتمسك به وأما ما أشك عليك فقلدنه حقا على إنى مسارع إلى سياستك وتقويمك وأكون قائدك ودليلك أعطيك من غير أن تسألنى وأعيى الشدائد. وإنى قد حلفت على نفسى أنى لا أثيب إلا عبدًا قد عرفت من طلبته وإرادته إلقاء كتفيه بين يدى وأنه لا غنى له عنى فإذا كنت كذلك نزعت الذلة والوحشة عنك وأسكن الغنى قلبك فإنى قد حلفت على نفسى أنه لا يطمئن عبد لى إلى نفسه ينظر إلى أفعالها إلا وكلته إليها أضعف الأشياء التى لا تضاد عملك فتكون متعتيا ولا ينفع بك من يصحبك ولا تجد لمعرفتى حدا فليس لها غاية ومتى طلبت منى الزيادة أعطك ولا تجد للزيادة منى حدا ثم أعلم بنى اسرائيل أنه ليس بينى وبين أحد من خلقى نسب فلتعظم رغبتهم وإرادتهم. عندما أبيح لهم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولاخطر على قلب بشر ضعنى بين عينيك وانظر إلى ببصر قلبك ولا تنظر بعينك التى فى رأسك إلى الذين حجبت عقولهم عنى فأمرجوها فوسخت بانقطاع ثوابى عنها فإنى حلفت بعزتى وجلالى لا أفتح ثوابى لعبد دخل فى طاعتى للتجربة والتسويق تواضع لمن تعلمه ولا تطاول على المريدين لو علم أهل محبتى منزلة المريدين عندى لكانوا لهم أرضًا يمشون عليها يا داود لأن تخرج مريدًا من سكرة هو فيها تستنقذه فأكتبك عندى جهيدا ومن كتبته عندى جهيدا لا تكون عليك وحشة ولا فاقة إلى المخلوقين. يا داود تمسك بكلامى وخذ من نفسك لا تؤتين منها فأحجب عنك محبتى لا تيئس عبادى من رحمتى أقطع شهوتك فإنما أبحث الشهوات يضعفه خَلْقى ما بال الأقوياء أن ينالوا الشهوات فإنها تنقص حلاوة مناجاتى وإنما عقوبة الأقوياء عندى فى موضع التناول أدنى ما يصل إليهم أن أحجب عقولهم فإنى لم أرض الدنيا لحبيبى ونزهته عنها يا داود لا تجعل بينى عالما يحجبك بسكره عن محبتى أولئك قطاع الطريق على عبادى المريدين استعن على ترك الشهوات بإدمان الصوم وإياك والتجربة فى الإفطار فإن محبتى للصوم وإدمانه .

الباب الحادي والأربعون .. في

الشكـــــر

اعلم أن الله تعالى قرن الشكر بالذكر فى كتابه مع أنه قال : ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ [العنكبوت : ٤٥] فقال تعالى : ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ [البقرة : ١٥٢] وقال الله تعالى: ﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ ﴾ [النساء : ١٤٧] وقال تعالى : ﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمـــران : ١٤٥] وقـال عز وجل عـن إبليس اللعين : ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الأعـراف : ١٦] قـيل : هو طريق الـشكر ، وطعن اللعين فى الخلق ، فقال : ﴿ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ [الأعراف : ١٧] وقال تعالى : ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ [سبـأ : ١٣] وقد قطع الله تعالى بالمزيد مع الشكر ولم يستثن ، فقال تعالى : ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧] واستثنى فى خمسة أشـياء فى الإغناء والإجابة والرزق والمغفرة والتوبة . فقال تعالى: ﴿ فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ ﴾ [التوبة:٢٨] وقال : ﴿ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [البقرة : ٢١٢] وقال : ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾ [النساء : ٤٨ ـ ١١٦] وقال : ﴿ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ ﴾ [التوبة : ١٥] وهو خلق من أخلاق الربوبية إذ قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴾ [التغابن :١٧] وقد جعل الله الشكر مفتاح كلام أهل الجنة ، فقال تعالى : ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ ﴾ [الزمـر : ٧٤] . وقال : ﴿ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [يونس : ١٠] .

وأما الأخـبار : فقد قـال رسول الله ﷺ : « الطاعم الشـاكـر بمنزلة الصائم الصابر ». وروى عن عطاء أنه قال : دخلت على عـائشة رضى الله عنها ، فـقلت: أخبـرينا بأعجب ما رأيـت من رسول الله ﷺ ؟ فـبكت ،

وقالت : وأى شأنه لم يكن عجبًا ؟ أتانى ليلة فدخل معى فى فراشى ، أو قالت: فى لحافى حتى مس جلدى جلده، ثم قال : «يا ابنة أبى بكر، ذرينى أتعبد لربى». قالت: قلت: إنى أحب قربك، لكنى أوثر هواك فأذنت له. فقام إلى قربة ماء فتوضأ، فلم يكثر صب الماء، ثم قام فصلى، فبكى حتى سالت دموعه على صدره، ثم ركع فبكى، ثم سجد فبكى، ثم رفع رأسه فبكى، فلم يزل كذلك يبكى، حتى جاء بلال فآذنه بالصلاة، فقلت: يا رسول الله ما يبكيك، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «أفلا أكون عبدا شكورا؟ ولم لا أفعل ذلك، وقد أنزل الله تعالى علىّ: ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾ [آل عمران: ١٩٠] الآية . وهذا يدل على أن البكاء ينبغى أن لا ينقطع أبداً. وإلى هذا السر يشير ما روى أنه مرّ بعض الأنبياء بحجر صغير يخرج منه ماء كثير فتعجب منه فأنطقه الله تعالى فقال: منذ سمعت قوله تعالى : ﴿**وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ**﴾ [البقرة : ٢٤] فأنا أبكى من خوفه. فسأل الله أن يجيره من النار، فأجاره، ثم رآه بعد مدة على مثل ذلك، فقال: لم تبكى الآن؟ فقال: ذاك بكاء الخوف، وهذا بكاء الشكر والسرور . وقلب العبد كالحجارة أو أشد قسوة ، ولا تزول إلا بالبكاء فى حال الخوف والشكر جميعًا .

وروى عنه ﷺ أنه قال : « ينادى يوم القيامة : ليقم الحمادون . فتقوم زمرة فينصب لهم لواء فيدخلون الجنة » . وقيل : من الحمادون ؟ قال : « الذين يشكرون الله تعالى على كل حال» وفى لفظ آخر « الذين يشكرون الله على السراء والضراء » . وقال ﷺ : « الحمد رداء الرحمن » .

وأوحى الله تعالى إلى أيوب عليه السلام : إنى رضيت بالشكر مكافأة من أوليائى . فى كلام طويل ، وأوحى الله تعالى إليه أيضًا فى صفة الصابرين : أن دارهم السلام ، إذا دخلوها ألهمتهم الشكر ، وهو خير الكلام ، وعند الشكر سنزيدهم ، وبالنظر إلىّ أزيدهم .

ولما نزل فى الكنوز ما نزل ، قال عمر رضى الله عنه : أى المال يتخذ؟ فقال عليه السلام: « ليتخذ أحدكم لسانا ذاكرا وقلبًا شاكرا » فأمر باقتناء الشكر بدل المال . وقال ابن مسعود : الشكر نصف الإيمان .

واعلم : أن الشكر يتعلق بالقلب واللسان وبالجوارح . أما بالقلب فقصد الخير وإضماره لكافة الخلق . وأما باللسان فإظهار الشكر لله تعالى بالتحميدات الدالة عليه . وأما بالجوارح فاستعمال نعم الله تعالى فى طاعته والتوقى من الاستعانة بها على معصيته ، حتى أن شكر العينين أن تستر كل عيب تراه لمسلم ، وشكر الأذنين أن تستر كل عيب تسمعه فيه ، فيدخل هذا فى جملة شكر نعم الله تعالى بهذه الأعضاء ، والشكر باللسان لإظهار الرضى عن الله تعالى وهو مأمور به . فقد قال ﷺ لرجل : « كيف أصبحت؟ » . قال : بخير . فأعاد ﷺ السؤال ، حتى قال فى الثالثة : بخير أحمد اللهّ وأشكره ، فقال ﷺ : « هذا الذى أردت منك » .

وكان السلف يتساءلون ونيتهم استخراج الشكر لله تعالى، ليكون الشاكر مطيعاً والمستنطق له به مطيعاً. وما كان قصدهم الوفاء بإظهار الشوق، وكل عبد سائل عن حال فهو بين أن يشكر أو يشكو أو يسكت. فالشكر طاعة والشكوى معصية قبيحة من أهل الدين وكيف لا تقبح الشكوى من ملك الملوك وبيده كل شيء، إلى عبد مملوك لا يقدر على شيء. فالأحرى بالعبد إن لم يحسن الصبر على البلاء، والقضاء وأفضى به الضعف على الشكوى، أن تكون شكواه لله تعالى، فهو المبلى والقادر على إزالة البلاء، وذل العبد لمولاه عز، والشكوى إلى غيره ذل، وإظهار الذل للعبد مع كونه عبدا مثله، ذل قبيح.

قال الله تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ** ﴾ [العنكبوت : ١٧] وقال الله تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُم** ﴾ [الأعراف : ١٩٤] فالشكر باللسان من جملة الشكر . وقد روى : أن وفدا قدموا على عمر بن عبد العزيز رحمه الله، فقام شاب ليتكلم، فقال عمر: الكبير، الكبير، فقال : يا أمير المؤمنين لو كان الأمر بالسن، لكان فى المسلمين من هو أسن منك، فقال : تكلم. فقال: لسنا وفداً لرغبة ولا وفداً لرهبة. أما الرغبة فقد أوصلها إلينا فضلك، وأما الرهبة فقد آمننا منها عدلك ، وإنما نحن وفد الشكر ، جئناك نشكرك باللسان وننصرف .

الباب الثاني والأربعون ..في

بيان ذم الكبر

قد ذم الله الكبر في مواضع من كتابه ، وذم كل جبار متكبر ، فقال تعالى : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ [الأعراف: ١٤٦] وقال عز وجل : ﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ [غافر : ٣٥] وقال تعالى : ﴿ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ [إبراهيم : ١٥] وقال تعالى :﴿ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾ [النحل : ٢٣] وقال تعالى : ﴿ لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ﴾ [الفرقان: ٢١] وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر : ٦٠] وذم الكبر فى القرآن كثير . وقد قال الرسول ﷺ : « لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من كبر ، ولا يدخل النار من كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان » . وقال أبو هريرة رضى الله عنه : قال رسول الله ﷺ : « يقول الله تعالى : الكبرياء ردائى والعظمة إزارى ، فمن نازعنى واحدا منهما ألقيته فى جهنم ولا أبالى »[1] . وعن أبى سلمة بن عبد الرحمن قال : التقى عبد الله بن عمرو ، وعبد الله بن عمر على « الصفا » فتوافقا ، فمضى ابن عمرو ، وأقام ابن عمر يبكى . فقالوا: ما يبكيك يا أبا عبد الرحمن ؟ فقال : هذا يعنى عبد الله بن عمرو زعم أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « من كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من كبر أكبه الله فى النار على وجهه » . وقال رسول الله ﷺ: « لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب فى الكافرين ، فيصيبه ما أصابهم من العذاب » .

قال سليمان بن داود عليه السلام يوما للطير والإنس والجن والبهائم :

---

(١) وهذا هو الحديث القدسي الذي لفظه ومعناه منه جل جلاله ويفارق القرآن في أشياء انظرها في مقدمتي لكتاب المنار المنيف لابن قيم الجوزية .

اخرجوا . فخرجوا فى مائتى ألف من الإنس ومائتى ألف من الجن ، حتى سمع زجل الملائكة بالتسبيح فى السموات ثم خفض حتى مست أقدامه البحر، فسمع صوتاً يقول : لو كان فى قلب صاحبكم مثقال ذرة من كبر ، لخسفت به أبعد مما رفعته . وقال ﷺ : « يخرج من النار عنق له أذنان تسمعان وعينان تبصران ولسان ينطق يقول : وكلت بثلاثة : بكل جبار عنيد، وبكل من دعا مع الله إلها آخر ، وبالمصورين » .

وقال ﷺ : « لا يدخل الجنة بخيل ولا جبار ولا سيء الملكة » .

وقال ﷺ:« تحاجت الجنة والنار ، فقالت النار : أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين . وقالت الجنة : ما لى لا يدخلنى إلا الضعفاء من الناس وسقاطهم وعجزتهم. فقال الله للجنة: إنما أنت رحمتى أرحم بك من أشاء من عبادى. وقال للنار : إنما أنت عذابى أعذب بك من أشاء . ولكل واحدة منكما ملؤها». وقال ﷺ : « بئس العبد عبد تجبر واعتدى ونسى الجبار الأعلى، بئس العبد عبد تجبر واختال، ونسى الكبير المتعال، بئس العبد عبد غفل وسها ونسى المقابر والبلى . بئس العبد عبد عتى وبغى ، ونسى المبدأ والمنتهى » . وعن ثابت أنه قال : يا رسول الله ما أعظم كبر فلان ؟ فقال : « أليس بعده الموت » . وقال عبد الله بن عمر : إن رسول الله ﷺ قال : «إن نوحا عليه السلام لما حضرته الوفاة دعا ابنيه ، وقال : إنى آمركما باثنتين وأنهاكما عن اثنتين : أنهاكما عن الشرك والكبر ، وآمركما بلا إله إلا الله ؛ فإن السموات والأرضين وما فيهما لو وضعت فى كفة الميزان ووضعت لا إله إلا الله فى الكفة الأخرى ، كانت أرجح منها ، ولو أن السموات والأرضين وما فيهن كانت حلقة جماع ، فوضعت لا إله إلا الله عليها لقصمتها ، وآمركما بسبحان الله وبحمده ؛ فإنها صلاة كل شيء، وبها يرزق كل شيء.

وقال المسيح عليه السلام: طوبى لمن علمه الله كتابه، ثم لم يمت جباراً .

وقال ﷺ : « أهل النار كل جعظرى جواظ مستكبر جماع مناع وأهل الجنة الضعفاء المقلون » . وقال ﷺ : « إن أحبكم إلينا وأقربكم منا فى الآخرة، أحسنكم أخلاقا، وإن أبغضكم إلينا وأبعدكم منا الثرثارون المتشدقون المتفيهقون » قالوا: يا رسول الله قد علمنا الثرثارون والمتشدقون فما

المتفيهقون؟ قال: «المتكبرون» .

وقال ﷺ : « يحشر المتكبرون يوم القيامة فى مثل صور الذر ، تطأهم الناس ذرا فى مثل صور لرجال يعلوهم كل شىء من الصغار ، ثم يساقون إلى سجن فى جهنم يقال له : بولس ، تعلوهم نار الأنيار ، يسقون من طين الخبال عصارة أهل النار » .

وقال أبو هريرة : قال النبى ﷺ : « يحشر الجبارون المتكبرون يوم القيامة فى صور الذر تطأهم الناس لهوانهم على الله تعالى » .

وعن محمد بن واسع قال: دخلت على بلال بن أبى بردة فقلت له: يا بلال إن أباك حدثنى عن أبيه عن النبىﷺ أنه قال:«إن فى جهنم واديًا يقال له هبهب، حق على الله أن يسكنه كل جبار، فإياك يا بلال تكون ممن يسكنه» .

وقال ﷺ : « إن فى النار قصراً يجعل فيه المتكبرون ويطبق عليهم » .

وقال ﷺ : « اللهم إنى أعوذ بك من نفخة الكبرياء » .

وقال ﷺ : « من فارق روحه جسده وهو برىء من ثلاث دخل الجنة : الكبر ، والدين ، والغلول » .

وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : لا يحقرن أحد أحداً من المسلمين ؛ فإن صغير المسلمين عند الله كبير .

وقال وهب : لما خلق الله جنة عدن نظر إليها فقال : أنت حرام على كل متكبر . وكان الأحنف بن قيس يجلس مع مصعب بن الزبير على سريره، فجاء يوما ومصعب ماد رجليه ، فلم يقبضهما ، وقعد الأحنف فزاحمه بعض الزحمة . فرأى أثر ذلك فى وجهه ، فقال : عجباً لابن آدم متكبر ، وقد خرج من مجرى البول مرتين .

وقال الحسن : العجب من ابن آدم يغسل الخراء بيده كل يوم مرة أو مرتين ، ثم يعارض جبار السموات ، وقد قال : ﴿ **وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ** ﴾ [الذاريات : ٢١] هو سبيل الغائط والبول .

وقال محمد بن الحسين بن على : ما دخل قلب امرىء شىء من الكبر إلا نقص من عقله بقدر ما دخل فى ذلك ، قل أو كثر .

وسئل سليمان عن السيئة التى لا تنفع معها حسنة ، فقال : الكبر .

وقال النعمان بن بشير على المنبر : إن للشيطان مصائد وفخوخا ، وإن مصائد الشيطان وفخوخه : البطر بأنعم الله ، والفخر بإعطاء الله ، والكبر على عباد الله ، واتباع الهوى فى غير ذات الله ، نسأل الله تعالى العفو والعافية فى الدنيا والآخرة بمنه وكرمه . وقال رسول الله ﷺ : « لا ينظر الله إلى رجل جر إزاره بطرًا » . وقال ﷺ : « بينما رجل يتبختر فى بردته ، إذ أعجبته نفسه، فخسف الله به الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة » .

وقال زيد بن أسلم : دخلت على ابن عمر فمرّ به عبد الله بن واقد ، وعليه ثوب جديد ، فسمعته يقول : أى بنى ارفع إزارك ؛ فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا ينظر الله إلى من جر إزاره خيلاء » .

وروى أن رسول الله ﷺ بصق يومًا على كفه، ووضع أصبعه عليه، وقال: «يقول الله تعالى : يا ابن آدم تعجزنى ، وقد خلقتك من مثل هذه، حتى إذا سويتك وعدلتك مشيت بين بردين، وللأرض منك وئيد ، جمعت ومنعت ، حتى إذا بلغت التراقى، قلت: أتصدق، وأنى أوان الصدقة؟ وقال ﷺ : « إذا مشت أمتى المطيطاء، وخدمتهم فارس والروم سلط الله بعضهم على بعض».

قال ابن الأعرابى : هى مشية فيها اختيال .

وقال ﷺ : « من تعظم فى نفسه واختال فى مشيته لقى الله وهو عليه غضبان » . وعن أبى بكر الهذلى قال : بينما نحن مع « الحسن » إذ مرّ علينا ابن الأهتم يريد المقصورة ، وعليه جباب خزّ ، قد نضد بعضها فوق بعض على ساقه ، وانفرج عنها قباؤه وهو يمشى يتبختر ، ونظر إليه الحسن نظرة وقال : أف ، أف ، شامخ بأنفه، ثانى عطفه، مصعر خدّه ، وينظر فى عطفيه . أى حميق أنت تنظر فى عطفيك؟ فى نعم غير مشكورة، ولا مذكورة، غير مأخوذ بأمر الله فيها، ولا مؤدى حق الله منها، فى كل عضو من أعضائه لله نعمة، وللشيطان به لفتة، والله لأن يمشى أحد على طبيعته أو يتخلج تخلج المجنون، خير له من هذا ، فسمع ابن الأهتم فرجع يعتذر إليه، فقال : لا تعتذر إلىّ وتب إلى ربك ، أما سمعت قول الله تعالى : ﴿وَلَا

تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً﴾ [الإسراء : ٣٧] . ومرّ بالحسن شاب عليه بزّة له حسنة، فدعاه، فقال له : ابن آدم تعجب بشبابك، ومحب لشمائلك، كأن القبر قد وارى بدنك، وكأنك قد لاقيت عملك؟ ويحك داو قلبك، فإن حاجة الله إلى العباد صلاح قلوبهم وروى أن عمر بن عبد العزيز حج قبل أن يستخلف فنظر اليه طاووس وهو يختال فى مشيته فغمز جنبه بأصبعه ثم قال : ليست هذه مشية من فى بطنه خره. فقال عمر كالمعتذر: يا عم لقد ضرب كل عضو منى على هذه المشية حتى تعلمتها. ورأى محمد بن واسع ولده يختال ، فدعاه وقال : أتدرى من أنت؟ أما أمك فاشتريتها بمائة درهم، وأما أبوك فلا أكثر الله فى المسلمين مثله ورأى ابن عمر رجلاً يجر إزاره فقال: إن للشيطان إخوانًا (كررها مرتين أو ثلاثًا). وروى أن مطرف بن عبد الله بن الشخير رأى المهلب وهو يتبختر فى جبة خز، فقال: يا عبد الله هذه مشية يبغضها الله ورسوله، فقال له المهلب : أما تعرفنى؟ فقال: بلى أعرفك؟ أولك نطفة مذرة وآخرك جيفة قذرة ، وأنت بين ذلك تحمل العذرة، فمضى المهلب وترك مشيته تلك وأنشد فى هذا المعنى:

عجبت من معجب بصورته ... وكان بالأمس نطفة مذره
وفى غد بعد حسن هيئته ... يصير فى القبر جيفة قذره

وأنشد خلف الأحمر :

لنا صاحب مولع بالخلاف ... كثير الخطأ قليل الصواب
أشد لجاجًا من الخنفساء ... وأزهى إذا مشى من غراب

وقال آخر :

قلت للمعجب لما قال : مثلى لا يراجع ... يا قريب العهد بالمخرج لم لا تتواضع؟

ومثله لذى النون المصرى :

أيها الشامخ الذى لا يرام ... نحن من طينة عليك السلام
إنما هذه الحياة الدنيا متاع ... ومع الموت تستوى الأقدام

وقال مجاهد فى قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ ﴾ [القيامة: ٣٣] : أى يتبختر . والله تعالى أعلم .

الباب الثالث والأربعون .. في

التفكر فى الأيام وغيرها

قد أمر الله تعالى بالتفكر والتدين فى كتابه العزيز فى مواضع لا تحصى، فقال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ [البقرة : ١٦٤] الآية أى تعاقبهما فى المجيء والذهاب يخلف أحدهما صاحبه ، إذا ذهب أحدهما جاء الآخر خلفه ، أى بعده ، قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً ﴾ [الفرقان : ٦٢] ، قال عطاء: أراد اختلافهما فى النور والظلمة والزيادة والنقصان .

وما أحسن قول القائل :

يا راقد الليل مسرورًا بأوله ... إن الحوادث قد تطرقن أسحارا
لا تفرحن بليل طاب أوله ... فرب آخر ليل أجّج النارا

وقول آخر :

إن الليالى للأنام مناهل ... تطوى وتنشر دونها الأعمار
فقصارهن مع الهموم طويلة ... وطوالهن مع السرور قصار

وأثنى الله على المتفكرين فقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلاً ﴾ [آل عمران : ١٩١] وقد قال ابن عباس رضى الله عنهما : إن قومًا تفكروا فى الله عز وجل ، فقال النبى ﷺ : « تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى الله ، فإنكم لن تقدروه قدره » .

وعن النبى ﷺ أنه خرج على قوم ذات يوم وهم يتفكرون ، فقال : «ما لكم لا تتكلمون ؟ » ، فقالوا : نتفكر فى خلق الله عز وجل ، قال : «فكذلك فافعلوا ، وتفكروا فى خلقه ، ولا تتفكروا فيه ، فإن بهذا المغرب أرضًا بيضاء ، نورها بياضها وبياضها نورها ، مسيرة الشمس أربعين يومًا

بها، بها خلق من خلق الله عز وجل ، لم يعصوا الله طرفة عين » ، قالوا : يا رسول الله فأين الشيطان منـهم ؟ قال : « ما يدرون خلق الشيطان أم لا»، قالوا : أمن ولد آدم؟ قال : « لا يدرون خلق آدم أم لا » .

وعن عطاء قال : انطلقت يومًا أنا وعبيد بن عمير إلى عائشة رضى الله عنها فكلمتنا وبيننا وبينها حجاب ، فـقالت : يا عبيد ما يمنعك من زيارتنا ؟ قال : قول رسول الله ﷺ : « زر غبا تزدد حبا » . قال ابن عمير : فأخبرينا بأعجب ما رأيتيه من رسول الله ﷺ ؟ قال : فبكت ، وقالت : كل شىء من أمره كـان عجبًا ، أتانى مـرة فى ليلتى حتى مس جلـده جلدى ، ثم قال : ذرينى أتعبـد لربى عز وجل ، فقام إلى القـربة فتوضأ منهـا ، ثم قام يصلى فبكى حتى بل لحيته ، ثم سجد حتى بل الأرض ، ثم اضطجع على جنبه ، حتى أتى بلال يؤذنـه بصلاة الصبح ، فـقال: يا رسول الله مـا يبكيك وقـد غـفر لك مـا تقدم من ذنبك ومـا تأخـر ؟ فقـال : « ويحك يـا بـلال ومـا يمنـعنى أن أبكى ، وقـد أنــزل اللـه تعالى علــيّ فى هـذه الليـلة » : ﴿ **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ** ﴾ [آل عمـران : ١٩٠] ؟ ثم قال : « ويل لمن قـرأها ولم يتفكر فيهـا » ، فقيل للأوزاعى : ما غاية التفكر فيهن ؟ قال : يقرؤهن ويعقلهن .

وعن محمد بن واسع أن رجـلاً من أهل البصرة ركب إلى أم ذر ، بعد موت أبى ذر ، فـسألها عن عـبادة أبى ذر ، فـقالت : كان نهـاره أجمع فى ناحية البيت ، يتفكر .

وعن الحسن قال : تفكر فى الله ساعة خير من قيام ليلة .

وعن الفضيل قال : الفكر مرآة يريك حسناتك وسيئاتك .

وقيل لإبراهيم : إنك تطيل الفكرة ، فقال : الفكرة مخ العقل .

وكان سفيان بن عيينة كثيرًا ما يتمثل بقول القائل :

إذا المـــــرء كـانـــت له فكـــرة ... ففــى كـــل شـــىء لـه عبـــــرة

وعن طاووس قال : قال الحواريون لعيسى ابن مريم : يا روح الله هل على الأرض اليوم مثلك ؟ فقال : نعم من كان منطقه ذكرًا ، وصمته فكرًا ،

ونظره عبرة ، فإنه مثلى. وقال الحسن : من لم يكن كلامه حكمة فهو لغو ، ومن لم يكن سكوته تفكر فهو سهو ، ومن لم يكن نظره اعتبارًا فهو لهو .

وفى قوله تعالى : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ [الأعراف : ١٤٦] قال : أمنع قلوبهم التفكر فى أمرى .

وعن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ : « أعطوا أعينكم حظها من العبادة » ، فقالوا : يا رسول الله وما حظها من العبادة ؟ قال : «النظر فى المصحف والتفكر فيه ، والاعتبار عند عجائبه » .

وعن امرأة كانت تسكن البادية قريبًا من مكة أنها قالت : لو تطالعت قلوب المتقين بفكرها إلى ما قد ادخر لها فى حجب الغيب من خير الآخرة ، لم يصف لهم فى الدنيا عيش ، ولم تقر لهم فى الدنيا عين .

وكان لقمان يطيل الجلوس وحده ، فكان يمر به مولاه ، فيقول : يا لقمان إنك تطيل الجلوس وحدك ، فلو جلست مع الناس كان آنس لك ، فيقول : إن طول الوحدة أدوم للفكر ، وطول الفكر دليل على طريق الجنة .

وقال وهب بن منبه : ما طالت فكرة امرئ قط إلا علم ، وما علم امرؤ قط إلا عمل.

وقال عمر بن عبد العزيز: الفكرة فى نعم الله عز وجل من أفضل العبادة .

وقال عبد الله بن المبارك يومًا لسهل بن علىّ ورآه ساكتًا متفكرًا : أين بلغت ؟ قال : الصراط .

وقال بشر : لو تفكر الناس فى عظمة الله ، ما عصوا الله عز وجل .

وعن ابن عباس : ركعتان مقتصدتان فى تفكر ، خير من قيام ليلة بلا قلب .

وبينا أبو شريح يمشى إذ جلس فتقنع بكسائه ، فجعل يبكى، فقيل له : ما يبكيك ؟ قال : تفكرت فى ذهاب علمى، وقلة عملى ، واقتراب أجلى .

وقال أبو سليمان : عودوا أعينكم البكاء ، وقلوبكم التفكر .

وقال أبو سليمان أيضًا : الفكر فى الدنيا حجاب عن الآخرة ، وعقوبة لأهل الولاية ، والفكر فى الآخرة يورث الحكمة ويحيى القلوب .

وقال حاتم : من العبرة يزيد العلم ، ومن الذكر يزيد الحب ، ومن التفكر يزيد الخوف . وقال ابن عباس : التفكر فى الخير يدعو إلى العمل به، والندم على الشر يدعو إلى تركه . ويروى : أن الله تعالى قال فى بعض كتبه: إنى لست أقبل كلام كل حكيم ، ولكن أنظر إلى همه وهواه ، فإذا كان همه وهواه لى ، جعلت صمته تفكرًا ، وكلامه حمداً وإن لم يتكلم .

وقال الحسن : إن أهل العقل لم يزالوا يعودون بالذكر على الفكر ، وبالفكر على الذكر حتى استنطقوا قلوبهم ، فنطقت بالحكمة .

وقال إسحق بن خلف : كان داود الطائى رحمه الله تعالى على سطح فى ليلة قمراء فتفكر فى ملكوت السموات والأرض ، وهو ينظر إلى السماء، ويبكى حتى وقع فى دار جار له ، قال : فوثب صاحب الدار من فراشه عريانًا ، وبيده سيف ، وظن أنه لص ، فلما نظر إلى داود رجع ووضع السيف ، وقال : من الذى طرحك من السطح ؟ قال : ما شعرت بذلك .

وقال الجنيد : أشرف المجالس وأعلاها الجلوس مع الفكرة فى ميدان التوحيد ، والتنسم بنسيم المعرفة ، والشرب بكأس المحبة من بحر الوداد ، والنظر بحسن الظن بالله عز وجل ، ثم قال : يا لها من مجالس ما أجلها ، ومن شراب ما ألذه ، طوبى لمن رزقه .

وقال الشافعى رحمه الله تعالى: استعينوا على الكلام بالصمت، وعلى الاستنباط بالفكر ، وقال أيضًا : صحة النظر فى الأمور نجاة من الغرور ، والعزم فى الرأى سلامة من التفريط والندم ، والرؤية والفكر يكشفان عن الحرام ، والفطنة ومشاورة الحكماء ثبات فى النفس وقوة فى البصيرة ، ففكر قبل أن تعزم ، وتدبر قبل أن تهجم ، وشاور قبل أن تقدم .

وقال أيضًا : الفضائل أربع :

إحداها : الحكمة وقوامها فى الفكرة .

والثانية : العفة وقوامها فى الشهوة .

والثالثة : القوة وقوامها فى الغضب .

والرابعة : العدل وقوامه فى اعتدال قوى النفس .

الباب الرابع والأربعون .. في

بيان شدة الموت

عن الحسن أن رسول الله ﷺ ذكر الموت وغصته وألمه ، فقال : « هو قدر ثلثمائة ضربة بالسيف » .

وسئل ﷺ عن الموت وشدته ، فقال : « إن أهون الموت بمنزلة حسكة فى صوف ، فهل تخرج الحسكة من الصوف إلا ومعها صوف » .

ودخل ﷺ على مريض ثم قال : « إنى أعلم ما يلقى ، ما منه عرْقٌ إلا ويألم للموت على حدته » . وكان علىّ كرم الله وجهه يحض على القتال ويقول : « إن لم تقتلوا تموتوا ، والذى نفسى بيده لألف ضربة بالسيف أهون علىّ من موتى على فراشى » .

وقال الأوزاعى : بلغنا أن الميت يجد ألم الموت ما لم يبعث من قبره .

وقال شداد بن أوس : الموت أفظع من هول الدنيا والآخرة على المؤمن، وهو أشد من نشر بالمناشير ، وقرض بالمقاريض ، وغلى فى القدور، ولو أن الميت نشر فأخبر أهل الدنيا بالموت ما انتفعوا بعيش ولا لذوا بنوم .

وعن زيد بن أسلم عن أبيه قال : إذا بقى على المؤمن من درجاته شىء لم يبلغها بعمله ، شدد عليه الموت ليبلغ بسكرات الموت وكربه درجته فى الجنة . وإذا كان للكافر معروف لم يجز به ، هون عليه الموت ليستكمل ثواب معروفه ، فيصير إلى النار .

وعن بعضهم أنه كان يسأل كثيراً من المرضى : كيف تجدون الموت ؟ فلما مرض قيل له : فأنت كيف تجده ؟ فقال : كأن السموات مطبقة على الأرض ، وكأن نفسى يخرج من ثقب إبرة .

وقال ﷺ : « موت الفجأة راحة للمؤمن وأسف على الفاجر » .

وروى عن مكحول عن النبى ﷺ أنه قال : « لو أن شعرة من شعر الميت وضعت على أهل السموات والأرض لماتوا بإذن الله تعالى » لأن فى

كل شعرة الموت ولا يقع الموت بشيء إلا مات .

وروى « لو أن قطرة من ألم الموت وضعت على جبال الدنيا كلها لذابت» . ويروى أن إبراهيم عليه السلام لما مات قال الله تعالى : كيف وجدت الموت يا خليلى ؟ قال : كسفود جعل فى صوف رطب ثم جذب . فقال : أما إنا قد هونا عليك .

وروى عن موسى عليه السلام : أنه لما صارت روحه إلى الله تعالى قال له ربه : يا موسى كيف وجدت الموت ؟ قال : وجدت نفسى كالعصفور حين يقلى على المقلى ، لا يموت فيستريح ، ولا ينجو فيطير . وروى عنه أنه قال : وجدت نفسى كشاة حية تسلخ بيد القصاب .

وروى عن النبى ﷺ أنه كان عنده قدح من ماء عند الموت ، فجعل يدخل يده فى الماء ثم يمسح بها وجهه ، ويقول : « اللهم هون علىّ سكرات الموت » ، وفاطمة رضى الله عنها تقول : « وا كرباه لكربك يا أبتاه » ، وهو يقول : « لا كرب على أبيك بعد اليوم » .

وقال عمر رضى الله عنه لكعب الأحبار : يا كعب حدثنا عن الموت ، فقال : نعم يا أمير المؤمنين إن الموت كغصن كثير الشوك ، أدخل فى جوف رجل ، وأخذت كل شوكة بعرق ثم جذبه رجل شديد الجذب ، فأخذ ما أخذ وأبقى ما أبقى . وقال ﷺ : « إن العبد ليعالج كرب الموت وسكراته ، وإن مفاصله ليسلم بعضها على بعض ، تقول : عليك السلام تفارقنى وأفارقك إلى يوم القيامة » ، فهذه سكرات الموت على أولياء الله وأحبائه ، فما حالنا ونحن المنهمكون فى المعاصى ، وتتوالى علينا مع سكرات الموت بقية الدواهى .

فإن دواهي الموت ثلاث :

الأولى : شدة النزع - كما ذكرناه - .

والداهية الثانية : مشاهدة صورة ملك الموت ودخول الروع والخوف منه على القلب ، فلو رأى صورته التى يقبض عليها روح العبد المذنب أعظم الرجال قوة ، لم يطق رؤيته ، فقد روى عن إبراهيم الخليل عليه السلام أنه

قال لملك الموت : هل تستطيع أن تريني صورتك التى تقبض عليها روح الفاجر ؟ قال : لا تطيق ذلك . قال : بلى . قال : فأعرض عنى ، فأعرض عنه، ثم التفت ، فإذا هو برجل أسود قائم الشعر ، منتن الريح ، أسود الثياب ، يخرج من فيه ومناخيره لهيب النار والدخان ، فغشى على إبراهيم عليه السلام ثم أفاق وقد عاد ملك الموت إلى صورته الأولى ، فقال : يا ملك الموت ، لو لم يلق الفاجر عند الموت إلا صورة وجهك لكان حسبه .

وروى أبو هريرة عن النبى ﷺ : أن داود عليه السلام كان رجلاً غيورًا، وكان إذا خرج غلق الأبواب . فغلقها ذات يوم وخرج ، فأشرفت امرأته فإذا هى برجل فى الدار ، فقالت : من أدخل هذا الرجل ؟ لئن جاء داود ليلقين منه عناء . فجاء داود فرآه ، فقال : من أنت ؟ فقال : أنا الذى لا أهاب الملوك ، ولا يمنعهم منى الحجاب ، فقال : فأنت والله إذًا ملك الموت ، وزمل داود عليه السلام مكانه .

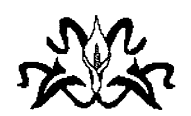
وروى : أن عيسى عليه السلام مرّ بجمجمة فضربها برجله ، فقال : تكلمى بإذن الله ، فقالت : يا روح الله أنا ملك زمان كذا وكذا ، بينما أنا جالس فى ملكى وعلىَّ تاجى وحولى جنودى وحشمى ، على سرير ملكى ، إذ بدا لى ملك الموت ، فزال منى كل عضو على حياله، ثم خرجت نفسى إليه ، فيا ليت ما كان من تلك الجموع كان فرقة ، ويا ليت ما كان من ذلك الأنس كان وحشة ، فهذه داهية يلقاها العصاة ، ويكفاها المطيعون .

وقد حكى الأنبياء مجرد سكرة النزع دون الروعة التى يدركها من يشاهد صورة ملك الموت ، كذلك ولو رآها فى منامه ليلة لتنغص عليه بقية عمره ، فكيف برؤيته فى مثل تلك الحال ؟ وأما المطيع فإنه يراه فى أحسن صورة وأجملها ، فقد روى عكرمة عن ابن عباس أن إبراهيم عليه السلام كان رجلاً غيورًا ، وكان له بيت يتعبد فيه ، فإذا خرج أغلقه . فرجع ذات يوم فإذا برجل فى جوف البيت . فقال : من أدخلك دارى ؟ فقال : أدخلنيها ربها. فقال: أنا ربها. فقال: أدخلنيها من هو أملك بها منى ومنك. فقال : أنت من الملائكة ؟ قال : أنا ملك الموت . قال : هل تستطيع أن

ترينى الصورة التى تقبض فيها روح المؤمن ؟ قال : نعم فأعرض عنى، ثم التفت ، فإذا هو بشاب فذكر من حسن وجهه وحسن ثيابه وطيب ريحه. فقال: يا ملك الموت لو لم يلق المؤمن عند الموت إلا صورتك كان حسبه .

ومنها مشاهدة الملكين الحافظين ، قال وهب : بلغنا أنه ما من ميت يموت حتى يتراءى له ملكاه الكاتبان عمله . فمن كان مطيعًا قالا له : جزاك الله عنا خيرًا ، أقرب مجلس صدق أجلستنا ، وعملاً صالحًا أحضرتنا . وإن كان فاجرًا قالا له : لا جزاك الله عنا خيرًا ، أقرب مجلس سوء أجلستنا ، وعملاً غير صالح أحضرتنا ، وكلامًا قبيحًا أسمعتنا ، فلا جزاك الله خيرًا . فذلك شخوص بصر الميت إليهما ، ولا يرجع إلى الدنيا أبدًا .

الداهية الثالثة : مشاهدة العصاة مواضعهم من النار ، وخوفهم قبل المشاهدة ، فإنهم فى حال السكرات ، قد تخاذلت قواهم واستسلمت للخروج أرواحهم ، ولا تخرج أرواحهم ما لم يسمعوا نغمة ملك الموت بإحدى البشريين ، إما أبشر يا عدو الله بالنار ، أو أبشر يا ولىّ الله بالجنة ، ومن هذا كان خوف أرباب الألباب. وقد قال النبى ﷺ : « لن يخرج أحدكم من الدنيا حتى يعلم أين مصيره ، وحتى يرى مقعده من الجنة أو النار » .



الباب الخامس والأربعون .. في

بيان القبر وسؤاله

قال رسول الله ﷺ : « يقول القبر للميت حين يوضع فيه : ويحك يا ابن آدم، ما غرك بى؟ألم تعلم أنى بيت الفتنة، وبيت الظلمة، وبيت الوحدة ، وبيت الدود؟ ما غرك بى؟ إذ كنت تمر بى فذاذًا، فإن كان مصلحًا أجاب عنه مجيب القبر، فيقول : أرأيت إن كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ؟ فيقول القبر: إذًا أتحول عليه خضرًا ويعود جسده نورًا، وتصعد روحه إلى الله تعالى » والفذاذ هو : الذى يقدم رجلاً ويؤخر أخرى . هكذا فسره الراوى .

وقال عبيد بن عمير الليثى : ليس من ميت يموت إلا نادته حفرته التى يدفن فيها : أنا بيت الظلمة والوحدة والانفراد ، فإن كنت فى حياتك لله مطيعًا كنت عليك اليوم رحمة، وإن كنت عاصيًا فأنا اليوم عليك نقمة . أنا الذى من دخلنى مطيعًا خرج مسرورًا، ومن دخلنى عاصيًا خرج مثبورًا .

وقال محمد بن صبيح : بلغنا أن الرجل إذا وضع فى قبره فعذب أو أصابه بعض ما يكره، ناداه جيرانه من الموتى : أيها المتخلف فى الدنيا بعد إخوانه وجيرانه ، أما كان لك فينا معتبر ؟ أما كان لك فى متقدم إياك فكرة ؟ أما رأيت انقطاع أعمالنا عنا وأتيت فى الليلة فلا استدركت ما فات إخوانك ؟ وتناديه بقاع الأرض : أيها المغتر بظاهر الدنيا ، هلا اعتبرت بمن غيب من أهلك فى بطن الأرض ، ممن غرته الدنيا قبلك ؟ ثم سبق به أجله إلى القبور، وأنت تراه محمولاً ، تهاداه أحبته إلى المنزل الذى لا بد له منه .

وقال يزيد الرقاشى : بلغنى أن الميت إذا وضع فى قبره احتوشته أعماله ثم أنطقها الله ، فقالت : أيها العبد المنفرد فى حفرته ، انقطع عنك الأخلاء والأهلون ، فلا أنيس لك اليوم عندنا .

وقال كعب : إذا وضع العبد الصالح فى القبر احتوشته أعماله الصالحة: الصلاة والصيام والحج والجهاد والصدقة ، قال : فتجيء ملائكة العذاب من قبل رجليه فتقول الصلاة: إليكم عنه فلا سبيل لكم عليه ، فقد

أطال بى القيام لله عليهما . فيأتونه من قبل رأسه فيقول الصيام : لا سبيل لكم عليه ، فقد أطال ظمأه لله فى دار الدنيا فلا سبيل لكم عليه . فيأتونه من قبل جسده ، فيقول الحج والجهاد : إليكم عنه ، فقد أنصب نفسه وأتعب بدنه وحج وجاهد لله فلا سبيل لكم عليه. قال: فيأتونه من قبل يديه ، فتقول الصدقة : كفوا عن صاحبى ، فكم من صدقة خرجت من هاتين اليدين ، حتى وقعت فى يد الله تعالى ابتغاء وجهه ، فلا سبيل لكم عليه . قال : فيقال له : هنيئًا ، طبت حيا وطبت ميتًا . قال : ويأتيه ملائكة الرحمة ، فتفرش له فراشًا من الجنة ، ودثارًا من الجنة ، ويفسح له فى قبره مد بصره ، ويؤتى بقنديل من الجنة فيستضىء بنوره إلى يوم يبعثه الله من قبره .

وقال عبيد بن عمير فى جنازة: بلغنى أن رسول الله ﷺ قال : إن الميت يقعد وهو يسمع خطو مشيعيه: فلا يكلمه شىء إلا قبره يقول: ويحك يا ابن آدم، أليس قد حذرتنى وحذرت ضيقى ونتنى وهولى ودودى؟ فماذا أعددت لى ؟ وقال البراء بن عازب : خرجنا مع رسول الله ﷺ فى جنازة رجل من الأنصار فجلس رسول الله ﷺ على قبره منكسًا رأسه ، ثم قال : «اللهم إنى أعوذ بك من عذاب القبر » ثلاثًا : ثم قال : « إن المؤمن إذا كان فى قبل من الآخرة وانقطاع من الدنيا بعث الله ملائكة كأن وجوههم الشمس معهم حنوطه وكفنه ، فيجلسون مد بصره ، فإذا خرجت روحه صلى عليه كل ملك بين السماء والأرض ، وكل ملك فى السماء ، وفتحت أبواب السماء فليس منها باب إلا يحب أن يدخل بروحه منه ، فإذا صعد بروحه ، قيل : أى رب عبدك فلان فيقول : أرجعوه ، فأروه ما أعددت له من الكرامة ، فإنى وعدته ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُم ﴾ [طه : ٥٥] الآية . وإنه ليسمع خفق نعالهم ﴿ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِين ﴾ [النمل : ٨٠ ، الروم : ٥٢] حتى يقال : يا هذا من ربك ؟ وما دينك ؟ ومن نبيك ؟ فيقول : ربى الله ، ودينى الإسلام، ونبيى محمد ﷺ. قال : فينتهرانه انتهارًا شديدًا. وهى آخر فتنة تعرض على الميت ، فإذا قال ذلك نادى مناد أن قد صدقت،وهو معنى قوله تعالى : ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِت ﴾ [إبراهيم : ٢٧] الآية .

ثم يأتيه آت حسن الوجه ، طيب الريح ، حسن الثياب ، فيقول :

أبشر برحمة ربك وجنات فيها نعيم مقيم ، فيقول : وأنت فبشرك الله بخير من أنت ؟ فيقول : أنا عملك الصالح والله علمت إن كنت لسريعًا إلى طاعة الله تعالى ، بطيئًا عن معصية الله ، فجزاك الله خيرًا . قال : ثم ينادى مناد أن افرشوا له من فرش الجنة ، وافتحوا له بابًا إلى الجنة ، فيفرش له من فرش الجنة ويفتح له باب إلى الجنة ، فيقول : اللهم عجل قيام الساعة ، حتى أرجع إلى أهلى ومالى .

قال : وأما الكافر فإنه إذا كان فى قبل من الآخرة وانقطاع من الدنيا ، نزلت إليه ملائكة غلاظ شداد ، معهم ثياب من نار ، وسرابيل من قطران ، فيحتوشونه ، فإذا خرجت نفسه ، لعنه كل ملك بين السماء والأرض ، وكل ملك فى السماء ، وغلقت أبواب السماء ، فليس منها باب إلا يكره أن يدخل بروحه فيه ، وقيل : أى رب عبدك فلان لم تقبله سماء ولا أرض؟ فيقول الله عز وجل : أرجعوه فأروه ما أعددت له من الشر ، إنى وعدته : ﴿ **مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُم** ﴾ [طه : ٥٥] الآية ، وإنه ليسمع خفق نعالهم ﴿ **إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ** ﴾ [النمل : ٨٠ ، الروم : ٥٢] حتى يقال : يا هذا من ربك ؟ ومن نبيك ؟ وما دينك ؟ فيقول: لا أدرى. فيقال له : لا دريت . ثم يأتيه آت قبيح الوجه ، منتن الريح ، قبيح الثياب ، فيقول : أبشر بسخط الله وبعذاب أليم مقيم ، فيقول : بشرك الله بشر ، من أنت ؟ فيقول : أنا عملك الخبيث ، والله إن كنت لسريعًا إلى معصية الله بطيئًا عن طاعة الله ، فجزاك الله شراً . فيقول : وأنت فجزاك الله شرا . ثم يقيض له أصم أعمى أبكم ، معه مرزبة من حديد لو اجتمع عليها الثقلان على أن يقلوها لم يستطيعوا لو ضرب بها جبل صار ترابًا ، فيضربه بها ضربة ، فيصير ترابًا، ثم تعود فيه الروح، فيضربه بها بين عينيه ضربة يسمعها من على الأرضين ليس الثقلين، قال: ثم ينادى مناد : أن افرشوا له لوحين من نار ، وافتحوا له بابًا إلى النار ، فيفرش له لوحان من نار ، ويفتح له باب إلى النار». وقال محمد بن علىّ: ما من ميت يموت إلا مثل له عند الموت أعماله الحسنة وأعماله السيئة، قال: فيشخص إلى حسناته، ويطرق عن سيئاته . وقال أبو هريرة : قال رسول الله ﷺ : « إن المؤمن إذا احتضر أتته الملائكة

بحريرة فيها مسك وضبائر الريحان ، فتسل روحه كما تسل الشعرة من العجين ، ويقال : أيتها النفس المطمئنة اخرجي راضية مرضيا عنك ، إلى روح الله وكرامته ، فإذا أخرجت روحه وضعت على ذلك المسك والريحان، وطويت عليها الحريرة ، وبعث بها إلى عليين ، وإن الكافر إذا احتضر أتته الملائكة بمسح فيه جمرة ، فتنزع روحه انتزاعًا شديدًا ، ويقال : أيتها النفس الخبيثة ، اخرجى ساخطة ومسخوطًا عليك إلى هوان الله وعذابه ، فإذا أخرجت روحه وضعت على تلك الجمرة وإن لها نشيشًا ، ويطوى عليها المسح ويذهب بها إلى سجين » . وعن محمد بن كعب القرظي : أنه كان يقرأ قوله تعالى : ﴿ **حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ** ﴾ [المؤمنون : ٩٩ ـ ١٠٠] قال : أى شيء تريد ؟ وفى أى شيء ترغب ؟ أتريد أن ترجع لتجمع المال وتغرس الغراس وتبنى البنيان وتشقق الأنهار ؟ قال : ﴿**لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ**﴾ ، قال : فيقول الجبار : ﴿ **كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا** ﴾ أى : ليقولنها عند الموت .

وقال أبو هريرة : قال النبى ﷺ : « المؤمن فى قبره روضة خضراء ، ويرحب له فى قبره سبعون ذراعًا، ويضيء حتى يكون كالقمر ليلة البدر، هل تدرون فى ماذا أنزلت ﴿ **فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا** ﴾ [طه : ١٢٤] قال: فى عذاب الكافر فى قبره ، يسلط عليه تسعة وتسعون تنينًا، هل تدرون ما التنين؟ تسعة وتسعون حية، لكل حية سبعة رؤوس، يخدشونه ويلحسونه وينفخون فى جسمه إلى يوم يبعثون». ولا ينبغى أن يتعجب من هذا العدد على الخصوص، فإن عدد هذه الحيات والعقارب بعدد الأخلاق المذمومة من الكبر والرياء والحسد والغل والحقد وسائر الصفات، فإن لها أصولاً معدودة ثم تتشعب منها فروع معدودة، ثم تنقسم فروعها بأقسام، وتلك الصفات بأعيانها هى المهلكات وهى بأعيانها تنقلب عقارب وحيات، فالقوى منها يلدغ لدغ التنين، والضعيف يلدغ لدغ العقرب، وما بينهما يؤذى إيذاء الحية، وأرباب القلوب والبصائر يشاهدون بنور البصيرة هذه المهلكات وانشعاب فروعها، إلا أن مقدار عددها ما لا يوقف إلا بنور النبوة. فأمثال هذه الأخبار لها ظواهر صحيحة ، وأسرار خفية، ولكنها عند أرباب البصائر واضحة ، فمن لم تنكشف له حقائقها ، فلا ينبغى أن ينكر ظواهرها ، بل إن درجات الإيمان: التصديق والتسليم .

الباب السادس والأربعون .. في

بيان علم اليقين وعين اليقين والسؤال يوم العرض

قال الله تعالى: ﴿كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾[التكاثر:٥] يعنى لو تعلمون أمر القيامة باليقين ، لألهاكم عن ذلك، أى عن التكاثر والتفاخر، ولفعلتم ما ينفعكم من الخير ولتركتم ما لا ينفعكم، ويقال: حقا لو تعلمون علم اليقين ، كما يعلمه الرسل أن المال والحساب فى الفخر لا ينفعكم يوم القيامة، ما افتخرتم بالمال وكثرة العدد ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ [التكاثر : ٦] أقسم الرب إنكم لترون النار وشدتها يوم القيامة عيانًا ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ [التكاثر:٧] .

يعنى لترون الجحيم ، الرؤية التى هى نفس اليقين، وهى المشاهدة والمعاينة التى لا شك فيها .فإن قيل : ما الفرق بين علم اليقين وعين اليقين؟ قيل له : علم اليقين كان للأنبياء بنبوتهم ، وعين اليقين للملائكة ؛ لأنهم يعاينون الجنة والنار واللوح والقلم والعرش والكرسى، فتكون لهم عين اليقين، وإن شئت قلت: علم اليقين علم الموت والقبور للأحياء لأنهم يعرفون بأن الأموات فى القبور، لكن لا يدرون كيف حالهم فيها ، وعين اليقين للأموات لأنهم عاينوا القبور، إما روضة من رياض الجنة، وإما حفرة من حفر النار، وإن شئت قلت: علم اليقين علم القيامة، وعين اليقين معاينة القيامة وأهوالها، وإن شئت قلت : علم اليقين علم الجنة والنار ، وعين اليقين الرؤية .﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر : ٨] يعنى : لتسئلن يوم القيامة عن نعيم الدنيا من صحة الأبدان والأسماع والأبصار والمكاسب وملاذ المآكل والمشارب، وغير ذلك، هل أديتم شكرها لمولاها وعرفتموها وآمنتم بها أم كفرتم بها ؟ .

أخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن زيد بن أسلم عن أبيه قال : قرأ رسول الله ﷺ ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر : ١] يعنى عن الطاعات حتى زرتم المقابر يقول : حتى يأتيكم الموت ﴿كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [التكاثر : ٣] يعنى: لو قد دخلتم قبوركم ﴿ثُم كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [التكاثر : ٤] يقول:

لو قد خرجتم من قبوركم إلى محشركم ﴿كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٥] قال: لو قد وقفتم على أعمالكم بين يدى ربكم ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ [التكاثر: ٦] وذلك لأن الصراط يوضع وسط جهنم فناج مسلم ومخدوش مسلم ومكدوش فى نار جهنم ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨] يعنى: شبع البطون وبارد الشراب وظلال المساكن واعتدال الخلق ولذة النوم. وعن عليّ رضى الله عنه قال: النعيم العافية. وعنه قال: من أكل خبز البر وشرب من الفرات مبردًا، وكان له منزل يسكنه ، فذلك من النعيم الذى يسئل عنه .

وعن أبى قلابة عن النبى ﷺ فى الآية قال : « ناس من أمتى يعقدون السمن والعسل النقى فيأكلونه » . وعن عكرمة قال : لما نزلت هذه الآية قال الصحابة : يا رسول الله أى نعيم نحن فيه ، وإنما نأكل فى أنصاف بطوننا خبز الشعير ؟ فأوحى الله إلى نبيه ﷺ : « قل لهم : أليس تحتذون النعال وتشربون الماء البارد ؟ فهذا من النعيم ». وروى الترمذى وغيره : أنه لما نزلت ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر : ١] فقرأ حتى بلغ النعيم ، قالوا : يا رسول الله : أى نعيم نسئل عنه وإنما هما الأسودان الماء والتمر، وسيوفنا على رقابنا والعدو حاضر ؟ فعن أى نعيم نسئل ؟ قال: «أما إن ذلك سيكون» . وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : « إن أول ما يسئل العبد عنه يوم القيامة من النعيم أن يقال له : ألم نصح لك جسمك ، ونروك من الماء البارد؟». وروى مسلم وغيره عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : خرج النبى ﷺ فإذا هو بأبى بكر وعمر فقال : « ما أخرجكما من بيوتكما الساعة؟»، قالا : الجوع يا رسول الله ، قال : « والذى نفسى بيده لأخرجنى الذى أخرجكما، فقوما ، فقاما معه ، فأتى رجلاً من الأنصار ، فإذا هو ليس فى بيته ، فلما رأته المرأة ، قالت : مرحبًا ، فقال النبى ﷺ : « أين فلان؟ » ، فقالت : انطلق يستعذب لنا الماء ، إذ جاء الأنصارى فنظر إلى رسول الله ﷺ وصاحبيه، فقال : الحمد لله ما أجد اليوم أكرم أضيافًا منى ، فانطلق فجاء بعذق فيه بر وتمر ، وقال : كلوا من هذا ، وأخذ المدية ، فقال له رسول الله ﷺ : « إياك والحلوب » فذبح لهم ، فأكلوا من الشاة ، ومن ذلك العذق ، وشربوا ، فلما شبعوا ورووا ، قال رسول الله ﷺ لأبى بكر وعمر رضى الله عنهما: «والذى نفسى بيده لتسئلن عن هذا النعيم يوم القيامة» .

الباب السابع والأربعون.. في

فـــضل ذكر الله تعالى

قال الله تعالى : ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُم ﴾ [البقرة : ١٥٢] قال ثابت البنانى رحمه الله : إنى أعلم متى يذكرنى ربى عز وجل ، ففزعوا منه ، وقالوا : كيف تعلم ذلك ؟ فقال : إذا ذكرته ذكرنى .

وقال تعالى : ﴿ اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب : ٤١] ، وقال تعالى : ﴿ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ ﴾ [البقرة : ١٩٨] ، وقال عز وجل : ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ﴾ [البقرة : ٢٠٠] ، وقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾ [آل عمران : ١٩١] ، وقال تعالى : ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ﴾ [النساء : ١٠٣] .

قال ابن عباس رضى الله عنهما : أى بالليل والنهار ، فى البر والبحر، والسفر والحضر، والغنى والفقر ، والمرض والصحة ، والسر والعلانية ، وقال تعالى فى ذم المنافقين : ﴿ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء : ١٤٢] وقال عز وجل : ﴿ وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ ﴾ [الأعراف : ٢٠٥] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ [العنكبوت : ٤٥] .

قال ابن عباس رضى الله عنهما : له وجهان : أحدهما : أن ذكر الله تعالى لكم أعظم من ذكركم إياه ، والآخر : أن ذكر الله أعظم من كل عبادة سواه . إلى غير ذلك من الآيات .

وقال رسول الله ﷺ : « ذاكر الله فى الغافلين كالشجرة الخضراء فى

وسط الهشيم ». وقال ﷺ : « ذاكر الله في الغافلين كالمقاتل بين الفارين » .

وقال ﷺ : « يقول الله عز وجل : أنا مع عبدى ما ذكرنى ، وتحركت شفتاه بى » . وقال ﷺ : « ما عمل ابن آدم من عمل أنجى له من عذاب الله من ذكر الله عز وجل » ، قالوا : يا رسول الله ولا الجهاد فى سبيل الله ؟ قال: «ولا الجهاد فى سبيل الله إلا أن تضرب بسيفك حتى ينقطع ثم تضرب به حتى ينقطع ، ثم تضرب به حتى ينقطع » . وقال ﷺ : « من أحب أن يرتع فى رياض الجنة ، فليكثر ذكر الله عز وجل » . وسئل رسول الله ﷺ : أى الأعمال أفضل ؟ فقال : «أن تموت ولسانك رطب بذكر الله عز وجل».

وقال ﷺ : « أصبح وأمس ولسانك رطب بذكر الله ، تصبح وتُمْسِ وليس عليك خطيئة » . وقال ﷺ : « لذكر الله عز وجل بالغداة والعشى ، أفضل من حطم السيوف فى سبيل الله ، ومن عطاء المال سحا » .

وقال ﷺ : « يقول الله تبارك وتعالى : إذا ذكرنى عبدى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وإذا ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير من ملأه ، وإذا تقرب منى شبرًا تقربت منه ذراعًا ، وإذا تقرب منى ذراعًا تقربت منه باعًا ، وإذا مشى إلىَّ هرولت إليه »[1] يعنى بالهرولة : سرعة الإجابة .

وقال ﷺ : « سبعة يظلهم الله عز وجل فى ظله يوم لا ظل إلا ظله » من جملتهم : «رجل يذكر الله خاليًا ففاضت عيناه من خشية الله » .

وقال أبو الدرداء: قال رسول الله ﷺ: « ألا أنبئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها فى درجاتكم، وخير لكم من إعطاء الورق والذهب ، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم ، فتضربون أعناقهم ويضربون أعناقكم؟» قالوا: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: « ذكر الله عز وَجل دائمًا» .

وقال ﷺ : « قال الله عز وجل : من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين » . وقال الفضيل : بلغنا أن الله عز وجل قال : يا عبدى اذكرنى بعد الصبح ساعة وبعد العصر ساعة أكفك ما بينهما .

وقال بعض العلماء : إن الله عز وجل يقول : أيما عبد اطلعت على

(١) حديث قدسي اللفظ والمعنى من عند الله ويخالف القرآن في امور تراجع في مقدمتي لكتاب المنار المنيف لابن قيم الجوزية .

قلبه ، فرأيت الغالب عليه التمسك بذكرى توليت سياسته وكنت جليسه ومحادثه وأنيسه .

وقال الحسن : الذكر ذكران : ذكر الله عز وجل بين نفسك ، و بين الله عز وجل ما أحسنه وأعظم أجره . وأفضل من ذلك ذكر الله سبحانه عند حرم الله عز وجل .

ويروى : أن كل نفس تخرج من الدنيا عطشى إلا ذاكر الله عز وجل.

وقال معاذ بن جبل رضى الله عنه : ليس يتحسر أهل الجنة على شيء، إلا على ساعة مرت بهم ، لم يذكروا الله سبحانه فيها .

وقال رسول الله ﷺ : « ما جلس قوم مجلسًا يذكرون الله عز وجل إلا حفت بهم الملائكة ، وغشيتهم الرحمة ، وذكرهم الله تعالى فيمن عنده » .

وقال ﷺ : « ما من قوم اجتمعوا يذكرون الله تعالى لا يريدون بذلك إلا وجهه ، إلا ناداهم مناد من السماء : قوموا مغفورًا لكم قد بدلت لكم سيئاتكم حسنات » .

وقال ﷺ : « ما قعد قوم مقعدًا لم يذكروا الله سبحانه وتعالى فيه ، ولم يصلوا على النبى ﷺ إلا كان عليهم حسرة يوم القيامة » .

وقال داود عليه السلام : إلهى إذا رأيتنى أجاوز مجالس الذاكرين إلى مجالس الغافلين ، فاكسر رجلى دونهم ، فإنها نعمة تنعم بها علىَّ .

وقال ﷺ : « المجلس الصالح يكفر عن المؤمن ألفى ألف مجلس من مجالس السوء » .

وقال أبو هريرة رضى الله عنه : إن أهل السماء ليتراءون بيوت أهل الأرض التى يذكر فيها اسم الله تعالى كما تتراءى النجوم .

وقال سفيان بن عيينة رحمه الله : إذا اجتمع قوم يذكرون الله تعالى اعتزل الشيطان والدنيا . فيقول الشيطان للدنيا : ألا ترين ما يصنعون ؟ فتقول الدنيا : دعهم فإنهم إذا تفرقوا أخذت بأعناقهم إليك .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أنه دخل السوق ، وقال : أراكم هنا وميراث رسول الله ﷺ يقسم فى المسجد . فذهب الناس إلى المسجد وتركوا

السوق ، فلم يـروا ميراثًا . فـقالوا : يا أبا هريرة مـا رأينا ميراثًا يـقسم فى المسـجد . قـال : فمـاذا رأيتم ؟ قالوا : رأينا قـومًا يذكرون الله عـز وجل ويقرءون القرآن . قال : فذلك ميراث رسول الله ﷺ .

وروى الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة وأبى سـعيد الخدرى عنه ﷺ أنه قال : « إن لله عـز وجل ملائكة سـياحين فى الأرض ، فـضلاً عن كتـاب الناس ، فإذا وجدوا قـومًا يذكرون الله عز وجـل تنادوا : هلموا إلى بغيتكم ، فيجيئون فيحـفون بهم إلى السماء ، فيقول الله تبارك وتعالى : أى شىء تركتم عـبادى يصنعـونه ؟ فيقـولون : تركناهم يحمـدونك ويمجدونك ويسبـحونك . فيـقول الله تبارك وتـعالى : وهل رأونى ؟ فيـقولون : لا ، فيقول جل جلاله : كيف لو رأونى ؟ فيقولون : لو رأوك لكانوا أشد تسبيحًا وتحمـيدًا وتمجيدًا . فـيقول لهم : من أى شىء يتـعوذون ؟ فيـقولون : من النار. فيقول تعالى : وهل رأوها ؟ فيـقولون : لا . فيقول الله عز وجل : فكيف لو رأوها ؟ فيـقولون : لو رأوها لكانوا أشد هربًا منهـا وأشد نفورًا . فيقول الله عز وجل : وأى شىء يطلبون ؟ فيقولون : الجنة . فيقول تعالى : وهل رأوها ؟ فيقولون : لا . فيقـول تعالى : فكيف لو رأوها . فيقولون : لو رأوها لكانوا أشد عليها حرصًا . فـيقول جل جـلالـه : إنى أشهدكم أنى قد غفرت لهم . فـيقولون : كان فيهم فـلان ابن فلان لم يردهم ، إنما جاء لحاجة . فيقول الله عز وجل : هم القوم لا يشقى جليسهم » . وقال ﷺ : « أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلى : لا إله إلا الله وحده لا شريك له» . وقال ﷺ : « من قـال : لا إله إلا الله وحـده لا شـريك له ، له الملك وله الحمـد ، وهو على كل شىء قدير ، كل يوم مائة مـرة كانت له عدل عـشر رقاب ، وكتبت له مائة حسنة ، ومحيت عنه مائة سيئة ، وكانت له حرزا من الشيطـان يومه ذلك ، حتى يمسـى ، ولم يأت أحد بأفضـل مما جاء به ، إلا أحدٌ عمل أكثر من ذلك». وقال ﷺ : « ما من عبد توضأ فأحسن الوضوء ، ثم رفع طرفه إلى السماء، فقال:أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محـمدًا عبده ورسوله ، إلا فـتحت له أبواب الجنة يدخل من أيها شاء » .

الباب الثامن والأربعون .. في

فــــضائل الصلوات

قال الله تـعالى : ﴿ إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا ﴾ [النساء : ١٠٣] ، وقال ﷺ : « خمس صلوات كتبهن الله على العباد ، فمن جاء بهن ولم يضيع منهن شـيئًا استخفافًا بحقـهن ، كان له عند الله عهد أن يدخله الجنة ، ومن لم يأت بهن فليس له عند الله عهـد ، إن شاء عذبه وإن شاء أدخله الجنة » .

وقال ﷺ : « مثل الصلوات الخمس كمثـل نهر عذب يمر بباب أحدكم يستحم فيه كل يوم خمس مرات فما ترون ذلك يبقى من درنه ؟ » قالوا : لا شيء . قال ﷺ : « فإن الصلـوات الخمس تذهب الذنوب كمـا يذهب الماء الدرن» . وقال ﷺ : « إن الصلوات كفارة لما بينهن ما اجتنبت الكبائر ، كما قال تعالى : ﴿ إن الحسنـات يذهبن السيـئات ﴾ ومعنى يذهبنهـا يكفرنها ، حتى كأنها لم تكن » .

وأخرج البخارى ومسلم وأهل السنن وغيرهم عن ابن مسعود: أن رجلاً أصاب من امرأة قـبلة ، فأتى النبى ﷺ فذكر له كأنه يسـأل عن : كفارتها ، فنزلت عليه : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ ﴾ [هـود : ١١٤] الآية ، فقال الرجل : يا رسول الله ، إلى هذا ؟ قال : « هى لمن عمل بها من أمتى » .

وأخرج أحـمد ومسلم وغيـرهما عن أبى أمامـة أن رجلاً أتى النبى ﷺ فقـال : يا رسول الله أقم فـىّ حدّ الله مـرة أو مرتين ، فأعـرض عنه ، ثم أقـيمت الصـلاة فلمـا فـرغ قال : « أين الرجـل » ؟ قال : أنا ذا ، قـال : «أتممت الوضـوء وصليـت معـنا آنفًا » ، قـال : نعم ، قـال: « فـإنك من خطيئـتك كيـوم ولدتك أمك فلا تعـد » . وأنزل الله على رسوله حـينئذ : ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ ﴾ [هود : ١١٤] الآية .

وقال ﷺ : « بيننا وبين المنافقين : شهود العتمة والصبح ، لا يستطيعونهما » .

وقال ﷺ: «من لقى الله وهو مضيع للصلاة لم يعبأ بشىء من حسناته».

وقال ﷺ : « الصلاة عماد الدين ، فمن تركها فقد هدم الدين » .

وسئل ﷺ : أى الأعمال أفضل ؟ فقال : « الصلاة لمواقيتها » .

وقال ﷺ : « من حافظ على الخمس بإكمال طهورها ومواقيتها ، كانت له نورًا وبرهانًا يوم القيامة ، ومن ضيعها حشر مع فرعون وهامان » .

وقال ﷺ : « مفتاح الجنة الصلاة » .

وقال ﷺ : « ما افترض الله على خلقه بعد التوحيد أحب إليه من الصلاة، ولو كان شىء أحب منها لتعبد به ملائكته ، فمنهم راكع ومنهم ساجد ومنهم قائم وقاعد » .

وقال النبى ﷺ : « من ترك الصلاة متعمدًا ، فقد كفر » . أى قارب أن ينخلع عن الإيمان بانحلال عروته وسقوط عماده . كما يقال لمن قارب البلدة : أنه بلغها ودخلها .

وقال ﷺ : « من ترك الصلاة متعمدًا فقد برئ من ذمة محمد عليه السلام » .

وقال أبو هريرة رضى الله عنه : من توضأ فأحسن وضوءه ، ثم خرج عامدًا إلى الصلاة فإنه فى صلاة ما كان يعمد إلى الصلاة ، وإنه يكتب له بإحدى خطوتيه حسنة ، وتمحى عنه بالأخرى سيئة ، فإذا سمع أحدكم الإقامة فلا ينبغى له أن يتأخر فإن أعظمكم أجرًا أبعدكم دارًا ، قالوا : لم يا أبا هريرة ؟ قال : من أجل كثرة الخطى .

وقال رسول الله ﷺ : « ما تقرب العبد إلى الله بشىء أفضل من سجود خفى » .

وقال رسول الله ﷺ : « ما من مسلم يسجد لله سجدة إلا رفعه الله بها درجة وحط عنه بها سيئة » .

وروى : أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ : ادع الله أن يجعلنى من أهل

شفاعتك وأن يرزقنى مرافقتك فى الجنة . فقال عليه الصلاة والسلام : « أعنى بكثرة السجود » .

وقيل : « أقرب ما يكون العبد من الله تعالى أن يكون ساجدًا ». وهو معنى قوله عز وجل : ﴿ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ﴾ [العلق : ١٩] .

وقال عز وجل: ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُود ﴾ [الفتح:٢٩] فقيل: هو مـا يلتصق بوجوههم من الأرض عند السـجود . وقيل : هو نور الخشوع فإنه يشرق مـن الباطن على الظاهر وهو الأصح . وقيل : هى الغرر التى تكون فى وجوههم يوم القيامة من أثر الوضوء .

وقال عليـه الصلاة والسـلام : « إذا قرأ ابن آدم السجـدة ، فسـجد ، اعتزل الشـيطان يبكى ، ويقول : يا ويلاه ، أمر هذا بالسجود فـسجد ، فله الجنة ، وأمرت أنا بالسجود فعصيت فلى النار » .

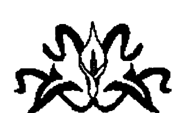
ويروى عن علىّ بن عبد الله بن عبـاس ، أنه كان يسجد كل يوم ألف سجدة ، وكـانوا يسمونه السجـاد . ويروى : أن عمر بن عبـد العزيز رضى الله عنه كان لا يسجد إلا على التراب .

وكان يوسف بن سابط يقـول : يا معشر الشباب بادروا بالصـحة قبل المرض ، فما بقى أحد أحسده إلا رجل يتم ركوعه وسجوده ، وقد حيل بينى وبين ذلك .

وقال سعيد بن جبير : ما آسى على شىء من الدنيا إلا على السجود .

وقال عقبة بن مسلم : مـا من خصلة فى العبد أحب إلى الله عز وجل منه حيث يخر ساجدًا .

وقال أبو هريرة رضى الله عنه : أقرب ما يكون العبد إلى الله عز وجل إذا سجد ، فأكثروا الدعاء عند ذلك .



الباب التاسع والأربعون .. في

بيان عقوبة تارك الصلاة

قال تعالى مخبرًا عن أصحاب الجحيم : ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴾ [المدثر : ٤٢ ـ ٤٥] .

وأخرج أحمد : « بين الرجل وبين الكفر ترك الصلاة » .

ومسلم : « بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة » .

وأبو داود والنسائى : « ليس بين العبد وبين الكفر إلا ترك الصلاة » .

والترمذي: « بين الكفر والإيمان ترك الصلاة » .

وابن ماجه : « بين العبد وبين الكفر ترك الصلاة » .

وصح كما رواه الترمذى وغيره أنه ﷺ قال : « العهد الذى بيننا وبينهم الصلاة ، فمن تركها فقد كفر » .

والطبرانى بإسناد لا بأس به : « من ترك الصلاة متعمدًا فقد كفر جهارًا» .

وفى رواية : « بين العبد والكفر - أو الشرك - ترك الصلاة ، فإذا ترك الصلاة فقد كفر » .

وفى أخرى : « ليس بين العبد والشرك إلا ترك الصلاة ، فإذا تركها فقد أشرك » .

وفى أخرى سندها حسن : « عز الإسلام وقواعد الدين ثلاث عليهن أسس الإسلام من ترك واحدة منهن فهو بها كافر حلال الدم : شهادة أن لا إله إلا الله، والصلاة المكتوبة ، وصوم رمضان » .

وفى أخرى سندها حسن أيضًا : « من ترك منهن واحدة فهو بالله كافر، ولا يقبل منه صرف ولا عدل ، وقد حلّ دمه وماله » .

والطبرانى وغيره بإسنادين لا بأس بهما عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه : أوصانى خليلى عليه الصلاة والسلام بسبع خلال قال : « لا تشركوا بالله شيئًا وإن قطعتم أو حرقتم أو صلبتم ، ولا تتركوا الصلاة تعمدًا، فمن تركها متعمدًا فقد خرج من الله ، ولا تركبوا المعصية فإنها سخط الله ، ولا تشربوا الخمر فإنها رأس الخطايا كلها » الحديث .

والترمذى : كان أصحاب محمد عليه الصلاة والسلام لا يرون شيئًا من الأعمال تركه كفر غير الصلاة .

وصح خبر : « بين العبد وبين الكفر والإيمان الصلاة ، فإذا تركها فقد أشرك» .

والبزار : « لا سهم فى الإسلام لمن لا صلاة له ، ولا صلاة لمن لا وضوء له » . والطبرانى : «لا إيمان لمن لا أمانة له،ولا صلاة لمن لا طهور له، ولا دين لمن لا صلاة له،إنما موضع الصلاة من الدين كموضع الرأس من الجسد » .

وابن ماجه والبيهقى عن أبى الدرداء رضى الله عنه قال : أوصانى خليلى ﷺ : « أن لا تشرك بالله شيئًا وإن قطعت وإن أحرقت ، ولا تترك صلاة مكتوبة متعمدًا فمن تركها متعمدًا فقد برئت منه الذمة ، ولا تشرب الخمر فإنها مفتاح كل شر » .

والبزار وغيره بسند حسن عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : لما قام بصرى -أى ذهب مع بقاء صحة الحدقة - قيل : نداويك وتدع الصلاة أيامًا، قلت : لا ، إن رسول الله ﷺ قال : « من ترك الصلاة لقى الله وهو عليه غضبان » .

والطبرانى بسند لا بأس به فى المتابعات: أتى رسول الله ﷺ رجل ، فقال : يا رسول الله علمنى عملاً إذا أنا عملته دخلت الجنة ، قال : « لا تشرك بالله شيئًا ، وإن عذبت وحرقت ، وأطع والديك ، وإن أخرجاك من مالك ومن كل شيء هو لك ، ولا تترك الصلاة متعمدًا ؛ فإن من ترك الصلاة فقد برئت منه ذمة الله » الحديث .

وفى رواية سندها صحيح لكن فيه انقطاع : « لا تشرك بالله شيئًا وإن

قتلت وحرقت ، ولا تعقّن والديك وإن أمراك أن تخرج من أهلك ومالك ، ولا تتركن صلاة مكتوبة متعمدًا ؛ فإن من ترك صلاة مكتوبة متعمدًا فقد برئت منه ذمة الله ، ولا تشربن الخمر ؛ فإنه - أى شربها - رأس كل فاحشة، وإياك والمعصية ؛ فإن بالمعصية حل سخط الله ، وإياك والفرار من الزحف وإن هلك الناس ، وإن أصاب الناس موت فاثبت ، وأنفق على أهلك من طولك ولا ترفع عصاك عنهم أدبًا ، وأخفهم فى الله » .

وابن حبان فى صحيحه: «بكروا بالصلاة فى يوم الغيم، فإنه من ترك الصلاة فقد كفر».

والطبرانى عن أميمة مولاة رسول الله ﷺ قالت : كنت أصب على رأس رسول الله ﷺ وضوءه ، فدخل رجل ، فقال : أوصنى ، فقال : « لا تشرك بالله شيئًا وإن قطعت وحرقت بالنار، ولا تعص والديك وإن أمراك أن تخلى من أهلك ودنياك فتخله ، ولا تشربن خمر فإنها مفتاح كل شر ، ولا تتركن صلاة متعمدًا ، فمن فعل ذلك برئت منه ذمة الله ورسوله» الحديث .

وأبو نعيم : « من ترك الصلاة متعمداً كتب الله اسمه على باب النار ممن يدخلها». والطبرانى والبيهقى: «من ترك الصلاة فإنما وتر أهله وماله».

والحاكم عن علىّ أنه ﷺ قال: «يا معشر قريش لتقيمن الصلاة، ولتؤتن الزكاة ، أو لأبعثن عليكم رجلاً فيضرب أعناقكم على الدين » الحديث .

والبزار : « لا سهم فى الإسلام لمن لا صلاة له ، ولا صلاة لمن لا وضوء له » .

وأحمد مرسلاً : « أربع فرضهن الله فى الإسلام ، فمن أتى بثلاث لم يغنين عنه شيئًا حتى يأتى بهن جميعًا : الصلاة ، والزكاة ، وصيام رمضان ، وحج البيت » . والأصبهانى : « من ترك صلاة متعمدًا أحبط الله عمله وبرئت منه ذمة الله حتى يرجع لله عز وجل توبة » . والطبرانى : « من ترك الصلاة فقد كفر جهارًا » . وأحمد بسند صحيح لكن فيه انقطاع : « لا تترك الصلاة متعمداً ، فإنه من ترك الصلاة فقد برئت منه ذمة الله ورسوله » .

وابن أبى شيبة والبخارى فى تاريخه موقوفًا عن علىّ رضى الله عنه

قال: « من لم يصل فهو كافر » .

ومحمد بن نصر وابن عبد البر موقوفًا على ابن عباس : « من ترك الصلاة فقد كفر » .

وابن نصر موقوفًا على ابن مسعود قال :«من ترك الصلاة فلا دين له».

وابن عبد البر موقوفًا على جابر : « من لم يصل فهو كافر » .

وابن عبد البر وغيره موقوفًا على أبى الدرداء قال : « لا إيمان لمن لا صلاة له ، ولا صلاة لمن لا وضوء له».

وقال ابن أبى شيبة : قال النبى ﷺ : « من ترك الصلاة فقد كفر » .

وقال محمد بن نصر سمعت إسحق يقول : صح عن النبى ﷺ أن تارك الصلاة كافر . وكذلك كان رأى أهل العلم من لدن النبى ﷺ أن تارك الصلاة عمدًا من غير عذر حتى يذهب وقتها كافر .

وقال أيوب : ترك الصلاة كفر لا يختلف فيه ، وقال تعالى : ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا * إِلاَّ مَن تَابَ ﴾ [مريم : ٥٩ - ٦٠] قال ابن مسعود : ليس معنى أضاعوها تركوها بالكلية ، ولكن أخروها عن أوقاتها .

وقال سعيد بن المسيب إمام التابعين : هو أن لا يصلى الظهر حتى يأتى العصر ، ولا يصلى العصر إلى المغرب ، ولا يصلى المغرب إلى العشاء ، ولا يصلى العشاء إلى الفجر ، ولا يصلى الفجر إلى طلوع الشمس ، فمن مات وهو مصر على هذه الحالة ولم يتب أوعده الله بغى ، وهو واد فى جهنم بعيد قعره شديد عقابه .

وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [المنافقون : ٩] قال جماعة من المفسرين : المراد بذكر الله هنا : الصلوات الخمس ، فمن اشتغل عن الصلاة فى وقتها بماله كبيعه أو صنعته أو ولده ، كان من الخاسرين . ولهذا قال ﷺ : « أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته ،

فإن صلحت فقد أفلح ونجح ، وإن نقصت فقد خاب وخسر » .

وقال تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ [الماعون: ٤ ـ ٥] قال ﷺ : « هم الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها » .

وأخرج أحمد بسند جيد والطبراني وابن حبان فى صحيحه أنه ﷺ ذكر الصلاة يومًا ، فقال : « من حافظ عليها كانت له نورًا وبرهانًا ونجاة يوم القيامة ، ومن لم يحافظ عليها لم يكن له نور ولا برهان ولا نجاة يوم القيامة، ويحشر مع قارون وفرعون وهامان وأبى بن خلف » .

قال بعض العلماء : وإنما حشر مع هؤلاء لأنه لما اشتغل عن الصلاة بماله أشبه قارون ، فيحشر معه ، أو بملكه أشبه فرعون فيحشر معه ، أو بوزارته أشبه هامان فيحشر معه ، أو بتجارته أشبه أبى بن خلف تاجر كفار مكة فيحشر معه .

والبزار عن سعد بن أبى وقاص : سألت النبى ﷺ عن قول الله عز وجل : ﴿ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُون ﴾ قال : « هم الذين يؤخرون الصلاة عن أوقاتها » .

وأبو يعلى بسند حسن عن مصعب بن سعد قال : قلت لأبى : يا أبتاه أرأيت قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُون ﴾ أينا لا يسهو أينا لا يحدث نفسه ؟ قال : « ليس ذاك إنما هو إضاعة الوقت » والويل : شدة العذاب ، وقيل : واد فى جهنم ، لو سير فيه جبال لذابت من شدة حره ، فهو مسكن من يتهاون بالصلاة ويؤخرها عن وقتها، إلا أن يتوب إلى الله تعالى ويندم على ما فرط .

وابن حبان فى صحيحه : « من فاتته صلاة فكأنما وتر أهله وماله » .

والحاكم بسند فيه من اختلف فى توثيقه ، والأكثر على عدمه : « من جمع بين صلاتين من غير عذر ، فقد أتى بابًا من أبواب الكبائر » .

والشيخان والأربعة : « الذى تفوته صلاة العصر كأنما وتر بأهله وماله » زاد ابن خزيمة فى صحيحه ، قال مالك : تفسيره ذهاب الوقت .

والنسائى : « من الصلاة صلاة ، من فاتته فكأنما وتر أهله وماله » يعنى : العصر .

ومسلم والنسائى : « إن هذه الصلاة ــ يعنى العصر ــ عرضت على من كان قبلكم ، فضيعوها فمن حافظ منكم اليوم عليها كان له أجره اليوم مرتين ، ولا صلاة بعدها حتى يطلع الشاهد » أى النجم .

وأحمد والبخارى والنسائى :«من ترك صلاة العصر فقد حبط عمله» .

وأحمد بإسناد صحيح وابن أبى شيبة : «من ترك صلاة العصر متعمداً حتى تفوته ، فقد حبط عمله » .

وابن أبى شيبة مرسلاً : « من ترك العصر حتى تغيب الشمس من غير عذر ، فقد حبط علمه » .

وعبد الرزاق : « لأن يوتر أحدكم أهله وماله خير له من أن تفوته صلاة العصر » .

والطبرانى وأحمد : « من ترك صلاة العصر متعمداً حتى تغرب الشمس فكأنما وتر أهله وماله » .

والشافعى والبيهقى : « من فاتته الصلاة فكأنما وتر أهله وماله » .

والبخارى عن سمرة بن جندب رضى الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ مما يكثر أن يقول لأصحابه : « هل رأى أحد منكم رؤيا ؟ » فيقص عليه ما شاء الله أن يقص ، وأنه قال لنا ذات غداة : « إنه أتانى الليلة آتيان وأنهما بعثا بى ، وأنهما قالا لى : انطلق . وإنى انطلقت معهما ، وإذ أتينا على رجل مضطجع ، وإذا آخر قائم عليه بصخرة ، وإذا هو يهوى بالصخرة لرأسه ، فيبلغ رأسه فيتدهده الحجر ـــ أى فيتدحرج ــ فيأخذه فلا يرجع إليه حتى يصح رأسه كما كان ، ثم يعود عليه فيفعل به مثل ما فعل فى المرة الأولى » . قال :« قلت لهما : سبحان الله . ما هذا ؟ قالا لى : انطلق . انطلق . فأتينا على رجل مستلق على قفاه وإذا آخر قائم عليه بكلوب من حديد ، وإذا هو يأتى أحد شقى وجهه ، فيشرشر ــ أى يشق ــ شدقه إلى قفاه ، ومنخره إلى قفاه ، وعيناه إلى قفاه ». قال : وربما قال أبو رجاء :

فيشق قال : « ثم يتحول إلى الجانب الآخر فيفعل به مثل ما فعل بالجانب الأول ، فما يفرغ من ذلك حتى يصح ذلك الجانب كما كان ، ثم يعود عليه فيفعل مثل ما فعل بالجانب الأول ، فما يفرغ من ذلك حتى يصح ذلك الجانب كما كان ، ثم يعود عليه ، فيفعل مثل ما فعل فى المرة الأولى » . قال : « قلت : سبحان الله ما هذا ؟ قالا لى : انطلق . انطلق . فانطلقنا فأتينا على مثل التنور » . قال: « فأحسب أنه كان يقول : فإذا فيه لغط وأصوات » . قال : « فاطلعنا عليه ، فإذا فيه رجال ونساء عراة ، وإذا هم يأتيهم لهب من أسفل منهم فإذا أتاهم ذلك اللهب ضوضوا ــ أى بفتح المعجمتين وسكون الواوين صياح مع انضمام وفزع ــ قال : قلت : ما هؤلاء؟ قالا لى : انطلق . انطلق . قال : فانطلق على نهر حسبت أنه كان يقول أحمر مثل الدم ، وإذا فى النهر رجل سابح يسبح ، وإذا على شاطيء النهر رجل قد جمع عنده حجارة كثيرة ، فيلقمه حجرًا فينطلق فيسبح ثم يرجع إليه ، كلما رجع إليه فغر ــ أى بفاء وعين معجمة مفتوحتين فتح فاه ــ فألقمه حجرًا قلت لهما : ما هذا ؟ قالا لى : انطلق . انطلق . فانطلقنا فأتينا على رجل كريه المرآة كأكره ما أنت راءٍ رجلاً مرئيا ، وإذا عنده نار يحثها ــ أى بمهملة مضمومة فمعجمة يوقدها ــ ويسعى حولها ، قال : قلت لهما : ما هذا ؟ قالا لى : انطلق . انطلق . فانطلقنا على روضة معتمة ــ أى طويلة النبات من أعتم إذا طال فيها كل نور الربيع ــ وإذا بين ظهرانى الروضة رجل طويل لا أكاد أرى رأسه طولا فى السماء ، وإذا حول الرجل من أكثر ولدان رأيتهم ، قال : قلت : ما هذا ؟ ما هؤلاء ؟ قالا لى : انطلق انطلق . فانطلقنا فأتينا على دوحة عظيمة لم أر قط دوحة أعظم ولا أحسن منها ، قالا لى : ارق فيها ، فارتقينا فيها إلى مدينة مبنية بلبن ذهب ولبن فضة ، فأتينا باب المدينة فاستفتحنا ففتح لنا ، فدخلنا فتلقانا رجال ، شطر من خلقهم كأحسن ما أنت راء ، وشطر منهم كأقبح ما أنت راء ، قالا لهم: اذهبوا فقعوا فى ذلك النهر ، قال : إذا النهر معترض يجرى كأن ماءه المحض ــ أى الخالص فى البياض ــ فذهبوا فوقعوا ثم رجعوا إلينا وقد ذهب ذلك السوء عنهم فصاروا فى أحسن صورة . قالا لى : هذه جنة عدن ، وهذا

منزلك ، قال فسما ــ أى ارتفع ــ بصرى صعدًا ــ بضمتين ــ فوق ، فإذا قصر مثل الربابة ــ أى السحابة ــ البيضاء . قالا لى : هذا منزلك ، قال : قلت لهما : بارك الله فيكما ، فذرانى فأدخله ، قالا : أما الآن فلا ، وأنت داخله ، قال : قلت لهما : فإنى رأيت منذ الليلة عجباً ، فما هذا الذى رأيت؟ قالا لى: إنا سنخبرك . أما الرجل الأول والذى أتيت عليه يثلغ رأسه بالحجر فإنه الرجل يأخذ القرآن فيرفضه وينام عن الصلاة المكتوبة، وأما الرجل الذى أتيت عليه يشرشر شدقه إلى قفاه ومنخره إلى قفاه فإنه الرجل يغدو من بيته فيكذب الكذبة تبلغ الآفاق ، وأما الرجال والنساء العراة الذين هم مثل بناء التنور ، فإنهم الزناة والزوانى ، وأما الرجل الذى أتيت عليه يسبح فى النهر ويلقم الحجر ، فإنه آكل الربا ، وأما الرجل الكريه المرآة الذى عند النار يحثها ويسعى حولها ، فإنه مالك خازن النار ، وأما الرجل الطويل الذى فى الروضة ، فإنه إبراهيم ، وأما الولدان حوله فكل مولود مات على الفطرة .

فقال بعض المسلمين : يا رسول الله وأولاد المشركين ؟ فقال رسول الله ﷺ : « وأولاد المشركين ، وأما القوم الذين كانوا شطر منهم حسن وشطر منهم قبيح ، فإنهم قوم خلطوا عملاً صالحا وآخر سيئًا تجاوز الله عنهم » .

وفى حديث البزار قال : ثم أتى النبى ﷺ على قوم ترضخ رؤوسهم بالصخر كلما رضخت عادت كما كانت ولا يفتر عنهم من ذلك شىء، قال: « يا جبريل من هؤلاء ؟ » قال : هؤلاء تثاقلت رؤوسهم عن الصلاة .

وأخرج الخطيب وابن النجار : « علم الإسلام الصلاة ، فمن فرغ لها قلبه وحافظ عليها بحدها ووقتها وسننها فهو مؤمن » .

وابن ماجه : « قال الله تعالى : افترضت على أمتك خمس صلوات وعهدت عندى عهدًا أن من حافظ عليهن لوقتهن ، أدخلته الجنة ، ومن لم يحافظ عليهن فلا عهد له عندى » .

وأحمد والحاكم : « من علم أن الصلاة عليه حق واجب ، وأداها دخل الجنة » .

والترمذى وقال : حسن غريب ، والنسائى وابن ماجه : « أول ما

يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله : الصلاة ، فإن صلحت فقد أفلح وأنجح ، وإن فسدت فقد خاب وخسر ، وإن انتقص من فريضته قال الرب : انظروا هل لعبدى من تطوع فيكمل بها ما انتقص من الفريضة ؟ ثم يكون سائر عمله على ذلك » .

والنسائى : « أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة : الصلاة ، وأول ما يقضى به بين الناس فى الدماء » .

وأحمد وأبو داود والنسائى وابن ماجه والحاكم : « أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة صلاته ، فإن كان أتمها كتبت له تامة ، وإن لم يكن أتمها قال للملائكته : انظروا هل تجدون لعبدى من تطوع فتكملون به فريضته ؟ ثم الزكاة كذلك ، ثم تؤخذ الأعمال على حسب ذلك » .

والطبرانى : « أول ما يسئل عنه العبد يوم القيامة ينظر فى صلاته ، فإن صلحت فقد أفلح ، وإن فسدت خاب وخسر » .

وابن عساكر : « أول ما يحاسب به العبد صلاته ، فإن صلحت صلح سائر عمله ، وإن فسدت فسد سائر عمله ، يقول : انظروا هل لعبدى نافلة؟ فإن كانت له أتم بها الفريضة ، ثم الفرائض كذلك لعائدة الله ورحمته » .

وأحمد وأبو داود والنسائى والحاكم : « أول ما يحاسب الناس به يوم القيامة من أعمالهم الصلاة ، فيقول ربنا عز وجل للملائكته وهو أعلم : انظروا فى صلاة عبدى أتمها أم نقصها ؟ فإن كانت تامة كتبت تامة ، وإن كان انتقص منها شيئًا ، قال : انظروا هل لعبدى من تطوع ؟ فإن كان له تطوع قال : أكملوا لعبدى فريضته من تطوعه ، ثم يأخذ الأعمال على ذلك » .

والطيالسى والطبرانى والضياء فى المختارة : « أتانى جبريل من عند الله تبارك وتعالى ، فقال : يا محمد إن الله عز وجل يقول : إنى افترضت على أمتك خمس صلوات فمن أوفى بهن على وضوئهن ومواقيتهن وركوعهن وسجودهن كان له بهن عهد أن أدخله الجنة ، ومن لقينى قد انتقص من ذلك شيئًا فليس له عندى عهد ، إن شئت عذبته وإن شئت رحمته » .

والبيهقى : « الصلاة ميزان ، فمن أوفى استوفى » .

والديلمى : « الصلاة تسود وجه الشيطان ، والصدقة تكسر ظهره ، والتحابب فى الله والتودد فى العلم يقطع دابره ، فإذا فعلتم ذلك تباعد منكم كمطلع الشمس من مغربها » .

والترمذى وابن حبان والحاكم : « اتقوا الله وصلوا خمسكم وصوموا شهركم وأدوا زكاة أموالكم وأطيعوا ذوى أمركم تدخلوا جنة ربكم » .

وأحمد والشيخان وأبو داود والنسائى : « أحب الأعمال إلى الله تعالى الصلاة لوقتها ، ثم بر الوالدين ، ثم الجهاد فى سبيل الله » .

والبيهقى عن عمر رضى الله عنه قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله ، أى الأعمال أحب إلى الله فى الإسلام ؟ فقال : « الصلاة لوقتها، ومن ترك الصلاة فلا دين له ، والصلاة عماد الدين » .

ولذلك لما طعن عمر رضى الله عنه قيل له : الصلاة يا أمير المؤمنين ، قال : نعمت ، أما أنه لا حظّ لأحد فى الإسلام أضاع الصلاة ، وصلى رضى الله عنه وجرحه يجرى دمه .

وروى الذهبى أنه ﷺ قال : « إذا صلى العبد الصلاة فى أول الوقت صعدت إلى السماء ولها نور حتى تنتهى إلى العرش ، فتستغفر لصاحبها إلى يوم القيامة ، وتقول : حفظك الله كما حفظتنى ، وإذا صلى العبد الصلاة فى غير وقتها صعدت إلى السماء وعليها ظلمة ، فإذا انتهت إلى السماء تلف كما يلف الثوب الخلق ويضرب بها وجه صاحبها » .

وأخرج أبو داود أنه ﷺ قال : « ثلاث لا يقبل الله منهم صلاتهم» ، وذكر منهم : « من أتى الصلاة دبارًا » ، أى : بعد أن تفوته .

قال بعضهم : وورد فى الحديث : « أن من حافظ على الصلاة أكرمه الله بخمس خصال : يرفع عنه ضيق العيش ، وعذاب القبر ، ويعطيه الله تعالى كتابه بيمينه ، ويمر على الصراط كالبرق ، ويدخل الجنة بغير حساب ، ومن تهاون عن الصلاة عاقبه الله بخمس عشرة عقوبة خمس فى الدنيا ، وثلاث عند الموت ، وثلاث فى قبره ، وثلاث عند خروجه من القبر . فأما اللواتى فى الدنيا : فالأولى تنزع البركة من عمره ، والثانية : تمحى سيما

الصـالحين من وجهـه ، والثـالثة : كل عـمل يعمـله لا يأجره الله عليـه ، والرابعة : لا يرفع له دعـاء إلى السماء ، والخامسـة : ليس له حظ فى دعاء الصالحين . وأما التى عند الموت : فإنه يموت ذليـلاً ، والثانية يموت جائعًا ، والثالثة : يموت عطشـانًا ، ولو سقى بحار الدنيا مـا روى من عطشه . وأما التى تصيبـه فى قبره : فـالأولى يضيق عليه القـبر حتى تختلف أضـلاعه ، والثانية يوقد عليـه القبر نارًا فيتقلب على الجمر ليـلاً ونهارًا ، والثالثة يسلط عليه فى قـبره ثعـبان اسمـه الشجـاع الأقرع ، عيناه مـن نار ، وأظفاره من حديد، طول كل ظفر مسيرة يوم ، يكلم الميت فيقول : أنا الشجاع الأقرع ، وصوته مـثل الرعد القاصف ، يقـول : أمرنى ربى أن أضربك على تضـييع صلاة الصـبح إلى طلوع الشمس ، وأضربـك على تضييع صـلاة الظهر إلى العصـر ، وأضربك على تضـييع صلاة العـصر إلى المغـرب وأضربك على تضيـيع صلاة المغـرب إلى العشاء وأضـربك على تضيـيع صلاة العـشاء إلى الفجر، فكلمـا ضربه ضربة يغوص فى الأرض سـبعين ذراعًا ، فلا يزال فى القبر معذبًا إلى يوم القيامة، وأما التى تصيبه عند خروجه من القبر فى موقف القيـامة : فشـدة الحساب ، وسـخط الرب ، ودخول النار » . وفى رواية : «فإنه يأتى يوم القيامـة وعلى وجهه ثلاثة أسطر مكتوبات: السطر الأول : يا مضيع حق الله ، السطر الثانى : يا مخصوصًا بغضب الله ، السطر الثالث: كما ضيعت فى الدنيا حق الله فأنت اليوم آيس من رحمة الله » .

وما ذكـر فى هذا الحديث من قـبيل العـدد ، لا يوافق جملـة الخمس عشرة ؛ لأن المفصل أربع عشرة فقط ، فلعل الراوى نسى الخامس عشر .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : إذا كان يوم القيامة يؤتى برجل فيـوقف بين يدى الله عز وجل ، فيـأمر الله به إلى النار ، فيـقول : يا رب بماذا ؟ فيقول تعالى : بتأخيرك الصلاة عن أوقاتها وحلفك بى كاذبًا .

وقال بعضهم أيضًا : وعـن رسـول الـله ﷺ أنه قـال يومًا لأصحابه : « قولوا : اللهم لا تدع فينا شقـيا ولا محرومًا » ثم قال ﷺ : « أتدرون من الشقى المحروم ؟»، قالوا: ومن هو يا رسول الله ؟ قال : «تارك الصـلاة» .

قال أيضًا : ويروى أنه أول ما تسود يوم القيامة وجوه تاركى الصلاة ، وأن فى جهنم واديًا يقال له : لملم ، فيه حيات كل حية بثخن رقبة البعير ، طولها مسيرة شهر ، تلسع تارك الصلاة ، فيغلى سمها فى جسمه سبعين سنة ثم ينهرى لحمه .

قال : وروى أن امرأة من بنى إسرائيل جاءت إلى موسى صلى الله على نبينا وعليه وعلى سائر النبيين ، فقالت : يا نبى الله أذنبت ذنبًا عظيمًا، وقد تبت إلى الله تعالى ، فادع الله أن يغفر ذنبى ويتوب علىّ ، فقال لها موسى : وما ذنبك ؟ قالت : يا نبى الله زنيت وولدت ولدًا وقتلته ، فقال لها موسى عليه السلام : أُخرجى يا فاجرة ، لئلا تنزل نار من السماء فتحرقنا بشؤمك ، فخرجت من عنده منكسرة القلب ، فنزل جبريل عليه السلام وقال : يا موسى الرب تعالى يقول لك : لم رددت التائبة يا موسى ؟ أما وجدت شرا منها ؟ قال موسى : يا جبريل ومن شر منها ؟ قال : تارك الصلاة عامدًا متعمدًا .

وأيضًا روى عن بعض السلف أنه دفن أختًا له ماتت ، فسقط منه كيس فيه مال فى قبرها ، ولم يشعر به حتى انصرف عن قبرها ، ثم تذكره ، فرجع إلى قبرها ، فنبشه بعدما انصرف الناس ، فوجد القبر يشتعل عليها نارًا ، فرد التراب ، عليها ورجع إلى أمه باكيًا حزينًا فقال : يا أماه ، أخبرينى عن أختى وما كانت تعمل ؟ قالت : وما سؤالك عنها ؟ قال : يا أماه ، رأيت قبرها يشتعل نارًا ، قال : فبكت وقالت : يا ولدى كانت أختك تتهاون بالصلاة وتؤخرها عن وقتها ، فهذا حال من يؤخر الصلاة عن وقتها فكيف حال من لا يصلى ؟ .

فنسأل الله تعالى أن يعيننا على المحافظة عليها بكمالاتها فى أوقاتها ، إنه كريم رؤوف رحيم .



الباب الخمسون .. في

بيان عرصات جهنم وعذابها

قال الله تعالى : ﴿ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾ [الحجر : ٤٤] المراد بالجزء هنا : الحزب والطائفة والفريق ، وقيل : المراد بالأبواب : الأطباق ، طبق فوق طبق ، قال ابن جريج : النار سبع دركات: وهى جهنم ثم لظى ثم الحطمة ثم السعير ثم سقر ثم الجحيم ثم الهاوية. فأعلاها للموحدين ، والثانية لليهود، والثالثة للنصارى ، والرابعة للصابئين، والخامسة للمجوس، والسادسة للمشركين، والسابعة للمنافقين. وجهنم أعلى الطبقات ثم ما بعدها تحتها ، ثم كذلك . كذا قيل ، والمعنى : أن الله يجزئ أتباع إبليس سبعة أجزاء، فيدخل كل جزء وقسم دركه من النار. والسبب فيه : أن مراتب الكفر والمعاصى مختلفة . فلذلك اختلفت مراتبهم فى النار .

وقيل : جعلت سبعة على وفق الأعضاء السبعة من العين والأذن واللسان والبطن والفرج واليد والرجل؛ لأنها مصادر السيئات فكانت مواردها الأبواب السبعة .

وعن عليّ رضى الله عنه قال : أطباق جهنم سبعة بعضها فوق بعض، فيملأ الأول ثم الثانى ثم الثالث حتى تملأ كلها .

وأخرج البخارى فى تاريخه والترمذى عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « لجهنم سبعة أبواب ، منها باب لمن سل السيف على أمتى » .

وروى الطبرانى فى الأوسط : أن جبريل جاء إلى النبى ﷺ فى غير حينه الذى كان يأتيه فيه ، فقام إليه رسول الله ﷺ فقال : « يا جبريل ما لى أراك متغير اللون ؟ » فقال : ما جئتك حتى أمر الله بمنافخ النار . فقال رسول الله ﷺ : « يا جبريل صف لى النار أو انعت لى جهنم » ، فقال جبريل : إن الله تبارك وتعالى أمر بجهنم فأوقد عليها ألف عام حتى

ابيضت، ثم أمر فأوقد عليها ألف عام حتى احمرت ، ثم أمر فأوقد عليها ألف عام حتى اسودت، فهى سوداء مظلمة، لا يضىء شررها ولا يطفأ لهيبها، والذى بعثك بالحق نبيا لو أن قدر ثقب إبرة فتح من جهنم لمات من فى الأرض كلهم جميعًا، والذى بعثك بالحق لو أن خازنًا من خزنة جهنم برز إلى أهل الدنيا لمات من فى الأرض كلهم جميعًا من قبح وجهه ، ونتن ريحه ، والذى بعثك بالحق لو أن حلقة من حلق سلسلة أهل النار التى نعت الله فى كتابه وضعت على جبال الدنيا لارفضت وما تقاربت حتى تنتهى إلى الأرض السفلى .فقال رسول الله ﷺ : «حسبى يا جبريل لا ينصدع قلبى فأموت» .

قال : فنظر رسول الله ﷺ إلى جبريل وهو يبكى ، فقال : « تبكى يا جبريل وأنت مع الله بالمكان الذى أنت فيه ؟ » فقال : وما لى لا أبكى ، وأنا أحق بالبكاء لعلى أكون فى علم الله على غير الحالة التى أنا عليها، وما أدرى لعلى أبتلى بما ابتلى به إبليس ، فقد كان من الملائكة ، وما أدرى لعلى أبتلى بما ابتلى به هاروت وماروت . قال : فبكى النبى ﷺ وبكى جبريل ، فما زالا يبكيان حتى نودى : أن يا جبريل ويا محمد إن الله تعالى قد آمنكما أن تعصياه ، فارتفع جبريل وخرج رسول الله ﷺ فمرّ بقوم من الأنصار يضحكون ويلعبون ، فقال : « أتضحكون ووراءكم جهنم ؟ فلو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرًا ، ولما سفتم الطعام والشراب ، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله عز وجل». فنودى: يا محمد لا تقنط عبادى ، إنما بعثتك مبشرًا ولم أبعثك معسرًا . فقال ﷺ : « سددوا وقاربوا».

وروى الإمام أحمد أنه ﷺ قال لجبريل : « ما لى لا أرى ميكائيل ضاحكًا قط ؟ » ، قال: ما ضحك ميكائيل منذ خلقت النار .

وروى مسلم : أن رسول الله ﷺ قال : « يؤتى بجهنم يوم القيامة لها سبعون ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها » .



الباب الحادي والخمسون ..في

بيان عذاب جهنم أيضًا

روى أبو داود والنسائي والترمذي وصححه ، واللفظ له : « لما خلق الله تعالى الجنة والنار أرسل جبريل إلى الجنة ، فقال : انظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها ، فجاء ونظر إليها وإلى ما أعد الله لأهلها فيها ، فرجع إليه ، فقال : وعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها ، فأمر بها فحفت بالمكاره، فقال ارجع إليها فانظر ما أعددت لأهلها فيها . فرجع إليه فإذا هي قد حفت بالمكاره، فرجع إليه ، وقال : وعزتك لقد خفت أن لا يدخلها أحد . فقال : اذهب إلى النار فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها ، فنظر إليها فإذا هي يركب بعضها بعضًا ، فرجع إليه ، فقال : وعزتك لا يسمع بها أحد فيدخلها ، فأمر بها فحفت بالشهوات ، فقال : ارجع إليها، فرجع إليها ، فقال : وعزتك لقد خشيت أن لا يبقى أحد إلا دخلها».

والبيهقي بسند لا بأس به عن ابن مسعود رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴾ [المرسلات : ٣٢] قال : « أما أني لست أقول كالشجرة ، ولكن كالحصون والمدائن » .

وأحمد وابن ماجه وابن حبان في صحيحه والحاكم وصححه : « ويل: واد في جهنم يهوى فيه الكافر أربعين خريفًا ، قبل أن يبلغ قعره » .

والترمذي : « ويل : واد بين جبلين يهوى فيه الكافر سبعين خريفا ، قبل أن يبلغ قعره » .

وابن ماجه واللفظ له والترمذي : « نعوذ بالله من جب الحزن » ، قالوا : يا رسول الله وما جب الحزن ؟ قال : « واد في جهنم تتعوذ منه جهنم كل يوم أربعمائة مرة » قيل : يا رسول الله من الذى يدخله ؟ قال : «أعد للقراء المرائين بأعمالهم ، وإن من أبغض القراء إلى الله الذين يزورون الأمراء الجورة » .

والطبراني : « في جهنم واديًا تستعيذ جهنم من ذلك الوادى كل يوم

أربعمائة مرة أُعد للمرائين من أمة محمد ﷺ » .

وابن أبى الدنيا : « إن فى النار سبعين ألف واد ، فى كل واد سبعون ألف شعب ، وفى كل شعب سبعون ألف حجر ، فى كل حجر حية تأكل وجوه أهل النار » .

والبخارى فى تاريخه بسند فيه نكارة : « إن فى جهنم سبعين ألف واد فى كل واد سبعون ألف شعب ، وفى كل شعب سبعون ألف دار ، فى كل دار سبعون ألف بيت ، فى كل بيت سبعون ألف بئر ، فى كل بئر سبعون ألف ثعبان ، فى شدق كل ثعبان سبعون ألف عقرب ، لا ينتهى الكافر أو المنافق حتى يواقع ذلك كله » .

والترمذى بسند فيه انقطاع : « إن الصخرة العظيمة لتلقى من شفير جهنم فتهوى فيها سبعين خريفًا ، وما تفضى إلى قرارها » .

وكان عمر رضى الله عنه يقول : أكثروا ذكر النار فإن حرها شديد ، وإن قعرها بعيد ، وإن مقامها حديد .

والبزار وأبو يعلى وابن حبان فى صحيحه والبيهقى : « لو أن حجرًا قذف به فى جهنم لهوى بها سبعين خريفًا قبل أن يبلغ قعرها » .

ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: كنا عند النبى ﷺ فسمعنا وجبة، فقال النبى ﷺ: أتدرون ما هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: هذا حجر أرسله الله فى جهنم منذ سبعين خريفًا، فالآن حين انتهى إلى قعرها .

والطبرانى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : سمع رسول الله ﷺ صوتًا هاله ، فأتاه جبريل عليه السلام فقال رسول الله ﷺ : « ما هذا الصوت يا جبريل ؟ » ، فقال : هذه صخرة هوت من شفير جهنم من سبعين عامًا، فهذا حين بلغت قعرها، فأحب الله تعالى أن يسمعك صوتها، فما رؤى رسول الله ﷺ ضاحكًا ملء فيه حتى قبضه الله عز وجل.

وأحمد والترمذى وحسنه : « لو أن رضاضة مثل هذه - وأشار إلى الجمجمة - أرسلت من السماء إلى الأرض وهى مسيرة خمسمائة سنة ، لبلغت الأرض قبل الليل ، ولو أنها أرسلت من رأس السلسلة لسارت أربعين

خريفًا ، الليل والنهار ، قبل أن تبلغ أصلها » .

وأحمد وأبو يعلى والحاكم وصححه : « لو أن مقمعًا من حديد جهنم، وضع فى الأرض ، فاجتمع له الثقلان ما أقلوه من الأرض » .

والحاكم وصححه : « لو ضرب الجبل بمقمع من حديد جهنم لتفتت فصار رمادًا » المقمع المطراق ، وقيل : السوط .

وابن أبى الدنيا : « إن الحجر الواحد منها لو وضع على جبال الدنيا لذابت منه ، وإن مع كل إنسان منهم حجرًا أو شيطانًا » .

والحاكم وصححه : « إن الأرضين السبع بين كل أرض والتى تليها مسيرة خمسمائة عام ، فالعليا منها على ظهر حوت ، قد التقى طرفاه فى السماء ، والحوت على صخرة ، والصخرة بيد ملك ، والثانية سجن الريح فلما أراد الله تعالى أن يهلك عادًا أمر خازن الريح أن يرسل عليهم ريحًا تهلكهم ، قال : يا رب أرسل عليهم من الريح قدر منخر الثور ، قال له الجبار تبارك وتعالى : إذن تكفىء الأرض وما عليها ، ولكن أرسل عليهم بقدر خاتم ، فهى التى قال الله فى كتابه العزيز : ﴿ **مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ** ﴾ [الذاريات : ٤٢] والثالثة فيها حجارة جهنم ، والرابعة فيها كبريت جهنم . وقالوا : يا رسول الله ألـلنار كبريت ؟ قال : «نعم والذى نفسى بيده ، إن فيها لأودية من كبريت لو أرسل فيها الجبال الرواسى لماعت ، والخامسة فيها حيات جهنم ، وإن أفواهها كالأودية تلسع الكافر اللسعة فلا يبقى منه لحم على عظم ، والسادسة فيها عقارب جهنم ، وأدنى عقرب منها كالبغال الموكفة ، تضرب الكافر ضربة تنسيه ضربتها حر جهنم ، والسابعة فيها إبليس مصفد بالحديد، يد أمامه ويد خلفه ، فإذا أراد الله أن يطلقه لمن شاء من عباده أطلقه » .

وأحمد والطبرانى وابن حبان فى صحيحه والحاكم وصححه أن فى النار حيات كأمثال أعناق البخت[1] ، تلسع إحداهن اللسعة ، فيجد حرّها سبعين خريفًا ، وأن فى النار عقارب كأمثال البغال الموكفة ، تلسع إحداهن اللسعة

(١) الإبل الخرسانية والتي تشتهر بالضخامة .

فيجد حموها أربعين سنة » .

والترمذى وابن حبان فى صحيحه والحاكم وصححه عنه ﷺ فى قوله تبارك وتعالى : ﴿ كَالْمُهْلِ ﴾ [الكهف : ٢٩] قال : كعكر الزيت . فإذا قرب إلى وجهه سقطت فروة وجهه فيه .

والترمذى وقال حسن غريب صحيح: «أن الحميم ليصب على رءوسهم فينفذ الحميم حتى يخلص إلى جوفه ، فيسلب ما فى جوفه حتى يمرق من قدميه ، وهو الصهر ثم يعاد كما كان » والحميم الماء الحار الذى يحرق .

وقال الضحاك : الحميم يغلى منذ خلق الله السموات والأرض إلى يوم يسقونه ، ويصب على رءوسهم ، وقيل : هو ما يجتمع من دموع أعينهم فى حياض النار ، فيسقونه ، وقيل : غير ذلك . وهو المذكور فى قوله تبارك وتعالى : ﴿ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴾ [محمد : ١٥] .

وأحمد والترمذى وقال: غريب، والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم عنه ﷺ فى قوله تعالى: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ * يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ﴾ [إبراهيم: ١٦ ـ ١٧] قال: « يقرب إلى فيه فيكرهه ، فإذا دنا منه شوى وجهه ، ووقعت فروة رأسه ، فإذا شربه قطع أمعاءه حتى يخرج من دبره ، قال الله عز وجل: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴾، وقال جل ذكره : ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ ﴾ [الكهف: ٢٩].

وأحمد والحاكم وصححه: «لو أن دلوًا من غساق يهراق فى الدنيا لأنتن أهل الدنيا». والغساق هو المذكور فى قوله تعالى: ﴿فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ [ص : ٥٧] ، وقوله تعالى: ﴿ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴾ [النبأ: ٢٥] . واختلف فيه . فعن ابن عباس رضى الله عنهما: هو ما يسيل من جلد الكافر ونحوه ، وعند آخرين : هو صديدهم . وقال كعب : هو عين فى جهنم يسيل إليها حمة كل ذات حمة من حية أو عقرب أو غير ذلك، فيستنقع، فيؤتى بالآدمى فيغمس فيها غمسة واحدة فيخرج وقد سقط جلده ولحمه عن العظام ، ويتعلق جلده ولحمه فى عقبيه وكعبيه ، فيجر لحمه كما يجر المرء ثوبه .

والترمذى وقال : حسن صحيح أنه ﷺ قرأ هذه الآية : ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاته وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢] فقال ﷺ: « لو أن قطرة من الزقوم قطرت فى دار الدنيا لأفسدت على أهل الدنيا معايشهم ، فكيف بمن يكون طعامه». وفى رواية: «فكيف بمن ليس له طعام غيره».

وصح عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى : ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّة ﴾ [المزمل : ١٣] شوك يأخذ بالحلق ، لا يدخل ولا يخرج. والشيخان: «ما بين منكبى الكافر مسيرة ثلاثة أيام للراكب المسرع»، والمنكب مجمع رأس الكتف والعضد . وأحمد : « ضرس الكافر مثل أحد ، وفخذه مثل البيضاء » أى وهو جبل « ومقعده من النار كما بين قديد ومكة» ، أى نحو ثلاثة أيام ، «وكثافة جلده اثنتان وأربعون ذراعًا بذراع الجبار » أى ملك باليمن له ذراع معروفة المقدار . كذا قال ابن حبان وغيره: وقيل: ملك بالعجم . ومسلم : «ضرس – أو قال : ناب – الكافر مثل أحد ، وغلظ جلده مسيرة ثلاث» .

والترمذى ولفظه : قال رسول الله ﷺ : « ضرس الكافر يوم القيامة مثل أحد ، وفخذه مثل البيضاء ، ومقعده من النار مسيرة ثلاث من الربذة». أى كما بين المدينة والربذة . وأحمد بسند جيد : « ضرس الكافر يوم القيامة مثل أحد ، وعرض جلده سبعون ذراعًا ، وعضده وفخذه مثل ورقان البيضاء، ومقعده من النار ما بينى وبين الربذة » . وفى رواية : « ومقعده من النار مسيرة ثلاث مثل الربذة » . وأحمد والطبرانى وإسناده قريب من الحسن، كما قاله الحافظ المنذرى، والترمذى عن الفضيل بن يزيد : « أن الكافر ليسحب لسانه الفرسخ والفرسخين يتوطأه الناس » .

والفضيل بن يزيد عن أبى العجلان : « إن الكافر ليجر لسانه فرسخين يوم القيامة يتوطأه الناس». أخرجه البيهقى وغيره، وهو الصواب . وقال النبى ﷺ : « يعظم أهل النار فى النار حتى أن بين شحمة أذن أحدهم إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام، وإن غلظ جلده سبعون ذراعًا، وإن ضرسه مثل أحد» .

وأحمد بسند صحيح والحاكم وصححه عن مجاهد قال ابن عباس : أتدرى ما سعة جهنم ؟ قلت : لا ، قال : أجل والله ما تدرى إن بين شحمة أذن أحدهم وبين عاتقه مسيرة سبعين خريفًا تجرى فيه أودية القيح والدم ، قلت : أنهار ؟ قال : لا بل أودية .

الباب الثاني والخمسون .. في

بيان الخوف من الذنب

اعلم : أن أعظم زاجر عن الذنوب هو خوف الله تعالى وخشية انتقامه وسطوته ، وحذر عقابه وغضبه وبطشه ﴿ **فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ [النور :٦٣] جاء أنه ﷺ دخل على شاب وهو فى الموت ، فقال : « كيف تجدك؟» ، قال : أرجو الله يا رسول الله وأخاف ذنوبى ، فقال رسول الله ﷺ : « لا يجتمعان فى قلب عبد فى مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو ، وآمنه مما يخاف » .

وعن وهب بن ورد قال : كان عيسى صلى الله على نبينا وعليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين وسلم يقول : حب الفردوس وخشية جهنم يورثان الصبر على المصيبة ، ويبعدان العبد عن لذات الدنيا وشهواتها ومعاصيها .

وعن الحسن قال : والله لقد مضى بين أيديكم أقوام لو أنفق أحدهم عدد الحصى ذهبًا يَخْشَى أن لا ينجو ؛ لعظم الذنب فى نفسه .

وقال رسول الله ﷺ : « هل تسمعون ما أسمع ، أطت السماء وحق لها أن تئط ، والذى نفسى بيده ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك ساجد لله تعالى أو قائم أو راكع ، ولو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرًا ، ولخرجتم أو لصعدتم إلى الصعدات ـ أى الجبال ـ تجأرون إلى الله تعالى خوفًا من عظم سطوته وشدة انتقامه » . وفى رواية : « لا تدرون تنجون أو لا تنجون ؟» .

وقال بكر بن عبد الله المزنى : من أتى الخطيئة وهو يضحك دخل النار وهو يبكى . وفى الحديث : « لو يعلم المؤمن بكل الذى عند الله من العذاب لم يأمن النار » .

وفى الصحيحين قام رسول الله ﷺ حين أنزل عليه ﴿ **وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ**

الأقربين ﴾ [الشعراء : ٢١٤] فقال : « يا معشر قريش اشتروا أنفسكم من الله ، لا أغنى عنكم من الله شيئًا ، يا بنى عبد مناف لا أغنى عنكم من الله شيئًا ، يا عباس عم رسول الله لا أغنى عنك من الله شيئًا ، يا صفية عمة رسول الله لا أغنى عنك من الله شيئًا ، يا فاطمة بنت محمد سلينى من مالى ما شئت ، لا أغنى عنك من الله شيئًا » .

وعن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : يا رسول الله ﴿ **وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ** ﴾ [المؤمنون : ٦٠] يا رسول الله ، هو الذى يزنى ويسرق ويشرب الخمر وهو يخاف الله ؟ قال : « لا يا بنت أبى بكر ، يا بنت الصديق ، ولكنه الرجل يصلى ويصوم ويتصدق ويخاف أن لا يتقبل منه » . رواه أحمد .

وقيل للحسن البصرى : يا أبا سعيد كيف نصنع بمجالسة قوم يحدثونا عن الرجاء حتى تكاد قلوبنا تطير ، فقال له : إنك والله إن تصحب قومًا يخوفونك حتى تدرك أمنًا ، خير لك من أن تصحب أقوامًا يؤمنونك حتى تلحقك المخاوف .

ولما طعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه وقربت وفاته قال لابنه : ويلك ضع خدى على الأرض ، لا أم لك . وويلى ـ وأى ويلى ـ إن لم يرحمنى ، وقال ابن عباس : ما هذا الخوف يا أمير المؤمنين وقد فتح الله بك الفتوح ، ومصر بك الأمصار ، وفعل بك وفعل ؟ قال : وددت أن أنجو لا علىَّ ولا لى . وفى رواية : لا أجرًا ولا وزرًا .

وكان زين العابدين علىّ بن الحسين رضى الله عنهما إذا توضأ وفرغ من وضوئه أخذته رعدة ، فقيل له فى ذلك ، فقال : ويحكم ، أتدرون إلى من أقوم ؟ ولمن أريد أن أناجى ؟ .

وقال أحمد بن حنبل : الخوف يمنعنى من أكل الطعام والشراب فما أشتهيه .

وفى الصحيحين : أنه ﷺ ذكر من السبعة الذين يظلهم الله تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله ، رجلاً ذكر الله ـ أى وعيده وعقابه ـ خاليًا

ففاضت عيناه ، أى خوفًا مما جناه واقترفه من المخالفات والذنوب .

وفى حديث ابن عباس عن النبى ﷺ أنه قال : « عينان لا تمسهما النار، عين بكت فى جوف الليل من خشية الله ، وعين باتت تحرس فى سبيل الله تعالى » .

وفى حديث أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال : « كل عين باكية يوم القيامة إلا عينًا غضت عن محارم الله ، وعينًا سهرت فى سبيل الله ، وعينًا يخرج منها مثل رأس الذباب من خشية الله تعالى » . أخرجه الترمذى وقال: حسن . وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يلج - أى يدخل - النار رجل بكى من خشية الله تعالى حتى يعود اللبن فى الضرع ، ولا يجتمع غبار فى سبيل الله ودخان جهنم » .

قال عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما : لأن أدمع دمعة من خشية الله أحب إلىّ من أن أتصدق بألف دينار .

وقال عون بن عبد الله : بلغنى أنه لا تصيب دموع الإنسان من خشية الله مكانًا من جسده إلا حَرَّم الله ذلك المكان على النار .

وكان لصدر رسول الله ﷺ أزيز كأزيز المرجل من البكاء ، أى فوران وغليان كغليان القدر على النار . وقال الكندى : البكاء من خشية الله تعالى تطفىء الدمعة منه أمثال البحار من النار .

وكان ابن السماء يعاتب نفسه ، ويقول لها : تقولين قول الزاهدين وتعملين عمل المنافقين ، ومع ذلك الجنة تطلبين أن تدخليها ، هيهات هيهات ، للجنة قوم آخرون ، ولهم أعمال غير ما نحن عاملون .

وعن سفيان الثورى قال : دخلت على جعفر الصادق ، فقلت له : يا ابن رسول الله أوصنى ، قال : يا سفيان لا مروءة لكذوب ، ولا راحة لحسود ، ولا إخاء لملول ، ولا سؤدد لسيِّئ الخُلُق ، قلت : يا ابن رسول الله ﷺ زدنى ، قال : يا سفيان كف عن محارم الله تكن عابدًا ، وارض بما قسم الله لك تكن مسلمًا ، واصحب الناس بما تحب أن يصحبوك به تكن مؤمنًا ، ولا تصحب الفاجر فيعلمك من فجوره أى للحديث : « المرء على

دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل» ، وشاور فى أمرك الذين يخشون الله، قلت : يا ابن رسول الله زدنى ، قال : يا سفيـان من أراد عزا بلا عشيرة ، وهيبة بلا سلطان ، فلـيخرج من ذل معصيـة الله إلى طاعة الله ، قلت : يا ابن رسول الله زدنـى . قال : أدبنى أبى بثلاث : قـال لى : أى بنى إن من يصحب صاحب السوء لا يسلم ، ومـن يدخل مدخل السوء يتهم ، ومن لا يملك لسـانه يندم . وقال ابن المبـارك : سألت وهيب بن الورد أيجـد طعم العبادة من يعصى الله تعالى ؟ قال: لا ، ولا من يهم بمعصية الله تعالى .

وقال الإمام أبو الفرج بن الجوزى : الخوف هو النار المحرقة للشهوات. فإذًا فضيلته بقدر ما يحرق من الشـهوة ، وبقدر ما يكف عن المعصية ويحث على الطاعـة . وكيف لا يكون الخـوف إذًا فـضيلة به تحـصل العفـة والورع والتقـوى والمجاهدة والأعـمال الفـاضلة التى يتـقرب بها إلـى الله سبـحانه وتعالى، كـما علم من الآيات والأخـبار ؟ كقـوله تعالى : ﴿ هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ [الاعـراف : ١٥٤] وقوله تعالى : ﴿ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴾ [البـينة : ٨] ، وقوله تـعالى : ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمـران : ١٧٥] ، وقال تعالى: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن: ٤٦] وقال تعالى : ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾ [الأعـلـى : ١٠] ، وقال تعـالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر:٢٨] . وكل ما دل من الآيات والأحـاديث على فضـيلة العلم دل على فضيلة الخوف ؛ لأن الخوف ثمرة العلم. وأخرج ابن أبى الدنيا أنه ﷺ قال : « إذا اقشعـر جسد العبد من مـخافة الله عز وجل ، تحاتـت عنه خطاياه كما يتحات عن الشجرة اليابسة ورقها». وقال ﷺ : « قال الله سبحانه وتعالى : وعزتى لا أجمع على عبدى خوفين ولا أجمع له أمنين ، إن أمننى فى الدنيا أخفـته يوم القيـامة ، وإن خـافنى فى الدنيا أمنته يـوم القيامـة » . وقال أبو سليمان الدارانى : كل قلب ليـس فيه خوف من الله فهو خـراب ، وقد قال الله تعالى : ﴿ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [الاعراف : ٩٩] .

الباب الثالث والخمسون .. في

بيان فضل التوبة

جاء في فضل التوبة آيات كثيرة كقوله تعالى : ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [النور : ٣١] ، وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا * إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا * وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴾ . [الفرقان : ٦٨ ـ ٧١] .

والأحاديث في ذلك كثيرة ، أخرج مسلم : « إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل ، حتى تطلع الشمس من مغربها » . والترمذي وصححه : « إن من قبل المغرب لبابًا مسيرة عرضه أربعون عامًا ، أو سبعون سنة ، فتحه الله عز وجل للتوبة يوم خلق السموات والأرض ، فلا يغلقه حتى تطلع الشمس منه » .

وصحح أيضًا : « إن الله تعالى جعل بالمغرب بابًا عرضه مسيرة سبعين عامًا للتوبة، لا يغلق ما لم تطلع الشمس من قبله»، وذلك قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا ﴾ [الأنعام : ١٥٨] الآية ، قيل : وليس هذه الرواية ولا الأولى تصريح برفعه، كما صرح البيهقي . انتهى .

ويجاب : بأن مثل هذا لا يقال من قبل الرأي ، فله حكم المرفوع .

والطبراني بسند جيد : « للجنة ثمانية أبواب ، سبعة مغلقة ، وباب مفتوح للتوبة ، حتى تطلع الشمس من نحوه » .

وابن ماجه بسند جيد : « لو أخطأتم حتى تبلغ خطاياكم السماء ثم

تبتم لتاب الله عليكم » .

والحاكم وصححه : « من سعادة المرء أن يطول عمره ويرزقه الله الإنابة » .

والترمذى وابن ماجه والحاكم وصححه : « كل ابن آدم خطّاء وخير الخطّائين التوابون » .

والشيخان : « أن عبدًا أصاب ذنبًا ، فقال : يا رب إنى أذنبت ذنبًا فاغفره لى ، فقال له ربه : علم عبدى أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به ، فغفر له . ثم مكث ما شاء الله ثم أصاب ذنبًا آخر ، وربما قال : أذنب ذنبًا آخر . فقال : يا رب إنى أذنبت ذنبًا آخر ، فاغفره لى ، فقال ربه : علم عبدى أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به ، فغفر له . ثم مكث ما شاء الله تعالى ، ثم أصاب ذنبًا آخر ، وربما قال : أذنب ذنبًا آخر . فقال : يا رب إنى أذنبت ذنبًا آخر ، فاغفره لى، فقال ربه : علم عبدى أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به ، فقال ربه : غفرت لعبدى فليعمل ما شاء » .

قال المنذرى قوله : « فليعمل ما شاء » معناه والله أعلم : أنه ما دام كلما أذنب ذنبًا ، استغفر وتاب منه ولم يعد إليه ، بدليل قوله : ثم أصاب ذنبًا آخر فليعمل إذا كان هذا دأبه ما شاء ؛ لأنه كلما أذنب كانت توبته واستغفاره كفارة لذنبه ، فلا يضره ، لا أن المعنى أنه يذنب الذنب فيستغفر منه بلسانه ، من غير إقلاع ، ثم يعاوده ، فإن هذه توبة الكذابين . وروى جماعة وصححوه : « أن المؤمن إذا أذنب ذنبًا كانت نكتة سوداء فى قلبه ، فإن تاب ونزع واستغفر صقل منها ، وإن زاد زادت حتى يغلق بها قلبه .

فذلك الران الذى ذكر الله فى كتابه : ﴿ **كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ﴾ [المطففين : ١٤] » .

والترمذى وحسنه : « إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر » أى تبلغ روحه حلقومه .

والطبرانى بسند حسن لكن فيه انقطاع ، والبيهقى بسند فيه مجهول ، عن معاذ قال : أخذ بيدى رسول الله ﷺ فمشى ميلاً ، ثم قال : « يا

معاذ، أوصيك بتقوى الله ، وصدق الحديث ، ووفاء العهد ، وأداء الأمانة ، وترك الخيانة ، ورحم اليتيم ، وحفظ الجوار ، وكظم الغيظ ، ولين الكلام ، وبذل السلام ، ولزوم الإمام ، والتفقه فى القرآن ، وحب الآخرة ، والجزع من الحساب ، وقصر الأمل ، وحسن العمل . وأنهاك أن تشتم مسلمًا ، أو تصدق كاذبًا ، أو تكذب صادقًا ، وتعصى إمامًا عادلاً ، وأن تفسد فى الأرض . يا معاذ اذكر الله عند كل شجر وحجر ، وأحدث لكل ذنب توبة، السر بالسر ، والعلانية بالعلانية » .

والأصفهانى : « إذا تاب العبد من ذنوبه أنسى الله حفظته ذنوبه وأنسى ذلك جوارحه ومعالمه من الأرض ،حتى يلقى الله يوم القيامة وليس عليه شاهد من الله بذنب » .

والأصفهانى أيضًا : « النادم ينتظر من الله الرحمة ، والمعجب ينتظر المقت . واعلموا عباد الله أن كل عامل سيقدم على عمله ، ولا يخرج من الدنيا حتى يرى حسن عمله وسوء عمله ، وإنما الأعمال بخواتيمها ، والليل والنهار مطيتان ، فأحسنوا السير عليهما إلى الآخرة ، واحذروا التسويف ، فإن الموت يأتى بغتة ، ولا يغترن أحدكم بحلم الله عز وجل ، فإن النار أقرب إلى أحدكم من شراك نعله » . ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ** ﴾ [الزلزلة : ٧ـ٨] .

والطبرانى بسند صحيح لكن فيه انقطاع : « التائب من الذنب كمن لا ذنب له » . ورواه البيهقى من طريق آخر ، وزاد : « والمستغفر من الذنب وهو مقيم عليه كالمستهزئ بربه». وابن حبان فى صحيحه والحاكم وصححه : « الندم توبة » . أى أنه معظم أركانها كخبر : « الحج عرفة » .

ولابد فى الندم أن يكون من حيث المعصية وقبحها وخوف عقابها بخلافه ، لنحو هتك أو ضياع مال على المعصية ، أو نحو ذلك .

والحاكم وصححه لكن فيه ساقط : « ما علم الله من عبد ندامة على ذنب إلا غفر له قبل أن يستغفر منه » .

ومسلم وغيره : « والذى نفسى بيده لو لم تذنبوا وتستغفروا لذهب الله

بكم ولجاء بقوم غيركم يذنبون ويستغفرون الله فيغفر لهم » .

ومسلم : « ليس أحد أحب إليه المدح من الله ؛ من أجل ذلك مدح نفسه . وليس أحد أغْيَرَ من الله ؛ من أجل ذلك حرّم الفواحش ، وليس أحد أحب إليه العذر من الله ؛ من أجل ذلك أنزل الكتاب وأرسل الرسل ».

ومسلم : أن امرأة من جهينة أتت رسول الله ﷺ وهى حبلى من الزنا، فقالت : يا رسول الله أصبت حدا فأقمه عليّ ، فدعا نبي الله ﷺ وليها ، فقال : « أحسن إليها ، فإذا وضعت فأتنى بها » ففعل ، فأمر بها نبى الله ﷺ فشدت عليها ثيابها ، ثم أمر بها فرجمت ، ثم صلى عليها ، فقال عمر : تصلى عليها يا رسول الله وقد زنت ؟ قال ﷺ : « لقد تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم ، وهل وجدت أفضل مما جادت بنفسها لله عز وجل ؟ » .

والترمذى حسنه وابن حبان فى صحيحه والحاكم وصححه عن ابن عمر رضى الله عنهما ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يحدث حديثًا لو لم أسمعه إلا مرّة أو مرتين حتى عد سبع مرات ، ولكن سمعته أكثر ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « كان الكفل من بنى إسرائيل لا يتورع من ذنب عمله ، فأتته امرأة فأعطاها ستين دينارًا على أن يطأها ، فلما قعد منها مقعد الرجل من امرأته ، أرعدت وبكت ، فقال : ما يبكيك ؟ أكرهتك ؟ قالت : لا ، ولكنه عمل ما عملته قط ، وما حملنى عليه إلا الحاجة . فقال : تفعلين أنت هذا وما فعلته قط ؟ اذهبى فهى لك . وقال : لا والله لا أعصى بعدها أبدًا ، فمات من ليلته ، فأصبح مكتوبًا على بابه : إن الله قد غفر للكفل ».

وصح عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : كانت قريتان إحداهما صالحة والأخرى طالحة ، فخرج رجل من القرية الطالحة يريد القرية الصالحة، فأتاه الموت حيث شاء الله فاختصم فيه الملك والشيطان . فقال : الشيطان : والله ما عصانى قط ، وقال الملك : إنه قد خرج يريد التوبة ، فقضى الله بينهما أن يُنظر إلى أيهما أقرب فوجدوه أقرب إلى القرية الصالحة بشبر ، فغفر له ، قال معمر : وسمعت من يقول : قرب الله إليه القرية الصالحة .

والشيخان[1] : «كان فى من كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسًا ، فسأل عن أعلم أهل الأرض ، فدل على راهب ، فأتاه ، فقال له: إنه قتل تسعة وتسعين نفسًا ، فهل له من توبة ؟ فقال : لا ، فقتله ، فكمل به المائة، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض ، فدل على رجل عالم، فقال إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة ؟ فقال : نعم ، ومن يحول بينك وبين التوبة ، انطلق إلى أرض كذا وكذا ، فإن بها أناسًا يعبدون الله فاعبد الله معهم ، ولا ترجع إلى أرضك، فإنها أرض سوء ، فانطلق ، حتى إذا بلغ نصف الطريق أتاه ملك الموت ، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، فقالت ملائكة الرحمة : جاء تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله تعالى ، وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيرًا قط ، فأتاهم ملك فى صورة آدمى ، فجعلوه بينهم ، فقال : قيسوا ما بين الأرضين ، فإلى أيتهما هو أدنى كان له ، فقاسوها فوجدوه أدنى إلى الأرض التى أراد فقبضته ملائكة الرحمة » .

وفى رواية : « فكان إلى القرية الصالحة أقرب بشبر ، فجعل من أهلها» . وفى رواية : «أوحى الله تعالى إلى هذه : أن تباعدى ، وإلى هذه: أن تقربى . وقال : قيسوا ما بينهما ، فوجدوه إلى هذه أقرب بشبر ، فغفر له » . وفى رواية : قال قتادة : قال الحسن : ذكر لنا أنه لما أتاه ملك الموت ، ناء بصدره نحوها .

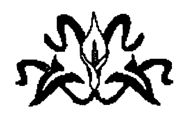
والطبرانى بسند جيد : « أن رجلاً أسرف على نفسه فلقى رجلاً فقال : إن الآخر قتل تسعة وتسعين نفسًا كلهم ظلمًا ، فهل تجد لى من توبة ؟ فقال: إن حدثتك أن الله لا يتوب على من تاب كذبتك ، ههنا قوم يتعبدون، فإليهم تعبد الله معهم ، فتوجه إليهم فمات على ذلك ، فاختصمت ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، فبعث الله إليهم ملكًا ، فقال: قيسوا ما بين المكانين ، فأيهم كان أقرب فهو منهم ، فوجدوه هو أقرب إلى دير التوابين بأنملة، فغفر له» .

وفى رواية له : « ثم أتى راهبًا آخر ، فقال : إنى قتلت مائة نفس ،

---

(١) أي البخاري ومسلم ــ رحمهما الله .

فهل تجد لى من توبة؟ فقال: أسرفت. ما أدرى ؟ ولكن هنا قريتان قرية يقال لها : نصرة ، والأخرى يقال لها: كفرة ، فأما أهل نصرة فيعملون عمل أهل الجنة لا يثبت فيها غيرهم ، وأما أهل كـفرة فيعملون عمل أهل النار لا يثبت فيها غيرهم ، فانطلق إلى نصرة فـإن ثبت فيها وعملت عمل أهلها فلا شك فى توبتك ، فـانطلق يريدها حتى إذا كـان بين أهل القريتـين أدركه الموت ، فسألت الملائكة ربها عنه، فقال: انظروا إلى أى القريـتين كان أقرب، فاكتبوه من أهلها ، فوجدوه أقرب إلى نصرة بقيد أنملة ، فكتب من أهلها » .



الباب الرابع والخمسون .. في

بيان النهى عن الظلم

قال الله تعالى : ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء : ٢٢٧] ، وقال ﷺ : « الظلم ظلمات يوم القيامة » .

وقال ﷺ : « من ظلم شبرًا من أرض طوقه الله من سبع أرضين يوم القيامة » . وفى بعض الكتب يقول الله تعالى : « اشتد غضبى على من ظلم من لا يجد له ناصرًا غيرى » .

وما أحسن قول بعضهم :

لا تظلمن إذا ما كنت مقتدرًا   فالظلم يرجع عقباه إلى الندم
تنام عيناك والمظلوم منتبه   يدعو عليك وعين الله لم تنم

وقول الآخر :

إذا ما الظلوم استوطأ الأرض مركبا   ولج غلوا فى قبيح اكتسابه
فكله إلى صرف الزمان فإنه   سيبدى له ما لم يكن فى حسابه

وقال بعض السلف : لا تظلم الضعفاء فتكون من شرار الأقوياء .

وقال أبو هريرة رضى الله عنه : إن الحبارى لتموت هولاً فى وكرها من ظلم ظالم .

وقيل : مكتوب فى التوراة : ينادى مناد من وراء الجسر - يعنى الصراط - يا معشر الجبابرة الطغاة ، ويا معشر المترفين الأشقياء ، إن الله يحلف بعزته أن لا يجاوز هذا الجسر اليوم ظلم ظالم .

وعن جابر رضى الله عنه قال : لما رجعت مهاجرة الحبشة إلى رسول الله ﷺ قال : « ألا تخبرونى عن أعجب ما رأيتم فى أرض الحبشة ؟ » ، فقال قتيبة - وكان منهم - : يا رسول الله ، بينما نحن قومًا جلوس ، إذ مرت بنا عجوز من عجائزهم ، تحمل على رأسها قلة من ماء ، فمرت بفتى

منهم فجعل إحدى يديه بين كتفيها ، ثم دفعها ، فخرت المرأة على ركبتيها ، وانكسرت قلتها ، فلما قامت التفتت إليه ثم قالت : سوف تعلم يا غدار ، إذا وضع الله الكرسى فجمع الأولين والآخرين وتكلمت الأيدى والأرجل بما كانوا يكسبون ، سوف تعلم ما أمرى وأمرك عنده غدًا، قال : فقال ﷺ : «كيف يقدس الله قومًا لا يؤخذ من شديدهم لضعيفهم ؟ » .

وروى عن رسول الله عليه الصلاة والسلام أنه قال : « خمسة غضب الله عليهم إن شاء أمضى غضبه عليهم فى الدنيا ، وإلا ثوى بهم فى الآخرة إلى النار : أمير قوم يأخذ حقه من رعيته ولا ينصفهم من نفسه ولا يدفع الظلم عنهم ، وزعيم قوم يطيعونه ولا يسوى بين القوى والضعيف ويتكلم بالهوى ، ورجل لا يأمر أهله وولده بطاعة الله ولا يعلمهم أمر دينهم ، ورجل استأجر أجيرًا فاستعمله ولم يوفه أجره ، ورجل ظلم امرأة فى صداقها» .

وعن عبد الله بن سلام رضى الله عنه أنه قال : « إن الله تعالى لما خلق الخلق واستووا على أقدامهم رفعوا رؤوسهم إلى الله ، وقالوا : يا رب مع من أنت ؟ قال : مع المظلوم حتى يؤدى إليه حقه » .

وعن وهب بن منبه رضى الله عنه : بنى جبار من الجبابرة قصرًا وشيده، فجاءت عجوز فقيرة ، فبنت إلى جانبه شيئًا تأوى إليه ، فركب الجبار يومًا وطاف حول القصر ، فرأى بناءها ، فقال : لمن هذا ؟ فقيل : لامرأة فقيرة تأوى إليه ، فأمر بهدمه فهدم ، فجاءت العجوز فرأته مهدومًا ، فقالت : من هدمه ؟ فقيل لها : الملك رآه فهدمه ، فرفعت العجوز رأسها إلى السماء ، وقالت : يا رب أنا لم أكن حاضرة فأنت أين كنت ؟ قال : فأمر الله عز وجل جبريل أن يقلب القصر على من فيه . وقيل : لما حبس بعض البرامكة قال له ولده : يا أبت بعد العز صرنا فى القيد والحبس ، قال يا بنى دعوة مظلوم سرت بليل غفلنا عنها ولم يغفل الله عز وجل عنها .

وكان يزيد بن حكيم يقول : ما هبت أحدًا قط هيبتى رجلاً ظلمته ، وأنا أعلم أنه لا ناصر له إلا الله ، يقول لى : حسبى الله بينى وبينك .

وعن أبى أمامة رضى الله عنه قال : «يجىء الظالم يوم القيامة حتى إذا

كان على جسر جهنم ولقيه المظلوم وعرف فيما ظلمه، فما يبرح الذين ظلموا حتى ينزعوا ما بأيديهم من الحسنات، فإن لم يجدوا لهم حسنات حملوا عليهم من سيئاتهم، مثل ما ظلموهم، حتى يردوا الدرك الأسفل من النار» .

وعن عبد الله بن أنيس قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يحشر العباد يوم القيامة حفاة عراة ، فيناديهم مناد بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب: أنا الملك الديان لا ينبغى لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة وأحد من أهل النار يطلبه بمظلمة حتى اللطمة فما فوقها ، ولا ينبغى لأحد من أهل النار أن يدخل النار وعنده مظلمة حتى اللطمة فما فوقها ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف : ٤٩] قلنا : يا رسول الله كيف وإنما نأتى حفاة عراة ؟ قال : « بالحسنات والسيئات جزاء وفاقًا ، ولا يظلم ربك أحدًا » .

وعنه ﷺ أنه قال : « من ضرب سوطًا ظلمًا اقتص منه يوم القيامة » .

ومما ذكر أن كسرى استحضر مؤدبًا لولده يعلمه ويؤدبه ، فلما بلغ الولد الغاية فى الفضل والأدب ، استحضره المؤدب يومًا وضربه ضرباً وجيعًا ، من غير جرم ولا سبب ، فحقد الولد على المعلم إلى أن كبر ومات أبوه ، فتولى الملك بعده ، فاستحضر المعلم وقال له : ما حملك على أن ضربتنى فى يوم كذا ضربًا وجيعًا من غير جرم ولا سبب ؟ فقال له المعلم : اعلم أيها الملك أنك لما بلغت الغاية فى الفضل والأدب . علمت أنك تنال الملك بعد أبيك ، فأردت أن أذيقك طعم الضرب وألم الظلم ، حتى لا تظلم أحدًا بعد ، فقال له : جزاك الله خيرًا ، ثم أمر له بجائزة وصرفه .



الباب الخامس والخمسون .. في

النهى عن ظلم اليتيم

قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ [النساء : ١٠] ، قال قتادة : نزلت فى رجل من غطفان ولى مال ابن أخيه ، وهو صغير يتيم ، فأكله ، وقوله «ظلمًا » أى لأجله ، أو حال كونهم ظالمين ، وخرج أكلها بحق . كأكل الولى بشروطه المقررة فى كتب الفقه ، قال تعالى : ﴿ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ [النساء : ٦] أى بمقدار الحاجة فحسب ، أو بأن يأخذ قرضًا أو بقدر أجرة عمله ، أو إن اضطر فإن أيسر قضاه ، وإلا فهو فى حل .وقد نبه الله تعالى على تأكيد حق الأيتام ومزيد الاعتناء به بقوله بعد هذه الآية: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ [النساء : ٩] إذ المراد بشهادة السياق ــ خلافًا لمن حمل الآية على أنها فى الوصية بأكثر من الثلث أو نحو ذلك ــ الحمل لمن كان فى حجره يتيم على أن يحسن إليه، حتى فى الخطاب، فلا يخاطبه إلا بنحو : «يا بنى» . مما يخاطب به أولاده ، ويفعل معه من البر والمعروف والإحسان والقيام فى ماله ، ما يحب أن يفعل بماله وبذريته من بعده ، فإن الجزاء من جنس العمل ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ [الفاتحة : ٤] أى الجزاء . كما تدين تدان ، أى كما تفعل يفعل معك .

بينما الإنسان آمن متصرف فى مال الغير وعلى أولاد غيره، وإذا بالموت قد حل به ، فيجزيه الله تعالى فى ماله وذريته وعياله وسائر متعلقاته بنظير ما فعله مع غيره،إن خيراً فخير،وإن شرا فشر،فليخش العاقل على أولاده وماله إن لم يكن له خشية على دينه، ويتصرف على الأيتام الذين فى حجره بما يحب أن يتصرف ولى أولاده لو كانوا أيتامًا عليهم فى ماله .

وجاء : أن الله تعالى أوحى إلى داود صلى الله على نبينا وعليه

وسلم: يا داود كن لليتيم كالأب الرحيم، وكن للأرملة كالزوج الشفيق، واعلم أنك كما تزرع كذا تحصد، أى كما تفعل يفعل معك، إذ لابد أن تموت ويبقى لك ولد يتيم، وامرأة أرملة . وجاء فى التشديد فى أموال اليتامى والظلم فيها أحاديث كثيرة موافقة لما فى الآية من ذلك الوعيد الشديد ، تحذيرًا للناس عن هذه الفاحشة الوخيمة المهلكة. أخرج مسلم وغيره: «يا أبا ذر إني أراك ضعيفًا، وإنى أحب لك ما أحب لنفسى، لا تأمرن على اثنين، ولا تَلِيَنَّ مال يتيم » .

والشيخان وغيرهما : « اجتنبوا السبع الموبقات ـ أى المهلكات ـ قالوا: يا رسول الله وما هن ؟ قال : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم » الحديث .

والبزار : « الكبائر سبع : الإشراك بالله ، وقتل النفس بغير حق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم » الحديث .

والحاكم وصححه: «أربع حق على الله أن لا يدخلهم الجنة ولا يذيقهم نعيمها: مدمن خمر، وآكل الربا، وآكل مال اليتيم بغير حق، والعاق لوالديه» .

وابن حبان فى صحيحه أن من جملة كتابه ﷺ الذى أرسله مع عمرو بن حزم إلى أهل اليمن: «وإن أكبر الكبائر عند الله يوم القيامة الإشراك بالله، وقتل النفس المؤمنة بغير حق، والفرار من الجهاد فى سبيل الله يوم الزحف ، وعقوق الوالدين، ورمى المحصنة، وتعلم السحر، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم».

وأبو يعلى : « يبعث يوم القيامة قوم من قبورهم تأجج أفواههم نارًا » فقيل : من هم يا رسول الله ؟ قال : ألم تر أن الله يقول : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا** ﴾ [النساء : ١٠] .

وفى حديث المعراج عند مسلم : « فإذا أنا برجال قد وكل بهم رجال يفركون لحاهم ، وآخرون يجيئون بالصخور من النار فيقذفونها فى أفواههم ، فتخرج من أدبارهم ، فقلت : يا جبريل من هؤلاء ؟ قال : الذين يأكلون أموال اليتامى ظلمًا إنما يأكلون فى بطونهم نارًا » .

وفى تفسير القرطبى : عن أبى سعيد الخدرى عن النبى ﷺ أنه قال : « رأيت ليلة أسرى بى قومًا لهم مشافر كمشافر الإبل ، وقد وُكِّلَ بهم من يأخذ مشافرهم ، ثم يجعل فى أفواههم صخرًا من نار تخرج من أسافلهم ، فقلت : يا جبريل من هؤلاء ؟ قال : الذين يأكلون أموال اليتامى ظلمًا » .

الباب السادس والخمسون ..في

بيان ذم الكبر

نذكر مما ورد في ذم الكبر زيادة على ما تقدم ؛ لشؤمه وسوء عاقبته ، فهو أول معصية وقعت من إبليس فلعنه الله وطرده من جنة عرضها السموات والأرض إلى عذاب السعير :

ففي الحديث القدسي : « الكبرياء ردائي ، والعظمة إزاري ، فمن نازعني في واحد منهما قصمته ولا أبالي » .

وورد : « يحشر المتكبرون أمثال الذر ، في صور الرجال ، يغشاهم الذل من كل مكان ، ويسقون من طينة الخبال ، وهي عصارة أهل النار » .

وقال ﷺ : « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولهم عذاب أليم : شيخ زان ، وملك جائر ، وعائل مستكبر » .

وعن عمر رضي الله عنه أنه قرأ قوله تعالى : ﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ** ﴾ [البقرة : ٢٠٦] فقال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، قام رجل يأمر بالمعروف فقتل ، فقام آخر فقال : تقتلون الذين يأمرون بالمعروف؟ فقتل المتكبر الذي خالفه والذي أمره كبرًا .

وقال ابن مسعود : كفى بالرجل إثمًا إذا قيل له : اتق الله ، قال : عليك نفسك .

وقال ﷺ لرجل : «كل بيمينك » . قال : لا أستطيع ، فقال النبي ﷺ : « لا استطعت » . فما منعه إلا كبره ، قال : فما رفعها بعد ذلك ــ أي اعتلت يده ــ.

وروى ثابت بن قيس بن شماس ، قال : يا رسول الله إني امرؤ حبب إليّ من الجمال ما ترى ، أفمن الكبر هو ؟ فقال ﷺ : « لا ، ولكن الكبر بطر الحق وغمط الناس » ، أي ازدراؤهم واستحقارهم وهم عباد الله أمثاله أو خير منه » .

وقال وهب بن منبه: لما قال موسى عليه السلام لفرعون: آمن ولك ملكك ، قال : حتى أشاور هامان فشاور هامان ، فقال هامان : بينما أنت رب تُعْبَد إذ أنت عبد تَعْبُد ، فاستنكف عن عبوديته ، وعن اتباع موسى ؛ فأغرقه الله . وقالت قريش فيما أخبر الله عنهم : ﴿ وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف : ٣١] .

قال قتادة : عظيم القريتين: هو الوليد بن المغيرة، وأبو مسعود الثقفى، طلبوا من هو أعظم رئاسة من النبى ﷺ إذ قالوا : غلام يتيم كيف بعثه الله إلينا ؟ فقال تعالى : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾ [الزخرف:٣٢]، ثم أخبرهم الله عن تعجبهم حين دخلوا النار، إذ لم يروا فيها الذين ازدروهم ، كأهل الصفة ، فقالوا : ﴿ مَا لَنَا لا نَرَىٰ رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الأَشْرَارِ ﴾ [ص : ٦٢] قيل: يعنون عماراً وبلالاً وصهيبًا والمقداد رضى الله عنهم .

قال وهب رضى الله عنه: العلم كالغيث ينزل من السماء حلوًا صافيًا، فتشربه الأشجار بعروقها، فتحوله على قدر طعومها، فيزداد المر مرارة، والحلو حلاوة، فكذلك العلم تحفظه الرجال على قدر هممها وأهوائها، فيزيد المتكبر كبرًا، والمتواضع تواضعًا؛وذلك لأن من كانت همته الكبر وهو جاهل فإذا حفظ العلم وجد ما يتكبر به،فازداد كبرًا، وإذا كان الرجل خائفًا مع جهله ، فازداد علمًا، علم أن الحجة قد تأكدت عليه، فيزداد خوفًا وإشفاقًا وتواضعًا، ولذلك قال ﷺ فيما رواه العباس رضى الله عنه : « يكون قوم يقرؤن القرآن لا يجاوز حناجرهم ، يقولون : قد قرأنا القرآن فمن أقرأ منا ومن أعلم ؟ ثم التفت إلى أصحابه،وقال: أولئك منكم أيها الأمة، أولئك هم وقود النار» . وقال عمر رضى الله عنه : لا تكونوا جبابرة العلماء ، فلم يف علمكم بجهلكم .

روى أن رجلاً من بنى إسرائيل يقال له : « خليع بنى إسرائيل » ؛ لكثرة فساده . مرّ برجل آخر يقال له : « عابد بنى إسرائيل » ، وكان على رأس العابد غمامة تظله ، فلما مرّ الخليع به ، قال الخليع فى نفسه : أنا

خليع بنى إسرائيل وهذا عابد بنى إسرائيل ، فلو جلست إليه لعل الله يرحمنى ، فجلس إليه ، فقال العابد : أنا عابد بنى إسرائيل وهذا خليع بنى إسرائيل، فكيف يجلس إلىّ ؟ فأنف منه ، وقال له : قم عنى فأوحى الله إلى نبى ذلك الزمان: مرهما فليستأنفا العمل ، فقد غفرت للخليع ، وأحبطت عمل العابد . وفى رواية أخرى : «فتحولت الغمامة إلى رأس الخليع » ، وهذا يعرفك أن الله تعالى إنما يريد من العباد قلوبهم .

وروى أن رجلاً ذكر بخير للنبى ﷺ فأقبل ذات يوم ، فقالوا : يا رسول الله هذا الذى ذكرناه لك . فقال : « إنى أرى فى وجهه سفعة من الشيطان » . فسلم ووقف على النبى ﷺ فقال له النبى ﷺ : « أسألك بالله حدثتك نفسك أن ليس فى القوم أفضل منك ؟ » ، قال : اللهم نعم ، فرأى رسول الله ﷺ بنور النبوة ما استكن فى قلبه سفعة فى وجهه .

قال الحرث بن جزء الزبيدى صاحب رسول الله ﷺ : يعجبنى من القراء كل مضحاك ، فأما الذى تلقاه ببشر ويلقاك بعبوس ، ويمن عليك بعلمه ، فلا أكثر الله فى المسلمين مثله .

روى عن أبى ذر رضى الله عنه أنه قال : قاولت رجلاً عند النبى ﷺ فقلت له : يا ابن السوداء ، فقال النبى ﷺ : « يا أبا ذر طف الصاع ، طف الصاع[1] ، ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل » ، فقال أبو ذر رحمه الله : فاضطجعت ، وقلت للرجل : قم فطأ على خدى.

وقال علىّ كرم الله وجهه : من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل النار ، فلينظر إلى رجل قاعد وبين يديه قوم قيام . وقال أنس : لم يكن شخص أحب إلى أصحابه من رسول الله ﷺ وكانوا إذا رأوه لم يقوموا له ؛ لما يعلمون من كراهته لذلك . وكان رسول الله ﷺ فى بعض الأوقات يمشى مع بعض الأصحاب ، فيأمرهم بالتقدم ويمشى فى غمارهم ؛ إما لتعليم غيره أو لينفى عن نفسه وساوس الشيطان بالكبر والعجب ، كما أخرج الثوب الجديد فى الصلاة ، وأبدله بالخليع ، لأحد هذين المعنيين .

(١) أي فاض الكيل .

الباب السابع والخمسون ..في

بيان فـضـل التواضع والقناعة

قال رسـول الله ﷺ : « ما زاد الله عبـداً بعفو إلا عـزا ، وما تواضع حد لله إلا رفعه » .

وقال ﷺ : « ما من أحد إلا ومعه ملكان ، وعليه حكمة يمسكانه بها فإن هو رفع نفسه جبذاها ، ثم قـالا : اللهم ضعه ، وإن وضع نفسه قالا : اللهم ارفعه » .

وقال ﷺ : « طوبى لمن تواضع فى غير مسكنة ، وأنفق مالاً جمعه فى غير معصية ، ورحم أهل الذل والمسكنة ، وخالط أهل الفقه والحكمة » .

وروى أن النبى ﷺ كان فى نفـر من أصحابـه فى بيته يأكلون ، فـقام سائل على الباب وبه زمـانة يتكره منها(١) ، فأذن له فلما دخـل أجلسه رسول الله ﷺ على فخذه ، ثم قال له : «أطعم » ، فكأن رجـلاً من قريش اشمأز منه وتكرهه ، فما مات ذلك الرجل حتى كانت به زمانة مثلها .

وقال ﷺ : « خـيّرنى ربى بين أمرين : أكون عبـداً رسولاً ، أو ملكًا نبيا ، فلم أدر أيهما أختار . وكان صفيّى من الملائكة جبريل ، فرفعت رأسى إليه ، فقال : تواضع لربك ، فقلت : عبداً رسولاً » .

وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام : إنما أقبل صلاة من تواضع لعظمتى، ولم يتعاظم على خلقى ، وألزم قلبه خوفى .

وقال ﷺ : « الكرم التقوى ، والشرف التواضع ، واليقين الغنى » .

وقال المسيح عليه السلام : طوبى للمتواضعين فى الدنيا ، هم أصحاب المنابر يوم القيامة، طوبى للمصلين بين الناس فى الدنيا ، هم يرثون الفردوس يوم القيامة ، طوبى للمطـهرة قلوبهم فى الدنيا ، هم الذين ينظرون إلى الله تعالى يوم القيامة .

---

(١) أي مرض شديد يستنكف منه .

وقال بعضهم : بلغنى أن النبى ﷺ قال : « إذا هدى الله عبدًا للإسلام حسن صورته وجعله فى موضع غير شائن له ورزقه مع ذلك تواضعًا فذلك من صفوة الله » .

وقال ﷺ : « أربع لا يعطيهن الله إلا من أحب : الصمت وهو أول العبادة ، والتوكل على الله ، والتواضع ، والزهد فى الدنيا » .

ويروى أن رسول الله ﷺ كان يطعم فجاء رجل أسود به جدرى قد تقشر ، فجعل لا يجلس إلى أحد إلا قام من جنبه ، فأجلسه النبى ﷺ إلى جنبه .

وقال ﷺ : « إنه ليعجبنى أن يحمل الرجل الشىء فى يده ، يكون مهنة لأهله ، يدفع به الكبر عن نفسه » .

وقال ﷺ لأصحابه يومًا : « ما لى لا أرى عليكم حلاوة العبادة؟ » قالوا: وما حلاوة العبادة ؟ قال : «التواضع» .

وقال : « إذا رأيتم المتواضعين من أمتى ، فتواضعوا لهم ، وإذا رأيتم المتكبرين فتكبروا عليهم ؛ فإن ذلك مذلة لهم وصغار » .

ومن أحسن ما قيل :

تواضع تكن كالنجم لاح لناظر ... على صفحات الماء ، وهو رفيع
ولا تك كالدخان يعلو بنفسه ... على طبقات الجو وهو وضيع

ومما جاء فى فضل القناعة ــ زيادة على ما تقدم ــ :

قال ﷺ : « عزّ المؤمن استغناؤه عن الناس » . ففى القناعة الحرية والعز . ولذلك قيل : استغن عمن شئت تكن نظيره ، واحتج إلى من شئت تكن أسيره ، وأحسن إلى من شئت تكن أميره ، قليل يكفيك خير من كثير يطغيك . وقال بعضهم : ما رأيت غنى أفضل من القناعة ، ولا فقرا أشد من الرغبة ، وأنشد :

أفادتنى القناعة ثوب عز ... وأى غنى أعز من القناعه ؟
فصيرها لنفسك رأس مال ... وصير بعدها التقوى بضاعه
تجد ربحين تغنى عن خليل ... وتنعم فى الجنان بصبر ساعه

وقال آخر :

اقنع النفس بالكفاف وإلا طلبت منك فوق ما يكفيها
إنما أنت طول عمرك ما عمرت فى الساعة التى أنت فيها

وقال آخر :

إذا الرزق عنك نأى فاصطبر ومنه اقنع بالذى قد حصل
ولا تتعب النفس فى تحصيله فإن كان ثم نصيب وصل

وقال آخر :

إذا أعطشتك أكف اللئام كفتك القناعة شبعًا وريا
فكن رجلاً رجله فى الثرى وهامة همته فى الثريا

وقال آخر :

يا طالب الرزق الهنى بقوة هيهات أنت بباطل مشغوف
رعت الأسود بقوة جيف الفلا ورعى الذباب الشهد وهو ضعيف

وكان رسول الله ﷺ إذا أصابته خصاصة قال لأهله : « قوموا إلى الصلاة » ، ويقول : « أمرت بهذا » ، ويقرأ : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾ [طه : ١٣٢] الآية .

وأنشدوا :

دع التهافت فى الدنيا وزينتها ولا يغرنك الإكثار والجشع
واقنع بما قسم الرحمن وارض به إن القناعة مال ليس ينقطع
وخلِّ ويك فضول العيش أجمعها فليس فيها إذا حققت منتفع

ولبعضهم :

اقنع بما تلقى بلا بلغة فليس ينسى ربنا النمله
إن أقبل الدهر فقم قائمًا وإن تولى مدبرًا نم له

ومن كلام الحكماء : ليست العزة فى حسن البزة ، فإن التنعم بلبس الثياب والتجمل بحسن الزى يشغل العبد ، حتى لا يعبأ بشىء من أمر دينه ميلاً لدنياه ، وقلما يخلو صاحبه من العجب وأنشد بعضهم :

رضيت من الدنيا بلقمة بائس ولبس عباء لا أريد سواهما
لأنى رأيت الدهر ليس بدائم فدهرى وعمرى فانيان كلاهما

الباب الثامن والخمسون.. في

بيان غرور الدنيا

جميع أحوال الدنيا مصروفة إلى ما يسوء ويسر ، فليست مساعدة لجميع أهلها ، وإنما هي متلونة على ما اقتضته حكمة الحكيم . قال سبحانه: ﴿ وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ﴾ [هود :١١٨-١١٩] قال بعض المفسرين : مختلفين في الرزق ، يريد إختلافهم في الغنى والفقر ، فمن الواجب على من ساعدته دنياه وأخدمها له مولاه، أن يتلقى ذلك بشكره ، ويتوجه إليه بصنائع المعروف فإنها تقي مصارع السوء ، ولا يغتر بدنياه وكفى بقوله تعالى : ﴿ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾ [لقمان:٣٣] ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ ﴾ [الحديد : ١٤] الآية . تنفيرًا عن الغرور بها .

وقال ﷺ : « حبذا نوم الأكياس ، وفطرهم ، كيف يغبطون سهر الحمقى ، واجتهادهم ، ولمثقال ذرة من صاحب تقوى ويقين أفضل من ملء الأرض من المغترين » .

وقال ﷺ : « الكيِّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني » .

وقال الشاعر :

ومن يحمد الدنيا لشيء يسره ... فسوف لعمري عن قليل يلومها
إذا أدبرت كانت على المرء حسرة ... وإن أقبلت كانت كثيرًا همومها

وقال آخر :

تالله لو كانت الدنيا بأجمعها ... تبقى علينا ويأتي رزقها رغدا
ما كان في حق حر أن يدل لها ... فكيف وهي متاع يضمحل غدا

وأنشد ابن بسام :

أف للدنيا وأيامها ... فإنها للحزن مخلوقه

همومها لا تنقضي ساعة … عن ملك فيها ولا سوقه
يا عجبًا منها ومن شأنها … عدوة للناس معشوقه

وأنشد آخر :

وقائلة : أرى الأيام تعطى … لئام الناس من رزق حثيث
وتمنع من له شرف وفضل … فقلت لها : خذى أصل الحديث
رأت حمل المكاسب من حرام … فجادت بالخبيث على الخبيث

وأنشد آخر أيضًا :

سل الأيام ما فعلت بكسرى … وقيصر والقصور وساكنيها
أما استدعتهم للبين طرا … فلم تدع الحليم ولا السفيها

وحكى أن أعرابيا نزل بقوم، فقدموا إليه طعامًا، فأكل، ثم نام فى ظل خيمتهم ، فاقتلعوا الخمية، فأصابه حر الشمس، فانتبه، فارتحل وهو يقول :

ألا إنما الدنيا كظل بنيته … ولا بد يومًا أن ظلك زائل

وقال أيضًا :

ألا إنما الدنيا مقيل لراكب … قضى وطراً من منزل ثم هجرا

وقال بعض الحكماء لصاحب له : قد أسمعك الداعى ، وأعذر إليك الطالب ، ولا أحد أعظم رزية ممن ضيع اليقين وأخطأ العمل .

وقال ابن مسعود: كفى بخشية الله غما، وكفى بالاغترار بالله جهلاً .

وقال رسول الله ﷺ : « من أحب الدنيا وسر بها ، ذهب خوف الآخرة من قلبه » . وقال بعضهم : إن العبد يحاسب على التحزن على ما فاته من الدنيا ، ويحاسب بفرحه فى الدنيا إذا قدر عليها . ولقد كان السلف الصالح فيما أحل لهم أزهد منكم فيما حرم عليكم ، إن الذى لا بأس به عندكم كان من الموبقات عندهم . وكان عمر بن عبد العزيز كثيراً ما يتمثل بهذه الأبيات ، وهى لمسعر بن كدام :

نهارك يا مغرور نوم وغفلة … وليلك نوم والردى لك لازم
يغرك ما يفنى وتفرح بالمنى … كما غرّ باللذات فى النوم حالم
وشغلك فيها سوف تكره غبه … كذلك فى الدنيا تعيش البهائم

الباب التاسع والخمسون ..في

بيان ذم الدنيا والتحذير منها

روى عن أبى أمامة الباهلى : أن ثعلبة بن حاطب قال : يا رسول الله ادع الله أن يرزقنى مالاً ، قال : « يا ثعلبة قليل تؤدى شكره ، خير من كثير لا تطيقه » . قال : يا رسول الله ادع الله أن يرزقنى مالاً ، قال : « يا ثعلبة، أما لك فىّ أسوة ؟ أما ترضى أن تكون مثل نبى الله تعالى ؟ أما والذى نفسى بيده لو شئت أن تسير معى الجبال ذهبًا وفضة لسارت » . قال : والذى بعثك بالحق نبيا ، لئن دعوت الله أن يرزقنى مالاً لأعطين كل ذى حق حقه ، ولأفعلن ولأفعلن ، قال رسول الله ﷺ : « اللهم ارزق ثعلبة مالاً».

فاتخذ غنمًا ، فنمت كما ينمو الدود ، فضاقت عليه « المدينة » فتنحى عنها فنزل واديًا من أوديتها ، حتى جعل يصلى الظهر والعصر فى الجماعة ، ويدع ما سواهما ، ثم نمت وكثرت فتنحى حتى ترك الجماعة إلا الجمعة ، وهى تنمو كما ينمو الدود ، حتى ترك الجمعة ، وطفق يلقى الركبان يوم الجمعة ، فيسألهم عن الأخبار فى المدينة .

وسأل رسول الله ﷺ عنه فقال : « ما فعل ثعلبة بن حاطب ؟ » . فقيل : يا رسول الله اتخذ غنمًا ، فضاقت عليه المدينة ، وأُخبر بأمره كله ، فقال : « يا ويح ثعلبة ، يا ويح ثعلبة ، يا ويح ثعلبة » ، قال : وأنزل الله تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ﴾ [التوبة : ١٠٣] ، وأنزل الله تعالى فرائض الصدقة ، فبعث رسول الله ﷺ رجلاً من جهينة ورجلاً من بنى سليم على الصدقة ، وكتب لهم كتابًا بأخذ الصدقة ، وأمرهما أن يخرجا فيأخذا الصدقة من المسلمين ، وقال : « مُراَّ بثعلبة بن حاطب ، وبفلان رجل من بنى سليم ، وخذا صدقاتهما » .

فخرجا حتى أتيا ثعلبة فسألاه الصدقة ، وأقرآه كتاب رسول الله ﷺ فقال : ما هذه إلا جزية ، ما هذه إلا جزية ، ما هذه إلا أخت الجزية . انطلقا حتى تفرغا ثم تعودا إليَّ ، فانطلقا نحو السليمى ، فسمع بهما ، فقام إلى أخيار أسنان إبله ، فعزلها للصدقة ، ثم استقبلهما بها ، فلما رأوها قالا: لا يجب عليك ذلك ، وما نريد أن نأخذها منك ، قال : بلى خذوها نفسى بها طيبة ، وإنما هى لتأخذاها ، فلما فرغا من صدقاتهما رجعا حتى مَرَّا بثعلبة ، فسألاه الصدقة ، فقال : أريانى كتابكما ، فنظر فيه فقال : هذه أخت الجزية ، انطلقا حتى أرى رأيى .

فانطلقا حتى أتيا النبى ﷺ فلما رآهما قال : « يا ويح ثعلبة » ، قبل أن يكلماه ، ودعا للسليمى ، فأخبراه بالذى صنع ثعلبة ، وبالذى صنع السليمى ، فأنزل الله تعالى فى ثعلبة : ﴿ **وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ * فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ * فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ** ﴾ [التوبة : ٧٥ ـ ٧٧] . وكان عند رسول الله ﷺ رجل من أقارب ثعلبة فسمع ما أنزل الله فيه ، فخرج حتى أتى ثعلبة ، فقال : لا أم لك يا ثعلبة ، قد أنزل الله فيك كذا وكذا . فخرج حتى أتى النبى ﷺ فسأله أن يقبل منه صدقته ، فقال : « إن الله منعنى أن أقبل منك صدقتك » ، فجعل يحثو التراب على رأسه ، فقال له رسول الله ﷺ : «هذا عملك ، أمرتك فلم تطعنى » .

فلما أبى أن يقبل منه شيء رجع إلى منزله ، فلما قبض رسول الله ﷺ جاء بها إلى أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، فأبى أن يقبلها منه ، وجاء بها عمر بن الخطاب رضى الله عنه فأبى أن يقبلها منه ، وتوفى ثعلبة بعد خلافة عثمان .

وقد روى عن جرير عن أنس قال : صحب رجل عيسى ابن مريم عليه السلام فقال : أكون معك وأصحبك ، فانطلقا حتى انتهيا إلىَ شط نهر ، فجلسا يتغذيان ومعهما ثلاثة أرغفة، فأكلا رغيفين وبقى رغيف ثالث ، فقام

عيسى عليه السلام إلى النهر فشرب ثم رجع ، فلم يجد الرغيف فقال للرجل: من أخذ الرغيف ؟ فقال : لا أدرى ، قال : فانطلق ومعه صاحبه، فرأى ظبية ومعها خشفان لها ، فدعا أحدهما فأتاه فذبحه فاشتوى منه فأكل هو وذاك الرجل ، ثم قال للخشف : قم بإذن الله ، فقام فذهب ، فقال للرجل : أسألك بالذى أراك هذه الآية ، من أخذ الرغيف ؟ فقال : لا أدرى، ثم انتهيا إلى وادى ماء ، فأخذ عيسى بيد الرجل ، فمشيا على الماء ، فلما جاوزا قال له : أسألك بالذى أراك هذه الآية : من أخذ الرغيف ؟ فقال: لا أدرى ، فانتهيا إلى مفازة فجلسا فأخذ عيسى عليه السلام يجمع ترابًا وكثيبًا ، ثم قال : كن ذهبًا بإذن الله تعالى ، فصار ذهبًا ، فقسمه ثلاثة أثلاث ، ثم قال : ثلث لى ، وثلث لك ، وثلث لمن أخذ الرغيف ، فقال : أنا الذى أخذت الرغيف ، فقال : كله لك .

وفارقه عيسى عليه السلام فانتهى إليه رجلان فى المفازة ومعه المال ، فأرادا أن يأخذاه منه ويقتلاه ، فقال : هو بيننا أثلاثًا فابعثوا أحدكم إلى القرية حتى يشترى لنا طعامًا نأكله ، قال: فبعثوا أحدهم فقال الذى بعث : لأى شىء أقاسم هؤلاء هذا المال ؟ لكنى أضع فى الطعام سما فأقتلهما وآخذ المال وحدى ، قال : ففعل ، وقال ذلك الرجلان : لأى شىء نجعل لهذا ثلث المال ؟ ولكن إذا رجع قتلناه واقتسمنا المال بيننا . قال : فلما رجع إليهما قتلاه وأكلا الطعام ، فماتا ، فبقى ذلك المال فى المفازة ، وأولئك الثلاثة عنده قتلى ، فمرّ بهم عيسى عليه السلام على تلك الحالة فقال لأصحابه : هذه هى الدنيا ، فاحذروها .

وحكى أن ذا القرنين أتى على أمة من الأمم ليس بأيديهم شىء مما يستمتع به الناس من دنياهم ، وقد احتفروا قبورًا فإذا أصبحوا تعهدوا تلك القبور وكنسوها وصلوا عندها ، ورعوا البقل كما ترعى البهائم ، وقد قيض لهم فى ذلك معايش من نبات الأرض ، وأرسل ذو القرنين إلى ملكهم ، فقال له : أجب ذا القرنين ، فقال : ما لى إليه حاجة ، فإن كان له حاجة فليأتنى ، فقال ذو القرنين : صدق ، فأقبل ذو القرنين ، وقال له : أرسلت

إليك لتأتينى ، فأبيت ، فها أنا قد جئت ، فقال : لو كان لى إليك حاجة لأتيتك ، فقال له ذو القرنين : ما لى أراكم على حالة لم أر أحدًا من الأمم عليها ؟ قال : وما ذاك ؟ قال : ليس لكم دنيا ولا شيء ، أفلا اتخذتم الذهب والفضة فاستمتعتم بهما ؟ قال : إنما كرهناهما ؛ لأن أحدًا لم يعط منهما شيئًا ، إلا تاقت نفسه ودعته إلى ما هو أفضل منه .

فقال : ما بالكم قد احتفرتم قبورًا فإذا أصبحتم تعهدتموها فكنستموها وصليتم عندها ؟ قالوا : أردنا إذا نظرنا إليها وأملنا الدنيا منعتنا قبورنا من الأمل ، قال : وأراكم لا طعام لكم إلا البقل من الأرض ، أفلا اتخذتم البهائم من الأنعام فاحتلبتموها وركبتموها فاستمتعتم بها ؟ قالوا : كرهنا أن نجعل بطوننا قبورًا لها، ورأينا فى نبات الأرض بلاغًا ، وإنما يكفى ابن آدم أدنى العيش من الطعام ، وأى شيء جاوز الحنك من الطعام ، لم تجد له طعمًا كائنًا ما كان من الطعام .

ثم بسط ملك تلك الأرض يده خلف ذى القرنين فتناول جمجمة فقال: يا ذا القرنين أتدرى من هذا ؟ قال : لا ، ومن هو ؟ قال : ملك من ملوك الأرض أعطاه الله سلطانًا على أهل الأرض ، فغشم وظلم وعتا ، فلما رأى الله سبحانه ذلك منه حسمه بالموت ، فصار كالحجر الملقى وقد أحصى عليه عمله ، حتى يجزيه به فى آخرته .

ثم تناول جمجمة أخرى بالية ، فقال : يا ذا القرنين هل تدرى من هذا؟ قال : لا أدرى، ومن هو ؟ قال : هذا ملك ملكه الله بعدما قد كان يرى ما يصنع الذى قبله بالناس من الغشم والظلم والتجبر ، فتواضع وخشع لله عز وجل ، وأمر بالعدل فى أهل مملكته ، فصار كما ترى قد أحصى الله عليه عمله ، حتى يجزيه به فى آخرته .

ثم أشار إلى جمجمة ذى القرنين فقال : وهذه الجمجمة ستصير كهذين، فانظر يا ذا القرنين ما أنت صانع ، فقال له ذو القرنين : هل لك فى صحبتى فأتخذك أخًا ووزيرًا وشريكًا فيما آتانى الله من هذا المال ؟ قال : ما أصلح أنا وأنت فى مكان ، ولا أن نكون جميعًا ، قال ذو القرنين : ولم؟

قال : من أجل أن الناس كلهم لك عدو ، ولى صديق . قال : ولم؟ قال : يعادونك لما فى يديك من الملك والمال والدنيا ، ولا أجد أحدًا يعادينى ؛ لرفضى لذلك ولما عندى من الحاجة وقلة الشيء ، قال : فانصرف عنه.ذو القرنين متعجبًا منه ، ومتعظًا .

وما أحسن قول القائل :

يا من تمتع بالدنيا وزينتها ... ولا تنام عن اللذات عيناه
شغلت نفسك فيما ليس تدركه ... تقول لله ماذا حين تلقاه ؟

وقول الآخر :

عتبت على الدنيا لرفعة جاهل ... وتأخير ذى فضل فقالت خذ العذرا
بنو الجهل أبنائى لهذا رفعتهم ... وأهل التقى أبناء ضرتى الأخرى

وقول محمود الباهلى :

ألا إنما الدنيا على المرء فتنة ... على كل حال أقبلت أو تولت
فإن أقبلت فاستقبل الشكر دائمًا ... ومهما تولت فاصطبر وتثبت



الباب الستون .. في

فـضل الصدقة

قال ﷺ : « من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ، ولا يقبل الله إلا طيبًا ، فـإن الله يقبلهـا بيمينه » . أى ملـتبسـة بيمينه وبركـته ـ ثم يربيـها لصاحبها كما يربى أحدكم فلوه ـ بفتح فضم فتشديد مهر أول ما يولد «حتى تكون مثل الجبل » . وفى رواية : « كـما يربى أحدكم مهره حـتى أن اللقمة لتصير مثل أحـد » ، وتصديق ذلك فى كتاب الله تعالى : ﴿ **أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ** ﴾ [التوبة : ١٠٤] ، ﴿ **يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ** ﴾ [البقرة : ٢٧٦] .

« ما نقصـت صدقة من مال ، وما زاد الـله عبدًا بعفـو إلا عزا ، وما تواضع أحـد لله إلا رفـعه الله عـز وجل » . وفى رواية الطـبرانى : « مـا نقصت صدقة من مال ، وما مـد عبده يده لصدقة ، إلا ألقيت فى يد الله » أى إلا قبلهـا الله تعالى ورضى بها « قـبل أن تقع فى يد السائل ، ومـا فتح عبد بـاب مسألة له غنى إلا فتح الله له باب فـقر ، ويقول العبـد : مالى ، مالى . وإنما من ماله ثلاث : ما أكل فـأفنى أو لبس فأبلى أو أعطى فأبقى ، وما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للناس » .

وفى الخبر :«ما منكم من أحد إلا سيكلمه الله ليس بينه وبينه ترجمان، فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قـدم ، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم ، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه، فاتقوا النار ولو بشق تمرة » .

وفى الخبر أيضًا : « ليَـق أحدكم وجهه من النار ولو بشق تمرة » .

وقال ﷺ : « الصدقة تطفىء الخطيئـة كما يطفىء الماء النار ، يا كعب ابن عجـرة إنه لا يدخل الجنة لحم ودم نبتا علـى سحت ، النار أولى به ، يا كعب بن عـجرة الناس غاديان : فـغاد فى فكاك نفسـه ، فمعـتقهـا ، وغاد موبقها . يا كعب بن عجـرة الصلاة قربان ، والصوم جنة ، والصدقة تطفىء

الخطيئة كما يذهب الجليد على الصفا » . وفى رواية : « كما يطفىء الماء النار ، إن الصدقة لتطفىء غضب الرب ، وتدفع ميتة السوء » ، وفى رواية : « إن الله ليدرأ ــ أى يدفع ــ بالصدقة سبعين بابًا من ميتة السوء » .

وفى الحديث : « كل امرىء فى ظل صدقته حتى يقضى بين الناس »، وفى آخر : « لا يخرج رجل شيئًا من الصدقة حتى يفك عنها لحى سبعين شيطانًا » .

وقيل : يا رسول الله أى الصدقة أفضل ؟ قال : « جهد المُقِل ، وابدأ بمن تعول » .

وقال ﷺ : « درهم سبق مائة درهم»، فقال رجل : كيف ذاك يا رسول الله ؟ فقال : « رجل له مال كثير أخذ من عرضه ــ أى بضم أوله المهمل وبالضاد المعجمة ــ جانبه مائة ألف درهم ، وتصدق بها ورجل ليس له إلا درهمان ، فأخذ أحدهما فتصدق به » .

وقال ﷺ : « لا تردَّ سائلك ولو بظلف » ـــ هو بكسر أوله المعجم للبقر والغنم بمنزلة الحافر للفرس .

وفى الحديث : «سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله » إلى أن قال : «ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه » .

وفى الحديث : « صنائع المعروف تقى مصارع السوء ، وصدقة السر تطفىء غضب الرب ، وصلة الرحم تزيد فى العمر » .

وفى رواية الطبرانى : « صنائع المعروف تقى مصارع السوء ، والصدقة خفية تطفىء غضب الرب ، وصلة الرحم تزيد فى العمر ، وكل معروف صدقة ، وأهل المعروف فى الدنيا هم أهل المعروف فى الآخرة ، وأهل المنكر فى الدنيا هم أهل المنكر فى الآخرة ، وأول من يدخل الجنة أهل المعروف » .

وفى أخرى له ولأحمد : ما الصدقة يا رسول الله ؟ قال :« أضعاف مضاعفة ، وعند الله المزيد » ، ثم قرأ : ﴿ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾ [البقرة : ٢٧١] .

قيل : يا رسول الله أى الصدقة أفضل ؟ قال : « سير إلى فقير أو جهد

من مقل » ثم قرأ : ﴿ إن تُبْدُوا الصَّدَقَات فَنِعمًا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [البقرة : ٢٤٥] الآية .

وفى الحديث : « من كسا مسلمًا ثوبًا لم يزل فى ستر الله تعالى ما دام عليه من خيط أو سلك . وأيما مسلم كسا مسلمًا ثوبًا على عرىّ ، كساه الله تعالى من خضر الجنة ، وأيما مسلم أطعم مسلمًا على جوع أطعمه الله تعالى من ثمار الجنة ، وأيما مسلم سقى مسلمًا على ظمأ سقاه الله تعالى من الرحيق المختوم » .

وفى الحديث : « الصدقة على المسكين صدقة ، وعلى ذى الرحم اثنتان » ـ أى صدقة وصلة ـ .

وسئل النبى ﷺ : أى الصدقة أفضل ؟ قال : « على ذى الرحم الكاشح » أى المضمر لعداوتك فى كشحه أى خصره، كناية عن باطنه .

وفى الحديث : « من منح منيحة لبن ـ أى بأن أعطى لبونًا لمن يأكل لبنها ثم يردها ـ أو ورق ـ أى بأن أقرض دراهم ـ أو هدى رفاقًا - أى إلى الطريق - كان له مثل عتق رقبة وكل قرض صدقة » .

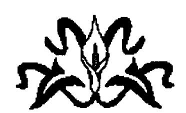
وفى رواية عند جماعة : « رأيت ليلة أُسرى بى على باب الجنة مكتوبًا: الصدقة بعشر أمثالها ، والقرض بثمانية عشر » .

وفى الحديث : « من يسر على معسر يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة».

وسئل النبى ﷺ : أى الإسلام خير ؟ قال : « تطعم الطعام ، وتقرىء السلام على من عرفت ومن لم تعرف » . وقيل له : أنبئنى عن كل شئ ؟. قال : « كل شىء خلق من الماء » ، فقلت : أخبرنى بشىء إذا عملته دخلت الجنة ؟ قال : « أطعم الطعام ، وأفش السلام ، وصل الأرحام ، وصلّ بالليل والناس نيام ، تدخل الجنة بسلام » .

وقال ﷺ : « اعبدوا الرحمن ، وأطعموا الطعام ، وأفشوا السلام ، تدخلوا الجنة بسلام » . وفى الحديث : « من موجبات الرحمة : إطعام المسلم المسكين » . وفى الحديث : « من أطعم أخاه حتى يشبعه ، وسقاه من

الماء حتى يرويه ، باعده الله من النار سبع خنادق ، ما بين كل خندقين مسيرة خمسمائة عام » . وفى الحديث القدسى : « إن الله عزّ وجلّ يقول يوم القيامة : يا ابن آدم مرضت فلم تعدنى . قال : كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ قال : أما علمت أن عبدى فلانًا مرض فلم تعده . أما علمت أنك لو عدته لوجدتنى عنده ؟ يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمنى . قال : يا رب كيف أطعمك وأنت رب العالمين ؟ قال : أما علمت أنه استطعمك عبدى فلان فلم تطعمه، أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندى ؟ يا ابن آدم استسقيتك فلم تسقنى . قال : يا رب وكيف أسقيك وأنت رب العالمين ؟ قال : استسقاك عبدى فلان فلم تسقه ، أما علمت أنك لو سقيته لوجدت ذلك عندى ؟ » .



الباب الحادي والستون .. في

قضاء حاجة أخيه المسلم

قال تعالى: ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة: ٢] ، وقال ﷺ: « من مشى فى عون أخيه ومنفعته ، فله ثواب المجاهدين فى سبيل الله».

وقال رسول الله ﷺ : « إن لله خلقًا خلقهم لقضاء حوائج الناس ، آلى على نفسه أن لا يعذبهم بالنار ، فإذا كان يوم القيامة وضعت لهم منابر من نور يحدثون الله تعالى ، والناس فى الحساب » .

وقال رسول الله ﷺ : « من سعى لأخيه المسلم فى حاجة فقضيت له أو لم تقض ، غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وكتب له براءتان : براءة من النار ، وبراءة من النفاق » . وقال رسول الله ﷺ : « من قضى لأخيه المسلم حاجة كنت واقفًا عند ميزانه ، فإن رجح وإلا شفعت له » رواه أبو نعيم فى الحلية . وعن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « من مشى فى حاجة أخيه المسلم كتب الله له بكل خطوة سبعين حسنة ، وكفر عنه سبعين سيئة ، فإن قضيت حاجته على يديه خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه ، فإن مات فى خلال ذلك دخل الجنة بغير حساب » .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « من مشى مع أخيه المسلم فى حاجة فناصحه فيها جعل الله بينه وبين النار سبع خنادق ، ما بين الخندق والخندق كما بين السماء والأرض » .

وعن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « إن لله عند أقوام نعمًا يقرها عندهم ، ما داموا فى حوائج الناس ، ما لم يملوا ، فإذا ملوا نقلها إلى غيرهم » .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أتدرون ما يقول الأسد فى زئيره ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « يقول : اللهم لا تسلطنى على أحد من أهل المعروف » .

وعن عليّ بن أبى طالب رضى الله عنه يرفعه : « إذا أراد أحدكم الحاجة فليبكر لها يوم الخميس ، وليقرأ إذا خرج من منزله : سورة آل عمران، وآية الكرسى ، وإنا أنزلناه فى ليلة القدر ، وأم الكتاب ؛ فإن فيها حوائج الدنيا والآخرة » .

وعن عبد الله بن الحسن بن الحسين رضى الله تعالى عنهم قال : أتيت باب عمر بن عبد العزيز فى حاجة ، فقال : إذا كانت لك حاجة إلىّ فأرسل رسولاً أو اكتب لى كتابًا ؛ فإنى لأستحى من الله أن يراك ببابى .

وعن عليّ بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال : والذى وسع سمعه الأصوات، ما من أحد أودع قلبًا سرورًا إلا خلق تعالى من ذلك السرور لطفًا فإذا نزلت به نائبة جرى إليها كالماء فى انحداره ، حتى يطردها عنه كما تطرد غريبة الإبل . وقال أيضًا : فوت الحاجة أهون من طلبها إلى غير أهلها .

وعنه أيضًا قال : لا تكثر على أخيك الحوائج ؛ فإن العجل إذا أفرط فى مص ثدى أمه نطحته .

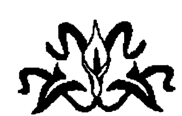
وما أحسن قول الشاعر :

لا تقطعن عادة الإحسان عن أحد ... ما دمت تقدر فالأيام تارات
واذكر فضيلة صنع الله إذ جعلت ... إليك لا لك عند الناس حاجات

وقول الآخر :

اقض الحوائج ما استطعت ... وكن لهم ـ يا أخى ـ فارج
فلخير أيام الفتى ... يوم قضى فيه الحوائج

وقال ﷺ : « (يقول الله تعالى فى الحديث القدسى) : « طوبى لمن أجريت الخير على يديه ، وويل لمن أجريت الشر على يديه » .



الباب الثاني والستون ... في

فضل الوضوء

قال رسول الله ﷺ : « من توضـأ فأحسن الوضوء ، وصلى ركـعتين لم يحدث نفسه فيهمـا بشيء من الدنيا ، خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه » . وفي لفظ آخر : « ولم يسه فيهما غفر الله له ما تقدم من ذنبه » .

وقــال ﷺ أيضًا : « ألا أنبـئكـم بما يكفــر الله به الخطايـا ويرفع به الدرجات ؟ إسباغ الوضوء على المكاره ، ونقل الأقدام إلى المساجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ، فذلكم الرباط » ثلاث مرات .

وتوضأ ﷺ مـرّة وقال : « هذا وضوء لا يقـبل الله الصلاة إلا به » . وتوضأ مـرتين مرتين وقـال : « من توضأ مـرتين آتاه الله أجره مـرتين » . وتوضأ ثلاثًا ثلاثًا ، وقال : «هذا وضوئي ووضــوء الأنبياء من قبلي ووضوء خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام » .

وقال ﷺ : « من ذكر الله عند وضوئه طَهَّر الله جسده كله ، ومن لم يذكر الله لم يطهر منه إلا ما أصاب الماء » .

وقال ﷺ : « من توضأ على طهر كتب الله له به عشر حسنات » .

وقال ﷺ : «الوضوء على الوضوء نور على نور » .

وهذا كله حث على تجديد الوضوء .

وقال عـليه الصــلاة والسلام : « إذا توضـأ العبـد المسلم فتـمضـمض خرجت الخطايا من فيه فإذا استنثر خرجت الخطايا من أنفه ، فإذا غسل وجهه خرجت الخطايا من وجهـه ، حتى تخرج من تحت أشفار عينيـه ، فإذا غسل يديه خرجت من تحت أظفاره ، فإذا مسح برأسه خرجت الخطايا من رأسه ، حتى تخـرج من تحت أذنيه ، وإذا غسل رجليه خـرجت الخطايا من رجليه ، حتى تخرج من تحت أظفار رجليه ، ثم كان مـشيه إلى المسجد وصلاته نافلة له » .

ويروى : « أن الطاهر كالصائم » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « من توضأ فأحسن الوضوء ثم رفع طرفه إلى السماء ، فقال أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، فتحت له أبواب الجنة الثمانية، يدخل من أيها شاء».

وقال عمر رضى الله عنه : إن الوضوء الصالح يطرد عنك الشيطان .

وقال مجاهد : من استطاع أن لا يبيت إلا طاهرًا ذاكرًا مستغفرًا ، فليفعل ؛ فإن الأرواح تبعث على ما قبضت عليه .

ويروى : أن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه وجه رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ إلى مصر لكسوة الكعبة ، فنزل الرجل بعض أرض الشام إلى جانب صومعة حبر من الأحبار ، ولم يكن حبر أعلم منه ، فأحب رسول عمر أن يلقاه ، فيسمع منه علمه ، فأتاه واستفتح باب داره ، فلم يفتح له طويلاً . ثم دخل على الحبر ، فسأله ليسمع منه فأعجبه علمه، فشكى إليه حبسه على بابه . فقال له الحبر : إنا كنا رأيناك حين عدلت إلينا على هيبة السلطان ، فتخوفناك ، وإنما حبسناك على الباب ؛ لأن الله تبارك وتعالى قال لموسى : يا موسى إذا تخوفت سلطانًا ، فتوضأ وأمر أهلك بالوضوء ؛ فإن من توضأ كان فى أمان مما يتخوف . فأغلقنا دونك الباب حتى توضأتُ وتوضأ جميع من فى الدار ، وصلينا ، فآمناك ، لذلك فتحنا لك الباب .



الباب الثالث والستون ..في

فضل الصلوات

لما كانت الصلاة أفضل العبادات ، كررنا الحث عليها ، اقتداء بكتاب الله العزيز .

فمما ورد في فضلها زيادة على ما تقدم : قوله عليه السلام : « ما أعطى عبد عطاء خيرًا من أن يؤذن له في ركعتين يصليهما » .

قال محمد بن سيرين رحمه الله تعالى : لو خيرت بين ركعتين وبين الجنة ، لاخترت الركعتين على الجنة ؛ لأن في الركعتين رضا الله تعالى ، وفي الجنة رضائي .

ويقال : إن الله تعالى لما خلق سبع سموات حشاها بالملائكة وتعبدهم بالصلاة لا يفترون ساعة ، فجعل لكل أهل سماء نوعًا من العبادة فأهل سماء قيام على أرجلهم إلى نفخة الصور ، وأهل سماء ركع ، وأهل سماء سجد ، وأهل سماء مرخية الأجنحة من هيبته تعالى ، وأهل عليين وأهل العرش وقوف يطوفون حول العرش : ﴿ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الأَرْضِ ﴾ [الشورى : ٥] فجمع الله كل ذلك في صلاة واحدة كرامة للمؤمنين ، حتى يكون لهم حظ من عبادة أهل السماء وزادهم القرآن يتلونه فيها ، فطلب منهم شكرها . وشكرها : إقامتها بشرائطها وحدودها .

قال الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [البقرة : ٣] ، وقال : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ ﴾ [المزمل: ٢٠] ، وقال : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاةَ ﴾ [هود : ١١٤] ، وقال : ﴿ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاةَ ﴾ [النساء : ١٦٢] .

فلم تجد ذكر الصلاة في موضع من التنزيل إلا مع ذكر إقامتها . فلما

بلغ ذكر المنافقين قال : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ [الماعون : ٤ ، ٥] ، فسماهم المصلين ، وسمى المؤمنين المقيمين الصلاة . وذلك ليعلم أن المصلين كثير، والمقيمين للصلوات قليل. فأهل الغفلة يعملون الأعمال على الترويح ، ولا يذكرون يوم تعرض على الله ، فتقبل أم ترد .

وروى عن النبى ﷺ أنه قال : « إن منكم من يصلى الصلاة ، فلا يكتب له من صلاته إلا ثلثها أو ربعها أو خمسها أو سدسها » حتى ذكر عشرها ، يعنى أنه لا يكتب له من صلاته إلا ما عقل منها .

وروى عن النبى عليه السلام أنه قال : « من صلى ركعتين مقبلاً على الله بقلبه خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه » ، وإنما عظم شأن صلاة العبد بإقبال العبد على الله ، فإذا لم يقبل على صلاته ولها بحديث النفس ، كان بمنزلة من وقف بباب ملك معتذرًا من خطيئته وزلته ، فلما وصل إلى باب الملك قام بين يديه وأقبل عليه الملك ، فجعل الواقف يلتفت يمينًا وشمالاً فلم يقض الملك حاجته ، وإنما يقبل الملك عليه على قدر عنايته ، فكذلك الصلاة إذا دخل العبد فيها ولها عنها لا تقبل منه .

واعلم : أن مثل الصلاة كمثل وليمة اتخذها ملك وهيأ فيها ألوانًا من الأطعمة والأشربة لكل لون لذة ، وفى كل لون منفعة ، ودعا الناس إليها . فكذلك الصلاة دعاهم الرب إليها وهيأ لهم فيها أفعالاً مختلفة وأذكارًا متنوعة، فتعبدهم بها ليلذذهم بكل لون من العبودية ، فالأفعال كالأطعمة والأذكار كالأشربة .

وقد قيل : إن فى الصلاة اثنتى عشرة ألف خصلة ، ثم جمعت هذه الاثنتا عشرة ألف فى اثنتى عشرة خصلة ، فمن أراد أن يصلى فلا بد أن يتعاهد هذه الاثنتى عشرة خصلة ؛ لتتم صلاته ، فست قبل الدخول فى الصلاة وست فيها :

أولها : العلم ؛ لأن النبى عليه السلام قال : « عمل قليل فى علم ، خير من عمل كثير فى جهل » .

والثانى : الوضوء ؛ لقوله عليه السلام : « لا صلاة إلا بطهور » .

والثالث : اللباس ؛ لقوله : ﴿ **خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ** ﴾ [الأعراف : ٣١] يعنى : البسوا ثيابكم عند كل مسجد .

والرابع : حفظ الوقت ؛ لقوله عز وجل : ﴿ **إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا** ﴾ [النساء : ١٠٣] يعنى : فرضًا مؤقتًا .

والخامس : استقبال القبلة ؛ لقوله عز وجل : ﴿ **فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ** ﴾ [البقرة : ١٤٤] يعنى : نحوه .

والسادس : النية ، لقوله عليه السلام : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى» .

والسابع : التكبير ؛ لقوله عليه السلام : « تحريمها التكبير ، وتحليلها التسليم » .

والثامن : القيام ؛ لقوله عز وجل : ﴿**وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ**﴾ [البقرة:٢٣٨]، يعنى : صلوا قائمين .

والتاسع: الفاتحة؛ لقوله عز وجل: ﴿**فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ**﴾ [المزمل: ٢٠].

والعاشر : الركوع ؛ لقوله عز وجل : ﴿ **وَارْكَعُوا** ﴾ [البقرة : ٤٣] .

والحادى عشر: السجود؛ لقوله عز وجل: ﴿**وَاسْجُدُوا**﴾[فصلت: ٣٧] .

والثانى عشر : القعود ؛ لقوله عليه السلام : « إذا رفع الرجل رأسه من آخر السجدة وقعد قدر التشهد ، فقد تمت صلاته » .

فإذا وجدت هذه الاثنتا عشرة يحتاج إلى الختم ، وهو الإخلاص ؛ لتتم هذه الأشياء ؛ لأن الله تعالى يقول : ﴿ **فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ** ﴾ [الزمر : ٢] .

فأما العلم فعلى ثلاثة أوجه :

أولها : أن يعرف الفريضة من السنة .

والثانى : أن يعرف ما فى الوضوء من الفريضة والسنة أيضًا ؛ فإن ذلك من تمام الصلاة .

والثالث : أن يعرف كيد الشيطان ، فيأخذ فى محاربته بالجهد .

وأما الوضوء فتمامه فى ثلاثة أشياء :

أولها : أن تطهر قلبك من الغل والحسد والغش .

والثانى : أن تطهر البدن من الذنوب .

والثالث : أن تغسل الأعضاء غسلاً سابغًا بغير إسراف فى الماء .

وأما اللباس فتمامه بثلاثة أشياء :

أولها : أن يكون أصله من الحلال .

والثانى : أن يكون طاهرًا من النجاسات .

والثالث: أن يكون موافقًا للسنة ولا يكون لبسه على وجه الفخر والخيلاء

وأما حفظ الوقت ففى ثلاثة أشياء :

أولها : أن يكون بصرك إلى الشمس والقمر والنجوم تتعاهد به حضور الوقت .

والثانى : أن يكون سمعك مع الأذان .

والثالث : أن يكون قلبك متفكرًا متعاهدًا للوقت .

وأما استقبال القبلة فتمامه فى ثلاثة أشياء :

أولها : أن تستقبل القبلة بوجهك .

والثانى : أن تقبل على الله بقلبك .

والثالث : أن تكون خاشعًا ذليلاً .

وأما النية فتمامها فى ثلاثة أشياء :

أولها : أن تعلم أى صلاة تصلى .

والثانى: أن تعلم أنك تقوم بين يدى الله تعالى وهو يراك، فتقوم بالهيبة

والثالث: أن تعلم أنه يعلم ما فى قلبك، فتفرغ قلبك من أشغال الدنيا .

وأما التكبير فتمامه فى ثلاثة أشياء :

أولها : أن تكبر صحيحًا جزمًا .

والثانى : أن ترفع يديك حذاء أذنيك .

والثالث : أن يكون قلبك حاضرًا فتكبر مع التعظيم .

وأما تمام القيام ففى ثلاثة أشياء :

أولها : أن تجعل بصرك فى موضع سجودك .

والثانى : أن تجعل قلبك إلى الله .

والثالث : أن لا تلتفت يمينًا ولا شمالاً .

وأما تمام القراءة ففى ثلاثة أشياء :

أولها : أن تقرأ فاتحة الكتاب قراءة صحيحة بالترتيل بغير لحن .

والثانى : أن تقرأ بالتفكر وتتعاهد معانيها .

والثالث : أن تعمل بما تقرأ .

وأما تمام الركوع ففى ثلاثة أشياء :

أولها : أن تبسط ظهرك ولا تنكسه ولا ترفعه .

والثانى : أن تضع يديك على ركبتيك وتفرج بين أصابعك .

والثالث : أن تطمئن راكعًا وتسبح التسبيحات مع التعظيم والوقار .

وأما تمام السجود ففى ثلاثة أشياء :

أولها : أن تضع يديك بحذاء أذنيك .

والثانى : أن لا تبسط ذراعيك .

والثالث : أن تطمئن فيه وتسبح مع التعظيم .

وأما تمام الجلوس ففى ثلاثة أشياء :

أولها : أن تقعد على رجلك اليسرى وتنصب اليمنى نصبًا .

والثانى : أن تتشد بالتعظيم وتدعو لنفسك وللمؤمنين .

والثالث : أن تسلم على التمام .

وأما تمام السلام : فأن يكون مع النية الصادقة من قلبك ، وأن يكون سلامك على من كان عن يمينك من الحفظة والرجال والنساء ، وكذلك عن يسارك ولا تجاوز بصرك عن منكبيك .

وأما تمام الإخلاص ففى ثلاثة أشياء :

أولها : أن تطلب بصلاتك رضا الله تعالى ولا تطلب رضا الناس .

والثانى : أن ترى التوفيق من الله تعالى .

والثالث : أن تحفظها حتى تذهب بها يوم القيامة؛ لأن الله تعالى قال: ﴿ **مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ** ﴾ [القصص : ٨٤] ولم يقل من عمل الحسنة .

الباب الرابع والستون ..في

بيان أهوال القيامة

روى أن عائشة رضى الله عنها قالت : قلت يا رسول الله : هل يذكر الحبيب حبيبه يوم القيامة؟ قال: «أما عند ثلاثة مواضع فلا : عند الميزان حتى يعلم إمـا أن يخف وإما أن يثـقل، وعند تطاير الصحف إمـا أن يعطى كتـابه بيمينه وإما أن يعطى كتابه بشماله، وحين يخرج عنق من النار فينطوى عليهم ويقول: وكلت بثلاثة، وكلت بمن دعا مع الله إلهًا آخر ، وبكل جبار عنيد ، وبكل من لا يؤمن بيوم الحساب ، فينطوى عليهم حتى يرمى بهم فى غمرات جهنم، ولجهنم جسر أدق من الشعر، وأحد من السيف، عليه كلاليب وحسك، والناس يمرون عليه كالبرق الخاطف ، وكالريح العاصف » الحديث .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قـال : قال رسول الـله ﷺ : « لما فرغ الله من خلق السموات والأرض خلق الصور ، فأعطاه إسـرافيل فهو واضعه على فيه شاخصًا ببصـره إلى العرش ، ينتظر متى يؤمر ؟ » ، قال : قلت : يا رسول الله ومـا الصور ؟ قال : « قـرن من نور » ، قلت : يا رسول الله كـيف هو ؟ قـال : « عظيم الدارة ، والذى بعـثنـى بالحق نبـيا لعظم دارته كعرض السمـاء والأرض ، ينفخ فيه ثلاث نفخات : نفخـة للفزع ، ونفخة للصعق ، ونفـخة للبعث ، فـتخرج الأرواح كـأنها النحل قد مـلأت ما بين السماء والأرض ، فتدخل فى الأجسـاد من الخياشيم ». ثم قال النبى ﷺ : « أنا أول من تنشق عنه الأرض » .

وفى خبر آخر : إذا أحيا الله تعالى جبريل وميكائيل وإسرافيل، ينزلون إلى قبر النبى ﷺ ومعهـم البراق، وحلل من الجنة، فتنشق عنه الأرض، فينظر لنبى ﷺ إلى جبريل فيقول : « يا جـبريل ما هذا اليوم ؟ » فيقول له : هذا وم القيامة ، هذا يوم الحاقة ، هذا يوم القارعة ، فيقول: «يا جبريل ما فعل لله بأمتى ؟ » فيقول له جبريل : أبشر فإنك أول من تنشق عنه الأرض .

وروى عن أبى هريرة أنه ﷺ قال : « إن الله تعالى يقول : يا معشر الجن والإنس إنى نصحت لكم ، فإنما هى أعمالكم فى صحفكم فمن وجد خيرًا فليحمد الله تعالى ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » .

وذكر عن يحيى بن معاذ الرازى أنه قرىء فى مجلسه : ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا ﴾ [مريم : ٨٥] أى ركبانًا ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴾ [مريم : ٨٦] يعنى مشاة عطاشًا ، فقال : أيها الناس مهلاً مهلاً ، غدًا تحشرون إلى الموقف حشرًا ، وتأتون من الأطراف فوجًا فوجًا ، وتقفون بين يدى الله فردًا فردا ، وتسألون عما فعلتم حرفًا حرفًا ، وتقاد الأولياء إلى الرحمن وفدًا وفدًا ، ويرد العاصون إلى عذاب الله وردًا وردًا ، ويدخلون جهنم حزبًا حزبًا .

إخوانى أمامكم يوم كان مقداره خمسين ألف سنة مما تعدون ، يوم الراجفة ، يوم الآزفة، يوم يقوم الناس لرب العالمين ، يوم الحسرة والندامة ، يوم المناقشة ، يوم المحاسبة ، يوم المساءلة ، يوم الصيحة ، يوم الحاقة ، يوم القارعة ، يوم النشور ، يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ، يوم التغابن ، يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ، يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار .

وقال مقاتل بن سليمان : تقف الخلائق يوم القيامة مائة سنة لا يتكلمون ، ومائة سنة فى الظلمة متحيرون ، ومائة سنة يموج بعضهم فى بعض عند ربهم يختصمون ، وإن يوم القيامة على طوله خمسين ألف سنة مما تعدون ، ليمضى على المؤمن المخلص كأخف صلاة مكتوبة .

وقال ﷺ : « لا تزول قدما عبد حتى يسأل عن أربعة أشياء : عن عمره فيما أفناه ، وعن جسده فيما أبلاه ، وعن علمه فيما عمل به ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ». وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى ﷺ أنه قال : « لم يكن نبى قط إلا كانت دعوته مستجابة ، فعجلها فى الدنيا ، وإنى خبأت دعوتى وشفاعتى لأمتى يوم القيامة » .

اللهم شفعه فينا بجاهه عندك ﷺ وعلى آله وصحبه وسلم .

الباب الخامس والستون ..في

صفة جهنم والميزان

لا بأس بذكر ذلك ، وإن تقدم التنبيه على بعضه تتميمًا للفائدة ، لعل تكرار المواعظ ينفع القلوب الغافلة الفاسدة، لا سيما وقد عظم الله سبحانه وتعالى هول جهنم،وأحوال القيامة فى كتابه فى غير موضع بما يقع فى قلوب العاقلين أعظم موقع،تنبيهاً على أن ما سوى ذلك هين والآخرة خير وأبقى .

أما صفة جهنم أعاذنا الله منها بمنه وكرمه :

فقد روى فى الحديث : « إن جهنم سوداء مظلمة ، لا ضوء لها ولا لهب ، لها سبعة أبواب لكل باب سبعون ألف جبل ، فى كل جبل سبعون ألف شعبة من نار ، فى كل شعبة سبعون ألف شق من نار ، فى كل شق سبعون ألف واد من نار ، فى كل واد سبعون ألف قصر من نار ، فى كل قصر سبعون ألف بيت من نار ، فى كل بيت سبعون ألف حية وسبعون ألف عقرب ، لكل عقرب سبعون ألف ذنب ، لكل ذنب سبعون ألف فقار ، فى كل فقار سبعون ألف قلة من سم ، فإذا كان يوم القيامة كشف عنها الغطاء ، فيطير منها سرادق عن يمين الثقلين ، وسرادق آخر عن يسارهم وسرادق من فوقهم ، وآخر من ورائهم ، فإذا نظر الثقلان إلى ذلك جثوا على الركب ، وصاروا ينادون كلهم : رب سلم » .

وروى مسلم : أن رسول الله ﷺ قال : « يؤتى بجهنم يوم القيامة لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها » .

وفى الحديث أن رسول الله ﷺ قال فى عظم خزنة جهنم المشار إليهم بقوله تعالى : ﴿ **غلاظٌ شدادٌ** ﴾ [التحريم : ٦] : « كل ملك ما بين منكبيه مسيرة سنة ، ولكل واحد منهم قوة ، لو أنه ضرب بالمقمع الذى فى يده جبلاً لصار دكا ، فيدفع بكل ضربة سبعين ألفًا فى قعر جهنم » .

وأما قوله تعالى : ﴿ **عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ** ﴾ [المدثر : ٣٠] فالمراد بهم :

رؤساء الزبانية ، وإلا فملائكة النار لا يعلم عددهم إلا الله تعالى : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ ﴾ [المدثر : ٣١] .

وسئل ابن عباس رضى الله عنه عن سعة جهنم ؟ فقال : والله ما أدرى ما سعتها ، ولكن بلغنا أن بين شحمة أذن كل واحد من الزبانية وبين عاتقه مسيرة سبعين خريفًا ، يعنى سبعين سنة ، وأنها تجرى فيها أودية القيح والدم ، وفى حديث الترمذى : « أن كثافة كل سرادق من سرادقات النار ــ أى كثافة جداره ــ أربعين سنة » .

وروى مسلم أن رسول الله ﷺ قال : « إن ناركم هذه جزء من سبعين جزءًا من حرّ جهنم » ، قالوا : يا رسول الله وإن كانت لكافية ، فقال : «إنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءًا كلها مثل حرها » .

وقال ﷺ : « لو أن جهنميا من أهل جهنم أخرج كفه إلى أهل الدنيا لاحترقت الدنيا من حرها ، ولو أن خازنا من خزنة جهنم أخرج إلى أهل الدنيا حتى يبصروه لمات أهل الدنيا حين يبصرونه من غضب الله تعالى الذى عليه » .

وروى مسلم وغيره : أن رسول الله ﷺ كان جالسًا مع أصحابه إذ سمع وجبة ، فقال النبى ﷺ : « أتدرون ما هذا ؟ » قلنا : الله ورسوله أعلم ، قال : « هذا حجر رمى به فى نار جهنم منذ سبعين خريفًا ، فهو يهوى فى النار الآن ، حين انتهى إلى قعرها » والوجبة هى الهدة وهى صوت وقع الثقيل .

وكان عمر بن الخطاب يقول : أكثروا ذكر النار ؛ فإن حرها شديد ، وقعرها بعيد ، وإن مقامعها من حديد .

وكان ابن عباس يقول : إن النار تلتقط أهلها كما يلتقط الطائر الحب .

وسئل رضى الله عنه عن قوله تعالى : ﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴾ [الفرقان : ١٢] فهل للنار عينان ؟ فقال : نعم ، أما سمعتم قوله ﷺ : « من كذب علىّ متعمدًا فليتبوأ بين عينى جهنم مقعدًا» ، قيل : يا رسول الله ولها عينان ؟ قال : « أما سمعتم قوله تعالى :

﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ » الحديث .

ويؤيده حديث : « يخرج عنق من النار له عينان يبصران ولسان ينطق به ، فيقول : إنى وكلت اليوم بمن جعل مع الله إلهًا آخر ، فلهو أبصر بهم من الطير بحب السمسم فيلتقطه » .

وأما صفة الميزان فقد ورد فى الحديث : « إن كفة الحسنات من نور ، وكفة السيئات من ظلام » .

وروى الترمذى أن رسول الله ﷺ قال : « إن الجنة توضع عن يمين العرش والنار عن يساره وكفة الحسنات عن يمينه ، وكفة السيئات عن يساره، فتكون الجنة مقابلة الحسنات ، والنار مقابلة السيئات » .

وكان ابن عباس رضى الله عنهما يقول : توزن الحسنات والسيئات فى ميزان له كفتان ولسان .

وكان يقول : إذا أراد الله وزن أعمال العباد قلبها أجسامًا ، فيزنها يوم القيامة .



الباب السادس والستون .. في

بيان ذم الكبر والعجب

اعلم أرشدني الله وإياك إلى خير الدنيا والآخرة ، أن الكبر والإعجاب يسلبان الفضائل ويكسبان الرذائل ، وحسبك من رذيلة تمنع سماع النصح وقبول التأديب ، ولذلك قالوا : العلم يضيع بين الحياء والكبر .

العلم حرب المتعالى ، كما أن السيل حرب للبناء العالى . قال ﷺ : « لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال حبة من كبر » . وقال ﷺ : « من جر ثوبه خيلاء لا ينظر الله إليه». وقال الحكماء : لا يدوم الملك مع الكبر .

وقد قرن الله سبحانه وتعالى الكبر بالفساد ، فقال تعالى : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا ﴾ [القصص: ٨٣] ، وقال تعالى : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ [الاعراف : ١٤٦]، قال بعض الحكماء: ما رأيت متكبرًا إلا تحول ما به بى ، يعنى أتكبر عليه. وكان ابن عرانة من أقبح الناس كبرًا .

روى أنه قال لغلامه : اسقنى ماء ، فقال : نعم ، فقال : إنما يقول نعم من يقدر أن يقول لا ، اصفعوه . ودعا أكارًا فكلمه ، فلما فرغ دعا بماء فتمضمض به استقذارًا لمخاطبته.

ويقال : فلان وضع نفسه فى درجة لو سقط منها لتكسر .

قال الجاحظ : المشهورون بالكبر من قريش : بنو مخزوم ، وبنو أمية . ومن العرب: بنو جعفر بن كلاب، وبنو زرارة بن عدى. وأما الأكاسرة فكانوا لا يعدون الناس إلا عبيدًا وأنفسهم إلا أربابًا. وقيل لرجل من بنى عبد الدار : ألا تأتى الخليفة ؟ فقال : أخاف أن لا يحمل الجسر شرفى . وقيل للحجاج بن أرطأة : ما لك لا تحضر الجماعة ؟ قال : أخشى أن يزاحمنى البقالون .

وقيل أتى وائل بن حجر إلى النبى ﷺ فاقطعه أرضًا ، وقال لمعاوية : « اعرض هذه الأرض عليه ، واكتبها له » ، فخرج معه معاوية فى هاجرة

شديدة ، ومشى خلف ناقته ، فأحرقه حر الشمس ، فقال له : أردفنى خلفك على ناقتك ، قال : لست من أرداف الملوك ، قال : فأعطنى نعليك، قال : ما بخل يمنعنى يا ابن أبى سفيان ، ولكن أكره أن يبلغ أقيال اليمن أنك لبست نعلى ، ولكن امش فى ظل ناقتى ، فحسبك شرفًا . وقيل : إنه لحق زمن معاوية ودخل عليه فأقعده معه على السرير وحدثه.

وقال المسرور بن هند لرجل : أتعرفنى ؟ قال : لا . قال : أنا المسرور ابن هند ، قال : ما أعرفك ، قال : فتعسًا لمن لم يعرف القمر .

وفى مثله يقول الشاعر :

قولا لأحمق يلوى التيه أخدعه ... لو كنت تعلم ما فى التيه لم تته

التيه مفسدة للدين منقصة ... للعقل مهلكة للعرض فانتبه

وقيل: لا يتكبر إلا كل وضيع، ولا يتواضع إلا كل رفيع. وقال ﷺ : « ثلاث مهلكات : شح مطاع ، وهوى متبع ، وإعجاب المرء بنفسه » .

وعن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال : « إن نوحًا عليه السلام لما حضرته الوفاة دعا ابنيه ، وقال : إنى آمركما باثنتين وأنهاكما عن اثنتين : أنهاكما عن الشرك والكبر ، وآمركما بلا إله إلا الله ؛ فإن السموات والأرض وما فيهن لو وضعت فى كفة الميزان ولا إله إلا الله فى الكفة الأخرى كانت لا إله إلا الله أرجح منها ، ولو أن السموات والأرض كانتا فى حلقة ، فوضعت لا إله إلا الله عليهما ، لقصمتهما ، وآمركما بسبحان الله وبحمده ؛ فإنها صلاة كل شيء وبها يرزق كل شيء » .

وقال عيسى عليه السلام : طوبى لمن علمه الله كتابه ولم يمت جبارًا. وعن عبد الله بن سلام رضى الله عنه أنه مرّ فى السوق وعليه حزمة من حطب . فقيل له : ما يحملك على هذا وقد أغناك الله عن هذا ؟ قال : أردت أن أدفع الكبر عن نفسى. وفى تفسير القرطبى فى قوله تبارك وتعالى : ﴿ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ ﴾ [النور:٣١] إن فعلنه تبرجًا وتعرضًا للرجال حرم ، وكذا من ضرب بنعليه من الرجال عجبًا حرم ؛ لأن العجب كبيرة .

الباب السابع والستون.. في

الإحسان إلى اليتيم واجتناب الظلم

أخرج البخارى : « أنا وكافل اليتيم فى الجنة كهذين » ، وأشار بأصبعيه السبابة والوسطى وفرج بينهما .

ومسلم : «كافل اليتيم له أو لغيره ، أنا وهو كهاتين فى الجنة » وأشار مالك بالسبابة والوسطى .

والبزار : « من كفل يتيمًا له ذو قرابة أو لا قرابة له ، فأنا وهو فى الجنة كهاتين » وضم أصبعيه . « ومن سعى على ثلاث بنات فهو فى الجنة ، وكان له كأجر المجاهد فى سبيل الله صائمًا قائمًا » .

وابن ماجه : « من عال ثلاثة من الأيتام كان كمن قام ليله وصام نهاره، وغدا وراح شاهرًا سيفه فى سبيل الله ، وكنت أنا وهو فى الجنة أخوين ، كما أن هاتين أختان» وألصق أصبعيه السبابة والوسطى .

والترمذى وصححه : « من قبض يتيمًا من بين المسلمين ، إلى طعامه وشرابه أدخله الجنة البتة ، إلا أن يعمل ذنبًا لا يغفر له » . وفى رواية سندها حسن : « حتى يستغنى عنه وجبت له الجنة البتة » .

وابن ماجه : «خير بيت فى المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه ، وشر بيت فى المسلمين بيت فيه يتيم يساء إليه».

وأبو يعلى بسند حسن : « أنا أول من يفتح باب الجنة ، إلا أنى أرى امرأة تبادرنى ، فأقول : ما لك ؟ ومن أنت ؟ تقول : أنا امرأة قعدت على أيتام لى » .

والطبرانى بسند رواته ثقات ، إلا واحدًا مع ذلك ليس بالمتروك : «والذى بعثنى بالحق لا يعذب الله يوم القيامة من رحم اليتيم ، وألان له فى الكلام ، ورحم يتمه وضعفه ، ولم يتطاول على جاره بفضل ما آتاه الله » .

وأحمد وغيره : « من مسح على رأس يتيم لم يمسحه إلا لله ، كانت

له فى كل شعرة مرت عليها يده حسنات ، ومن أحسن إلى يتيم أو يتيمة عنده كنت أنا وهو فى الجنة كهاتين » الحديث .

وأخرج جماعة وصححه الحاكم : « أن الله تعالى قال ليعقوب : إن سبب ذهاب بصره وانحناء ظهره وفعل إخوة يوسف : أنه أتاه يتيم مسكين صائم جائع ، وقد ذبح هو وأهله شاة فأكلوها ولم يطعموه ، ثم أعلمه الله تعالى بأنه لم يحب شيئًا من خلقه حبه لليتامى والمساكين، وأمره أن يصنع طعامًا ويدعو المساكين ففعل » .

والشيخان عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « الساعى على الأرملة والمسكين كالمجاهد فى سبيل الله تعالى » ، وأحسبه قال : « وكالقائم لا يفتر ، وكالصائم ثم لا يفطر » .

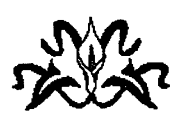
وابن ماجه : « الساعى على الأرملة والمسكين كالمجاهد فى سبيل الله، وكالذى يقوم بالليل ويصوم النهار » .

قال بعض السلف : كنت فى بدء أمرى سكيرًا مكبا على المعاصى ، فرأيت يومًا يتيمًا فأكرمته كما يكرم الولد بل أكثر ، ثم نمت فرأيت الزبانية أخذونى أخذًا مزعجًا إلى جهنم ، وإذا باليتيم قد اعترضنى ، فقال : دعوه حتى أراجع ربى فيه ، فأبوا ، فإذا النداء : خلوا عنه ، فقد وهبنا له ما كان منه بإحسانه إليه ، فاستيقظت وبالغت فى إكرام اليتامى من يومئذ .

وكان لبعض مياسير العلويين بنات من علوية ، فمات واشتد بهن الفقر إلى أن رحلن عن وطنهن خوف الشماتة ، فدخلن مسجد بلد مهجورًا فتركتهن أمهن فيه وخرجت تحتال لهن القوت ، فمرت بكبير البلد وهو مسلم، فشرحت له حالها ، فلم يصدقها ، وقال : لا بد أن تقيمى عندى البينة بذلك ، فقالت : أنا غريبة . فأعرض عنها . ثم مرت بمجوسى فشرحت له ذلك فصدق وأرسل بعض نسائه ، فأتت بها وببناتها إلى داره ، فبالغ فى إكرامهن ، فلما مضى نصف الليل رأى ذلك المسلم القيامة قد قامت، والنبى ﷺ معقودًا على رأسه لواء الحمد، وعنده قصر عظيم . فقال: يا رسول الله لمن هذا القصر ؟ قال : لرجل مسلم . قال : أنا مسلم

موحد . قال ﷺ : « أقم عندى البينة بذلك » ، فتحير ، فقص له ﷺ خبر العلوية ، فانتبه الرجل فى غاية الحزن والكآبة ؛ إذ ردها ، ثم بالغ فى البحث عنها حتى دل عليها بدار المجوسى ، فطلبها منه ، فأبى ، وقال : قد لحقنى من بركاتهن .

فقال : خذ ألف دينار وسلمهن إلىّ ، فأبى ، فأراد أن يكرهه ، فقال الذى تريده ، أنا أحق به ، والقصر الذى رأيته فى النوم ، خلق لى ، أتفخر علىّ بإسلامك ؟ فوالله ما نمت وأنا وأهل دارى حتى أسلمنا كلنا على يد العلوية ، ورأيت مثل منامك ، وقال لى رسول الله ﷺ : « العلوية وبناتها عندك ؟ » قلت : نعم يا رسول الله . قال : القصر لك ولأهل دارك، فانصرف المسلم وبه من الكآبة والحزن ما لا يعلمه إلا الله تعالى .



الباب الثامن والستون..في

تحريم أكل الحرام

قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ ﴾ [النساء : ٢٩] الآية . واختلفوا في المراد به ، فقيل : الربا والقمار والغصب والسرقة والخيانة وشهادة الزور وأخذ المال باليمين الكاذبة . وقال ابن عباس : هو ما يؤخذ من الإنسان بغير عوض . وعليه قيل: لما نزلت الآية تحرجوا من أن يكون عند أحد شيئًا ، حتى نزلت آية النور : ﴿وَلا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ ﴾ [النور : ٦١] إلى آخرها ، وقيل : هو العقود الفاسدة .

والوجه : قول ابن مسعود : إنها محكمة ما نسخت ولا تنسخ إلى يوم القيامة . انتهى.

وذلك لأن الأكل بالباطل يشمل كل مأخوذ بغير حق ، سواء كان على جهة الظلم كالغصب والخيانة والسرقة أو الهزء واللعب كالمأخوذ بالقمار والملاهي ، وسيأتي ذكر ذلك كله ، أو على جهة المكر والخديعة كالمأخوذ بعقد فاسد . ويؤيد ما ذكرته قول بعضهم : الآية تشمل أكل الإنسان مال نفسه بالباطل بأن ينفقه في محرم ، ومال غيره كالأمثلة المذكورة .

وقوله تعالى : ﴿ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً ﴾ [البقرة : ٢٨٢] استثناء منقطع؛ لأن التجارة من جنس الباطل بأي معنى أريد به ، وتأويله بالسبب ليكون متصلاً ليس في محله ، والتجارة وإن اختصت بعقود المعاوضات ، إلا أن نحو القرض والهبة ملحق بها بأدلة أخرى .

وقوله تعالى : ﴿ عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ﴾ [النساء : ٢٩] أي طيب نفس على الوجه المشروع . وتخصيص الأكل فيها بالذكر ليس للتقييد به ، بل

لكونه أغلب وجوه الانتفاعات على حد ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ﴾ [النساء : ١٠] .

وأدلة هذا المبحث والتغليظات الواردة فيه من السنة كثيرة ، فلنقتصر على بعضها :

أخرج مسلم وغيره عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين ، فقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ﴾ [المؤمنون :٥١] ، وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ [البقرة : ١٧٢] ، ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر ، يمد يديه إلى السماء : يا رب ، يا رب ، ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذى بالحرام ، فأنى يستجاب له .

والطبرانى بإسناد حسن : « طلب الحلال واجب على كل مسلم » .

والطبرانى والبيهقى: « طلب الحلال فريضة بعد الفرائض » .

والترمذى وقال : حسن صحيح غريب ، والحاكم وصححه : « من أكل طيبًا وعمل فى سنة ، وأمن الناس بوائقه دخل الجنة » قالوا : يا رسول الله إن هذا فى أمتك اليوم كثير . قال : « وسيكون فى قرون بعدى » .

وأحمد وغيره بإسناد حسن « أربع إذا كن فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا : حفظ أمانة ، وصدق حديث ، وحسن خلق ، وعفة فى طعمة » .

والطبرانى : طوبى لمن طاب كسبه ، وصلحت سريرته ، وكرمت علانيته ، وعزل عن الناس شره ، طوبى لمن عمل بعلمه ، وأنفق الفضل من ماله ، وأمسك الفضل من قوله » .

والطبرانى : « يا سعد أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة ، والذى نفسى بيده إن العبد ليقذف اللقمة الحرام فى جوفه ما يتقبل منه عمل أربعين يومًا ، وأيما عبد نبت لحمه من سحت فالنار أولى به » .

والبزار وفيه نكارة : « إنه لا دين لمن لا أمانة له ولا صلاة ولا زكاة ، إنه من أصاب مالاً من حرام ، فلبس جلبابًا — يعنى قميصًا — لم تقبل صلاته

حتى ينحى ذلك الجلباب عنه ، إن الله تبارك وتعالى أكرم وأجل من أن يقبل عمل رجل أو صلاته وعليه جلباب من حرام » .

وأحمد عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : « من اشترى ثوبًا بعشرة دراهم وفيه درهم من حرام لم يقبل الله عز وجل له صلاة ما دام عليه » ثم أدخل أصبعيه فى أذنيه ثم قال : أصمتا إن لم يكن النبى ﷺ سمعته يقوله .

والبيهقى : « من اشترى سرقة وهو يعلم أنها سرقة، فقد اشترك فى عارها وإثمها » . قال الحافظ المنذرى : فى إسناده احتمال للتحسين ، ويشبه أن يكون موقوفًا .

وأحمد بسند جيد : « والذى نفسى بيده لا يأخذ أحدكم حبله ، فيذهب به إلى الجبل فيحتطب ثم يأتى ، فيحمله على ظهره ، فيأكل ، خير له من أن يجعل فيه ما حرم الله عليه » .

وابنا خزيمة وحبان فى صحيحيهما والحاكم : « من جمع مالاً حرامًا ثم تصدق به لم يكن له فيه أجر وكان إصره عليه » .

والطبرانى : « من كسب مالاً حرامًا فأعتق منه ووصل منه رحمه ، كان ذلك إصرًا عليه » .

وأحمد وغيره بسند حسنه بعضهم : « إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم ، وإن الله يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب ، ولا يعطى الدين إلا لمن يحب ، ومن أعطاه الله الدين فقد أحبه ، والذى نفسه بيده لا سلم ــ أو لا يسلم ــ عبد حتى سلم ــ أو يسلم ــ قلبه ولسانه ، ولا يؤمن حتى يؤمن جاره بوائقه » ، قالوا وما بوائقه يا رسول الله ؟ قال : «غشه وظلمه ، ولا يكسب عبد مالاً من حرام فيتصدق منه فيقبل منه ولا ينفق منه فيبارك له فيه ، ولا يتركه خلف ظهره ، إلا كان زاده إلى النار ، إن الله تعالى لا يمحو السيِّئ بالسيئ، ولكن يمحو السيِّئ بالحسن ، إن الخبيث لا يمحو الخبيث » .

والترمذى وقال : حسن صحيح غريب : سئل ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس النار ، قال : « الفم والفرج » ، وسئل عن أكثر ما يدخل الناس

الجنة، قال : « تقوى الله وحسن الخلق ».

والترمذى وصححه : « ما تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع : عن عمره فيما أفناه ، وعن شبابه فيما أبلاه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه ، وعن علمه ماذا عمل فيه » .

والبيهقى : « الدنيا خضرة حلوة ، من اكتسب فيها مالاً من غير حله، وأنفقه فى غير حقه ، أورده الله دار الهوان ، ورب متخوض فى مال الله ورسوله له النار يوم القيامة » .

يقول الله تعالى : ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء:٩٧] .

وابن حبان فى صحيحه: « لا يدخل الجنة لحم ودم نبتا من سحت ، والنار أولى به » .

والترمذى : « لا يربو لحم نبت من سحت، إلا كانت النار أولى به» .

والسحت ـ بضم فسكون أو ضم ـ الحرام. وقيل : الخبيث من المكاسب .

وفى رواية بسند حسن : « لا يدخل الجنة جسد غذى بحرام » .



الباب التاسع والستون ..في

النهى عن الربا

الآيات فى النهى عن الربا كثيرة .

ومن الأحـاديث ما رواه البـخارى وأبو داود : « لعن رسـول الله ﷺ الواشمة والمستوشمة ، وآكل الربا وموكله » .

ونهى عن ثمن الكلب وكسب البغى ولعن المصورين .

وروى أحمد وأبو يعلـى وابنا خزيمة وحبان فى صـحيحيـهما عن ابن مسعـود رضى الله عنه قال : « آكل الربا وموكله وشاهداه وكـاتبه إذا علموا به، والواشمـة والمستـوشمة للحـسن ، ولاوى الصدقـة والمرتد أعرابيـا بعد الهجرة ، ملعونون على لسان محمد ﷺ » .

والحاكم وصححـه :«أربع حق على الله أن لا يدخلهم الجنة ولا يذيقهم نعيمها: مدمن الخمر، وآكل الربا، وآكل مال اليتيم بغير حق، والعاق لوالديه».

والحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين : « الربا ثلاثة وسبعون بابًا، والشرك مثله » .

والبيهقى : « الربا سبعون بابًا ، أدناها كالذى يقع على أمه » .

والطبرانى فـى الكبير عن عـبد الله بن سـلام رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « الدرهم يصيبه الرجل من الربا أعظم عند الله من ثلاث وثلاثين زنية يزنيها فى الإسلام » وفى سنده انقطاع .

ورواية ابن أبى الدنيـا والبغـوى وغيرهـما موقـوفًا على عبـد الله هو الصحيح ، وهذا الموقوف فى حكم المرفوع ؛ لأن كون الدرهم أعظم وزنًا من هذا العدد المخصوص من الزنا ، لا يدرك إلا بـوحى ، فكأنه سمعه منه ﷺ ولفظ الموقوف فى أحد طرقه ، قال عبـد الله : « الربا اثنان وسبعون حوبًا ــ أى بضم المهملة وبفتحها إثمًا ــ ، أصغرها حوبًا كمن أتى أمه فى الإسلام ، ودرهم من الربا أشـد من بضع وثلاثين زنيـة » . قـال : « ويأذن الله للبـر

والفاجر بالقيام يوم القيامة ، إلا آكل الربا ، فإنه لا يقوم إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس » .

وأحمد بإسناد جيد عن كعب الأحبار قال : « لأن أزنى ثلاثًا وثلاثين زنية أحب إلىّ من أن آكل درهم ربا ، يعلم الله أنى أكلته ربا » .

وأحمد بسند صحيح والطبرانى أنه ﷺ قال : «درهم ربا يأكله الرجل وهو يعلم أشد من ست وثلاثين زنية » .

وابن أبى الدنيا والبيهقى : خطبنا رسول الله ﷺ فذكر أمر الربا وعظم شأنه ، وقال : « إن الدرهم يصيبه الرجل من الربا أعظم عند الله فى الخطيئة من ست وثلاثين زنية يزنيها الرجل ، وإن أربى الربا عرض الرجل المسلم».

والطبرانى فى الصغير والأوسط : « من أعان ظالمًا بباطل ليدحض به حقا ، فقد برىء من ذمة الله وذمة رسول الله ﷺ ، ومن أكل درهمًا من ربا فهو مثل ثلاث وثلاثين زنية ، ومن نبت لحمه من سحت فالنار أولى به » .

والبيهقى : « إن الربا نيف وسبعون بابًا أهونهن بابًا مثل من أتى أمه فى الإسلام، ودرهم من ربا أشد من خمس وثلاثين زنية» الحديث. والطبرانى فى الأوسط من رواية عمرو ابن راشد، وقد وثق: «الربا اثنان وسبعون بابًا ، أدناها مثل إتيان الرجل أمه ، وأربى الربا استطالة الرجل فى عرض أخيه » .

وابن ماجه والبيهقى عن أبى معشر وقد وثق عن أبى سعيد المقبرى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « الربا سبعون حوبًا أيسرها مثل أن ينكح الرجل أمه » . والحاكم وصححه عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : نهى رسول الله ﷺ أن تشترى الثمرة حتى تعظم .

وقال : « إذا ظهر الزنا والربا فى قرية فقد أحلوا بأنفسهم عذاب الله».

وأبو يعلى بإسناد جيد عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه ذكر حديثًا عن النبى ﷺ قال فيه: «ما ظهر فى قوم الزنا والربا إلا أحلوا بأنفسهم عذاب الله».

وأحمد بإسناد فيه نظر : « ما من قوم يظهر فيهم الربا إلا أخذوا بالسنة، وما من قوم يظهر فيهم الرشا إلا أخذوا بالرعب » ، والسنة : العام المقحط ، نزل فيه غيث أم لا .

وأحمد فى حديث طويل وابن ماجه مختصرًا والأصبهانى : « رأيت ليلة أسرى بى لما انتهينا إلى السماء السابعة، فنظرت فوقى فإذا أنا برعد وبروق وعواصف » ، قال : « فأتيت على قوم بطونهم كالبيوت فيها الحيات، ترى من خارج بطونهم ، قلت يا جبريل من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء أكلة الربا » .

والأصبهانى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لما عرج بى إلى السماء نظرت فى سماء الدنيا فإذا رجال بطونهم كأمثال البيوت العظام قد مالت بطونهم ، وهم منضدون على سابلة آل فرعون ، موقوفون على النار ، كل غداة وعشى ، يقولون : ربنا لا تقم الساعة أبدًا . قلت : يا جبريل من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء أكلة الربا من أمتك، لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس » . قال الأصبهانى : قوله منضدون أى مطروحون أى طرح بعضهم على بعض . والسابلة: المارة . أى يطؤهم آل فرعون الذين يعرضون على النار كل غداة وعشى .

والطبرانى بسند صحيح: « بين يدى الساعة يظهر الزنا والربا والخمر ».

والطبرنى بسند لا بأس به عن القاسم بن عبد الله الوراق قال : رأيت عبد الله بن أبى أوفى رضى الله عنه فى سوق الصيارفة ، فقال : يا معشر الصيارفة أبشروا ، قالوا : بشرك الله بالجنة ، بماذا تبشرنا يا أبا محمد؟ قال: قال رسول الله ﷺ للصيارفة : « أبشروا بالنار » .

والطبرانى : « إياك والذنوب التى لا تغتفر : الغلول ، فمن غل شيئًا يأتى به يوم القيامة ، وأكل الربا ، فمن أكل الربا بعث يوم القيامة مجنونًا يتخبط » ثم قرأ ﷺ : **﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ﴾** [البقرة : ٢٧٥] .

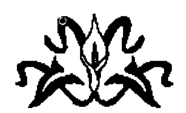
والأصبهانى : « يأتى آكل الربا يوم القيامة مخبلاً » ــ أى مجنونًا ــ يجر شقيه ، ثم قرأ: **﴿لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ﴾** . وابن ماجه والحاكم وصححه: « ما أكثر أحد من الربا إلا كان عاقبة أمره إلى قلة » .

والحاكم وصححه أيضًا : « الربا وإن كثر فإن عاقبته إلى قل » .

وأبو داود وابن ماجه كلاهمـا عن الحسن عن أبى هريرة ، واختلف فى سماعه منه ، والجمهور على عدمه : « ليأتين على الناس زمان لا يبقى منهم أحد إلا آكل الربا ، فمن لم يأكله أصابه من غباره » .

وعبد الله بن أحمد فى زوائد المسند: «والذى نفسى بيده ليبيتن أناس من أمتى على شر وبطر ولهو ولعب، فيصبحوا قردة وخنازير باستحلالهم المحارم واتخاذهم القينات ، وشربهم الخمر ، وبأكلهم الربا ، ولبسهم الحرير » .

ومختصـرًا والبيـهقى واللفظ له : « يبـيت قوم من الأمـة على طعم وشرب ولهو ولعب ، فيصبحون قد مسخوا قردة وخنازير، وليصيبنهم خسف وقذف حتى يصبح الناس فيقولون : خسف الليلة ببيت فلان ، وخسف الليلة بدار فلان، ولترسلن عليهم حجارة من السماء ، كما أرسلت على قوم لوط، على قبائل منها ، وعلى دور ، بشربهم الخـمر ، ولبسهم الحرير ، واتخاذهم القـينات ، وأكلهم الربا ، وقطيـعتـهم الرحم » . وخصلة نسـيهـا راويه ، والقينات جمع قينة وهى المغنية .



الباب السبعون ..في

حقوق العبد

هى : أن تسلم عليه إذا لقيته ، وتجيبه إذا دعاك ، وتشمته إذا عطس ، وتعوده إذا مرض ، وتشهد جنازته إذا مات ، وتبر قسمه إذا أقسم عليك ، وتنصح له إذا استنصحك ، وتحفظه بظهر الغيب إذا غاب عنك ، وتحب له ما تحب لنفسك ، وتكره له ما تكره لنفسك .

وورد جميع ذلك فى أخبار وآثار :

وقد روى أنس رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « أربع من حق المسلمين عليك : أن تعين محسنهم ، وأن تستغفر لمذنبهم ، وأن تدعو لمدبرهم ، وأن تحب تائبهم » .

وقال ابن عباس رضى الله عنهما فى معنى قوله تعالى : ﴿ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح: ٢٩] ، قال: يدعو صالحهم لطالحهم ، وطالحهم لصالحهم، فإذا نظر الطالح إلى الصالح من أمة محمد ﷺ قال : اللهم بارك له فيما قسمت له من الخير ، وثبته عليه ، وانفعنا به ، وإذا نظر الصالح إلى الطالح قال : اللهم اهده وتب عليه واغفر له عثرته .

ومنها : أن يحب للمؤمنين ما يحب لنفسه ، ويكره لهم ما يكره لنفسه. قال النعمان بن بشير سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مثل المؤمنين فى توددهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائره بالحمى والسهر » .

وروى أبو موسى عنه ﷺ أنه قال : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا » .

ومنها : أن لا يؤذى أحدًا من المسلمين بفعل ولا قول .

قال ﷺ : «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » .

وقال ﷺ فى حديث طويل يأمر فيه بالفضائل : « فإن لم تقدر فدع

الناس من الشر ، فإنها صدقة تصدقت بها على نفسك » .

وقال أيضًا : « أفضل المسلمين من سلم المسلم من لسانه ويده » قالوا : فمن المؤمن ؟ قال : « من أمنه المؤمنون على أنفسهم وأموالهم » ، قالوا : فمن المهاجر ؟ قال : « من هجر السوء واجتنبه » .

وقال رجل : يا رسول الله ما الإسلام ؟ قال : « أن يسلم قلبك لله ، ويسلم المسلمون من لسانك ويدك » .

وقال مجاهد : يسلط على أهل النار الجرب ، فيحتكون حتى يبدو عظم أحدهم من جلده ، فينادى: يا فلان هل يؤذيك هذا ؟ فيقول : نعم ، فيقول : هذا بما كنت تؤذى المؤمنين .

وقال ﷺ : «لقد رأيت رجلاً يتقلب فى الجنة فى شجرة قطعها من ظهر الطريق كانت تؤذى المسلمين » .

وقال أبو هريرة رضى الله عنه : يا رسول الله علمنى شيئًا أنتفع به ، قال : « اعزل الأذى عن طريق المسلمين » .

وقال ﷺ : « من زحزح عن طريق المسلمين شيئًا يؤذيهم كتب الله له به حسنة ، ومن كتب له حسنة أوجب له بها الجنة » .

وقال ﷺ : « لا يحل لمسلم أن يشير إلى أخيه بنظرة تؤذيه » .

وقال ﷺ : « لا يحل لمسلم أن يروع مسلمًا » .

وقال ﷺ : « إن الله يكره أذى المؤمنين » .

وقال الربيع بن خيثم : الناس رجلان مؤمن فلا تؤذه ، وجاهل فلا تجاهله .

ومنها : أن يتواضع لكل مسلم ، ولا يتكبر عليه ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [لقمان : ١٨] .

وقال رسول الله ﷺ : « إن الله تعالى أوحى إلى : أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد » .ثم إن تفاخر عليه غيره ، فليحتمل ، قال الله تعالى لنبيه ﷺ : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩] .

وعن ابن أبى أوفى : كان رسول الله ﷺ يتواضع لكل مسلم ، ولا يأنف ولا يتكبر ، أى يمشى مع الأرملة والمسكين ، فيقضى حاجته .

ومنها : أن لا يسمع بلاغات الناس بعضهم على بعض ، ولا يبلغ بعضهم ما يسمع من بعض .

قال ﷺ : « لا يدخل الجنة فتان » .

وقال الخليل بن أحمد : من نم لك نم عليك ، ومن أخبرك بخبر غيرك ، أخبر غيرك بخبرك .

ومنها : أن لا يزيد فى الهجر لمن يعرفه على ثلاثة أيام مهما غضب عليه .

قال أبو أيوب الأنصارى : قال رسول الله ﷺ : « لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ، يلتقيان ، فيعرض هذا ويعرض هذا وخيرهما الذى يبدأ بالسلام » .

وقد قال ﷺ : « من أقال مسلمًا عثرته ، أقاله الله يوم القيامة » .

قال عكرمة : قال الله تعالى ليوسف بن يعقوب : « بعفوك عن إخوتك رفعت ذكرك فى الدارين » .

قالت عائشة رضى الله عنها : ما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه قط ، إلا أن تنتهك حرمة الله ، فينتقم لله .

وقال ابن عباس رضى الله عنهما : ما عفا رجل عن مظلمة إلا زاده الله بها عزًا .

وقال ﷺ : « ما نقص مال من صدقة ، وما زاد الله رجلاً بعفو إلا عزا ، وما من أحد تواضع لله إلا رفعه الله » .



الباب الحادي والسبعون في

ذم اتباع الهوى ، وفى بيان الزهد

قال الله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ [الجاثية : ٢٣] ، الآية . قال ابن عباس : ذلك الكافر اتخذ دينه بغير هدى من الله ولا برهان . والمعنى : هو مطواع لهوى النفس يتبع ما تدعوه إليه ولا يعمل بكتاب الله ، فكأنه يعبد هواه ، وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ [المائدة : ٤٨] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [ص : ٢٦] ، ولذلك استعاذ ﷺ منه بقوله : « اللهم إنى أعوذ بك من هوى مطاع وشح متبع » .

وقال : « ثلاث مهلكات : هوى مطاع ، وشح متبع ، وإعجاب المرء بنفسه » ، وذلك لأن كل معصية سببها هوى النفس ، فهو يقود إلى النار أعاذنا الله منه .

قال بعض العارفين : إذ بدهك أمران لا تدرى فى أيهما الصواب فانظر أيهما أقرب إلى هواك ، فخالفه ، وفى هذا المعنى قال الشافعى رضى الله عنه :

إذا جال أمرك فى معنيين ولم تدر حيث الخطأ والصواب
فخالف هواك فإن الهوى يقود النفوس إلى ما يعاب

وقال العباس : إذا اشتبه عليك رأيان ، فدع أحبهما إليك وخذ أثقلهما عليك ، وأصله : أن الأمر الخفيف يسهل عليك موقعه ، ويقرب موضعه ، وتخف مؤونته ، وتتأتى معونته ، فيشره المرء إليه وتحرص النفس عليه . والأمر الثقيل يصعب موقعه ويبعد موضعه ، وتبطىء معونته ، فتكسل النفس عنه وتكره التعب به .

وروى عن عمر رضى الله عنه أنه قال : اردعوا هذه الأنفس فإنها

طليعة تنزع بك إلى شر غاية .

إن هذا الحق ثقيل مرىء، وإن الباطل خفيف وبىء، وترك الخطيئة أيسر من معالجة التوبة، ورب نظرة زرعت شهوة، ولذة ساعة أورثت حزنًا طويلاً .

وقال لقمان لابنه: يا بنى أول ما أحذرك من نفسك ، فإن لكل نفس هوى وشهوة ، فإن أعطيتها شهوتها تمادت وطلبت سواها ، فإن الشهوة كامنة فى القلب كمون النار فى الحجر ، إن قدح أورى وإن ترك توارى .

وقال بعضهم :

إذا ما أجبت النفس فى كل دعـوة دعـتك إلى الأمـر القبيـح المحرم

وقال آخر :

إذا أنت لم تعص الهوى قادك الهوى إلى كـل ما فيه عليـك مقـال

وقال غيره :

واعلم بـأنك لن تسـود ولن ترى طرق الرشـاد إذا اتبـعـت هواك

وقال آخر :

إذا شئت إتيان المحامد كلـها ونيل الذى ترجـوه من رحمة الرب

فخالف هوى النفس المسيـئة إنه لأغـذى وأردى من هوى الحب

هما سببا حتف الهوى غيـر أن فى هوى الحب مهما عف بعدا عن الذنب

وحل المعاصى فى هوى النفس فاعتمد خـلاف الذى تهواه إن كنت ذا لب

وقال آخر :

إنارة العقل مكسـوف بطـوع هوى وعقل عاصى الهوى يـزداد تنويرا

وقال الفضل بن العباس :

لقد ترفع الأيـام من كـان جاهـلاً ويردى الهـوى ذا الرأى وهو لبيب

وقد يحمد الناس الفتى وهو مخطىء ويعذل فى الإحسـان وهو مصيب

وقال ﷺ : « خلق الله العقل ، وقال له : أقبل ، فأقبل ، وقال له : أدبر فأدبر ، فـقال : وعـزتى وجلالى لا ركبـتك إلا فى أحب الخلق إلىّ ، وخلق الحمق ، فقـال له : أقبل فأقبل ، وقال له : أدبر ، فـأدبر ، فقال :

وعزتى وجلالى لا ركبتك إلا فى أبغض الخلق إلىّ » رواه الترمذى .

ولله در من قال :

وقد أصاب برأيه عين الصواب   من استشار عقله فى كل باب
وقد رأى أن الهوى مهما يحب   يدعو إلى سوء العواقب والعقاب

وأنشد آخر :

إذا شئت أن تحظى وأن تبلغ المنى   فلا تسعد النفس المطيعة للهوى
وخالف بها عن مقتضى شهواتها   وإياك أن تحفل بمن ضل أو غوى
ودعها وما تدعو إليه فإنها   لأمارة بالسوء من هم أو مدى
لعلك أن تنجو من النار إنها   لقاطعة الأمعاء نزاعة الشوى

ومن منثورهم : الهوى مركب ذميم ، يسير بك فى ظلمات الفتن ومرتع وخيم يقعدك فى مواطن المحن ، فلا تحملنك شهوة النفس على ركوب المذمات ، والقعود فى مواطن الخطيئات .

وقيل لبعضهم : لو تزوجت . قال : لو قدرت أن أطلق نفسى لطلقتها، وأنشد :

تجرد من الدنيا فإنك إنما   سقطت إلى الدنيا وأنت مجرد

والدنيا نوم ، والآخرة يقظة . والمتوسط بينهما الموت ، ونحن فى أضغاث أحلام ، ومن نظر بعين الهوى حار ، ومن حكم على الهوى جار ، ومن أطال النظر لم يدرك الغاية ، وليس لناظر نهاية أوصى بعض الحكماء رجلا فقال : آمرك بمجاهدة هواك فإن الهوى مفتاح السيئات وخصيم الحسنات وكل أهوائك لك عدو وأهواها هوى يمثل لك الإثم فى صورة التقوى ولن تفصل بين هذه الخصوم إذا تناظرا لديك إلا بحزم لا يشوبه وهن وصدق لا يطمع فيه تكذيب ومضاء لا يقاربه التثبط وصبر لا يغتاله جزع ونية لا يتقسمها التضييع اللهم اجعل عقولنا غالبة على هوانا ولا تذقنا ضرا ولا هوانًا ولا تشغلنا بدنيانا عن أخرانا وتجعلنا ذاكرين شاكرين لنعمتك تجاه نبيك محمد سيدنا ومولانا ﷺ والحمد لله على ما أولانا .

وقال ﷺ : « خير دينكم الورع » ، وقال : « سيد العمل الورع » .

وقال : « كن ورعًا تكن أعبد الناس ، وكن قنعًا تكن أشكر الناس » .

وقال ﷺ : « من لم يكن له ورع يصده عن معصية الله ، إذا خلا ، لم يعبأ الله بشيء من عمله » .

وقال إبراهيم بن أدهم : الزهد ثلاثة مقامات : فزهد فرض ، وهو الكف عن المحارم ، وزهد سلامة وهو ترك الشبهات ، وزهد فضل وهو الزهد فى الحلال . وهذا تفسير حسن . وقال ابن المبارك : الزهد إخفاء الزهد ، إذا هرب الزاهد من الناس فاطلبه ، وإذا طلب الناس فاهرب منه .

وما أحسن قول القائل :

إن وجدت فلا تظن غيره إن التورع عند هذا الدرهم

فإذا قدرت عليه ثم تركته فاعلم بأن تقاك تقوى المسلم

وليس الزاهد من زهد فى الدنيا ، وقد أعرضت عنه ، وإنما الزاهد من أقبلت عليه ، فزوى عنها وجهه وآثر الفرار منها كما قال أبو تمام :

إذا المرء لم يزهد وقد صيغت له بعصفرها الدنيا فليس بزاهد

وقال بعض الحكماء: ما لنا لا نزهد فى الدنيا وعمرها أمد، وخيرها نكد وصفوها كدر ، وأمانها غرر ، إن أقبلت تشجى ، وإن أقبت تردى قال :

تبًا لدنيا لا بقاء لها كأنما هى فى تصريفها حلم

صفاؤها كدرٌ سراؤها ضررٌ أمانها غرر أنوارها ظلم

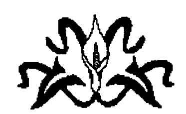
شبابها هرم راحاتها سقم لذاتها ندم ووجدانها عدم

لا يستفيق من الأنكاد صاحبها لو كان يملك ما قد ضمنت إرم

فخل عنها ولا تركن لزهرتها فإنها نعم فى طيها نقم

واعمل لدار نعيم لا نفاد لها ولا يخاف بها موت ولا هرم

ومن حكم يحيى بن معاذ : ليكن نظرك إلى الدنيا اعتبارًا ، ورفضك لها اختيارًا ، وسعيك فيها اضطرارًا ، وطلبك الآخرة ابتدارًا .



الباب الثاني والسبعون.. في

صفة الجنة ومراتب أهلها

اعلم أن تلك الدار التي عرفت همومها وغمومها ـ وهي النار ـ تقابلها دار أخرى . فتأمل نعيمها وسرورها .

فإن من بعد من إحداهما استقر لا محالة في الأخرى ، فاستأثر الخوف من قلبك بطول الفكر في أهوال الجحيم ، واستنثر الرجاء بطول الفكر في النعيم المقيم، الموعود لأهل الجنان ، وسق نفسك بسوط الخوف ، وقدها بزمام الرجاء إلى الصراط المستقيم ، فبذلك تنال الملك العظيم ، وتسلم من العذاب الأليم .

وتفكر في أهل الجنة وفي وجوههم نضرة النعيم ، يسقون من رحيق مختوم ، جالسين على منابر الياقوت الأحمر في خيام من اللؤلؤ الرطب الأبيض ، فيها بسط من العبقري الأخضر ، متكئين على الأرائك ، منصوبة على أطراف أنهار مطردة بالخمر والعسل ، محفوفة بالغلمان والولدان ، مزينة بالحور العين من الخيرات الحسان ، كأنهن الياقوت والمرجان ، لم يطثهن إنس قبلهم ولا جان . يمشين في درجات الجنان . إذا اختالت إحداهن في مشيها حمل أعطافها سبعون ألفًا من الولدان . عليها من طرائف الحرير الأبيض ما تتحير فيه الأبصار ، متوجات بالتيجان المرصعة باللؤلؤ والمرجان ، شكلات، غنجات[1] ، عطرات ، آمنات من الهرم والبؤس ، مقصورات في الخيام ، في قصور من الياقوت ، بنيت وسط روضات الجنان ، قاصرات الطرف عين ، ثم يطاف عليهم وعليهن بأكواب وأباريق وكأس من معين ، بيضاء لذة للشاربين ، ويطوف عليهم خدام وولدان كأمثال اللؤلؤ المكنون ، جزاء بما كانوا يعملون ، في مقام أمين ، في جنات وعيون ، في جنات ونهر ، في مقعد صدق عند مليك مقتدر ، ينظرون فيها إلى وجه الملك الكريم .

---

(١) الشكلات المتماثلات في الهيئة والجمال والغنجات المتدللات على أزواجهن بلا خلاف ويقال امرأة غنجة ومغناج .

وقد أشرقت فى وجوههم نضرة النـعيم ، لا يرهقهم قتر ولا ذلة ، بل عبـاد مكرمون ، وبأنواع التـحف من ربهم يتعـاهدون ، فهم فيـما اشـتهت أنفـسهم خـالدون . لا يخـافون فـيهـا ولا يحـزنون . وهم من ريب المنون آمنون. فهم فيها يتنعمون ، ويأكلون من أطعمتها ، ويشربون من أنهارها لبنًا وخمرًا وعسلاً وماء غير آسن .

أراضيها من فضة ، وحصبـاؤها مرجان ، وترابها مسك أذفر ، ونباتها زعفران ، ويمطرون مـن سحاب فيهـا من ماء النسرين على كثـبان الكافور، ويؤتون بأكواب - أى أكواب من فضة - مرصـعة بالدر والياقوت والمرجان ، كوب فـيه من الرحيق المخـتوم ممزوج به السلسـبيل العذب ، وكـوب يشرق نوره، ومن صفاء جوهره يبدو الشراب من ورائـه برقته وحمرته ، لم يصنعه آدمى فيقصر فى تسوية صنعته ، وتحـسين صناعته فى كف خادم يحكى ضياء وجهه الشـمس فى إشراقها . ولكن من أين للشمس مـثل حلاوة صورته ، وحسن أصداغه وملاحة أحداقه .

فيا عجبًا لمن يؤمن بدار هذه صفتها ، ويوقن بأنه لا يموت أهلها ، ولا تحل الفجائع بمن نزل بفنائهـا ، ولا تنظر الأحداث بعين التغيـير إلى أهلها ، كيف يأنس بدار قـد أذن الله فى خرابها ، ويهنأ بعـيش دونها ؟ والله لو لم يكن فيـها إلا سلامة الأبدان مع الأمن من الموت والجـوع والعطش ، وسائر أصناف الحدثان ، لكان جديرًا بأن يهجر الدنيا بسببها ، وأن لا يؤثر عليها ما التصرم والتنغص من ضرورته .

كيف وأهلها مـلوك آمنون ، وفى أنواع السرور ممتعون ، لهم فـيها كل مـا يشتـهون ، وهم فى كل يوم بفـناء العرش يحـضرون ، وإلى وجـه الله الكريم ينظرون ، وينالون بالنظـر من الله ما لا ينظرون مـعه إلى سائـر نعيم الجنان ، ولا يلتفتون وهم على الدوام بين أصناف هذه النعم يترددون ، ومن زوالها آمنون .

قال أبو هريرة : قـال رسول الله ﷺ : « ينادى مناد : يا أهل الجنة ، إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدًا ، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدًا ، وإن

لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدًا ، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدًا ، فذلك قوله عز وجل : ﴿ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف : ٤٣] ومهما أردت أن تعرف صفة الجنة ، فاقرأ القرآن ، فليس وراء بيان الله تعالى بيان ، واقرأ من قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن : ٤٦] إلى آخر سورة الرحمن ، واقرأ سورة الواقعة وغيرها من السور ، وإن أردت أن تعرف تفصيل صفاتها من الأخبار ، فتأمل الآن تفصيلها بعد أن اطلعت على جملتها وتأمل أولاً عدد الجنان .

قال رسول الله ﷺ في قوله تعالى : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ قال : « جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما ، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن » .

ثم انظروا إلى أبواب الجنة ، فإنها كثيرة بحسب أصول الطاعات ، كما أن أبواب النار بحسب أصول المعاصي .

قال أبو هريرة : قال رسول الله ﷺ : « من أنفق زوجين من ماله في سبيل الله دعي من أبواب الجنة كلها ، وللجنة ثمانية أبواب ، فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الصيام ، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة ، ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد » ، فقال أبو بكر رضي الله عنه : والله ما على أحد من ضرورة من أيها دعي ، فهل يدعى أحد منها كلها ؟ قال : «نعم ، وأرجو أن تكون منهم » .

وعن عاصم بن ضمرة عن عليّ كرم الله وجهه أنه ذكر النار فعظم أمرها وما ذكر شيئًا إلا أحفظه ، ثم قال : ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ﴾ [الزمر : ٧٣] حتى إذا انتهوا إلى باب من أبوابها وجدوا عنده شجرة يخرج من تحت ساقها عينان تجريان ، فعمدوا إلى إحداهما ، كما أمروا به فشربوا منها فأذهبت ما في بطونهم من أذى وبأس ، ثم عمدوا إلى الأخرى ، فتطهروا منها ، فجرت عليهم نضرة النعيم ، فلا تتغير أشعارهم

بعـدها أبدًا ، ولا تشعث رؤوسـهم ، كأنمـا دهنوا بالدهان ، ثم انتهـوا إلى الجنة، فقال لهم خزنتها : ﴿ سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾ . [الزمر : ٧٣] .

ثم تلقاهم الولدان يـطيفون بهم كـما تطيف ولدان أهل الدنيا بالحـبيب يقدم عليهم من غيبة ، يقـولون له : أبشر ، أعد الله لك من الكرامة كذا ، قال : فـينطلق غلام من أولئك الولدان إلى بعض أزواجه من الحـور العين ، فيقول : قد جاء فلان ــ باسمه الذى كان يدعى به فى الدنيا ــ فتقول : أنت رأيته ؟ فيقول : وهو بأثرى فيستخفها الفرح ، حتى تقوم إلى أسكفة بابها ، فإذا انتهى إلى منزله ، نظر إلى أساس بنائهـا ، فإذا جندل اللؤلؤ فوقه صرح أحمر وأخضـر وأصفر من كل لون ، ثم يرفع رأسه فينظر إلى سـقفه ، فإذا هو مثل البرق ، ولولا أن الله تعالى أقدره، لألم بأن يذهب بصره، ثم طأطأ رأسه فإذا أزواجه ﴿وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ * وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ * وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾ [الغاشية : ١٤ - ١٦] ، ثم اتكأ يقول : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ﴾ [الأعراف : ٤٣] ثم ينادى مناد : تحيون فلا تموتون أبدًا ، وتقيمون فلا تظعنون أبدًا وتصحون فلا تمرضون أبدًا .

وقال رسول الله ﷺ : « آتى يوم القيامة باب الجنة فـأستفتح ، فيقول الخازن : من أنت ؟ فأقول : محمد ، فـيقول : بك أمرت أن لا أفتح لأحد قبلك » .

ثم تأمل الآن فى غرف الجنة واختلاف درجات العلو فيها ، فإن بعضها فوق بعض ﴿وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً ﴾ [الإسراء : ٢١] .

وكما أن بـين الناس فى الطاعات الظاهرة والأخلاق الباطنـة المحمودة، تفاوتًا ظاهرًا فكذلك فيما يجازون به ، تفاوت ظاهر ، فإن كنت تطلب أعلى الدرجات فاجتهد أن لا يسبقك أحد بطاعة الله تعالى ، فقد أمر الله بالمسابقة والمنافسة فيها ، فقال تعالى : ﴿ سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ . [الحديد : ٢١] .

وقال تعالى : ﴿فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين : ٢٦] ، والعجب : أنه لو تقدم عليك أقرانك أو جيرانك بزيادة درهم أو بعلو بناء ، ثقل عليك ذلك ، أو ضاق به صدرك ، وتنغص بسبب الحسد عيشك .

وأحسن أحوالك أن تستقر فى الجنة وأنت لا تسلم فيها من أقوام يسبقونك بلطائف لا توازيها الدنيا بحذافيرها .

فقد قال أبو سعيد الخدرى : قال رسول الله ﷺ : « إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف فوقهم كما تتراءون الكوكب الغائر فى الأفق ، من المشرق والمغرب ، لتفاضل ما بينهم »، قالوا: يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم ؟ قال:«بلى، والذى نفسى بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين» .

وقال أيضًا : « إن أهل الدرجات العلا ليراهم من تحتهم كما ترون النجم الطالع فى أفق من آفاق السماء ، وإن أبا بكر وعمر لمنهم وأنعما » .

وقال جابر : قال لنا رسول الله ﷺ : « ألا أحدثكم بغرف الجنة ؟ » قال : قلت : بلى يا رسول الله صلى الله عليك بأبينا أنت وأمنا ، قال : «إن فى الجنة غرفًا من أصناف الجواهر كله، يرى ظاهرها من باطنها ، وباطنها من ظاهرها ، وفيها من النعيم واللذات والسرور ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » ، قال : قلت : يا رسول الله ولمن هذه الغرف ؟ قال : « لمن أفشى السلام وأطعم الطعام وأدام الصيام ، وصلى بالليل والناس نيام » ، قال : قلنا : يا رسول الله ومن يطيق ذلك ؟ قال : «أمتى تطيق ذلك ، وسأخبركم عن ذلك : من لقى أخاه فسلم عليه فقد أفشى السلام ، ومن أطعم أهله وعياله من الطعام حتى يشبعهم فقد أطعم الطعام ، ومن صام شهر رمضان ومن كل شهر ثلاثة أيام فقد أدام الصيام ، ومن صلى العشاء الآخرة وصلى الغداة فى جماعة فقد صلى بالليل والناس نيام » .

يعنى . اليهود والنصارى والمجوس .

وسئل رسـول الله ﷺ عن قوله تـعالى : ﴿وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ [التوبة : ٧٢] .

قال : « قصـور من لؤلؤ فى كل قصر سبعون دار من ياقـوت أحمر ، فى كل دار سبعون بيتًا من زمرد أخضر ، فى كل بيت سرير، على كل سرير سبعون فراشًا من كل لون ، على كل فراش زوجة من الحور العين ، فى كل بيت سبعـون مائدة ، على كل مائدة سبعـون لونًا من الطعام ، فى كل بيت سبـعون وصيفـة ، ويعطى المؤمن فى كل غداة ــ يعنى من القـوة ــ ما يأتى على ذلك أجمع » .



الباب الثالث والسبعون ..في

الصبر والرضا والقناعة

أما فضل الرضا من الآيات :

فقوله تعالى : ﴿ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ [المائدة : ١١٩] ، وقد قال تعالى : ﴿ هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ ﴾ [الرحمن : ٦٠] ومنتهى الإحسان : رضا الله عن عبده ، وهو ثواب رضا العبد عن الله تعالى ، وقال تعالى : ﴿وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ [التوبة : ٧٢] فقد رفع الله الرضا فوق جنات عدن ، كما رفع ذكره فوق الصلاة ، حيث قال : ﴿ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ﴾ [العنكبوت:٤٥] فكما أن مشاهدة المذكور فى الصلاة أكبر من الصلاة ، فرضوان رب الجنة أعلى من الجنة ، بل هو غاية مطلب سكان الجنان ، وفى الحديث: « أن الله تعالى يتجلى للمؤمنين ، فيقول : سلونى ، فيقولون : رضاك » فسؤالهم الرضا بعد النظر نهاية التفضيل .

وأما رضا العبد فسنذكر حقيقته ، وأما رضوان الله تعالى عن العبد فهو بمعنى آخر يقرب مما ذكرناه فى حب الله للعبد ، ولا يجوز أن يكشف عن حقيقته ، إذ تقصر أفهام الخلق عن إدراكه ، ومن يقوى عليه فيستقل بإدراكه من نفسه ؟ .

وعلى الجملة : فلا رتبة فوق النظر إليه ، فإنما سألوه الرضا ؛ لأنه سبب دوام النظر، فكأنهم رأوه غاية الغايات ، وأقصى الأمانى ، لما ظفروا بنعيم النظر، فلما أمروا بالسؤال لم يسألوا إلا دوامه ، وعلموا أن الرضا هو سبب دوام رفع الحجاب، وقال الله تعالى:﴿ وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ [ق: ٣٥] ، قال بعض المفسرين فيه : يأتى أهل الجنة فى وقت المزيد ثلاث تحف من عند رب العالمين :

إحداها : هدية من عند الله تعالى ليس عندهم في الجنان مثلها، فذلك قوله تعالى : ﴿ **فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ** ﴾ [السجدة: ١٧] .

والثانية : السلام عليهم من ربهم ، فيزيد ذلك على الهدية فضلاً وهو قوله تعالى : ﴿ **سَلامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ** ﴾ [يس : ٥٨] .

والثالثة : يقول الله تعالى : إني عنكم راض ، فيكون ذلك أفضل من الهدية والتسليم . فذلك قوله تعالى : ﴿ **وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ** ﴾ [التوبة: ٧٢] أي من النعيم الذي هم فيه ، فهذا فضل رضا الله تعالى وهو ثمرة رضا العبد .

وأما فضله من الأخبار : فقد روى أن النبي ﷺ سأل طائفة من أصحابه: « ما أنتم ؟ » فقالوا : مؤمنون ، فقال : « ما علامة إيمانكم ؟ » فقالوا : الصبر على البلاء ، ونشكر عند الرخاء ، ونرضى بمواقع القضاء . فقال : «مؤمنون ورب الكعبة » .

وفي خبر آخر : أنه قال : «حكماء علماء كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء » .

وفي الخبر : « طوبى لمن هدى للإسلام ، وكان رزقه كفافًا به » .

وقال ﷺ : « من رضى من الله تعالى بالقليل من الرزق ، رضى الله تعالى منه بالقليل من العمل » .

وقال أيضًا: « إذا أحب الله تعالى عبدًا ابتلاه ، فإن صبر اجتباه ، فإن رضى اصطفاه » .

وقال أيضًا : « إذا كان يوم القيامة أنبت الله تعالى لطائفة من أمتي أجنحة فيطيرون من قبورهم إلى الجنان ، ويسرحون فيها ويتنعمون فيها كيف شاءوا ، فتقول لهم الملائكة : هل رأيتم الحساب ؟ فيقولون : ما رأينا حسابًا . فتقول لهم : هل جزتم الصراط ؟ فيقولون : ما رأينا صراطًا . فتقول لهم : هل رأيتم جهنم ؟ فيقولون : ما رأينا شيئًا . فتقول الملائكة : من أمة من أنتم ؟ فيقولون : من أمة محمد ﷺ فتقول : نشدناكم الله

حدثونا ما كانت أعمالكم في الدنيا ؟ فيقولون : خصلتان كانتا فينا فبلغنا هذه المنزلة بفضل رحمة الله . فيقولون : وما هما ؟ فيقولون : كنا إذا خلونا نستحي أن نعصيه ، ونرضى باليسير مما قسم لنا ، فتقول الملائكة : يحق لكم هذا » .

وقال ﷺ : « يا معشر الفقراء أعطوا الله الرضا من قلوبكم تظفروا بثواب فقركم ، وإلا فلا » .

وفي أخبار موسى عليه السلام : أن بني إسرائيل قالوا له : سل لنا ربك أمرًا إذا نحن فعلناه يرضى به عنا ، فقال موسى عليه السلام : إلهي قد سمعت ما قالوا . فقال : يا موسى قل لهم يرضون عني حتى أرضى عنهم .

وأما فضل الصبر : فقد ذكر في القرآن في نيف[1] وتسعين موضعًا ، وأضاف أكثر الدرجات والخيرات إلى الصبر ، وجعلها ثمرة له ، وجمع للصابرين بين أمور لم يجمعها لغيرهم .

فقال تعالى : ﴿ **أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ** ﴾ [البقرة : ١٥٧] فالهدى والرحمة والصلوات مجموعة للصابرين واستقصاء جميع الآيات في مقام الصبر يطول .

وأما الأخبار : فقد قال ﷺ : « الصبر نصف الإيمان » .

وقال ﷺ : « من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر، ومن أعطى حظه منهما لم يبال بما فاته من قيام الليل وصيام النهار ؛ ولأن تصبروا على ما أنتم عليه، أحب إلى من أن يوافيني كل امرىء منكم بمثل عمل جميعكم، ولكني أخاف أن تفتح عليكم الدنيا بعدي فينكر بعضكم بعضًا، وينكركم أهل السماء عند ذلك، فمن صبر واحتسب ظفر بكمال ثوابه». ثم قرأ قوله: ﴿**مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم**﴾ [النحل: ٩٦] الآية .

وروى جابر أنه سئل ﷺ عن الإيمان ، فقال : « الصبر والسماحة » .

---

(١) بل أكثر من مائة مرة من الصبر ومشتقات الصبر .

وقال أيضًا : «الصبر كنز من كنوز الجنة » .

وسئل مـرة : ما الإيمان ؟ فقـال : « الصبر » وهذا يشبـه قوله ﷺ : «الحج عرفة » معناه : معظم الحج عرفة . وقال أيضًا ﷺ : « أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس». وقيل: « أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : تخلق بأخلاقى ، وإن أخلاقى أنى أنا الصبور » . وفى حديث عطاء عن ابن عبـاس لما دخل رسول الله ﷺ على الأنصـار ، فقال : «أمـؤمنون أنتم ؟ » فسكتوا. فقال عمر : نعم يا رسول الله . قال : « وما علامة إيمانكم ؟» ، قالوا: نشكر على الرخاء، ونصبر على البلاء، ونرضى بالقضاء . فقال ﷺ : «مؤمنون ورب الكعبة». وقال ﷺ : « فى الصبر على ما تكره خير كثير » .

وقال المسيح عليه السلام : إنكم لا تدركـون ما تحبون إلا بصبركم على ما تكرهون . وقـال رسول الله ﷺ : « لو كان الصـبر رجـلاً لكان كريمًا ، والله يحب الصابرين ».

والأخبار فى هذا لا تحصى وقال ﷺ : « عز من قنع وذل من طمع » .

وقال ﷺ : «القناعة كنز لا يفنى » وتقدم الكلام على القناعة مرارًا .



الباب الرابع والسبعون .. في

فضل التوكل

فمن الآيات : قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران : ١٥٩] وأعظم بمقام موسوم بمحبة الله تعالى صاحبه مضمون بكفاية الله تعالى وملابسته ، فمن الله تعالى حسبه وكافيه ومحبه ومراعيه ، فقد فاز الفوز العظيم ؛ فإن المحبوب لا يعذب ولا يبعد ولا يحجب .

ومن الأخبار : قوله ﷺ فيما رواه ابن مسعود : « رأيت الأمم فى الموسم ، فرأيت أمتى قد ملئوا السهل والجبل ، فأعجبتنى كثرتهم وهيئتهم ، فقيل لى : أرضيت ؟ قلت : نعم ، قيل: ومع هؤلاء سبعون ألفًا يدخلون الجنة بغير حساب » . قيل : من هم يا رسول الله ؟ قال : « الذين لا يكتوون ولا يتطيرون ولا يسترقون ، وعلى ربهم يتوكلون » ، فقام عكاشة وقال : يا رسول الله ادع الله أن يجعلنى منهم . فقال ﷺ : « اللهم اجعله منهم » ، فقال آخر : يا رسول الله ادع الله أن يجعلنى منهم ، فقال ﷺ : «سبقك بها عكاشة » .

وقال ﷺ : « لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خماصًا وتروح بطانًا » .

وقال ﷺ : « من انقطع إلى الله عز وجل ، كفاه الله تعالى كل مؤنة ورزقه من حيث لا يحتسب ، ومن انقطع إلى الدنيا وكله الله إليها » .

وقال ﷺ : « من سره أن يكون أغنى الناس ، فليكن بما عند الله أوثق منه بما فى يديه » .

وروى عن رسول الله ﷺ أنه كان إذا أصاب أهله خصاصة ، قال : «قوموا إلى الصلاة » ، ويقول : « بهذا أمرنى ربى عز وجل » ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه : ١٣٢] الآية .

وقال ﷺ : « لم يتوكل من استرقى واكتوى » . وروى أنه لما قال جبريل لإبراهيم عليهما السلام وقد رمى إلى النار بالمنجنيق : ألك حاجة ؟ قال : أما إليك فلا ، وفاء بقوله : **حسبي الله ونعم الوكيل** إذ قال ذلك حين أخذ ليرمى فأنزل الله تعالى : ﴿**وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ**﴾ [النجم : ٣٧] .

وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : يا داود ما من عبد يعتصم بى دون خلقى ، فتكيده السموات والأرض ، إلا جعلت له مخرجًا .

وقال سعيد بن جبير : لدغتنى عقرب ، فأقسمت علىَّ أمى لتسترقين ، فناولت الراقى يدى التى لم تلدغ . وقرأ الخواص قوله تعالى : ﴿ **وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ** ﴾ [الفرقان: ٥٨] إلى آخرها ، فقال : ما ينبغى للعبد بعد هذه الآية أن يلجأ إلى أحد غير الله تعالى .

وقيل لبعض العلماء فى منامه : من وثق بالله تعالى فقد أحرز قوته . وقال بعض العلماء: لا يشغلك المضمون لك من الرزق عن المفروض عليك من العمل ، فتضيع أمر آخرتك ولا تنال من الدنيا إلا ما قد كتب الله لك .

وقال يحيى بن معاذ : فى وجود الرزق للعبد من غير طلب ، دلالة على أن الرزق مأمور بطلب العبد .

وقال إبراهيم بن أدهم : سألت بعض الرهبان : من أين تأكل ؟ قال لى : ليس هذا العلم عندى ، ولكن سل ربى من أين يطعمنى ؟ .

وقال هرم بن حبان لأويس القرنى : أين تأمرنى أن أكون ؟ فأومأ إلى الشام ، قال هرم : كيف المعيشة ؟ قال أويس : أف لهذه القلوب قد خالطها الشك ، فما تنفعها الموعظة . وقال بعضهم : متى رضيت بالله وكيلاً ، وجدت إلى كل خير سبيلاً .

نسأل الله تعالى حسن الأدب .



الباب الخامس والسبعون .. في

فضل المسجد

قال الله عز وجل : ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ [التوبة : ١٨]، وقال ﷺ : « من بنى لله مسجدًا ولو كمفحص قطاة ، بنى الله له قصرًا فى الجنة » .

وقال ﷺ : « من ألف المسجد ألفه الله تعالى » .

وقال ﷺ : « إذا دخل أحدكم المسجد ، فليركع ركعتين قبل أن يجلس» .

وقال ﷺ : « لا صلاة لجار المسجد إلا فى المسجد » .

وقال ﷺ : « الملائكة تصلى على أحدكم ما دام فى مصلاه الذى يصلى فيه ، تقول : اللهم صل عليه ، اللهم ارحمه ، اللهم اغفر له ، ما لم يحدث أو يخرج من المسجد » .

وقال ﷺ : « يأتى فى آخر الزمان ناس من أمتى يأتون المساجد ، فيقعدون فيها حلقا حلقًا ، ذكرهم الدنيا وحب الدنيا ، لا تجالسوهم ، فليس لله بهم حاجة » .

وقال ﷺ : « قال الله عز وجل فى بعض الكتب : إن بيوتى فى أرضى المساجد ، وإن زوارى فيها عمارها ، فطوبى لعبد تطهر فى بيته ، ثم زارنى فى بيتى ، فحق على المزور أن يكرم زائره » .

وقال ﷺ : « إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان » .

وقال سعيد بن المسيب : من جلس فى المسجد ، فإنما يجالس ربه ، فما حقه أن يقول إلا خيرًا .

ويروى فى الأثر أو الخبر : « الحديث فى المسجد يأكل الحسنات كما تأكل البهائم الحشيش » .

وقال النخعي : كانوا يرون أن المشى فى الليلة المظلمة إلى المسجد موجب للجنة .

وقال أنس بن مالك : من أسرج فى المسجد سراجًا لم تزل الملائكة وحملة العرش يستغفرون له ما دام فى ذلك المسجد ضوء .

وقال عليّ كرم الله وجهه : إذا مات العبد يبكى عليه مصلاه من الأرض ، ومصعد عمله من السماء ، ثم قرأ : ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴾ [الدخان : ٢٩] وقال ابن عباس : تبكى عليه الأرض أربعين صباحًا .

وقال عطاء الخراسانى : ما من عبد يسجد لله سجدة فى بقعة من بقاع الأرض ، إلا شهدت له يوم القيامة وبكت عليه يوم يموت .

وقال أنس بن مالك: ما من بقعة يذكر الله تعالى عليها بصلاة أو ذكر، إلا افتخرت على ما حولها من البقاع واستبشر بذكر الله عز وجل إلى منتهاها من سبع أرضين .

وما من عبد يقوم يصلى إلا تزخرفت له الأرض .

ويقال : ما من منزل نزل فيه قوم إلا أصبح ذلك المنزل يصلى عليهم أو يلعنهم .



الباب السادس والسبعون ..في

الرياضة وفضل أهل الكرامة

اعلم أن الله عز وجل إذا أراد بعبد خيرًا بصره بعيوب نفسه ، فمن كانت بصيرته نافذة لم تخف عليه عيوبه ، فإذا عرف العيوب أمكنه العلاج ، ولكن أكثر الخلق جاهلون بعيوب أنفسهم ، يرى أحدهم القذى فى عين أخيه، ولا يرى الجذع فى عين نفسه ، فمن أراد أن يعرف عيوب نفسه فله أربعة طرق :

الأول : أن يجلس بين يدى شيخ بصير بعيوب النفس ، مطلع على خفايا الآفات ، ويحكمه فى نفسه ، ويتبع إشاراته فى مجاهدته ، وهذا شأن المريد مع شيخه ، والتلميذ مع أستاذه ، فيعرفه أستاذه وشيخه عيوب نفسه ، ويعرفه طريق علاجه ، وهذا قد عز فى هذا الزمان وجوده .

الثانى : أن يطلب صديقًا صدوقًا بصيرًا متدينًا، فينصبه رقيبًا على نفسه ليلاحظ أحواله وأفعاله ، فما كره من أخلاقه وعيوبه الباطنة والظاهرة ينبهه عليها ، وهكذا كان يفعل الأكياس والأكابر من أئمة الدين . فكان عمر رضى الله عنه يقول : رحم الله امرأ أهدى إلىّ عيوبى . وكان يسأل سلمان عن عيوبه . فلما قدم عليه ، فقال له : ما الذى بلغك عنى مما تكرهه ؟ فاستعفى . فألحّ عليه ، فقال : بلغنى أنك جمعت بين إدامين على مائدة ، وأن لك حلتين حلة بالنهار وحلة بالليل . قال : هل بلغك غير هذا ؟ قال : لا . فقال : أما هذان فقد كفيتهما ، وكان يسأل حذيفة ويقول له : أنت صاحب سر رسول الله ﷺ فى المنافقين فهل ترى علىّ شيئًا من آثار النفاق؟ .

فهو على جلالة قدره وعلو منصبه ، هكذا كانت تهمته لنفسه ـــ رضى الله عنه ـــ فكل من كان أوفر عقلاً وأعلى منصبًا ، كان أقل إعجابًا وأعظم اتهامًا لنفسه ، إلا أن هذا أيضًا قد عز فقل فى الأصدقاء من يترك المداهنة ،

فيخبر بالعيب أو يترك الحسد ، فلا يزيد على قدر الواجب فلا تخلو فى أصدقائك عن حسود ، أو صاحب غرض يرى ما ليس بعيب عيبًا ، أو عن مداهن يخفى عنك بعض عيوبك .

ولهذا كان داود الطائى قد اعتزل الناس، فقيل له: لم لا تخالط الناس ؟ فقال : وماذا أصنع بأقوام تخفى عنى عيوبى ؟ فكانت شهوة ذوى الدين أن ينتبهوا لعيوبهم بتنبيه غيرهم . وقد آل الأمر فى أمثالنا إلى أن أبغض الخلق إلينا من ينصحنا ويعرفنا بعيوبنا ، ويكاد هذا أن يكون مفصحًا عن ضعف الإيمان، فإن الأخلاق السيئة كحيّات وعقارب لداغة ، فلو نبهنا منبه على أن تحت ثوبنا عقربًا ستلدغنا منه، فرحنا به واشتغلنا بإزالة العقرب وإبعادها وقتلها وإنما نكايتها على البدن ودوام ألمها يومًا فما دونه ، ونكاية الأخلاق الرديئة على صميم القلب أخشى أن تدوم إلى الموت أبدًا أو آلاف من السنين.

ثم إنا لا نفرح بمن ينبهنا عليها ، ولا نشتغل بإزالتها ، بل نشتغل بمقابلة الناصح بمثل مقالته ، فنقول له : وأنت أيضًا تصنع كيت وكيت ، وتشغلنا العداوة معه عن الانتفاع بنصحه، ويشبه أن يكون ذلك من قساوة القلب التى أثمرتها كثرة الذنوب . وأصل كل ذلك : ضعف الإيمان . فنسأل الله عز وجل أن يلهمنا رشدنا ويبصرنا بعيوبنا ويشغلنا بمداواتها ، ويوفقنا للقيام بشكر من يطلعنا على مساوئنا بمنه وفضله .

الطريق الثالث : أن يستفيد بمعرفة عيوب نفسه من ألسنة أعدائه ، فإن عين السخط تبدى المساوىء ، ولعل انتفاع الإنسان بعدو مشاحن يذكره عيوبه، أكثر من انتفاعه بصديق مداهن ، يثنى عليه ويمدحه ويخفى عنه عيوبه . إلا أن الطبع مجبول على تكذيب العدو ، وحمل ما يقوله على الحسد ، ولكن البصير لا يخلو عن الانتفاع بقول أعدائه ، فإن مساوئه لا بد وأن تنتشر على ألسنتهم .

الطريق الرابع : أن يخالط الناس، فكل ما رآه مذمومًا فيما بين الخلق، فليطالب نفسه بالبعد عنه ، فإن المؤمن مرآة المؤمن ، ويرى من عيوب غيره عيوب نفسه ، ويعلم أن الطباع متقاربة فى اتباع الهوى ، وما يتصف به

واحد من الأقران ، لا ينفك القرين الآخر عن أصله أو عن أعظم منه أو عن شيء منه ، فليتفقد نفسه ويطهرها عن كل ما يذمه من غيره ، وناهيك بهذا تأديبًا فلو ترك الناس كلهم ما يكرهونه من غيرهم ، لاستغنوا عن المؤدب .

قيل لعيسى عليه السلام : من أدبك ؟ قال : ما أدبنى أحد ، رأيت جهل الجاهل سيئًا فاجتنبته ، وهذا كله ينفع من وجد شيخًا عارفًا زكيا بصيرًا بعيوب النفس مشفقًا ناصحًا فى الدين ، فارغًا من تهذيب نفسه ، مشتغلاً بتهذيب عباد الله تعالى ناصحًا لها ، فمن وجد ذلك فقد وجد الطبيب ، فليلازمه، فهو الذى يخلصه من مرضه وينجيه من الهلاك الذى هو بصدده .

واعلم أن ما ذكرناه إن تأملته بعين الاعتبار انفتحت بصيرتك وانكشفت لك علل القلوب وأمراضها ، وأدويتها بنور العلم واليقين ، فإن عجزت عن ذلك فلا ينبغى أن يفوتك التصديق والإيمان على سبيل التلقى والتقليد لمن يستحق التقليد ، فإن للإيمان درجة كما أن للعلم درجة ، والعلم يحصل بعد الإيمان ، وهو وراءه قال تعالى : ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ [المجادلة : ١١] فمن صدق بأن مخالفة الشهوات والطريق إلى الله عز وجل ولم يطلع على سببه وسره ، فهو من الذين آمنوا، وإذا اطلع على ما ذكرناه من أعوان الشهوات فهو من الذين أوتوا العلم ﴿وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى ﴾ .

والذى يقتضى الإيمان بهذا الأمر فى القرآن والسنة وأقاويل العلماء أكثر من أن يحصر ، قال الله تعالى : ﴿ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾ [النازعات : ٤٠-٤١] وقال تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [الحجرات : ٣] قيل : نزع منها محبة الشهوات.

وقال ﷺ : « المؤمن بين خمس شدائد : مؤمن يحسده ، ومنافق يبغضه ، وكافر يقاتله ، وشيطان يضله ، ونفس تنازعه » . فبين : أن النفس عدو منازع ، يجب عليه مجاهدتها .

ويروى : أن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام : يا داود ، حذر

وأنذر أصحابك كل الشهوات ، فإن القلوب المتعلقة بشهوات الدنيا عقولها عني محجوبة .

وقال عيسى عليه السلام : طوبى لمن ترك شهوة حاضرة ، لموعود غائب لم يره .

وقال نبينا ﷺ لقوم قدموا من الجهاد : « مرحبًا بكم ، قدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر » ، قيل : يا رسول الله وما الجهاد الأكبر ؟ قال: « جهاد النفس » .

وقال ﷺ : « المجاهد من جاهد نفسه فى طاعة الله عز وجل » .

وقال ﷺ : « كف أذاك عن نفسك ، ولا تتبع هواها فى معصية الله ، إذ تخاصمك يوم القيامة ، فيلعن بعضك بعضًا إلا أن يغفر الله تعالى ويستر» .

وقال سفيان الثورى : ما عالجت شيئًا أشد على من نفسى ، مرة لى ، ومرة علىّ .

وكان أبو عباس الموصلى يقول لنفسه : يا نفس لا فى الدنيا مع أبناء الملوك تنعمين ، ولا فى طلب الآخرة مع العباد تجتهدين ، كأنى بك بين الجنة والنار تحبسين يا نفس ألا تستحين ؟ .

وقال الحسن: ما الدابة الجموح بأحوج إلى اللجام الشديد من نفسك .

وقال يحيى بن معاذ الرازى : جاهد نفسك بأسياف الرياضة . والرياضة على أربعة أوجه : القوت من الطعام ، والغمض من المنام ، والحاجة من الكلام ، وحمل الأذى من جميع الأنام . فيتولد من قلة الطعام موت الشهوات ، ومن قلة المنام صفو الإرادة ، ومن قلة الكلام السلامة من الآفات ، ومن احتمال الأذى البلوغ إلى الغايات ، وليس على العبد شىء أشد من الحلم عند الجفاء ، والصبر والأذى . وإذا تحركت من النفس إرادة الشهوات والآثام ، وهاجت منها حلاوة فضول الكلام جردت عليها سيوف قلة الطعام من غمد التهجد وقلة المنام ، وضربتها بأيدى الخمول ، وقلة الكلام حتى تنقطع عن الظلم والانتقام . فتأمن من بوائقها من بين سائر

الأنام ، وتصفيها من ظلمة شهواتها ، فتنجو من غوائل آفاتها ، فتصير عند ذلك نظيفة ونورية خفيفة روحانية ، فتجول فى ميدان الخيرات ، وتسير فى مسالك الطاعات ، كالفرس الفاره فى الميدان، وكالملك المتنزه فى البستان .

وقال أيضًا : أعداء الإنسان ثلاثة : **دنياه ، وشيطانه ، ونفسه** . فاحترس من الدنيا بالزهد فيها ، ومن الشيطان بمخالفته ، ومن النفس بترك الشهوات.

وقال بعض الحكماء : من استولت عليه النفس صار أسيرًا فى حب شهواتها ، محصورًا فى سجن هواها ، مقهورًا مغلولاً زمامه فى يدها ، تجره حيث شاءت فتمنع قلبه من الفوائد . وقال جعفر بن حميد : أجمعت العلماء والحكماء على أن النعيم لا يدرك إلا بترك النعيم .

وقال أبو يحيى الوراق : من أرضى الجوارح بالشهوات فقد غرس فى قلبه شجر الندامات .

وقال وهيب بن الورد : ما زاد عن الخبز فهو شهوة ، وقال أيضًا : من أحب شهوات الدنيا فليتهيأ للذل .

ويروى أن امرأة العزيز قالت ليوسف عليه السلام بعد أن ملك خزائن الأرض وقعدت له على رابية الطريق فى يوم موكبه ـ وكان يركب فى زهاء اثنى عشر ألفًا من عظماء مملكته ـ : سبحان من جعل الملوك عبيدًا بالمعصية، وجعل العبيد ملوكًا بطاعتهم له . إن الحرص والشهوة صيرا الملوك عبيدًا وذلك جزاء المفسدين ، وإن الصبر والتقوى صيرت العبيد ملوكًا . فقال يوسف كما أخبر الله تعالى عنه : ﴿ **إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ [يوسف : ٩٠] .

وقال الجنيد : أرقت ليلة فقمت إلى وردى ، فلم أجد الحلاوة التى كنت أجدها ، فأردت أن أنام فلم أقدر ، فجلست فلم أطق الجلوس ، فخرجت فإذا رجل ملتف فى عباءة مطروح على الطريق ، فلما أحس بى ، قال : يا أبا القاسم إلى الساعة ، فقلت : يا سيدى من غير موعد . فقال : بلى سألت الله عز وجل أن يحرك لى قلبك . فقلت : قد فعل ، فما حاجتك ؟ قال : متى يصير داء النفس دواها ؟ فقلت : إذا خالفت النفس

هواها . فأقبل على نفسه فقال : اسمعى . فقد أجبتك بهذا سبع مرات فأبيت أن تسمعيه إلا من الجنيد ، ها قد سمعتيه ، ثم انصرف وما عرفته .

وقال يزيد الرقاشى : إليكم عنى الماء البارد فى الدنيا ، لعلى لا أحرمه فى الآخرة .

وقال رجل لعمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى : متى أتكلم ؟ قال : إذا اشتهيت الصمت . قال : متى أصمت ؟ قال : إذا اشتهيت الكلام .

وقال علىّ رضى الله عنه : من اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات فى الدنيا .



الباب السابع والسبعون .. في

الإيمان والنفاق

اعلم أن كمال الإيمان الذى هو التصديق بوحدانية الله تعالى ، وبما جاءت به الرسل صلوات الله عليهم بزيادة الأعمال . قال الله تعالى : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات : ١٥] وقال الله تعالى : ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ [البقرة : ١٧٧] ، فشرط عشرين وصفًا كالوفاء بالعهد والصبر على الشدائد . ثم قال تعالى : ﴿أولئك الذين صدقوا﴾ ، وقال تعالى : ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة : ١١] وقال تعالى: ﴿لا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ﴾ [الحديد : ١٠] الآية . وقال تعالى : ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ﴾ [آل عمران : ١٦٣] وقال ﷺ : « الإيمان عريان، ولباسه التقوى » الحديث .

وقال ﷺ : « الإيمان بضعة وسبعون بابًا أدناها إماطة الأذى عن الطريق» . فهذا ما يدل على ارتباط كمال الإيمان بالأعمال ، وأما ارتباطه بالبراءة عن النفاق والشرك الخفى ، فقوله ﷺ : « أربع من كن فيه فهو منافق خالص، وإن صام وصلى وزعم أنه مؤمن : من إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان، وإذا خاصم فجر » ، وفى بعض الروايات : « وإذا عاهد غدر » .

وفى حديث أبى سعيد الخدرى : « القلوب أربعة : قلب أجرد وفيه سراج يزهر فذلك قلب المؤمن ، وقلب مصفح فيه إيمان ونفاق ، فمثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدها الماء العذب ، ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدها القيح والصديد ، فأى المادتين غلب عليه حكم له بها » . وفى لفظ

آخر :« غلبت عليه ذهبت به » .

وقال ﷺ : « أكثر منافقى هذه الأمة قراؤها » .

وفى الحديث:«الشرك أخفى فى أمتى من دبيب النمل على الصفا ».

وقال حذيفة رضى الله عنه : كان الرجل يتكلم بالكلمة على عهد رسول الله ﷺ يصير بها منافقًا إلى أن يموت ، وإنى لأسمعها من أحدكم فى اليوم عشر مرات . وقال بعض العلماء : أقرب الناس من النفاق من يرى أنه برىء من النفاق .

وقال حذيفة : المنافقون اليوم أكثر منهم على عهد النبى ﷺ فكانوا إذ ذاك يخفونه وهم اليوم يظهرونه .

وهذا النفاق يضاد صدق الإيمان وكماله ، وهو خفى ، وأبعد الناس منه من يتخوفه ، وأقربهم منه : من يرى أنه برىء منه . فقد قيل للحسن البصرى : يقولون : أنه لا نفاق اليوم ، فقال : يا أخى لو هلك المنافقون لاستوحشتم فى الطريق . وقال هو أو غيره : لو نبتت للمنافقين أذناب ما قدرنا أن نطأ على الأرض بأقدامنا .

وسمع ابن عمر رضى الله عنهما رجلاً يتعرض للحجاج ، فقال : أرأيت لو كان رجلاً حاضرًا يسمع أكنت تتكلم فيه ؟ فقال : لا ، فقال : كنا نعد هذا نفاقًا على عهد رسول الله . وقال ﷺ : « من كان ذا لسانين فى الدنيا جعله الله ذا لسانين فى الآخرة » . وقال أيضًا ﷺ : « شر الناس ذو الوجهين الذى يأتى هؤلاء بوجه ويأتى هؤلاء بوجه » .

وقيل للحسن : إن قومًا يقولون : إنا لا نخاف النفاق ، فقال : والله لأن أكون أعلم أنى برىء من النفاق أحب إلىّ من تلاع الأرض ذهبًا .

وقال الحسن : إن من النفاق اختلاف اللسان والقلب والسر والعلانية ، والمدخل والمخرج . وقال رجل لحذيفة رضى الله عنه : إنى أخاف أن أكون منافقًا، فقال: لو كنت منافقًا ما خفت النفاق. إن المنافق قد أمن من النفاق.

وقال ابن أبى مليكة : أدركت ثلاثين ومائة -وفى رواية خمسين ومائة- من أصحاب النبى ﷺ كلهم يخافون النفاق .

وروى أن رسول الله ﷺ كان جالسًا فى جماعة من أصحابه ، فذكروا رجلاً وأكثروا الثناء عليه ، فبينما هم كذلك ، إذ طلع عليهم الرجل ، ووجهه يقطر ماء من أثر الوضوء، وقد علق نعله بيده، وبين عينيه أثر السجود. فقالوا: يا رسول الله هو هذا الرجل الذى وصفناه ، فقال ﷺ : « أرى على وجهه سفعة من الشيطان » ، فجاء الرجل حتى سلم وجلس مع القوم ، فقال النبى ﷺ : « أنشدتك الله هل حدثت نفسك حين أشرفت على القوم أنه ليس فيهم خير منك؟»، فقال: اللهم نعم، فقال ﷺ فى دعائه: «اللهم إنى أستغفرك لما علمت ولما لم أعلم»، فقيل له : أتخاف يا رسول الله ؟ فقال : « وما يؤمننى والقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء؟ » . وقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ **وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ** ﴾ [الزمر : ٤٧] قيل فى التفسير : عملوا أعمالاً ظنوا أنها حسنات فكانت فى كفة السيئات . وقال سرى السقطى : لو أن إنسانًا دخل بستانًا فيه من جميع الأشجار وعليها من جميع الطيور، فخاطبه كل طير منها بلغة ، فقال : السلام عليك يا ولى الله ، فسكنت نفسه إلى ذلك ، كان أسيرًا فى يديها . فهذه الأخبار والآثار تعرفك خطر الأمر بسبب دقائق النفاق والشرك الخفى وإنه لا يؤمن منه ، حتى كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يسأل حذيفة عن نفسه ، وأنه هل ذكر فى المنافقين ؟

وقال أبو سليمان الدارانى : سمعت من بعض الأمراء شيئًا ، فأردت أن أنكره فخفت أن يأمر بقتلى، ولم أخف من الموت، ولكن خشيت أن يعرض لقلبى التزين للخلق عند خروج روحى ، فكففت . وهذا من النفاق الذى يضاد حقيقة الإيمان وصدقه وكماله وصفاءه لا أصله .

والنفاق نفاقان :

أحدهما : يخرج من الدين ويلحق بالكافرين ، ويسلك فى زمرة المخلدين فى النار .

والثانى : يفضى بصاحبه إلى النار مدة ، أو ينقص من درجات عليين، ويحط من رتبة الصديقين .

الباب الثامن والسبعون .. في

النهي عن الغيبة والنميمة

أما الغيبة : فقد نص الله سبحانه على ذمها في كتابه ، وشبه صاحبها بآكل لحم الميتة ، فقال تعالى : ﴿ **وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ** ﴾ [الحجرات : ١٢] ، وقال ﷺ : « كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه » . والغيبة تتناول العرض ، وقد جمع الله بينه وبين المال والدم .

وقال أبو برزة : قال ﷺ : « لا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تناجشوا، ولا تدابروا ، ولا يغتب بعضكم بعضًا ، وكونوا عباد الله إخوانًا » .

وعن جابر وأبي سعيد قالا : قال رسول الله ﷺ : « إياكم والغيبة ، فإن الغيبة أشد من الزنا ، فإن الرجل قد يزني ويتوب فيتوب الله سبحانه عليه ، وإن صاحب الغيبة لا يغفر له ، حتى يغفر له صاحبه » .

وقال أنس : قال رسول الله ﷺ : « مررت ليلة أسرى بي على أقوام يخمشون وجوههم بأظافرهم ، فقلت : يا جبريل من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء الذين يغتابون الناس ، ويقعون في أعراضهم » .

وقال سليمان بن جابر : أتيت النبي ﷺ فقلت : علمني خيرًا أنتفع به، فقال : « لا تحقرن من المعروف شيئًا ، ولو أن تصب من دلوك في إناء المستقي ، وأن تلقى أخاك ببشر حسن ، وإن أدبر فلا تغتبه » .

وقال البراء: خطبنا رسول الله ﷺ حتى أسمع العواتق في بيوتهن، فقال: «يا معشر من آمن بلسانه، ولم يؤمن بقلبه لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإن من تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته، حتى يفضحه في جوف بيته». وقيل: أوحى الله إلى موسى عليه السلام: من مات تائبًا من الغيبة فهو آخر من يدخل الجنة ، ومن مات مصرا عليها ، فهو أول من يدخل النار.

وقال أنس : أمر رسول الله ﷺ الناس بصوم يوم . فقال : « لا

يفطرن أحد حتى آذن له » فصام الناس حتى إذا أمسوا جعل الرجل يجيء ليقول : يا رسول الله ظللت صائمًا ، فأذن لى لأفطر ، فيأذن له ، والرجل والرجل ، حتى جاء رجل فقال : يا رسول الله فتاتان من أهلى ظلتا صائمتين وإنهما يستحيان أن يأتياك ، فأذن لهما أن يفطرا ، فأعرض عنه ﷺ ثم عاوده ، فأعرض عنه ، ثم عاوده ، فقال : « إنهما لم يصوما ، وكيف يصوم من ظل نهاره يأكل لحوم الناس ؟ اذهب فمرهما إن كانتا صائمتين أن تستقيئا » . فرجع إليهما فأخبرهما فاستقاءتا ، فقاءت كل واحدة منهما علقة من دم فرجع إلى النبى ﷺ فأخبره ، فقال : « والذى نفسى بيده لو بقيتا فى بطونهما لأكلتهما النار». وفى رواية: أنه لما أعرض عنه جاء بعد ذلك، قال: يا رسول الله إنهما قد ماتتا ، أو كادتا أن تموتا ، فقال ﷺ : «ائتونى بهما» ، فجاءتا فدعا رسول الله ﷺ بقدح، فقال لإحداهما: « قيئى » فقاءت من قيح ودم وصديد حتى ملأت القدح ، وقال للأخرى : « قيئى » فقاءت كذلك ، فقال : « إن هاتين صامتا عما أحل الله لهما ، وأفطرتا على ما حرم الله عليهما ، جلست إحداهما إلى الأخرى فجعلتا تأكلان لحوم الناس » .

وقال أنس : خطبنا رسول الله ﷺ فذكر الربا وعظم شأنه ، فقال : « إن الدرهم يصيبه الرجل من الربا أعظم عند الله فى الخطيئة من ست وثلاثين زنية يزنيها الرجل ، وأربى الربا عرض الرجل المسلم » .

وأما النميمة : فهى خصلة ذميمة ، قال الله تعالى : ﴿ **هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ** ﴾ [القلم : ١٠] ثم قال : ﴿ **عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ** ﴾ [القلم : ١٢] قال عبد الله بن المبارك : الزنيم ولد الزنا الذى لا يكتم الحديث ، وأشار به إلى أن كل من لم يكتم الحديث ومشى بالنميمة دل على أنه ولد زنا . استنباطًا من قوله عز وجل : ﴿ **عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ** ﴾ [القلم : ١٢] والزنيم : هو الدعىّ . وقال تعالى : ﴿ **وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ** ﴾ [الهمزة : ١] قيل : الهمزة النمام . وقال تعالى : ﴿ **حَمَّالَةَ الْحَطَبِ** ﴾ [المسد : ٤] قيل : إنها كانت نمامة حمالة للحديث . وقال تعالى : ﴿ **فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ**

اللَّه شَيْئًا ﴾ [التحريم : ١٠] قيل : كانت امرأة لوط تخبر بالضيفان ، وامرأة نوح تخبر أنه مجنون .

وقد قال ﷺ : « لا يدخل الجنة نمام » . وفى حديث آخر : « لا يدخل الجنة قتات » ، والقتات : هو النمام .

وقال أبو هريرة : قال رسول الله ﷺ : « أحبكم إلى الله : أحاسنكم أخلاقًا الموطئون أكنافًا ، الذين يألفون ويؤلفون ، وإن أبغضكم إلى الله المشاؤون بالنميمة ، المعوقون بين الإخوان ، الملتمسون للبرءاء العثرات » .

وقال ﷺ : « ألا أخبركم بشراركم ؟» قالوا : بلى ، قال : « المشاؤون بالنميمة ، المفسدون بين الأحبة ، الباغون للبرءاء العيب » .

وقال أبو ذر : قال رسول الله ﷺ : « من أشاع على مسلم كلمة ليشينه بها بغير حق ، شانه الله بها فى النار يوم القيامة » .

وقال أبو الدرداء : قال رسول الله ﷺ : « أيما رجل أشاع على رجل كلمة وهو منها برىء ليشينه بها فى الدنيا كان حقًا على الله أن يشينه بها يوم القيامة فى النار». وقال أبو هريرة : قال رسول الله ﷺ : « من شهد على مسلم بشهادة ليس لها بأهل فليتبوأ مقعده من النار » . ويقال : إن ثلث عذاب القبر من النميمة .

وعن ابن عمر عن النبى ﷺ : « إن الله لما خلق الجنة ، قال لها : تكلمى ، فقالت : سعد من دخلنى ، فقال الجبار جل جلاله : وعزتى وجلالى لا يسكن فيك ثمانية نفر من الناس : لا يسكنك مدمن خمر ، ولا مصر على الزنا ، ولا قتات ــ وهو النمام ــ ، ولا ديوث ، ولا شرطى ، ولا مخنث ، ولا قاطع رحم ، ولا الذى يقول : علىّ عهد الله إن لم أفعل كذا وكذا ثم لم يف به » . وروى كعب الأحبار أن بنى إسرائيل أصابهم قحط فاستسقى موسى عليه السلام مرات فما سقوا ، فأوحى الله تعالى إليه: إنى لا أستجيب لك ولمن معك وفيك نمام ، وقد أصر على النميمة ، فقال موسى : يا رب من هو دلنى عليه حتى أخرجه من بيننا ؟ قال : يا موسى أنهاك عن النميمة وأكون نمامًا ، فتابوا جميعًا فسقوا .

ويقال : اتبع رجل حكيمًا سبعمائة فرسخ فى سبع كلمات ، فلما قدم عليه ، قال: إنى جئتك للذى آتاك الله تعالى من العلم ، أخبرنى عن السماء وما أثقل منها ، وعن الأرض وما أوسع منها ، وعن الصخر وما أقسى منه، وعن النار وما أحر منها ، وعن الزمهرير وما أبرد منه ، وعن البحر وما أغنى منه ، وعن اليتيم وما أذل منه ؟ فقال له الحكيم : البهتان على البرىء أثقل من السموات ، والحق أوسع من الأرض ، والقلب القانع أغنى من البحر ، والحسد أحر من النار ، والحاجة إلى قريب إذا لم تنجح أبرد من الزمهرير ، وقلب الكافر أقسى من الحجر ، والنمام إذا بان أمره أذل من اليتيم .

وما أحسن قول الشاعر :

من نم فى الناس لم تؤمن عقاربه ... على الصديق ولم تؤمن أفاعيه
كالسيل بالليل لا يدرى به أحد ... من أين جاء ولا من أين يأتيه
الويل للعهد منه كيف ينقضه ... والويل للود منه كيف ينفيه ؟

وقول الآخر :

يسعى عليك كما يسعى إليك فلا ... تأمن غوائل ذى وجهين كياد



الباب التاسع والسبعون .. في

بيان عداوة الشيطان

قال ﷺ : « فى القلب لمتان : لمة من الملك ، إيعاد بالخير وتصديق بالحق ، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله سبحانه ، وليحمد الله ، ولمة من العدو، إيعاد بالشر وتكذيب بالحق ونهى عن الخير. فمن وجد ذلك فليستعذ بالله من الشيطان الرجيم» ، ثم تلا قوله تعالى : ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾ [البقرة : ٢٦٨] الآية. وقال الحسن: إنما هما همان يجولان فى القلب ، هم من الله تعالى ، وهم من العدو ، فرحم الله عبدًا وقف عند همه، فما كان من الله تعالى أمضاه، وما كان من عدوه جاهده .

وقال جابر بن عبيدة العدوى : شكوت إلى العلاء بن زياد ما أجد فى صدرى من الوسوسة ، فقال : إنما مثل ذلك مثل البيت الذى يمر به اللصوص ، فإن كان فيه شيء عالجوه ، وإلا مضوا وتركوه ، يعنى : أن القلب الخالى عن الهوى لا يدخله الشيطان . ولذلك قال الله تعالى : ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر : ٤٢] فكل من اتبع الهوى فهو عبد الهوى لا عبد الله ، ولذلك سلط الله عليه الشيطان .

وقال تعالى : ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ [الجاثية : ٢٣] وهو إشارة إلى أن من الهوى إلهه ومعبوده فهو عبد الهوى لا عبد الله . ولذلك قال عمرو بن العاص للنبى ﷺ:يا رسول الله حال الشيطان بينى وبين صلاتى وقراءتى . فقال : « ذلك شيطان يقال له خنزب ، فإذا أحسسته فتعوذ بالله منه واتفل عن يسارك ثلاثًا » . قال : ففعلت ذلك ، فأذهبه الله عنى .وفى الخبر : « إن للوضوء شيطانًا يقال له : الولهان ، فاستعيذوا بالله منه » .
ولا يمحو وسوسة الشيطان من القلب إلا ذكر ما سوى ما يوسوس به؛ لأنه إذا خطر فى القلب ذكر شيء انعدم منه ما كان فيه من قبل ، ولكن كل شئ سوى الله تعالى ، وسوى ما يتعلق به ، يجوز أيضًا أن يكون له مجال

للشيطان ، وذكر الله هو الذى يؤمن جانبه ، ويعلم أنه ليس للشيطان منه مجال ، ولا يعالج الشىء إلا بضده ، وضد جميع وساوس الشيطان ذكر الله بالاستعاذة والتبرؤ عن الحول والقوة ، وهو معنى قولك : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . وذلك لا يقدر عليه إلا المتقون الغالب عليهم ذكر الله تعالى ، وإنما الشيطان يطوف عليهم فى أوقات الفلتات على سبيل الخلسة ، قال الله تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ** ﴾ [الأعراف : ٢٠١].

وقال مجاهد فى معنى قول الله تعالى: ﴿**مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ**﴾ [الناس:٤]. قال: هو منبسط على القلب، فإذا ذكر الله تعالى خنس وانقبض ، وإذا غفل انبسط على قلبه، فالتطارد بين ذكر الله تعالى ووسوسة الشطيان، كالتطارد بين النور والظلام، وبين الليل والنهار، لتضادهما، قال الله تعالى : ﴿**اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ**﴾[المجادلة:١٩]. وقال أنس: قال رسول الله ﷺ: «إن الشيطان واضع خرطومه على قلب ابن آدم، فإن هو ذكر الله تعالى خنس، وإن نسى الله تعالى التقم قلبه». وقال ابن وضاح فى حديث ذكره: «إذا بلغ الرجل أربعين سنة ولم يتب مسخ الشيطان وجهه بيده، وقال بأبى وجه من لا يفلح». وكما أن الشهوات ممتزجة بلحم ابن آدم ودمه، فسلطة الشيطان أيضًا سارية فى لحمه ودمه ومحيط بالقلب من جوانبه؛ ولذلك قال ﷺ: «إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم، فضيقوا مجاريه بالجوع». وذلك لأن الجوع يكسر الشهوة ومجرى الشيطان الشهوات، ولأجل اكتناف الشهوات للقلب من جوانبه قال الله تعالى إخبارًا عن إبليس: ﴿**لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ** ﴾ [الأعراف:١٦، ١٧]. وقال ﷺ: «إن الشيطان قعد لابن آدم بطرق، فقعد له بطريق الإسلام، فقال: أتسلم وتترك دينك ودين آبائك؟ فعصاه وأسلم، ثم قعد بطريق الهجرة فقال: أتهاجر وتدع أرضك وسماءك؟ فعصاه وهاجر. ثم قعد له بطريق الجهاد فقال: أتجاهد وهو تلف النفس والمال فتقاتل فتقتل وتُنكح نساؤك ويقسم مالك ؟ فعصاه وجاهد» . وقال رسول الله ﷺ : «فمن فعل ذلك فمات كان حقا على الله أن يدخله الجنة » .

الباب الثمانون .. في

بيان المحبة ومحاسبة النفس

قال سفيان : المحبة اتباع رسول الله ﷺ . وقال غيره : دوام الذكر ، وقال غيره : إيثار المحبوب . وقال بعضهم : كراهية البقاء فى الدنيا . وهذا كله إشارة إلى ثمرات المحبة . فأما نفس المحبة فلم يتعرضوا لها ، وقال بعضهم : المحبة معنى من المحبوب تعجز القلوب عن إدراكه وتمنع الألسن عن عبارته ، وقال الجنيد : حرم الله تعالى المحبة على صاحب العلاقة . وقال : كل محبة تكون بعوض ، فإذا زال العوض زالت المحبة .

وقال ذو النون : قل لمن أظهر حب الله : احذر أن تذل لغير الله .

وقيل للشبلى رحمه الله : صف لنا العارف والمحب ، فقال : العارف إن تكلم هلك ، والمحب إن سكت هلك ، وأنشد الشبلى رحمه الله :

يا أيها السيد الكريم ... حبك بين الحشا مقيم
يا رافع النوم عن جفونى ... أنت بما مر بى عليم

ولغيره :

عجبت لمن يقول : ذكرت إلفى ... وهل أنسى فأذكر ما نسيت ؟
أموت إذا ذكرتك ثم أحيا ... ولولا حسن ظنى ما حييت
فأحيا بالمنى وأموت شوقًا ... فكم أحيا عليك وكم أموت
شربت الحب كأسًا بعد كأس ... فما نفد الشراب وما رويت
فليت خياله نصب لعينى ... فإن قصرت فى نظرى عميت

وقالت رابعة العدوية يومًا : من يدلنا على حبيبنا ؟ فقالت خادمة لها : حبيبنا معنا ولكن الدنيا قطعتنا عنه . وقال ابن الجلاء رحمه الله تعالى : أوحى إلى عيسى عليه السلام إنى إذا اطلعت على سر عبد ، ولم أجد فيه حب الدنيا ملأته من حبى ، وتوليته بحفظى .

وقيل : تكلم « سمنون » يومًا فى المحبة . فإذا بطائر نزل بين يديه فلم يزل ينقر بمنقاره الأرض حتى سال الدم منه ، فمات .

وقال إبراهيم بن أدهم : إلهى إنك تعلم أن الجنة لا تزن عندى جناح بعوضة، فى جنب ما أكرمتنى من محبتك، وآنستنى بذكرك، وفرغتنى للتفكر فى عظمتك. وقال السرى رحمه الله : من أحب الله عاش ، ومن مال إلى الدنيا طاش ، والأحمق يغدو ويروح فى لاش، والعاقل عن عيوبه فتاش .

وأما محاسبة النفس : فقد أمر الله بها بقوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ** ﴾ [الحشر : ١٨] وهذه إشارة إلى المحاسبة على ما مضى من الأعمال. ولذلك قال عمر رضى الله تعالى عنه: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم، وفى الخبر : أنه ﷺ جاءه رجل فقال : يا رسول الله أوصنى ، فقال : «أمستوص أنت ؟ » ، فقال : نعم ، قال : « إذا هممت بأمر فتدبر عاقبته ، فإن كان رشدًا فأمضه ، وإن كان غيا فانته عنه » . وفى الخبر : « وينبغى للعاقل أن يكون له أربع ساعات، منها ساعة يحاسب فيها نفسه » .

وقال تعالى : ﴿ **وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ [النور : ٣١] والتوبة نظر فى الفعل بعد الفراغ منه بالندم . وقد قال النبى ﷺ: « إنى لأستغفر الله تعالى وأتوب إليه فى اليوم مائة مرة » .

وقال الله تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ** ﴾ [الأعراف:٢٠١] . وعن عمر رضى الله تعالى عنه أنه كان يضرب قدميه بالدرة إذا جنه الليل،ويقول لنفسه: ماذا عملت اليوم؟.

وعن ميمون بن مهران أنه قال: لا يكون العبد من المتقين حتى يحاسب نفسه أشد من محاسبة شريكه ، والشريكان يتحاسبان بعد العمل .

وروى عن عائشة رضى الله عنها : أن أبا بكر رضوان الله عليه قال لها عند الموت : ما أحد من الناس أحب إلىّ من عمر ، ثم قال لها : كيف قلت؟ فأعادت عليه ما قال ، فقال : لا أحد أعز علىّ من عمر ، فانظر كيف بعد الفراغ من الكلمة تدبرها ، وأبدلها بكلمة غيرها .

وحديث أبى طلحة حين شغله الطائر فى صلاته ، فتدبر ذلك ، فجعل حائطه صدقة لله تعالى ندمًا ورجاء للعوض مما فاته . وفى حديث ابن سلام أنه حمل حزمة من حطب . فقيل له: يا أبا يوسف قد كان فى بيتك

وغلمانك ما يكفونك ، فقال : أردت أن أجرب نفسى هل تنكره ؟

وقال الحسن : المؤمن قوام على نفسه يحاسبها لله ، وإنما خف الحساب على قوم حاسبوا أنفسهم فى الدنيا، وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة . ثم فسر المحاسبة فقال : إن المؤمن يفجؤه الشىء يعجبه، فيقول: الله، إنك لتعجبنى، وإنك لمن حاجتى، ولكن هيهات حيل بينى وبينك. وهذا حساب قبل العمل، ثم قال: ويفرط منه الشىء، فيرجع إلى نفسه فيقول: ماذا أردت بهذا؟ والله أعذر بهذا، والله لا أعود لهذا أبدًا إن شاء الله. وقال أنس بن مالك: سمعت عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه يومًا وقد خرج وخرجت معه حتى دخل حائطًا، فسمعته يقول - وبينى وبينه جدار وهو الحائط-: عمر بن الخطاب أمير المؤمنين ، بخ ، بخ ، والله لتتقين الله، أو ليعذبنك. وقال الحسن فى قوله تعالى : ﴿ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ٢] قال: لا يلقى المؤمن إلا يعاتب نفسه ماذا أردت بكلمتى؟ ماذا أردت بأكلتى؟ ماذا أردت بشربتى ؟ والفاجر يمضى قدمًا ، لا يعاتب نفسه .

وقال مالك بن دينار رحمه الله تعالى : رحم الله عبدًا قال لنفسه: ألست صاحبة كذا ؟ ألست صاحبة كذا ؟ ثم ذمها ، ثم خطمها ، ثم ألزمها كتاب الله تعالى ، فكان له قائدًا ، وهذا من معاتبة النفس . وقال ميمون بن مهران : التقى أشد محاسبة لنفسه من سلطان غاشم ، ومن شريك شحيح .

وقال إبراهيم التيمى : مثلت نفسى فى الجنة آكل من ثمارها ، وأشرب من أنهارها ، وأعانق أبكارها ، ثم مثلت نفسى فى النار آكل من زقومها ، وأشرب من صديدها ، وأعالج سلاسلها وأغلالها ، فقلت لنفسى : يا نفس أى شىء تريدين ؟ فقالت : أريد أن أرد إلى الدنيا فأعمل صالحًا . قلت : فأنت فى الأمنية ، فاعملى. وقال مالك بن دينار : سمعت الحجاج يخطب، وهو يقول : رحم الله امرأ حاسب نفسه قبل أن يصير الحساب إلى غيره ، رحم الله امرأ أخذ بعنان عمله ، فنظر ماذا يريد به ؟ رحم الله امرأ نظر فى مكياله ، رحم الله امرأ نظر فى ميزانه ، فما زال يقول حتى أبكانى . وحكى صاحب للأحنف بن قيس قال : كنت أصحبه ، فكان عامة صلاته بالليل الدعاء. وكان يجىء إلى المصباح ، فيضع إصبعه فيه ، حتى يحس بالنار، ثم يقول لنفسه: يا أحنف ما حملك على ما صنعت يوم كذا .

الباب الحادي والثمانون..في

بيان تلبيس الحق بالباطل

قال رسول الله ﷺ فيما رواه معقل بن يسار : « يأتى على الناس زمان، يخلق فيه القرآن فى قلوب الرجال كما تخلق الثياب على الأبدان ، أمرهم كله يكون طمعا لا خوف معه ، إن أحسن أحدهم قال : يتقبل منى . وأن أساء قال : يغفر لى » . فأخبر أنهم يضعون الطمع موضع الخوف ، لجهلهم بتخويفات القرآن وما فيه . وبمثله أخبر عن النصارى . إذ قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ [الأعراف : ١٦٩] ، ومعناه : أنهم ورثوا الكتاب ، أى هم علماء ﴿ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَىٰ ﴾ أى شهواتهم من الدنيا ، حرامًا كان أو حلالاً . وقد قال تعالى : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن: ٤٦] ، وقال : ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ [إبراهيم: ١٤] والقرآن من أوله إلى آخره تحذير وتخويف ، لا يتفكر فيه متفكر إلا ويطول حزنه ويعظم خوفه، إن كان مؤمنًا بما فيه .

وترى الناس يهذونه هذا يخرجون الحروف من مخارجها ، ويتناظرون على خفضها ورفعها ونصبها ، وكأنهم يقرأون شعرًا من أشعار العرب ، ولا يهمهم الالتفات إلى معانيه ، والعمل بما فيه ، وهل فى العالم غرور يزيد على هذا ؟ ويقرب منه غرور طوائف لهم طاعات ومعاص ، إلا أن معاصيهم أكثر ، وهم يتوقعون المغفرة ويظنون أنهم تترجح كفة حسناتهم ، مع أن ما فى كفة السيئات أكثر ، وهذا غاية الجهل فترى الواحد يتصدق بدراهم معدودة من الحلال والحرام ، ويكون ما يتناول من أموال المسلمين والشبهات أضعافه ، ولعل ما تصدق به هو من أموال المسلمين ، وهو يتكل عليه ، ويظن أن أكل ألف درهم حرام يقاومه التصدق بعشرة من الحرام أو الحلال ، وما هو إلا كمن وضع عشرة دراهم فى كفة ميزان، وفى الكفة الأخرى ألفًا،

وأراد أن يرفع الكفة الثقيلة بالكفة الخفيفة ، وذلك غاية جهله . ومنهم من يظن أن طاعته أكثر من معاصيه ؛ لأنه لا يحاسب نفسه ولا يتفقد معاصيه ، وإذا عمل طاعة حفظها واعتد بها ، كالذى يستغفر الله بلسانه ، أو يسبح الله فى اليوم مائة مرّة ، ثم يغتاب المسلمين ، ويمزق أعراضهم ، ويتكلم بما لا يرضاه الله طول النهار من غير حصر ولا عدد ، ويكون نظره إلى عدد سبحته أنه استغفر الله مائة مرة وغفل عن هذيانه طول نهاره ، الذى لو كتبه لكان مثل تسبيحه مائة مرة أو ألف مرة ، وقد كتبه الكرام الكاتبون ، وقد أوعده الله بالعقاب على كل كلمة ، فقال : ﴿ **مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ** ﴾ [ق : ١٨] فهذا أبدًا يتأمل فى فضائل التسبيحات والتهليلات، ولا يلتفت إلى ما ورد من عقوبة المغتابين والكذابين والنمامين والمنافقين ، الذين يظهرون من الكلام ما لا يضمرونه إلى غير ذلك من آفات اللسان ، وذلك محض الغرور . ولعمرى لو كان الكرام الكاتبون يطلبون منه أجرة النسخ لما يكتبونه من هذيانه الذى زاد على تسبيحه لكان عند ذلك يكف لسانه ، حتى عن جملة من مهماته ، وما نطق به فى فتراته كان يعده ويحسبه ويوازنه بتسبيحاته ، حتى لا يفضل عليه أجرة نسخه ، فيا عجبًا لمن يحاسب نفسه ويحتاط ، خوفًا على قيراط يفوته فى الأجرة على النسخ ، ولا يحتاط خوفًا من فوت الفردوس الأعلى ونعيمه ، ما هذه إلا مصيبة عظيمة لمن تفكر فيها ؟ فقد دفعنا إلى أمر ، إن شككنا فيه كنا من الكفرة الجاحدين ، وإن صدقنا به كنا من الحمقى المغرورين ، فما هذه أعمال من يصدق بما جاء به القرآن ، وإنا نبرأ إلى الله أن نكون من أهل الكفران .

فسبحان من صدنا عن التنبه واليقين مع هذا البيان، وما أجدر من يقدر على تسليط مثل هذه الغفلة والغرور على القلوب ، أن يخشى ويتقى ولا يغتر به ، اتكالاً على أباطيل المنى، وتعاليل الشيطان والهوى . والله أعلم .



الباب الثاني والثمانون .. في

فضل صلاة الجماعة

قال ﷺ : « صلاة الجماعة تفضل صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة » .

وروى أبو هريرة أنه ﷺ فقد ناسًا فى بعض الصلوات ، فقال : « لقد هممت أن آمر رجلاً يصلى بالناس ، ثم أخالف إلى رجال يتخلفون عنها فأحرق عليهم بيوتهم » ، وفى رواية أخرى : « ثم أخالف إلى رجال يتخلفون عنها ، فآمر بهم ، فتحرق عليهم بيوتهم بحزم الحطب ، ولو علم أحدهم أنه يجد عظمًا سمينًا أو مرماتين لشهدها » يعنى صلاة العشاء .

وقال عثمان رضى الله عنه مرفوعًا : من شهد العشاء فكأنما قام نصف ليلة ، ومن شهد الصبح فكأنما قام ليلة .

وقال ﷺ : « من صلى صلاة فى جماعة ، فقد ملأ بجره[1] عبادة » .

وقال سعيد بن المسيب: ما أذن مؤذن منذ عشرين سنة إلا وأنا فى المسجد .

وقال محمد بن واسع : ما أشتهى من الدنيا إلا ثلاثة : أخًا إن تعوجت قومنى ، وقوتًا من الرزق عفوًا بغير تبعة ، وصلاة فى جماعة يرفع عنى سهوها ويكتب لى فضلها .

وروى أن أبا عبيدة بن الجراح أمّ قومًا مرّة ، فلما انصرف قال : ما زال الشيطان بى آنفًا، حتى أريت أن لى فضلاً على غيرى ، لا أؤم أبدًا .

وقال الحسن : لا تصلوا خلف رجل لا يختلف إلى العلماء .

وقال النخعى : مثل الذى يؤم الناس بغير علم ، مثل الذى يكيل الماء فى البحر ، لا يدرى زيادته من نقصانه .

وقال حاتم الأصم : فاتتنى الصلاة فى الجماعة ، فعزانى أبو إسحاق البخارى وحده . ولو مات لى ولد لعزانى أكثر من عشرة آلاف ؛ لأن مصيبة

(١) أي ملأ أحشاءه وبطنه .

الدين أهون عند الناس من مصيبة الدنيا .

وقال ابن عباس رضى الله عنهما : من سمع المنادى ، فلم يجب لم يرد خيرًا ، ولم يرد به خير .

وقال أبو هريرة رضى الله عنه : لأن تملأ أذن ابن آدم رصاصًا مذابًا ، خير له من أن يسمع النداء ، ثم لا يجيب .

وروى : أن ميمون بن مهران أتى المسجد فقيل له : إن الناس قد انصرفوا ، فقال : إنا لله وإنا إليه راجعون لفضل هذه الصلاة أحب إلىّ من ولاة العراق .

وقال ﷺ : « من صلى أربعين يومًا فى جماعة لا تفوته فيها تكبيرة الإحرام ، كتب الله له براءتين : براءة من النفاق ، وبراءة من النار » .

ويقال : إنه إذا كان يوم القيامة يحشر قوم وجوههم كالكوكب الدرى فتقول لهم الملائكة : ما كانت أعمالكم ؟ فيقولون : كنا إذا سمعنا الأذان قمنا إلى الطهارة ، لا يشغلنا غيرها ، ثم تحشر طائفة وجوههم كالأقمار ، فيقولون بعد السؤال : كنا نتوضأ قبل الوقت ، ثم تحشر طائفة وجوههم كالشمس ، فيقولون : كنا نسمع الأذان فى المسجد .

وروى : أن السلف كانوا يعزون أنفسهم ثلاثة أيام إذا فاتتهم التكبيرة الأولى ، ويعزون سبعًا إذا فاتتهم الجماعة .



الباب الثالث والثمانون .. في

فضل صلاة الليل

أما من الآيات : فقوله تعالى : ﴿ **إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ** ﴾ [المزمل : ٢٠] الآية . وقوله تعالى : ﴿ **إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلاً** ﴾ [المزمل : ٦] .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ **تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ** ﴾ [السجدة: ١٦] . وقوله تعالى : ﴿ **أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا** ﴾ [الزمر :٩] الآية . وقوله عز وجل: ﴿ **وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا** ﴾ [الفرقان:٦٤] وقوله تعالى : ﴿ **وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ** ﴾ [البقرة : ٤٥] قيل : هي قيام الليل يستعان بالصبر عليه على مجاهدة النفس .

ومن الأخبار : قوله ﷺ : « يعقد الشيطان على قافية أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد يضرب مكان كل عقدة : عليك ليل طويل فارقد . فإن استيقظ وذكر الله تعالى انحلت عقدة، فإن توضأ انحلت عقدة ، فإن صلى انحلت عقدة ، فأصبح نشيطًا طيب النفس ، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان » .

وفي الخبر : أنه ذكر عنده رجل ينام كل الليل حتى يصبح ، فقال : «ذاك الرجل بال الشيطان في أذنه » .

وفي الخبر : « إن للشيطان سعوطًا ولعوقًا وذرورًا ، فإذا أسعط العبد ساء خلقه ، وإذا لعقه ذرب لسانه بالشر ، وإذا ذره نام الليل حتى يصبح » .

وقال ﷺ : « ركعتان يركعهما العبد في جوف الليل خير له من الدنيا وما فيها ، ولولا أن أشق على أمتي لفرضتهما عليهم » .

وفي الصحيح عن جابر أن النبي ﷺ قال : « إن من الليل ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله تعالى خيرًا إلا أعطاه إياه » . وفي رواية : «يسأل الله خيرًا من الدنيا والآخرة ، وذلك في كل ليلة » .

وقال المغيرة بن شعبة : قام رسول الله ﷺ حتى تفطرت قدماه ، فقيل له : أما قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال : « أفلا أكون عبدًا شكورًا » ، ويظهر من معناه : أن ذلك كناية عن زيادة الرتبة ، فإن الشكر سبب المزيد ، قال الله تعالى : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم : ٧] .

وقال ﷺ : « يا أبا هريرة أتريد أن تكون رحمة الله عليك حيا وميتًا ، ومقبورًا ومبعوثًا ؟ قم من الليل فصل وأنت تريد رضا ربك ، يا أبا هريرة صل فى زوايا بيتك ، يكن نور بيتك فى السماء كنور الكواكب والنجم عند أهل الدنيا » .

وقال ﷺ : « عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم ، فإن قيام الليل قربة إلى الله عز وجل ، وتكفير للذنوب ، ومطردة للداء عن الجسد ، ومنهاة عن الإثم » .

وقال ﷺ : « ما من امرئ تكون له صلاة بالليل ، فغلبه عليها النوم، إلا كتب له أجر صلاته ، وكان نومه صدقة عليه » .

وقال ﷺ لأبى ذر : « لو أردت سفرًا أعددت له عدة ؟ » قال : نعم ، قال : « فكيف سفر طريق القيامة ؟ ألا أنبئك يا أبا ذر بما ينفعك فى ذلك اليوم ؟ » قال : بلى بأبى أنت وأمى. قال : « صم يومًا شديد الحر ليوم النشور ، وصل ركعتين فى ظلمة الليل لوحشة القبور، وحج حجة لعظائم الأمور ، وتصدق بصدقة على مسكين أو كلمة حق تقولها أو كلمة شر تسكت عنها » .

وروى أنه كان على عهد النبى ﷺ رجل إذا أخذ الناس مضاجعهم وهدأت العيون قام يصلى ويقرأ القرآن ، ويقول : يا رب النار أجرنى منها ، فذكر ذلك للنبى ﷺ فقال : « إذا كان ذلك فأذنونى » ، فأتاه فاستمع ، فلما أصبح قال : « يا فلان هلا سألت الله الجنة ؟ » ، فقال : يا رسول الله إنى لست هناك ولا يبلغ عملى ذاك ، فلم يلبث إلا يسيرًا حتى نزل جبريل عليه السلام وقال : أخبر فلانًا أن الله قد أجاره من النار ، وأدخله الجنة .

ويروى أن جبريل عليه السلام قال للنبى ﷺ : نعم الرجل ابن عمر ،

لو كان يصلى بالليل ، فأخبره النبى ﷺ بذلك ، فكان يداوم بعده على قيام الليل ، قال نافع : كان يصلى بالليل ثم يقول : يـا نافع أسحرنا ؟ فأقول : لا ، فيـقوم لصلاته ، ثم يقـول : يا نافع أسحرنا ، فـأقول: نعم ، فيقـعد فيستغفر الله تعالى حتى يطلع الفجر .

وقال علىّ بن أبى طالب : شبع يحيى بن زكريا عليهما السلام ليلة من خبز شعير ، فنام عن ورده حـتى أصبح ، فأوحى الله تعالى إليه : يا يحيى أوجدت دارًا خيرًا لك من دارى ، أم وجدت جـوارًا خيرًا لك من جوارى ؟ فوعـزتى وجلالى يا يحيى لو اطلـعت إلى الفردوس اطلاعة لذاب شـحمك وزهقت نفسك اشـتياقـا ، ولو اطلعت إلى جهنم اطلاعة لذاب شـحمك ، ولبكيت الصديد بعد الدموع ، ولبست الجلد بعد المسوح .

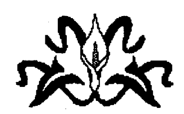
وقيل لرسول الله ﷺ : إن فلانًا يصلـى بالليل ، فإذا أصـبح سرق ، فقال : « سينهاه ما يعمل » .

وقال ﷺ : « رحم الله رجـلاً قـام من الليل يصلى ، ثم أيقظ امـرأته فصلت ، فإن أبت نضح فى وجهها الماء » .

وقال ﷺ : « رحم الله امـرأة قـامت من الليـل فصـلت ، ثم أيقظت زوجهـا فصلى ، فـإن أبى نضحـت فى وجهه المـاء » . وقال ﷺ : « مـن استيـقظ من الليل وأيقظ امرأته فصليـا ركعتين كـتبا من الذاكرين الله كـثيرًا والذاكرات » . وقال ﷺ : « أفضل الصلاة بعد المكتـوبة قيام الليل » . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : قال النبى ﷺ : « من نام عن حزبه أو عن شىء منه بالليل، فقرأه بين صلاة الفجر والظهر كتب له كأنما قرأه من الليل » وقيل : كان الإمام البخارى رضى الله عنه كثيرًا ما يتمثل بهذين البيتين:

اغتنم فى الفـراغ فضل ركـــوع ... فعســـى أن يكون مـوتك بغته

كم صحـيح رأيت من غيـر سقـم ... خرجـــت نفسه الصـحيحة فلته



الباب الرابع والثمانون ..في

عقوبة علماء الدنيا

ونعنى بعلماء الدنيا : علماء السوء ، الذين قصدهم من العلم التنعم بالدنيا ، والتوصل إلى الجاه والمنزلة عند أهلها .

قال ﷺ : « إن أشد الناس عذابًا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه». وعنه ﷺ أنه قال : « لا يكون المرء عالما حتى يكون بعلمه عاملا » .

وقال ﷺ : « علمان علم على اللسان ، فذلك حجة الله تعالى على خلقه ، وعلم فى القلب ، فذلك العلم النافع » .

وقال ﷺ : « يكون فى آخر الزمان عباد جهال ، وعلماء فساق » .

وقال ﷺ :« لا تتعلموا العلم لتباهوا به العلماء ، ولتماروا به السفهاء، ولتصرفوا به وجوه الناس إليكم ، فمن فعل ذلك فهو فى النار » .

وقال ﷺ : « من كتم علمًا عنده ألجمه الله بلجام من نار » .

وقال ﷺ : « لأنا من غير الدجال أخوف عليكم من الدجال » فقيل : وما ذلك ؟ فقال : « من الأئمة المضلين » .

وقال ﷺ : « من ازداد علمًا ولم يزدد هدى ، لم يزدد من الله إلا بعدًا» .

وقال عيسى عليه السلام : إلى متى تصفون الطريق للمدلجين ، وأنتم مقيمون مع المتحيرين ؟ .

فهذا وغيره من الأخبار يدل على عظيم خطر العلم ، فإن العالم إما متعرض لهلاك الأبد أو لسعادة الأبد ، وإنه بالخوض فى العلم قد حرم السلامة إن لم يدرك السعادة .

وقال عمر رضى الله عنه : إن أخوف ما أخاف على هذه الأمة المنافق العليم ، قالوا : وكيف يكون منافقًا عليمًا ؟ قال : عليم اللسان جاهل القلب والعمل .

وقال الحسن رحمه الله: لا تكن ممن يجمع علم العلماء وطرائف الحكماء ، ويجرى فى العمل مجرى السفهاء .

وقال رجل لأبى هريرة رضى الله عنه : أريد أن أتعلم وأخاف أن أضيعه ؟ فقال : كفى بترك العلم إضاعة له .

وقيل لإبراهيم بن عيينة : أى الناس أطول ندمًا ؟ قال : أما فى عاجل الدنيا فصانع المعروف إلى من لا يشكره ، وأما عند الموت فعالم مفرط .

وقال الخليل بن أحمد : الرجال أربعة : رجل يدرى ويدرى أنه يدرى فذلك عالم فاتبعوه . ورجل يدرى ولا يدرى أنه يدرى فذلك نائم فأيقظوه ، ورجل لا يدرى ويدرى أنه لا يدرى فذلك مسترشد فأرشدوه ، ورجل لا يدرى ولا يدرى أنه لا يدرى فذلك جاهل فارفضوه .

وقال سفيان الثورى رحمه الله : يهتف العلم بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل .

وقال ابن المبارك : لا يزال المرء عالمًا ما طلب العلم ، فإذا ظن أنه قد علم فقد جهل .

وقال الفضيل بن عياض رحمه الله : إنى لأرحم ثلاثة : عزيز قوم ذل، وغنى قوم افتقر، وعالمًا تلعب به الدنيا .

وقال الحسن : عقوبة الدنيا موت القلب . وموت القلب طلب الدنيا بعمل الآخرة . وأنشدوا :

عجبت لمبتاع الضلالة بالهدى ... ومن يشترى دنياه بالدين أعجب
وأعجب من هذين من باع دينه ... بدنيا سواه فهو من ذين أعجب

وقال ﷺ : « إن العالم ليعذب عذابًا يطيف به أهل النار » استعظامًا لشدة عذابه . أراد به: العالم الفاجر .

وقال أسامة بن زيد : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يؤتى بالعالم يوم القيامة ، فيلقى فى النار فتندلق أقتابه فيدور بها كما يدور الحمار بالرحى، فيطيف به أهل النار ، فيقولون : ما لك ؟ فيقول : كنت آمر بالخير ولا آتيه ، وأنهى عن الشر وآتيه » .

وإنما يضاعف عذاب العالم فى معصيته ؛ لأنه عصى عن علم ؛ ولذلك قال الله عز وجل: ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ﴾ [النساء : ١٤٥] .

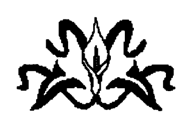
لأنهم جحدوا بعد العلم ، وجعل اليهود شرا من النصارى، مع أنهم ما جعلوا لله سبحانه ولدًا ولا قالوا : إنه ثالث ثلاثة ، إلا أنهم أنكروا بعد المعرفة ، إذ قال الله تعالى : ﴿ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ . [البقرة : ١٤٦].

وقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة : ٨٩] .

وقال تعالى فى قصة بلعام بن باعوراء : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ حتى قال : ﴿ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ﴾ . [الأعراف : ١٧٥ ، ١٧٦] .

فكذلك العالم الفاجر ، فإن « بلعام » أوتى كتاب الله تعالى ، فأخلد إلى الشهوات ، فشبه بالكلب ، أى سواء أوتى الحكمة أو لم يؤت فهو يلهث إلى الشهوات.

وقال عيسى عليه السلام : مثل علماء السوء كمثل صخرة وقعت على فم النهر ، لا هى تشرب الماء ، ولا هى تترك الماء يخلص إلى الزرع .



الباب الخامس والثمانون .. في

فضل حسن الخلق

قال الله تعالى لنبيه وحبيبه مثنيًا عليه ومظهرًا نعمته لديه : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : ٤] وقالت عائشة رضى الله عنها : كان رسول الله ﷺ خلقه القرآن . وسأل رجل رسول الله ﷺ عن حسن الخلق فتلا قوله تعالى : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩] ثم قال ﷺ : « هو أن تصل من قطعك ، وتعطى من حرمك ، وتعفو عمن ظلمك » . وقال ﷺ : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » . وقال ﷺ : «أثقل ما يوضع فى الميزان يوم القيامة : تقوى الله وحسن الخلق » .

وجاء رجل إلى رسول الله ﷺ من بين يديه فقال : يا رسول الله ما الدين ؟ قال : «حسن الخلق » فأتاه من قبل يمينه . فقال : يا رسول الله ما الدين ؟ قال : « حسن الخلق » ثم أتاه من قبل شماله ، فقال : ما الدين ؟ فقال : « حسن الخلق » . ثم أتاه من ورائه فقال : يا رسول الله ما الدين ؟ فالتفت إليه وقال :« أما تفقه ؟ هو أن لا تغضب » .

وقيل : يا رسول الله ما الشؤم ؟ قال : سوء الخلق .

وقال رجل لرسول الله ﷺ : أوصنى فقال : « اتق الله حيثما كنت »، قال : زدنى ، قال : « أتبع السيئة الحسنة تمحها » ، قال : زدنى ، قال : «خالق الناس بخلق حسن». وسئل ﷺ : أى الأعمال أفضل ؟ قال : « خلق حسن». وقال ﷺ: «ما حسن الله خلق عبد وخلقه ، فيطعمه النار » . وقال الفضل لرسول الله ﷺ : إن فلانة تصوم النهار وتقوم الليل ، وهى سيئة الخلق، تؤذى جيرانها بلسانها، قال : « لا خير فيها ، هى من أهل النار » .

وقال أبو الدرداء : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « أول ما يوضع فى الميزان حسن الخلق والسخاء ، ولما خلق الله الإيمان ، قال : اللهم قونى ، فقواه بحسن الخلق ، ولما خلق الله الكفر ، قال : اللهم قونى ، فقواه بالبخل وسوء الخلق » . وقال ﷺ : « إن الله استخلص هذا الدين لنفسه ،

ولا يصلح لدينكم إلا السخاء وحسن الخلق ، ألا فزينوا دينكم بهما » .

وقال ﷺ: « حسن الخلق خلق الله الأعظم » . وقيل : يا رسول الله أى المؤمنين أفضل إيمانًا ؟ قال : «أحسنهم خلقًا». وقال ﷺ : « إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم ، فسعوهم ببسط الوجه وحسن الخلق » .

وقال أيضًا ﷺ : « سوء الخلق يفسد العمل ، كما يفسد الخل العسل».

وعن جرير بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ : « إنك امرؤ قد حسن الله خَلْقَك، فحسن خُلُقك» . وعن البراء بن عازب قال : كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وجهًا وأحسنهم خلقًا . وعن أبى سعيد الخدرى قال : كان رسول الله ﷺ يقول فى دعائه: اللهم كما حسنت خَلقى حسّن خُلقى .

وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : كان رسول الله ﷺ يكثر الدعاء فيقول : « اللهم إنى أسألك الصحة والعافية وحسن الخلق » .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : كرم المؤمن دينه ، وحسبه حسن خلقه، ومروءته عقله » .

وعن أسامة بن شريك قال : شهدت الأعاريب يسألون النبى ﷺ يقولون: ما خير ما أعطى العبد ؟ قال : « خلق حسن » . وقال ﷺ : « إن أحبكم إلىّ وأقربكم منى مجلسًا يوم القيامة أحسنكم أخلاقًا » .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاث من لم يكن فيه أى واحدة منهن فلا تعتدوا بشىء من عمله : تقوى تحجزه عن معاصى الله ، وحلم يكف به السفيه ، أو خلق يعيش به بين الناس » .

وكان من دعائه ﷺ فى افتتاح الصلاة : « اللهم اهدنى لأحسن الأخلاق لا يهدى لأحسنها إلا أنت ، واصرف عنى سيئها لا يصرف عنى سيئها إلا أنت » . وقيل : فيم التجمل ؟ قال : فى لطف الكلام ، وإظهار البشر والابتسام ، فمن لقى الناس بالإحسان وعاملهم بالأخلاق الحسان ، فهو الذى يخف عليهم جانبه ، ويحمد إخاؤه ، كما قال :

إذا حويت خصال الخير أجمعها فضلا وعاملت كل الناس بالحسن
لم تعدم الخير من ذى العرش تحرزه والشكر من خلقه فى السر والعلن

الباب السادس والثمانون ..في

الضحك والبكاء واللباس

قال بعض المفسرين فى قوله تعالى : ﴿ أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ ﴾ [النجم : ٥٩] أى القرآن . ﴿ تَعْجَبُونَ ﴾ منه تكذيبًا ﴿ وَتَضْحَكُونَ ﴾ منه استهزاء ، مع كونه من عند الله تعالى : ﴿ وَلا تَبْكُونَ ﴾ [النجم : ٦٠] خوفًا وانزجارًا لما فيه من الوعيد ﴿ وَأَنتُمْ سَامِدُونَ ﴾ [النجم: ٦١] غافلون عما يطلب منكم، قال: لما نزلت هذه الآية ، فما ضحك النبى ﷺ بعد ذلك ، إلا أن يبتسم . وفى لفظ فما رؤى النبى ﷺ ضاحكًا ولا مبتسمًا حتى ذهب من الدنيا .

وعن ابن عمر رضى الله عنه قال: خرج النبى ﷺ ذات يوم من المسجد فإذا قوم يتحدثون ويضحكون، فوقف وسلم عليهم، ثم قال : «أكثروا ذكر هاذم اللذات » ، ثم خرج بعد ذلك مرة أخرى فإذا قوم يضحكون ، فقال : « أما والذى نفسى بيده لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرًا » .

ولما أراد الخضر أن يفارق موسى عليهما السلام قال له : عظنى ، قال له : يا موسى إياك واللجاجة ، ولا تمش بغير حاجة ، ولا تضحك من غير عجب ، ولا تعير الخطائين بخطاياهم ، وابك على خطيئتك . وقال ﷺ : « كثرة الضحك تميت القلوب » . وقال ﷺ : « من ضحك لشبابه بكى لهرمه ، ومن ضحك لغناه بكى لفقره ، ومن ضحك لحياته بكى لموته » . وقال ﷺ: « اقرؤا القرآن وابكوا ، فإن لم تبكوا فتباكوا » .

وعن الحسن فى قوله : ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً ﴾ أى فى الدنيا ﴿ وَلْيَبْكُوا كَثِيراً ﴾ فى الآخرة ﴿ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [التوبة : ٨٢].

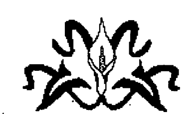
وقال أيضًا : يا عجبًا من ضاحك ومن ورائه النار ، ومن مسرور من ورائه الموت . ومرّ رضى الله عنه بشاب يضحك فقال له : يا بنى هل جزت على الصراط ؟ قال : لا ، قال : هل تبين لك أنك تصير إلى الجنة ؟ قال : لا ، قال : ففيم الضحك ؟ فما رؤى الشاب ضاحكًا بعد ذلك .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما : من أذنب ذنبًا وهو يضحك دخل النار وهو يبكى . ومدح الله تعالى أقوامًا بالبكاء فقال تعالى : ﴿ **وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ** ﴾ [الإسراء : ١٠٩] . وعن الأوزاعى فى قوله تعالى : ﴿**مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا** ﴾ [الكهف : ٤٩] قال : الصغيرة التبسم ، والكبيرة : القهقهة . وقال ﷺ : « كل عين باكية يوم القيامة إلا ثلاثًا : عين بكت من خشية الله ، وعين غضت عن محارم الله ، وعين سهرت فى سبيل الله تعالى » . ويقال : ثلاثة أشياء تقسى القلب : الضحك من غير عجب ، والأكل من غير جوع ، والكلام فى غير حاجة .

وكان رسول الله ﷺ يلبس من الثياب ما وجد ، من إزار ، أو رداء ، أو قميص ، أو جبة ، أو غير ذلك ، وكان يعجبه الثياب الخضر ، وكان أكثر لباسه البياض . ويقول : « ألبسوها أحياءكم ، وكفنوا فيها موتاكم » .

وكان له ﷺ قباء سندس فيلبسه فتحسن خضرته على بياض لونه . وكانت ثيابه كلها مشمرة فوق الكعبين ، ويكون الإزار فوق ذلك إلى نصف الساق . ولقد كان له كساء أسود فوهبه . فقالت له أم سلمة : بأبى أنت وأمى ، ما فعل ذلك الكساء الأسود ؟ فقال : « كسوته » . فقالت : ما رأيت شيئًا قط كان أحسن من بياضك على سواده . وكان ﷺ إذا لبس ثوبًا لبسه من قبل ميامنه ، ويقول : « الحمد لله الذى كسانى ما أوارى به عورتى، وأتجمل به فى الناس » ، وإذا نزع ثوبه أخرجه من مياسره .

وكان إذا لبس جديدا أعطى خلق ثيابه مسكينًا ثم يقول : «ما من مسلم يكسو مسلمًا من سمل ثيابه لا يكسوه إلا لله إلا كان فى ضمان الله وحرزه وخيره ما واراه حيا وميتًا » . وكانت له ﷺ عباءة تفرش له حيثما تنقل ، تثنى طاقين تحته . وكان ينام على الحصير ليس تحته شىء غيره .



الباب السابع والثمانون ..في

فضل القرآن وفضل العلم والعلماء

أما فضل القرآن : فقد قال ﷺ : « من قرأ القرآن ثم رأى أن أحدًا أوتى أفضل مما أوتى فقد استصغر من عظمة الله تعالى » .

وقال ﷺ : « ما من شفيع أفضل منزلة عند الله تعالى من القرآن » .

وقال ﷺ : « أفضل عبادة أمتى تلاوة القرآن » .

وقال ﷺ : « خيركم من تعلم العلم وعلمه » .

وقال ﷺ : « إن القلوب لتصدأ كما يصدأ الحديد » فقيل : يا رسول الله وما جلاؤها ؟ فقال : « تلاوة القرآن وذكر الموت » .

وقال الفضيل بن عياض : حامل القرآن حامل راية الإسلام فلا ينبغى أن يلهو مع من يلهو ، ولا يسهو مع من يسهو ، ولا يلغو مع من يلغو ، تعظيمًا لحق القرآن . وقال أيضًا : من قرأ خاتمة سورة الحشر حين يصبح ثم مات من نومه ختم له بطابع الشهداء ، ومن قرأها حين يمسى ثم مات من ليلته . ختم له بطابع الشهداء .

وأما فضل العلم والعلماء : فالأحاديث الواردة فى ذلك كثيرة ، قال ﷺ : « من يرد الله به خيرًا يفقهه فى الدين ، ويلهمه رشده » .

وقال ﷺ : « العلماء ورثة الأنبياء » . ومعلوم : أنه لا رتبة فوق رتبة النبوة ، ولا شرف فوق شرف الوراثة لتلك الرتبة .

وقال ﷺ : « أفضل الناس المؤمن العالم الذى إذا احتيج إليه نفع ، وإن استغنى عنه أغنى نفسه » .

وقال ﷺ : « أقرب الناس من درجة النبوة أهل العلم والجهاد ، أما أهل العلم فدلوا الناس على ما جاء به الرسل ، وأما أهل الجهاد فجاهدوا بأسيافهم على ما جاءت به الرسل » .

وقال ﷺ : « لموت قبيلة أيسر من موت عالم » .

وقال ﷺ : « يوزن يوم القيامة مداد العلماء بدم الشهداء » .

وقال ﷺ : « لا يشبع عالم من علم حتى يكون منتهاه الجنة » .

وقال ﷺ : « هلاك أمتى فى شيئين : ترك العلم ، وجمع المال » .

وقال ﷺ : « كن عالمًا أو متعلمًا أو مستمعًا أو محبا ولا تكن الخامسة- أى مبغضًا - فتهلك » .

وقال ﷺ : « آفة العلم : الخيلاء » .

ومن أمثال الحكماء : من طلب العلم والرياسة فقد عدم التوفيق والسياسة .

قال تعالى : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِ ﴾ [الأعراف : ١٤٦] .

وقال الشافعى رضى الله عنه : من تعلم القرآن عظمت قيمته ، ومن تعلم الفقه جل مقداره ، ومن تعلم الحديث قويت حجته ، ومن تعلم الحساب جزل رأيه ، ومن تعلم الغريب رق طبعه ، ومن لم يعز نفسه لم ينفعه علمه .

وقال الحسن بن علىّ رضى الله عنهما : من أكثر مجالسة العلماء أطلق عقال لسانه ، وفتق مراتق ذهنه ، وسره ما وجد من الزيادة فى نفسه ، وكانت له ولاية لما يعلم وإفادة لما تعلم.

وقال ﷺ : « إذا ردّ الله عبدًا حظر عليه العلم » .

وقال ﷺ : « لا فقر أشد من الجهل » .



الباب الثامن والثمانون ..في

فضل الصلاة والزكاة

اعلم أن الله تعالى جعل الزكاة إحدى مبانى الإسلام وأردف بذكرها الصلاة ، التى هى أعلى الأعلام ، فقال تعالى : ﴿ **وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ** ﴾ [البقرة : ٤٣ ، ٨٣ ، ١١٠ ، النساء : ٧٧ ، النور : ٥٦ ، المزمل : ٢٠] وقال ﷺ : «بنى الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة » الحديث .

وشدد الوعيد على المقصرين فيها ، فقال تعالى : ﴿ **فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ** ﴾ [الماعون : ٤ ، ٥] . وتقدم الكلام على ذلك مستوفى . وقال تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ** ﴾ [التوبة : ٣٤] ومعنى الإنفاق فى سبيل الله : إخراج الزكاة .

فائدة : يستحب أن يطلب لصدقته أتقياء الفقراء ، المعرضين عن الدنيا، المتجردين لتجارة الآخرة ؛ فإن ذلك يربو به المال[1]، قال ﷺ : « لا تأكل إلا طعام تقى ولا يأكل طعامك إلا تقى » وذلك لأن التقى يستعين به على التقوى ، فتكون شريكًا به فى طاعتك بإعانتك إياه .

وكان بعض العلماء يؤثر بالصدقة فقراء الصوفية دون غيرهم . فقيل له: لو عممت بمعروفك جميع الفقراء لكان أفضل ، فقال : لا ، هؤلاء قوم هممهم لله سبحانه ، فإذا طرقتهم فاقة تَشَتَّت همة أحدهم ، فلئن أرد همة واحد إلى الله عز وجل ، أحب إلىّ من أن أعطى ألفًا ممن همته الدنيا . فذكر هذا الكلام للجنيد فاستحسنه . وقال : هذا ولىّ من أولياء الله تعالى. وقال : ما سمعت منذ زمان كلامًا أحسن من هذا . ثم حكى أن هذا الرجل

(١) « يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لايسألون الناس إلحافًا » .

اختل حاله ، وهم بترك الحانوت ، فبعث إليه الجنيد مالا ، وقال: اجعله بضاعتك ولا تترك الحانوت ؛ فإن التجارة لا تضر مثلك وكان هذا الرجل بقالاً ، لا يأخذ من الفقراء ثمن ما يبتاعونه . وكان ابن المبارك يخصص بمعروفه أهل العلم ، فقيل له : لو عممت ، فقال : إنى لا أعرف بعد مقام النبوة أفضل من مقام العلماء ، فإذا اشتغل قلب أحدهم بحاجته ، لم يتفرغ للعلم ، ولم يقبل على التعلم ، فتفريغهم للعلم أفضل .

وأن يخص ذوى العاهات لا سيما ذوى الأرحام والأقارب، فتكون صدقة وصلة رحم، وفى صلة الرحم ما لا يحصى من الأجر ، كما مر فى بابه ، وأن يخرج الصدقة سرا ، ليسلم من شؤم الرياء ومن إذلال المعطى فى الملأ . قال ﷺ : « صدقة السر تطفىء غضب الرب » .

وذكر فى حديث السبعة الذين يظلهم الله تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله : «رجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أعطت يمينه» نعم. إن كان فى إظهار الصدقة خير ، كأن يقتدى به غيره ، فلا بأس إن سلم من الرياء وتجنب الامتنان .

كما قال تعالى : ﴿ لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ ﴾ [البقرة : ٢٦٤] فآفة المعروف المن ، بل يؤثر كتمانه ويستعمل نسيانه ، كما يجب على من صنع له معروف نشره ، فإن نشره عليه شكره ، كما فى الحديث : « لا يشكر الله من لا يشكر الناس » .

وما أحسن قول القائل :

يد المعروف غنم حيث كانت ... تحملها كفور أو شكور
ففى شكر الشكور لها جزاء ... وعند الله ما كفر الكفور



الباب التاسع والثمانون ..في

بر الوالدين وحقوق الأولاد

لا يخفى أنه إذا تأكد حق القرابة والرحم ، فأخص الأرحام وأمسها الولادة ، فيتضاعف تأكد الحق فيها . وقد قال ﷺ : « لن يجزى ولد والده حتى يجده مملوكًا فيشتريه فيعتقه » .

وقال ﷺ : « بر الوالدين أفضل من الصلاة والصدقة والصوم والحج والعمرة والجهاد فى سبيل الله » .

وقد قال ﷺ : « من أصبح مرضيًا لأبويه أصبح له بابان مفتوحان إلى الجنة ، ومن أمسى فمثل ذلك ، وإن كان واحدًا فواحدًا وإن ظلما ، وإن ظلما ، وإن ظلما ، ومن أصبح مسخطًا لأبويه أصبح له بابان مفتوحان إلى النار ، ومن أمسى فمثل ذلك ، وإن كان واحدًا فواحدًا ، وإن ظلما ، وإن ظلما ، وإن ظلما » .

وقال ﷺ : « إن الجنة يوجد ريحها من مسيرة خمسمائة عام ، ولا يجد ريحها عاق ، ولا قاطع رحم » .

وقال ﷺ : « بر أمك وأباك ، وأختك وأخاك ، ثم أدناك فأدناك » .

ويروى أن الله تعالى قال لموسى عليه السلام : يا موسى إنه من بر والديه وعقنى ، كتبته بارًا . ومن برنى وعق والديه ، كتبته عاقا .

وقيل : لما دخل يعقوب على يوسف عليهما السلام لم يقم له ، فأوحى الله إليه : أتتعاظم أن تقوم لأبيك ؟ وعزتى وجلالى ، لا أخرجت من صلبك نبيا .

وقال ﷺ : « ما على أحد إذا أراد أن يتصدق بصدقة أن يجعل لوالديه أجرها ، ويكون له مثل أجورهما من غير أن ينقص من أجورهما شىء » .

وقال مالك بن ربيعة : بينما نحن عند رسول الله ﷺ إذ جاءه رجل من بنى سلمة ، فقال: يا رسول الله هل بقى علىّ من بر أبوى شىء أبرهما بعد

وفاتهما ؟ قال : « نعم الصلاة عليهما ، والاستغفار لهما ، وإنفاذ عهدهما، وإكرام صديقهما ، وصلة الرحم التى لا توصل إلا بهما ».وقال ﷺ : « من أبر البر أن يصل الرجل أهل ود أبيه بعد أن يولى الأب » . وقال ﷺ : «بر الوالدة على الولد ضعفان ». وقال ﷺ : « دعوة الوالدة أسرع إجابة » قيل : يا رسول الله ولم ذاك؟ قال: «هى أرحم من الأب ودعوة الرحم لا تسقط» .

وسأله رجل فقال : يا رسول الله مَنْ أبر ؟ فقال : «بر والديك » فقال: ليس لى والدان ، فقال : « بر ولدك ، كما أن لوالديك عليك حقًا كذلك لولدك عليك حق » .وقال ﷺ : « رحم الله والدًا أعان ولده على بره» أى لم يحمله على العقوق بسوء عمله . وقال ﷺ : « ساووا بين أولادكم فى العطية » .وقد قيل : ولدك ريحانتك تشمها سبعًا ، وخادمك سبعًا ، ثم هو عدوك أو شريكك .

وقال أنس رضى الله عنه : قال النبى ﷺ : « الغلام يعق عنه اليوم السابع ويسعى ويماط عنه الأذى ، فإذا بلغ ست سنين أدب ، فإذا بلغ تسع سنين عزل فراشه ، فإذا بلغ ثلاث عشرة سنة ضرب على الصلاة ، فإذا بلغ ست عشرة سنة زوجه أبوه ، ثم أخذ بيده ، وقال : قد أدبتك وعلمتك وأنكحتك ، أعوذ بالله من فتنتك فى الدنيا وعذابك فى الآخرة » .

وقال ﷺ : « من حق الولد على الوالد أن يحسن أدبه ويحسن اسمه». وقال ﷺ : « كل غلام رهين ــ أو رهينة ــ بعقيقة تذبح عنه يوم السابع، ويحلق رأسه » .وقال قتادة : إذا ذبحت العقيقة أخذت صوفة منها فاستقبلت بها أوداجها ، ثم توضع على يافوخ الصبى ، حتى يسيل منه مثل الخيط ، ثم يغسل رأسه ويحلق بعد . وجاء رجل إلى عبد الله بن المبارك فشكا إليه بغض ولده فقال : هل دعوت عليه ؟ قال: نعم ، قال : أنت أفسدته . ويستحب الرفق بالولد : رأى الأقرع بن حابس النبى ﷺ وهو يقبل ولده الحسن . فقال : إن لى عشرة من الولد ما قبلت واحدًا منهم . فقال ﷺ : «إن من لا يرحم لا يرحم »[1].

(١) وفي رواية : وما لي أن نزع الله الرحمة من قلبك .

وقالت عائشة رضى الله عنها : قال لى رسول الله ﷺ يومًا : «اغسلى وجه أسامة » فجعلت أغسله وأنا أنفة ، فضرب يدى ، ثم أخذه فغسل وجهه ثم قبله ، ثم قال : « قد أحسن بنا إذ لم تكن له جارية » .

وتعثر الحسن والنبى ﷺ على منبره ، فنزل فحمله ، وقرأ قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ [التغابن : ١٥] .

وقال عبد الله بن شداد : بينما رسول الله ﷺ يصلى بالناس ، إذ جاءه الحسين فركب عنقه وهو ساجد ، فأطال السجود بالناس ، حتى ظنوا أنه قد حدث أمر ، فلما قضى صلاته ، قالوا : قد أطلت السجود يا رسول الله ، حتى ظننا أنه قد حدث أمر ، فقال : « إن ابنى قد ارتحلنى ، فكرهت أن أعجله حتى يقضى حاجته » ، وفى ذلك فوائد :

إحداها : القرب من الله تعالى ، فإن العبد أقرب ما يكون من الله تعالى إذا كان ساجدًا .

وفيه : الرفق بالولد والبر ، والتعليم لأمته .

قال ﷺ : « ريح الولد من ريح الجنة » .

وقال يزيد بن معاوية : « أرسل أبى إلى الأحنف بن قيس ، فلما وصل إليه قال له : يا أبا بحر ما تقول فى الولد ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، ثمار قلوبنا ، وعماد ظهورنا ، ونحن لهم أرض ذليلة ، وسماء ظليلة ، وبهم نصول على كل جليلة ، فإن طلبوا فأعطهم ، وإن غضبوا فأرضهم ، يمنحوك ودهم ، ويحبوك جهدهم ، ولا تكن عليهم ثقلاً ثقيلاً فيملوا حياتك ، ويودوا وفاتك ، ويكرهوا قربك ، فقال معاوية : أنتِ يا أحنف قد دخلت علىّ وأنا مملوء غضبًا وغيظًا على « يزيد » ، فلما خرج الأحنف من عنده رضى عن « يزيد » ، وبعث إليه بمائتى ألف درهم ومائتى ثوب ، فأرسل «يزيد» إلى الأحنف بمائة ألف درهم ومائة ثوب ، فقاسمه إياها على الشطر .

(١) وفي رواية وما لي أن نزع الله الرحمة من قلبك .

الباب التسعون .. في

حقوق الجوار والإحسان للمساكين

اعلم أن الجوار يقتضى حقا وراء ما تقتضيه أخوة الإسلام ، فيستحق الجار المسلم ما يستحقه كل مطعم وزيادة ، إذ قال النبى ﷺ : « الجيران ثلاثة : جار له حق واحد ، وجار له حقان ، وجار له ثلاثة حقوق ، الجار المسلم ذو الرحم له حق الجوار وحق الإسلام وحق الرحم . وأما الذى له حقان فالجار المسلم ، له حق الجوار وحق الإسلام . وأما الذى له حق واحد، فالجار المشرك » . فانظر كيف أثبت للمشرك حقا بمجرد الجوار .

وقد قال ﷺ : « أحسن مجاورة من جاورك تكن مسلمًا » . وقال النبى ﷺ : « ما زال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه» . وقال النبى عليه السلام : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره » .

وقال ﷺ : « لا يؤمن عبد حتى يأمن جاره بوائقه » .

وقال عليه السلام : « أول خصمين يوم القيامة جاران» .

وقال عليه السلام : « إذا أنت رميت كلب جارك فقد آذيته » .

ويروى أن رجلاً جاء إلى ابن مسعود رضى الله عنه فقال له : إن لى جارًا يؤذينى ويشتمنى ويضيق علىّ ، فقال : اذهب ، فإن هو عصى الله فيك فأطع الله فيه .

وقيل لرسول الله ﷺ : أن فلانة تصوم النهار وتقوم الليل وتؤذى جيرانها ، فقال ﷺ : « هى فى النار » .

وجاء رجل إليه ﷺ يشكو جاره ، فقال له النبى عليه السلام : « اصبر» ثم قال له فى الثالثة أو الرابعة : «اطرح متاعك فى الطريق » ، قال : فجعل الناس يمرون به ويقولون : ما لك ؟ فيقول : آذانى جارى ، قال : فجعلوا يقولون : لعنه الله ، فجاءه جاره ، فقال له : رد متاعك فوالله لا أعود .

وروى الزهرى : أن رجلاً أتى النبى عليه الصلاة والسلام فجعل يشكو

جاره ، فأمر النبى ﷺ أن ينادى على باب المسجد : « ألا إن أربعين دارًا جار» ، قال الزهرى : أربعون هكذا، وأربعون هكذا ، وأربعون هكذا ، وأربعون هكذا ، وأومأ إلى أربع جهات . وقال عليه السلام: «اليمن والشؤم فى المرأة والمسكن والفرس، فيمن المرأة: خفة مهرها ويسر نكاحها وحسن خلقها، وشؤمها: غلاء مهرها وعسر نكاحها وسوء خلقها، ويمن المسكن: سعته وحسن جوار أهله، وشؤمه: ضيقه وسوء جوار أهله، ويمن الفرس: ذله وحسن خلقه، وشؤمه: صعوبته وسوء خلقه » .

واعلم أنه ليس حق الجوار كف الأذى فقط ، بل احتمال الأذى أيضًا ؛ فإن الجار إذا كف أذاه، فليس فى ذلك قضاء حق، ولا يكفى احتمال الأذى، بل لا بد من الرفق وإسداء الخير والمعروف ، إذ يقال : إن الجار الفقير يتعلق بجاره الغنى يوم القيامة ، فيقول : يا رب سل هذا لم منعنى معروفه وسد بابه دونى ؟ . وبلغ « ابن المقفع » أن جارًا له يبيع داره فى دين ركبه ، وكان يجلس فى ظل داره ، فقال : ما قمت إذًا بحرمة ظل داره ، إن باعها معدمًا ، فدفع إليه ثمن الدار ، وقال : لا تَبِعْها .

وشكا بعضهم كثرة الفأر فى داره ، فقيل له : لو اقتنيت هرا ، قال : أخشى أن الفأر يسمع صوت الهر فيهرب إلى دار الجيران ، فأكون قد أحببت لهم ما كرهت لنفسى .

وجملة حق الجار :

أن يبدأه بالسلام ، ولا يطيل معه الكلام ، ولا يكثر عليه السؤال ، ويعوده فى المرض ، ويعزيه فى المصيبة ، ويقوم معه فى العزاء ، ويهنئه فى الفرح ، ويظهر الشركة فى السرور معه ، ويصفح عن زلاته ، ولا يتطلع من السطح إلى عوراته ، ولا يضايقه فى وضع الجذع على جداره ، ولا يصب الماء فى منزله ، ولا يطرح التراب فى فنائه ، ولا يضيق طريقه فى الدار ، ولا يتبعه بالنظر فيما يحمله إلى داره ، ويستر ما ينكشف له من عوراته ، وينعشه فى صرعته إذا نابته نائبة ، ولا يغفل عن ملاحظة داره عند غيبته ، ولا يسمع عليه كلام ، ويغض بصره عن حرمته ، ولا يديم النظر إلى

خادمته ، ويتلطف بولده فى كلمته ، ويرشده إلى ما يجهله من أمر دينه ودنياه . .

هذا إلى جملة الحقوق التى لعامة المسلمين .

وقد قال ﷺ : « أتدرون ما حق الجار ؟ إن استعان بك أعنته ، وإن استنصرك نصرته ، وإن استقرضك أقرضته ، وإن افتقر عدت عليه ، وإن مرض عدته ، وإن مات تبعت جنازته ، وإن أصابه خير هنأته ، وإن أصابته مصيبة عزيته ، ولا تستطل عليه بالبناء فتحجب عنه الريح إلا بإذنه ، ولا تؤذه ، وإذا اشتريت فاكهة فاهد له ، فإن لم تفعل فأدخلها سرا ، ولا يخرج بها ولدك ليغيظ بها ولده ، ولا تؤذه بقتار قدرك ، إلا أن تغرف له منها » ، ثم قال : « أتدرون ما حق الجار ؟ والذى نفسى بيده لا يبلغ حق الجار إلا من رحمه الله » . هكذا رواه عمرو بن شعيب عن أبيه وجده عن النبى ﷺ .

وقال مجاهد : كنت عند عبد الله بن عمر وغلام له يسلخ شاة ، فقال: يا غلام إذا سلخت الشاة فابدأ بجارنا اليهودى ، حتى قال ذلك مرارًا، فقال له : كم تقول فى هذا ؟ فقال : إن رسول الله ﷺ لم يزل يوصينا بالجار حتى خشينا أنه سيورثه .

وقال هشام : كان الحسن لا يرى بأسًا أن تطعم الجار اليهودى والنصرانى من أضحيتك .

وقال أبو ذر رضى الله عنه : أوصانى خليلى عليه السلام وقال : « إذا طبخت قدرًا فأكثر ماءها ، ثم انظر بعض أهل بيت فى جيرانك ، فاغرف لهم منها » .



الباب الحادي والتسعون .. في

عقوبة شارب الخمر

قد أنزل الله في الخمر ثلاث آيات :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ** ﴾ [البقرة : ٢١٩] الآية، فكان فى المسلمين شارب وتارك، إلى أن شرب رجل فدخل فى الصلاة ، فهجر . فنزل قوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ** ﴾ [النساء : ٤٣] الآية .

فشربها من شربها من المسلمين ، وتركها من تركها ، حتى شربها عمر رضى الله عنه فأخذ بلحى بعير ، وشج بها رأس عبد الرحمن بن عوف ، ثم قعد ينوح على قتلى بدر ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فخرج مغضبًا يجر رداءه ، فرفع شيئًا كان فى يده فضربه به ، فقال : «أعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله » .

فأنزل الله تعالى : ﴿ **إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ** ﴾ [المائدة : ٩١] الآية [1].

فقال عمر رضى الله عنه : انتهينا ، انتهينا .

ومن الأخبار المتفقة على تحريمها : قول سيدنا رسول الله ﷺ : « لا يدخل الجنة مدمن خمر » . وقوله ﷺ : « أول ما نهانى ربى بعد عبادة الأوثان عن شرب الخمر، وملاحاة الرجال » . وقوله ﷺ : « ما من قوم اجتمعوا على مسكر فى الدنيا إلا جمعهم الله فى النار ، فيقبل بعضهم على بعض يتلاومون ، يقول أحدهم للآخر : يا فلان لا جزاك الله عنى خيرًا ، فأنت الذى أوردتنى هذا المورد ، فيقول له الآخر مثل ذلك » .

وعنه ﷺ أنه قال : « من شرب الخمر فى الدنيا سقاه الله من سم

---

(١) والآية التي قبلها : « يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون » .

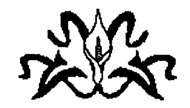
الأساود شربة يتساقط منها لحم وجهه في الإناء قبل أن يشربها ، فإذا شربها يتساقط لحمه وجلده ، يتأذى به أهل النار، ألا إن شاربها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه وآكل ثمنها شركاء في إثمها ، لا يُقبل الله منهم صلاة ، ولا صومًا ولا حجا حتى يتوبوا ، فإن ماتوا قبل التوبة كان حقا على الله أن يسقيهم بكل جرعة شربوها في الدنيا من صديد جهنم ، ألا وإن كل مسكر خمر ، وكل خمر حرام » .

وذكّر ابن أبي الدنيا أنه مر بسكران وهو يبول في يده ، ويغسل به يده، كهيئة المتوضىء ، وهو يقول : الحمد لله الذي جعل الإسلام نورًا والماء طهورًا . وعن العباس بن مرداس أنه قيل له في الجاهلية : لم لا تشرب الخمر فإنها تزيد في حرارتك ؟ فقال : ما أنا بآخذ جهلي بيدي ، فأدخله في جوفي ، ولا أرضى أن أصبح سيد قومي وأمسى سفيههم .

وروى البيهقي عن ابن عمر رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : « اجتنبوا أم الخبائث ، فإنه كان رجل ممن كان قبلكم يتعبد ويعتزل الناس ، فتعلقت به امرأة فأرسلت إليه خادمًا : إنا ندعوك لشهادة ، فدخل فطفقت كلما دخل بابًا أغلقته دونه ، حتى إذا أفضى إلى امرأة وضيئة جالسة ، وعندها غلام وباطية فيها خمر ، فقالت : إنا لم ندعك لشهادة ، ولكن دعوتك لتقتل هذا الغلام ، أو تقع عليّ ، أو تشرب كأسًا من الخمر ، فإن أبيت صحت بك وفضحتك ، فلما رأى أنه لابد له من ذلك ، قال : اسقني كأسًا من الخمر ، فسقته ، فقال ؛ زيديني فلم يزل حتى وقع عليها ، وقتل النفس . فاجتنبوا الخمر فإنه والله لا يجتمع إيمان وإدمان خمر في صدر رجل أبدًا ، ليوشكن أحدهما أن يخرج صاحبه » .

وروى أحمد وابن حبان في صحيحه عن ابن عمر ﷺ: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : «إن آدم لما أهبط إلى الأرض قالت الملائكة : أي رب **﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾** [البقرة : ٣٠] . قالوا : ربنا نحن أطوع لك من بني آدم . قال الله تعالى لملائكته : هلموا إلى ملكين من الملائكة ،

فننظر كيف يعملان ؟ قالوا : ربنا هاروت وماروت ، قال : فاهبطوا إلى الأرض ، فتمثلت لهم الزهرة امرأة من أحسن البشر ، فجاآها فسألاها نفسها، فقالت : لا والله حتى تتكلما بهذه الكلمة من الإشراك ، قالا : والله لا نشرك بالله أبدًا ، فذهبت عنهما ، ثم رجعت إليهما ومعها صبى تحمله ، فسألاها نفسها ، فقالت : لا والله حتى تقتلا هذا الصبى ، فقالا : لا والله لا نقتله أبدًا ، فذهبت ثم رجعت بقدح خمر تحمله ، فسألاها نفسها ، فقالت : لا والله حتى تشربا هذه الخمرة ، فشربا فسكرا فوقعا عليها وقتلا الصبى ، فلما أفاقا ، قالت المرأة : والله ما تركتما من شىء أبيتما علىّ إلا فعلتما حين سكرتما ، فخيّرا عند ذلك بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ، فاختارا عذاب الدنيا . وروى عن أم سلمة رضى الله عنها قالت : اشتكت بنت لى ، فنبذت لها فى كوز ، فدخل علىّ رسول الله ﷺ وهو يغلى ، قال: « ما هذا يا أم سلمة ؟ » فذكرت له إنى أداوى به ابنتى . فقال ﷺ : «إن الله لم يجعل شفاء أمتى فيما حرم عليها » . وروى أن الله تعالى لما حرم الخمر ، سلب منها المنافع .



الباب الثاني والتسعون ..في

معراج النبي ﷺ

روى البخاري عن قتادة عن أنس بن مالك بن صعصعة أن النبي ﷺ حدثهم عن ليلة أسرى به ، قال : « بينما أنا في الحطيم ـ وربما قال في الحجر ـ مضطجعًا ، إذ أتاني آت ، قال : وسمعته يقول : فشق ما بين هذه إلى ما بين هذه ، فقلت للجارود وهو إلى جنبي : ما يعني به؟ قال : من ثغرة نحره إلى شعرته ، فاستخرج قلبي ، ثم أتيت بطشت من ذهب مملوءة إيمانًا ، فغسل قلبي ، ثم حشي ، ثم أعيد ، ثم أتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار أبيض ، قال الجارود : هو البراق يا أبا حمزة .

– قال أنس : نعم ، يضع خطوه عند أقصى طرفه – فحملت عليه، فانطلق بي جبريل حتى أتى السماء الدنيا ، فاستفتح ، فقيل : من هذا ؟ قال: جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قال : محمد ، قيل : وقد أرسل إليه ؟ قال : نعم . قيل : مرحبًا به ، فنعم المجيء جاء ، ففتح ، فلما خلصت فإذا فيها آدم ، فقال : هذا أبوك آدم ، فسلم عليه ، فسلمت عليه ، فرد عليّ السلام ، ثم قال : مرحبًا بالابن الصالح والنبي الصالح ، ثم صعد بي حتى أتى السماء الثانية ، فاستفتح ، فقيل : من هذا ؟ قال : جبريل ، قيل: ومن معك ؟ قال : محمد ، قيل : وقد أرسل إليه ؟ قال: نعم . قيل: مرحبًا به فنعم المجيء جاء . ففتح لنا . فلما خلصت إذا بيحيى وعيسى وهما ابنا الخالة ، قال : هذا يحيى وعيسى ، فسلم عليهما ، فسلمت ، فردا ، ثم قالا : مرحبًا بالأخ الصالح والنبيّ الصالح ، ثم صعدا بي إلى السماء الثالثة فاستفتح ، قيل : من هذا ؟ قال : جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قال : محمد ، قيل: وقد أرسل إليه ؟ قال : نعم . قيل : مرحبًا به فنعم المجيء جاء ، ففتح .. فلما خلصت إذا يوسف ، قال : هذا يوسف فسلِّم عليه ، فسلمت عليه ، فردّ ، ثم قال: مرحبًا بالأخ الصالح

والنبى الصالح ، ثم صعد بى إلى السماء الرابعة ، فاستفتح ، قيل : من هذا؟ قال : جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قال : محمد ، قيل : وقد أرسل إليه ؟ قال : نعم . قيل: مرحبًا به فنعم المجىء جاء ، ففتح . فلما خلصت إذا إدريس ، قال : هذا إدريس فسلم عليه ، فسلمت عليه ، فرد ثم قال : مرحبًا بالأخ الصالح والنبى الصالح ، ثم صعد بى حتى أتى السماء الخامسة، فاستفتح ، قيل : من هذا ؟ قال : جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قال : محمد ، قيل : وقد أرسل إليه ؟ قال : نعم . قيل : مرحبًا به فنعم المجىء جاء . فلما خلصت إذا هارون ، قال : هذا هارون ، فسلم عليه ، فسلمت عليه ، فردّ ، ثم قال: مرحبًا بالأخ الصالح والنبى الصالح ، ثم صعد بى حتى إذا أتى السماء السادسة ، فاستفتح، قيل : من هذا ؟ قال : جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قال : محمد ، قيل : وقد أرسل إليه ؟ قال : نعم . قيل : مرحبًا به فنعم المجىء جاء . فلما خلصت إذا موسى ، قال : هذا موسى ، فسلم عليه ، فسلمت عليه ، فرد ، ثم قال: مرحبًا بالأخ الصالح والنبى الصالح ، فلما تجاوزت بكى ، قيل له : ما يبكيك ؟ قال : أبكى لأن غلامًا بعث بعدى يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخلها من أمتى ، ثم صعد بى إلى السماء السابعة ، فاستفتح جبريل ، قيل : من هذا ؟ قال : جبريل، قيل : ومن معك ؟ قال : محمد ، قيل : وقد بعث إليه ؟ قال : نعم . قيل : مرحبًا به فنعم المجىء جاء . فلما خلصت إذا إبراهيم ، قال : هذا أبوك إبراهيم ، فسلم عليه ، قال : فسلمت عليه ، فردّ السلام ، فقال : مرحبًا بالابن الصالح والنبى الصالح ، ثم رفعت إلى سدرة المنتهى ، فإذا نبقها مثل قلال هجر ، وإذا ورقها مثل آذان الفيلة ، قال : هذه سدرة المنتهى، وإذا أربعة أنهار، نهران باطنان ونهران ظاهران ، فقلت : ما هذا يا جبريل ؟ قال : أما الباطنان فنهران فى الجنة ، وأما الظاهران فهما النيل والفرات ، ثم رفع بى إلى البيت المعمور ، ويدخله كل يوم سبعون ألف ملك ، ثم أتيت بإناء من خمر ، وإناء من لبن ، وإناء من عسل ، فاخترت اللبن ، فقال : هى الفطرة التى أنت عليها وأمتك ، ثم فرضت علىّ الصلوات خمسين صلاة كل يوم . قال فرجعت فمررت على موسى ، قال :

بم أمرت ؟ قـال : فقلت : بخـمسـين صلاة كل يوم ، قـال : إن أمتك لا تسـتطيع خـمسـين صلاة كـل يوم ، وإنى والله قد جـربت الناس قـبلك ، وعالجـت بنى إسرائيل أشـد المعالجـة ، فارجع إلى ربك فـاسأله التـخفـيف لأمتك. فرجعت فوضعت عنى عشـرًا ، فرجعت إلى موسى ، فقال مثله ، فرجعت فوضعت عنى عشرًا ، فرجـعت إلى موسى ، فقال مثله ، فرجعت فوضع عنى عـشرًا ، فرجـعت إلى موسى ، فقال مـثله ، فرجعت فـأمرت بعشر صلوات كل يوم ، فرجعت إلى موسى ، فـقال مثله، فرجعت فأمرت بخمس صلوات ، فرجعت إلى مـوسى ، فقال : بم أمرت ؟ قلت : أمرت بخـمس صلوات كل يوم ، قال : إن أمـتك لا تستطيع خـمس صلوات كل يوم، وإنى قد جـربت الناس قبلك ، وعـالجت بنى إسرائيل أشد المعـالجة ، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك ، قال : سألت ربى حتى استحييت منه ، ولكن أرضى وأسلم ، قـال : فلمـا جاوزت نادانـى مناد : أمضـيت فريضتى ، وخففت عن عبادى » .



الباب الثالث والتسعون في

فضائل الجمعة

اعلم أن هذا يوم عظيم، عظم الله به الإسلام ، وخصص به المسلمين، قال الله تعالى : ﴿ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ [الجمعة : ٩] فحرم الاشتغال بأمور الدنيا وبكل صارف عن السعى إلى الجمعة . وقال ﷺ : « إن الله عز وجل فرض عليكم الجمعة فى يومى هذا فى مقامى هذا » .

وقال ﷺ : « من ترك الجمعة ثلاثًا من غير عذر طبع الله على قلبه » . وفى لفظ آخر : «فقد نبذ الإسلام وراء ظهره » .

واختلف رجل إلى ابن عباس يسأله عن رجل مات لم يكن يشهد جمعة ولا جماعة . فقال : فى النار ، فلم يزل يتردد إليه شهرًا يسأله عن ذلك ، وهو يقول : فى النار .

وفى الخبر : أن أهل الكتابين أعطوا يوم الجمعة فاختلفوا فيه ، فصرفوا عنه ، وهدانا الله له ، وأخره لهذه الأمة ، وجعله عيدًا لهم ، فهم أولى الناس به سبقًا ، وأهل الكتابين لهم تبع .

وفى حديث عن أنس عن النبى ﷺ أنه قال : « أتانى جبريل عليه السلام فى كفه مرآة بيضاء ، وقال : هذه الجمعة يفرضها عليك ربك ، لتكون لك عيدًا ولأمتك من بعدك ، قلت: فما لنا فيها ؟ قال : لكم فيها خير ساعة ، من دعا فيها بخير ــ قسم لـه ــ أعطاه الله سبحانه إياه ، ومن ليس له قسم ذخر له ما هو أعظم منه ، أو تعوذ من شر هو مكتوب عليه إلا أعاذه الله عز وجل من أعظم منه ، وهو سيد الأيام عندنا ، ونحن ندعوه فى الآخرة يوم المزيد ، قلت : ولم ؟ قال : إن ربك عز وجل اتخذه فى الجنة لهم حتى ينظروا إلى وجهه الكريم .

وقال ﷺ : « خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجـمعة ، فيه خلق آدم عليه السلام ، وفيه أدخل الجنة ، وفيه أهبط إلى الأرض ، وفيه تيب عليه ، وفيـه مات ، وفيـه تقوم الساعة . وهـو عند الله يوم المزيد ، كذلك تسمـيه الملائكة فى السماء ، وهو يوم النـظر إلى اللـه تعالى فى الجنة » .

وفى الخبر : « أن الله عز وجل يخرج فى كل جمعة ستمائة ألف عتيق من النار ».

وفى حـديث أنس رضى الـله عنه أنه ﷺ قال : « إذا سـلمت الجمـعة سلمت الأيام » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « إن الجحيم تسعر فى كل يوم قبل الزوال عند استـواء الشمس فى كـبد السمـاء ، فلا تصلوا فى هذه السـاعة إلا يوم الجمعة ، فإنه صلاة كله ، وإن جهنم لا تسعر فيه » .

وقال كـعب : إن الله عز وجل فضل من البلدان مكة ، ومن الشـهور رمضان ، ومن الأيام الجمعة ، ومن الليالى ليلة القدر .

ويقال : إن الطير والهوام يلقى بعضها بعضًا فى يوم الجمعة ، فتقول : سلام ، سلام ، يوم صالح .

وقال ﷺ : « من مات يوم الجـمعـة أو ليلة الجمـعة كتب الـله له أجر شهيد ، ووقى فتنة القبر » .



الباب الرابع والتسعون .. في

حق الزوجة على الزوج

حقوق الزوجات على الأزواج كثيرة منها : حسن الخلق معهن ، واحتمال الأذى منهن، ترحمًا عليهن لقصور عقلهن .

قال تعالى : ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ [النساء : ١٩] وقال فى تعظيم حقهن : ﴿ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ [النساء : ٢١] .

وقال : ﴿ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ ﴾ [النساء : ٣٦] قيل : هى المرأة .

وآخر ما وصى به رسول الله ﷺ ثلاث كان يتكلم بهن حتى تلجلج لسانه، وخفى كلامه، جعل يقول: «الصلاة الصلاة ، وما ملكت أيمانكم، لا تكلفوهم ما لا يطيقون ، الله الله فى النساء ؛ فإنهن عوان فى أيديكم ــ يعنى أسراء ــ أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله » .

وقال ﷺ : « من صبر على سوء خلق امرأته ، أعطاه الله من الأجر مثل ما أعطى أيوب على بلائه ، ومن صبرت على سوء خلق زوجها أعطاها الله مثل ثواب آسية امرأة فرعون » .

واعلم أنه ليس من حسن الخلق معها كف الأذى عنها ، بل احتمال الأذى ، والحلم عند طيشها وغضبها ؛ اقتداء برسول الله ﷺ فقد كانت أزواجه تراجعنه الكلام وتهجره الواحدة منهن يومًا إلى الليل .

وراجعت امرأة عمر رضى الله عنه عمر فى الكلام ، فقال : أتراجعينى يا لكعاء ؟ فقالت : إن أزواج رسول الله ﷺ يراجعنه وهو خير منك . فقال عمر : خابت حفصة وخسرت أن راجعته ، ثم قال لحفصة : لا تغترى بابنة ابن أبى قحافة ؛ فإنها حب رسول الله ﷺ وخوفها من المراجعة .

وروى: أنه دفعت إحداهن فى صدر رسول الله ﷺ فزجرتها أمها ، فقال ﷺ : « دعيها فإنهن يصنعن أكثر من ذلك » . وجرى بينه وبين عائشة كلام حتى أدخلا بينهما أبا بكر رضى الله عنه حكمًا ، واستشهده فقال رسول الله ﷺ : « تكلمين أو أتكلم ؟ » فقالت : بل تكلم أنت ولا تقل إلا

حقًا . فلطمها أبو بكر حتى دمى فوها . وقال : يا عدوة نفسها ، أويقول غير الحق ، فاستجارت برسول الله ﷺ وقعدت خلف ظهره . فقال له النبى ﷺ : « لم ندعك لهذا ولا أردنا منك هذا » .

وقالت له مرة فى كلام غضبت عنده: أنت الذى تزعم أنك رسول الله فتبسم رسول الله واحتمل ذلك حلمًا وكرمًا، وكان يقول لها : « إنى لأعرف غضبك من رضاك»، قالت: وكيف تعرفه؟ قال: «إذا رضيت قلت : لا وإله محمد، وإذا غضبت قلت: لا وإله إبراهيم». قالت: صدقت إنما أهجر اسمك .

ويقال : إن أول حب وقع فى الإسلام حب النبى ﷺ لعائشة رضى الله عنها ، وكان يقول لنسائه : « لا تؤذيننى فى عائشة ، فإنه والله ما نزل علىّ الوحى وأنا فى لحاف امرأة منكن غيرها » . وقال أنس رضى الله عنه : كان رسول الله ﷺ أرحم الناس بالنساء والصبيان . ومنها : أن يزيد على احتمال الأذى بالمداعبة والمزح والملاعبة فهى التى تطيب قلوب النساء .

وقد كان رسول الله ﷺ يمزح معهن وينزل إلى درجات عقولهن فى الأعمال والأخلاق، حتى روى أنه ﷺ كان يسابق عائشة فى العدو ، فسبقته يومًا وسبقها فى بعض الأيام . فقال ﷺ : « هذه بتلك » .

وفى الخبر : أنه كان ﷺ من أفكه الناس مع نسائه .

وقالت عائشة رضى الله عنها : سمعت أصوات أناس من الحبشة وغيرهم وهم يلعبون فى يوم عاشوراء ، فقال لى رسول الله ﷺ : « أتحبين أن ترى لعبهم ؟» قالت : نعم . فأرسل إليهم ، فجاءوا وقام رسول الله ﷺ بين البابين، فوضع كفه على الباب، ومد يده ووضعت ذقنى على يده وجعلوا يلعبون وأنظر، وجعل رسول الله ﷺ يقول: « حسبك » ، وأقول: اسكت ، مرتين أو ثلاثًا، ثم قال : «يا عائشة حسبك» فقلت : نعم ، فأشار إليهم ، فانصرفوا فقال رسول الله ﷺ : «أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا وألطفهم بأهله» . وقال ﷺ : « خيركم خيركم لنسائه ، وأنا خيركم لنسائى » .

وكان عمر رضى الله عنه مع خشونته يقول : ينبغى للرجل أن يكون فى أهله مثل الصبى ، فإذا التمسوا ما عنده وجد رجل[1] .

وقال لقمان رحمه الله ينبغى للعاقل أن يكون فى أهله كالصبى ، وإذا

---

(١) أي من الأشياء التي تستلزم الرجولة .

كان فى القوم وجد رجل .وفى تفسير الخبر المروى « إن الله يبغض الجعظرى الجواظ » ، قيل : هو الشديد على أهله المتكبر فى نفسه ، وهو أحد ما قيل فى معنى قوله تعالى : ﴿ عُتُلٍّ ﴾ [القلم : ١٣] قيل : العتل هو الفظ اللسان الغليظ القلب على أهله . وقال ﷺ لجابر : « هلا بكرًا تلاعبها وتلاعبك » .

ووصفت أعرابية زوجها وقد مات ، فقالت : والله لقد كان ضحوكًا إذا ولج ، سكيتًا إذا خرج ، آكلاً ما وجد ، غير مسائل عما فقد .

ومنها: أن لا ينبسط فى الدعابة وحسن الخلق والموافقة وباتباع هواها إلى حد يفسد خلقها ، ويسقط بالكلية هيبته عندها ، بل يراعى الاعتدال فيه ، فلا يدع الهيبة والانقباض ، مهما رأى منكرًا ولا يفتح باب المساعدة على المنكرات البتة ، بل مهما رأى ما يخالف الشرع والمروءة تنمر والتعص .

قال الحسن : والله ما أصبح رجل يطيع امرأته فيما تهوى إلا كبه الله فى النار.وقال عمر رضى الله عنه:خالفوا النساء فإن فى خلافهن البركة .

وقد قيل : شاوروهن وخالفوهن .

وقد قال ﷺ : « تعس عبد الزوجة » ، وإنما قال ذلك ؛ لأنه إذا أطاعها فى هواها فهو عبدها . وقد تعس فإن الله ملكه المرأة فملكها نفسه ، فقد عكس الأمر وقلب القضية ، وأطاع الشيطان لما قال : ﴿ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ ﴾ [النساء : ١١٩] إذ حق الرجل أن يكون متبوعًا لا تابعًا .

وقد سمى الله الرجال قوامين على النساء ، وسمى الزوج سيدًا . فقال تعالى : ﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ ﴾ [يوسف : ٢٥] .

فإذا انقلب السيد مسخرًا فقد بدل نعمة الله كفرًا ، ونفس المرأة على مثال نفسك إن أرسلت عنانها قليلا جمحت بك طويلا ، وإن أرخيت عذارها فترًا جذبتك ذراعًا، وإن كبحتها وشددت يدك عليها فى محل الشدة ملكتها .

قال الشافعى رضى الله عنه : ثلاثًا إن أكرمتهم أهانوك ، وإن أهنتهم أكرموك : المرأة والخادم والنبطى . أراد به : إن محضت الإكرام ولم تمزج غلظك بلينك وفظاظتك برفقك .

الباب الخامس والتسعون .. في

حق الزوج على الزوجة

والقول الشافى فيه : أن النكاح نوع رق ، فهى رقيقة له ، فعليها طاعة الزوج مطلقًا فى كل ما طلب منها فى نفسها ، مما لا معصية فيه ، وقد ورد تعظيم حق الزوج عليها أخبار كثيرة .

قال ﷺ : « أيما امرأة ماتت وزوجها عنها راض دخلت الجنة » .

وكان رجل قد خرج إلى سفر وعهد إلى امرأته أن لا تنزل من العلو إلى السفل ، وكان أبوها فى السفل ، فمرض فأرسلت المرأة إلى رسول الله ﷺ تستأذن فى النزول إلى أبيها . فقال ﷺ : « أطيعى زوجك » فمات فاستأمرته ، فقال : « أطيعى زوجك » ، فدفن أبوها، فأرسل رسول الله ﷺ إليها يخبرها : « إن الله قد غفر لأبيها بطاعتها لزوجها » .

وقال ﷺ:«إذا صلت المرأة خمسها،وصامت شهرها، وحفظت فرجها ، وأطاعت زوجها دخلت جنة ربها».فأضاف طاعة الزوج إلى مبانى الإسلام .

وذكر رسول الله ﷺ النساء ، فقال : « حاملات والدات مرضعات رحيمات بأولادهن ، لولا ما يأتين إلى أزواجهن دخلت مصلياتهن الجنة » .

وقال ﷺ : « اطلعت فى النار فإذا أكثر أهلها النساء » . فقلن : لم يا رسول الله ؟ قال : « يكثرن اللعن ويكفرن العشير » ، يعنى الزوج المعاشر .

وفى خبر آخر : « اطلعت فى الجنة فإذا أقل أهلها النساء ، فقلت : أين النساء ؟ قال : شغلهن الأحمران الذهب والزعفران » يعنى الحلى ومصبغات الثياب .

وقالت عائشة رضى الله عنها : أتت فتاة إلى النبى ﷺ فقالت : يا رسول الله إنى فتاة أخطب ، فأكره التزويج ، فما حق الزوج على المرأة ؟ قال :« لو كان من فوقه إلى قدمه صديد فلحسته ما أدت شكره » ، قالت : أفلا أتزوج ؟ قال : « بلى تزوجى فإنه خير » .

وقال ابن عباس : أتت امرأة من خثعم إلى رسول الله ﷺ فقالت : إنى امرأة أيم ، وأريد أن أتزوج فما حق الزوج ؟ قال : « إن من حق الزوج على الزوجة إذا أرادها فراودها عن نفسها، وهى على ظهر بعير لا تمنعه ، ومن حقه أن لا تعطى شيئًا من بيته إلا بإذنه ، فإن فعلت ذلك كان الوزر عليها والأجر له ، ومن حقه أن لا تصوم تطوعًا إلا بإذنه ، فإن جاعت وعطشت لم يتقبل منها ، وإن خرجت من بيتها بغير إذنه لعنتها الملائكة حتى ترجع إلى بيته أو تتوب » .

وقال ﷺ : « لو أمرت أحدًا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها » .

وقال ﷺ : « أقرب ما تكون المرأة من وجه ربها إذا كانت فى قعر بيتها، وإن صلاتها فى صحن دارها أفضل من صلاتها فى المسجد ، وصلاتها فى بيتها أفضل من صلاتها فى صحن دارها ، وصلاتها فى مخدعها أفضل من صلاتها فى بيتها » . والمخدع بيت فى بيت ، وذلك للتستر . ولذلك قال ﷺ : « المرأة عورة ، فإذا خرجت استشرفها الشيطان » .

وقال أيضًا : « للمرأة عشر عورات ، فإذا تزوجت ستر الزوج عورة واحدة ، فإذا ماتت ستر القبر العشر عورات » .

فحقوق الزوج على الزوجة كثيرة، وأهمها أمران:

أحدهما: الصيانة والستر ، والآخر: ترك المطالبة بما وراء الحاجة ، والتعفف عن كسبه إذا كان حرامًا . وهكذا كانت عادة النساء فى السلف ، كان الرجل إذا خرج من منزله تقول له امرأته أو ابنته : إياك وكسب الحرام ، فإنا نصبر على الجوع والضر ولا نصبر على النار.

وهم رجل من السلف بالسفر ، فكره جيرانه سفره ، فقالوا لزوجته : لم ترضين بسفره ولم يدع لك نفقة ؟ فقالت : زوجى منذ عرفته عرفته أكالاً، وما عرفته رزاقًا ، ولى رب رزاق، يذهب الأكال ويبقى الرزاق .

وخطبت « رابعة بنت إسماعيل » أحمد بن أبى الحوارى ، فكره ذلك لما كان فيه من العبادة وقال لها : والله ما لى همة فى النساء لشغلى بحالى .

فقالت : إنى لأشغل بحالى منك وما لى شهوة ، ولكن ورثت مالاً جزيلاً من زوجى ، فأردت أن تنفقه على إخوانك والأعرف بك من الصالحين ، فيكون لى طريقًا إلى الله عز وجل، فقال : حتى أستأذن أستاذى . فرجع إلى أبى سليمان الدارانى ، قال : وكان ينهانى عن التزويج ، ويقول : ما تزوج أحد من أصحابنا إلا تغير ، فلما سمع كلامها قال : تزوج بها فإنها ولية الله ، هذا كلام الصديقين . قال فتزوجتها ، فكان فى منزلنا كن من جص ففنى من غسل أيدى المستعجلين للخروج بعد الأكل ، فضلاً عمن غسل بالأشنان . قال : وتزوجت عليها ثلاث نسوة ، فكانت تطعمنى الطيبات ، وتطيبنى ، وتقول : اذهب بنشاطك وقوتك إلى أزواجك ، وكانت رابعة هذه تشبه فى أهل الشام برابعة العدوية البصرية .

ومن الواجبات عليها : أن لا تفرط فى ماله بل تحفظه عليه ، قال رسول الله ﷺ : « لا يحل لها أن تطعم من بيته إلا بإذنه إلا الرطب من الطعام الذى يخاف فساده ، فإن أطعمت عن رضاه كان لها مثل أجره ، وإن أطعمت بغير إذنه كان له الأجر وعليها الوزر .

ومن حقها على الوالدين : تعليمها حسن المعاشرة ، وآداب العشرة مع الزوج ، كما روى أن أسماء بنت خارجة الفزارى قالت لابنتها عند التزويج : إنك خرجت من العش الذى فيه درجت ، فصرت إلى فراش لا تعرفينه ، وقرين لا تألفينه ، فكونى له أرضًا يكن لك سماء ، وكونى له مهادًا يكن لك عمادًا ، لا تلحفى به فيقلاك ، ولا تباعدى عنه فينساك ، إذا دنا منك فاقربى منه ، وإن نأى فابعدى عنه ، واحفظى أنفه وسمعه وعينه ، فلا يشمن منك إلا طيبًا ، ولا يسمع إلا حسنًا ، ولا ينظر إلا جميلاً .

وقال رجل لزوجته :

خذى العفو منى تستديمى مودتى ... ولا تنطقى فى سورتى حين أغضب
ولا تنقرينى نقرك الدف مرة ... فإنك لا تدرين كيف المغيب
ولا تكثرى الشكوى فتذهب بالهوى ... ويأباك قلبى والقلوب تقلب
فإنى رأيت الحب فى القلب والأذى ... إذا اجتمعا لم يلبث الحب يذهب

الباب السادس والتسعون .. في

فضل الجهاد

قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ .
[الحجرات : ١٥] .

وعن النعمان بن بشير رضى الله عنهما قال : كنت عند منبر رسول الله ﷺ فقال رجل: ما أبالى أن لا أعمل عملاً بعد الإسلام إلا أن أسقى الحاج ، وقال آخر : لا أبالى أن لا أعمل عملاً بعد الإسلام إلا أن أعمر المسجد الحرام .

وقال آخر : الجهاد أفضل مما قلتم ، فزجرهم عمر بن الخطاب رضى الله عنه وقال : لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ وهذا يوم الجمعة، ولكن إذا صليت الجمعة دخلت فاستفتيته فيما اختلفتم فيه . فأنزل الله عز وجل : ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [التوبة : ١٩] .

وعن عبد الله بن سلام رضى الله عنه قال : قعدنا نفرًا من أصحاب رسول الله ﷺ فقلنا: لو نعلم أى الأعمال أفضل وأحب إلى الله عز وجل عملناه . فأنزل الله تعالى : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ * إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ [الصف : ١ ـ ٤] إلى آخرها ، فقرأها علينا رسول الله ﷺ .

وروى أن رجلاً قال: يا رسول الله دلنى على عمل يعدل الجهاد؟ قال: « لا أجده » ، ثم قال : « هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجدك فتقوم ولا تفتر ، وتصوم ولا تفطر؟»، فقال : ومن يستطع ذلك ؟ .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : مرّ رجل من أصحاب رسول الله ﷺ بشعب فيه عيينة من ماء عذبة . فقال : لو اعتزلت الناس فأقمت فى هذا الشعب . ولن أفعل حتى أستأذن رسول الله ﷺ فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال : « لا تفعل ، فإن مقام أحدكم فى سبيل الله أفضل من صلاته فى بيته سبعين عامًا ، ألا تحبون أن يغفر الله لكم ويدخلكم الجنة ؟ اغزوا فى سبيل الله تعالى ، من قاتل فى سبيل الله تعالى فواق ناقة وجبت له الجنة » .

فإذا كان الصحابى الجليل لم يأذن له بالعزلة مع اجتهاده فى الطاعات وتعاطيه من الطيبات ، بل أرشده ﷺ إلى الجهاد ، فكيف يليق بنا تركه مع قلة طاعتنا وكثرة سيئاتنا ، وتعاطينا ما جهل حله من الأقوات ، وفساد العزائم والنيات . وقال رسول الله ﷺ : « إن مثل المجاهد فى سبيل الله ــ والله أعلم بمن يجاهد فى سبيله ــ كمثل الصائم القائم الخاضع الراكع الساجد » . وقال رسول الله ﷺ : « من رضى بالله ربا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ رسولاً وجبت له الجنة » .

فعجب لها أبو سعيد الخدرى ، فقال : أعدها علىّ يا رسول الله ؟ فأعادها عليه ، ثم قال : « وأخرى يرفع الله بها العبد مائة درجة ، ما بين كل درجة كما بين السماء والأرض » ، قال : وما هى يا رسول الله ؟ قال : « الجهاد فى سبيل الله »[1].



(١) فيجب لمن لم يجاهد أن يحدث نفسه بالجهاد ويتمناه .

الباب السابع والتسعون ..في

مــكــر الشيطان

قال رجل للحسن : يا أبا سعيد أينـام الشيطان ؟ فتبسم وقال : لو نام لاسترحنا . فإذًا لا خلاص للمؤمن منه ، نعم له سبيل إلى دفعه ، وتضعيف قوته، قـال رسول الله ﷺ : « إن المؤمن ينضى شـيطانه كما ينـضى أحدكم بعيره فى سفره » . وقال ابن مسعود : شيطان المؤمن مهزول .

وقال قيس بن الحجاج: قال لى شيطاني: دخلت فيك وأنا مثل الجزور ، وأنا الآن مثل العصفور ، قلت : ولم ذاك ؟ قال : تذيبنى بذكر الله تعالى .

فأهل التقوى لا يتـعذر عليهم سد أبواب الشيطان وحـفظها بالحراسة . أعنى : الأبواب الظاهرة والطرق الجليـة التى تفضى إلى المعـاصى الظاهرة ، وإنما يتعثرون فى طرقه الغـامضة ، فإنهم لا يهتدون إليها فـيحرسونها ؛ لأن الأبواب المفتوحة إلى القلب للشيطان كثيرة ، وباب الملائكة باب واحد .

وقد التـبس ذلك الباب الواحـد بهذه الأبواب الكثيـرة ، فالعـبد فيـها كالمسافر الذى يبـقى فى بادية كثيرة الطرق غامضـة المسالك فى ليلة مظلمة ، فلا يكاد يعلم الطريق إلا بعين بصيرة ، وطلوع شمس مشرقة .

والعين البصيرة ههنا : هى القلب المصفى بالتقوى ، والشمس المشرقة: هى العلم الغزير المستفاد من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ، فيما يهتدى به إلى غوامض طرقه ، وإلا فطرقه كثيرة وغامضة .

قال عبـد الله بن مسعـود رضى الله عنه : خط لنا رسول الله ﷺ يومًا خطًا ، وقـال : «هذا سبـيل الله » ، ثم خط خطوطًا عن يمـين الخط وعن شمـاله ، ثم قال : « هذه سبل على كل سبـيل منها شيطان يدعـو إليه » ثم تلا : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِه ﴾ [الأنعام:١٥٣] وقد ذكرنا مثالاً للطريق الغامض من طرقه ، وهو الذى

يخدع به العلماء والعباد المالكين لشهواتهم الكافين عن المعاصى الظاهرة فلنذكر مثالاً لطريقه الواضح الذى لا يخفى أن يضطر الآدمى إلى سلوكه. وذلك: كما روى عن النبى ﷺ أنه كان راهب فى بنى إسرائيل فعمد الشيطان إلى جارية فخنقها، وألقى فى قلوب أهلها أن دواءها عند الراهب، فأتوا بها إليه، فأبى أن يقبلها، فلم يزالوا به حتى قبلها، فلما كانت عنده ليعالجها، أتاه الشيطان فزين له مقاربتها، ولم يزل به حتى واقعها، فحملت منه، فوسوس إليه وقال: الآن تفتضح، يأتيك أهلها فاقتلها، فإن سألوك فقل: ماتت، فقتلها ودفنها.

فأتى الشيطان أهلها فوسوس إليهم وألقى فى قلوبهم: أنه أحبلها ثم قتلها ودفنها، فأتاه أهلها فسألوه عنها، فقال: ماتت، فأخذوه ليقتلوه بها، فأتاه الشيطان فقال: أنا الذى خنقتها، وأنا الذى ألقيت فى قلوب أهلها، فأطعنى تنج وأخلصك منهم، قال: بماذا؟ قال: اسجد لى سجدتين، فسجد له سجدتين، فقال له الشيطان: إنى برىء منك، فهو الذى قال الله تعالى فيه: ﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ ﴾ [الحشر: ١٦]. وروى أن إبليس سأل الإمام الشافعى رضى الله عنه: ما قولك فيمن خلقنى كما اختار، واستعملنى فيما اختار، وبعد ذلك إن شاء أدخلنى الجنة وإن شاء أدخلنى النار، أعدل فى ذلك أم جار؟ فنظر فى كلامه ثم قال: يا هذا إن كان خلقك لما تريد أنت فقد ظلمك، وإن كان خلقك لما يريد هو فلا يسأل عما يفعل وهم يسألون. فاضمحل إلى أن صار لا شىء، ثم قال: والله يا شافعى لقد أخرجت بمسألتى هذه سبعين ألف عابد من ديوان العبودية إلى ديوان الزندقة. وروى أن إبليس لعنه الله تمثل لعيسى ابن مريم عليهما السلام فقال له: قل: لا إله إلا الله، فقال: كلمة حق ولا أقولها بقولك. أى لأن له تلبيسات فى الخير، كما أن له تلبيسات فى الشر، تتناهى وبها يهلك العباد والزهاد والأغنياء وأصناف الخلق، إلا من حفظه الله.

اللهم احفظنا من مكائده حتى نلقاك مهتدين.

الباب الثامن والتسعون ..في

بيان السماع

حكى القاضى أبو الطيب الطبرى عن الشافعى ومالك وأبى حنيفة وسفيان وجماعة من العلماء ألفاظًا يستدل بها على أنهم رأوا تحريمه .

وقال الشافعى رحمه الله فى كتاب آداب القضاء : إن الغناء لهو مكروه يشبه الباطل ، ومن استكثر منه فهو سفيه ترد شهادته .

وقال القاضى أبو الطيب : استماعه من المرأة التى ليست بمحرم له لا يجوز عند أصحاب الشافعى رحمه الله بحال ، سواء كانت مكشوفة أو من وراء حجاب ، وسواء كانت حرة أو مملوكة . وقد قال الشافعى رضى الله عنه : صاحب الجارية إذا جمع الناس لسماعها فهو سفيه ترد شهادته .

وقال : **حكى** عن الشافعى أنه كان يكره الطقطقة بالقضيب ، ويقول: وضعته الزنادقة لينشغلوا به عن القرآن .

وقال الشافعى رحمه الله : ويكره من جهة الخبر اللعب بالنرد أكثر مما يكره اللعب بشىء من الملاهى ، ولا أحب اللعب بالشطرنج ، وأكره كل ما يلعب به الناس ؛ لأن اللعب ليس من صنعة أهل الدين ، ولا المروءة .

وأما مالك رحمه الله فقد نهى عن الغناء ، وقال : إذا اشترى جارية فوجدها مغنية كان له ردها ، وهو مذهب سائر أهل المدينة إلا إبراهيم بن سعد وحده .

وأما أبو حنيفة رضى الله عنه فإنه كان يكره ذلك ، ويجعل سماع الغناء من الذنوب ، وكذلك سائر أهل الكوفة : سفيان الثورى وحماد وإبراهيم والشعبى وغيرهم . فهذا كله نقله القاضى أبو الطيب الطبرى .

ونقل أبو طالب المالكى إباحة السماع عن جماعة ، فقال : سمع من الصحابة عبد الله بن جعفر ، وعبد الله بن الزبير ، والمغيرة بن شعبة ، ومعاوية وغيرهم ، وقال: قد فعل ذلك كثير من السلف الصالح صحابى

وتابعي بإحسان . قال : ولم يزل الحجازيون عندنا بمكة ، يسمعون السماع أفضل أيام السنة ، وهى الأيام المعدودات التى أمر الله عباده فيها بذكره ، كأيام التشريق ، ولم يزل أهل المدينة مواظبين كأهل مكة على السماع إلى زماننا هذا ، فأدركنا أبا مروان القاضى وله جوار يسمعن الناس التلحين ، قد أعدهن للصوفية . قال : وكان لعطاء جاريتان يلحنان فكان إخوانه يستمعون إليهما ، قال : وقيل لأبى الحسن بن سالم : كيف تنكر السماع وقد كان الجنيد وسرى السقطى وذو النون يستمعون ؟ فقال : وكيف أنكر السماع وقد أجازه وسمعه من هو خير منى ؟ فقد كان عبد الله بن جعفر الطيار يسمع ، وإنما أنكر اللهو واللعب فى السماع .

وروى عن يحيى بن معاذ أنه قال : فقدنا ثلاثة أشياء فما نراها ولا أراها تزداد إلا قلة : حسن الوجه مع الصيانة ، وحسن القول مع الديانة ، وحسن الإخاء مع الوفاء . ورأيت فى بعض الكتب هذا محكيا بعينه عن الحارث المحاسبى ، وفيه ما يدل على تجويزه السماع مع زهده وتصاوفه وجده فى الدين وتشميره ، قال : وكان ابن مجاهد لا يجيب دعوة إلا أن يكون فيها سماع ، وحكى غير واحد أنه قال : اجتمعنا فى دعوة ومعنا أبو القاسم ابن بنت منيع ، وأبو بكر بن داود وابن مجاهد فى نظرائهم ، فحضر سماع فجعل ابن مجاهد يحرض ابن بنت منيع على ابن داود فى أن يسمع . فقال ابن داود : حدثنى أبى عن أحمد بن حنبل أنه كره السماع، وكان أبى يكرهه وأنا على مذهب أبى ، فقال أبو القاسم ابن بنت منيع : أما جدى أحمد ابن بنت منيع ، فحدثنى عن صالح بن أحمد أن أباه كان يسمع قول ابن الخبازة، فقال مجاهد لابن داود : دعنى أنت من أبيك ، وقال لابن بنت منيع : دعنى أنت من جدك . أى شيء تقول يا أبا بكر فيمن أنشد بيت شعر أهو حرام ؟ فقال ابن داود : لا ، قال : فإن كان حسن الصوت حرم عليه إنشاده ؟ قال : لا ، فإن أنشده وطوله وقصر منه الممدود ومدّ منه المقصور أيحرم عليه ؟ قال : أنا لم أقْوَ لشيطان واحد فكيف أقوى لشيطانين؟.

قال : وكان أبو الحسن العسقلانى الأسود من الأولياء ، يسمع ويوله عند السماع ، وصنف فيه كتابًا ، ورد فيه على منكريه ، وكذلك جماعة

منهم صنفوا فى الرد على منكريه .

وحكى عن بعض الشيوخ أنه قال : رأيت أبا العباس الخضر عليه السلام فقلت له : ما تقول فى هذا السماع الذى اختلف فيه أصحابنا ؟ فقال: هو الصفو الزلال الذى لا يثبت عليه إلا أقدام العلماء .

وحكى عن ممشاد الدينورى أنه قال : رأيت النبى ﷺ فى النوم فقلت: يا رسول الله هل تنكر من هذا السماع شيئًا ؟ فقال : ما أنكر منه شيئًا ، وقال : لكن قل لهم يفتتحون قبله بالقرآن ، ويختمون بعده بالقرآن .

وحكى عن طاهر بن بلال الهمذانى الوراق ، وكان من أهل العلم أنه قال : كنت معتكفًا فى جامع جدة على البحر ، فرأيت يومًا طائفة يقولون فى جانب منه قولاً ويستمعون ، فأنكرت ذلك بقلبى ، وقلت : فى بيت من بيوت الله يقولون الشعر ؟ قال : فرأيت النبى ﷺ تلك الليلة ، وهو جالس فى تلك الناحية وإلى جانبه أبو بكر رضى الله عنه ، وإذا أبو بكر يقول شيئًا من القول ، والنبى ﷺ يستمع إليه ويضع يده على صدره كالواجد بذلك ، فقلت فى نفسى: ما كان ينبغى لى أن أنكر على أولئك الذين كانوا يستمعون، وهذا رسول الله ﷺ يستمع وأبو بكر يقول : فالتفت إلى رسول الله ﷺ وقال : « هذا حق بحق » ، أو قال : « حق من حق » أنا أشك فيه .

وقال الجنيد : تنزل الرحمة على هذه الطائفة فى ثلاثة مواضع : عند الأكل لأنهم لا يأكلون إلا عن فاقة، وعند المذاكرة لأنهم لا يتحاورون إلا فى مقامات الصديقين ، وعند السماع لأنهم يسمعون بوجد ويشهدون حقا .

وعن ابن جريج أنه كان يرخص فى السماع ، فقيل له : أيؤتى به يوم القيامة فى جملة حسناتك أو سيئاتك ؟ فقال : لا فى الحسنات ولا فى السيئات ؛ لأنه شبيه باللغو ، وقال الله تعالى : ﴿ **لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ** ﴾ [البقرة : ٢٢٥] . هذا ما نقل من الأقاويل ومن طلب الحق فى التقليد ، فمهما استقصى تعارت عنده هذه الأقاويل ، فيبقى متحيرًا أو مائلاً إلى بعض الأقاويل بالتشهى ، وكل ذلك قصور ، بل ينبغى أن يطلب الحق بطريقة ذلك بالبحث عن مدارك الحظر والإباحة .

الباب التاسع والتسعون ..في

النهى عن البدعة واتباع الهوى

قال ﷺ : « إياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة فى النار » .

وقال ﷺ : « من أحدث فى أمر ديننا هذا ما ليس منه فهو رد » .

وقال ﷺ : « عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى » .

فعلم من هذه الأحاديث : أن كل ما خالف الكتاب والسنة وإجماع الأئمة فهو بدعة مردودة . وقال ﷺ : « من سن سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ، ومن سن سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة » .

وقال قتادة رضى الله عنه فى قوله تعالى : ﴿ **وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ** ﴾ [الأنعام : ١٥٣] الآية ـ اعلموا أن السبيل سبيل واحد ، جماعه الهدى ومصيره الجنة ، وأن إبليس استبدع سبلاً متفرقة جماعها الضلالة ومصيرها إلى النار .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال : خط لنا رسول الله ﷺ خطًا بيده، ثم قال : « هذا سبيل الله مستقيمًا » ثم خط خطوطًا عن يمين ذلك الخط وعن شماله ، ثم قال : « هذه سبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه » ثم قرأ هذه الآية .

وعن ابن عباس : هذه السبل الضلالات .

وقال ابن عطية : هذه السبل تعم اليهودية والنصرانية والمجوسية وسائر أهل الملل وأهل البدع والضلالات من أهل الأهواء والشذوذ فى الفروع ، وغير ذلك من أهل التعمق فى الجدال ، والخوض فى الكلام ، وهذه كلها عرضة للزلل ومظنة لسوء المعتقد .

وقال ﷺ : « من رغب عن سنتى فليس منى » .

وقال ﷺ : « مـا من أمة ابتـدعت بعد نبـيـهـا فى دينـهـا بدعـة ، إلا أضـاعت مثلهـا من السنة » .

وقال ﷺ : « ما تحت ظل السمـاء من إله يعبد أعظم عند الله من هوى يتبع » .

وقال ﷺ : « أما بعـد ، فإن خير الحـديث كتاب الله ، وخيـر الهدى هدى محمد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتهـا ، وكل بدعة ضلالة ، وإنما أخشى عليكم شـهـوات الغى فى بطونكم وفـروجكم ومـضـلات الهـوى ، إياكم والمحدثات ، فإن كل محدثة ضلالة » .

وقال ﷺ : « إن الله حـجب التوبة عن كل صـاحب بدعة حـتى يدع بدعته» . وقال ﷺ : « لا يقبل الله لصاحب بدعة صومًا ولا حجا ولا عمرة ولا جهادًا ولا صـرفًا ولا عدلاً ، يخرج من الإسلام كما تخـرج الشعرة من العجيـن ، لقد تركتكم على مثل البـيضاء ، ليلها كنهـارها لا يزيغ عنها إلا هالك ، لكل عمرة شرة ، ولكل شرة فـترة ، فمن كانت شرته إلى سنتى ، فقـد اهتدى ، ومن كانت شرته إلى غـير ذلك فقـد هلك ، إنى أخاف على أمـتى من ثلاث : من زلة عـالم ، وهوى مـتـبع ، وحكم جـائر » . رواه الترمـذى وحسنه فى مواضع ، وصحـحه فى أخرى . والشرة بكسـر الشين وفتح الراء مشددة : النشاط والهمة .



فصل النهى عن آلة اللهو

روى البخارى : أنه ﷺ قال : « من قال لصاحبه : تعال أقامرك ، فليتصدق » .

وروى مسلم وأبو داود وابن ماجه : « من لعب بنرد أو نردشير ، فكأنما غمس يده فى لحم خنزير ودمه» .

وروى أحمد وغيره أنه ﷺ قال : « مثل الذى يلعب بالنرد ثم يقوم ليصلى مثل الذى يتوضأ بالقيح ودم الخنزير ثم يقوم فيصلى » . أى : فلا تقبل له صلاة كما صرحت به رواية أخرى .

وأخرج البيهقى عن يحيى بن كثير قال : مر رسول الله ﷺ على قوم يلعبون النرد ، فقال: « قلوب لاهية ، وأيد عاملة ، وألسنة لاغية » .

وأخرج الديلمى أنه ﷺ قال: « إذا مررتم بهؤلاء الذين يلعبون بهذه الأزلام ، والشطرنج والنرد ، وما كان من هذه » أى ما شابه ذلك من كل لهو محرم «فلا تسلموا عليهم وإن سلموا عليكم فلا تردوا عليهم» .

وقال ﷺ: « ثلاث من الميسر : القمار والضرب بالكعاب والصفير بالحمام » . ومرّ علىّ رضى الله عنه بقوم يلعبون الشطرنج فقال : ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون ، لأن يمس أحدكم جمرًا حتى يطفأ خير له من أن يمسها، ثم قال : والله لغير هذا خلقتم ، وقال أيضًا رضى الله عنه: صاحب الشطرنج أكثر الناس كذبًا ، يقول أحدهم : قتلت وما قتل ، ومات وما مات .وقال أبو موسى الأشعرى رضى الله عنه : لا يلعب بالشطرنج إلا خاطئ .واعلم أن الملاهى إما حرام كعود وطنبور ومعزفة وطبل ومزمار ، وما ألهى بصوت مطرب إذا انفرد ، أو مكروه وهو ما يزيد به الغناء طربًا ولم يطرب منفردًا ، كالصنج والقصب ، فيكره مع الغناء لا وحده ، أو مباح وهو ما خرج عن آلة الطرب إلى إنذار ، كالبوق وطبل الحرب ، أو المجمعة وإعلان كالدف فى النكاح .

الباب المتمم للمائة ..في

فضائل رجب

رجب مشتق من الترجيب وهو التعظيم . ويقال له : الأصب لأن الرحمة تصب فيه على التائبين ، وتفيض أنوار القبول على العاملين ، ولا يقال : الأصم لأنه لم يسمع فيه حس قتال ، وقيل : رجب اسم نهر فى الجنة ماؤه أشد بياضًا من اللبن ، وأحلى من العسل ، وأبرد من الثلج ، لا يشرب منه إلا من صام شهر رجب . قال عليه السلام : « رجب شهر الله ، وشعبان شهرى ، ورمضان شهر أمتى » .

وقال أهل الإشارة : رجب ثلاثة أحرف : راء وجيم وباء ، فالراء رحمة الله ، والجيم جرم العبد وجنايته ، والباء بر الله تعالى ، كأن الله تعالى يقول : أجعل جرم عبدى بين رحمتى وبرى .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال ﷺ : « من صام السابع والعشرين من رجب كتب له صيام ستين شهرًا » . وهو أول يوم نزل فيه جبريل على النبى ﷺ بالرسالة ، وفيه أسرى به ﷺ .

وقال ﷺ : « ألا إن رجبًا شهر الله الأصم ، فمن صام من رجب يومًا إيمانًا واحتسابًا ، استوجب رضوان الله الأكبر » .

وقيل : زين الله الشهور بأربعة ذى القعدة وذى الحجة والمحرم ورجب، فذلك قوله تعالى : ﴿ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ﴾ [التوبة : ٣٦] فالأشهر الحرم ثلاثة سرد ، وواحد فرد وهو شهر رجب .

وحكى أن امرأة فى بيت المقدس كانت تقرأ كل يوم من رجب : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص : ١] اثنى عشر ألف مرة ، وكانت تلبس الصوف فى شهر رجب ، فمرضت وأوصت ابنها أن يدفن معها صوفها ، فلما ماتت كفنها فى ثياب مرتفعة ، فرآها فى منامه تقول له : أنا عنك غير راضية ؛ لأنك لم تعمل بوصيتى فانتبه فزعًا وأخذ صوفها ليدفنه معها،

فنبش قبرها فلم يجدها فيه ، فتحير فسمع نداء : أما علمت أن من أطاعنا فى رجب لا نتركه فردًا وحيدًا . وروى : إذا كان ثلث الليل من أول جمعة من رجب ، لا يبقى ملك إلا ويستغفر لصوام رجب .

وعن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من صام ثلاثة أيام من شهر حرام، كتب له ثواب عبادة تسعمائة سنة » . قال أنس رضى الله عنه : صمت أذناى إن لم أكن سمعته من رسول الله ﷺ .

لطيفة : الأشهر الحرم أربعة ، وخيار الملائكة أربعة ، وأفضل الكتب المنزلة أربعة ، وأعضاء الوضوء أربعة ، وأفضل التسبيح أربعة : سبحان الله، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر . وعماد الحساب أربعة : آحاد ، وعشرات ، ومئات ، وألوف . والأوقات أربعة : الساعة ، واليوم ، والشهر، والسنة . وفصول السنة أربعة : ربيع ، وصيف ، وخريف ، وشتاء. والطبائع أربعة : حرارة ، وبرودة ، ويبوسة ، ورطوبة . وسلطان البدن أربعة : صفراء ، وسوداء، ودم ، وبلغم . والخلفاء الراشدون أربعة: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلىّ رضوان الله عليهم أجمعين. روى الديلمى عن عائشة رضى الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يسح الله الخير فى أربع ليال سحا ، ليلة الأضحى ، وليلة الفطر ، وليلة النصف من شعبان ، وأول ليلة من رجب » . وروى الديلمى أيضًا بسنده عن أبى أمامة عن رسول الله ﷺ قال : « خمس ليال لا ترد فيها دعوة : أول ليلة من رجب ، وليلة النصف من شعبان ، وليلة الجمعة ، وليلتا العيدين » .



الباب الحادي بعد المائة ..في

فضل شعبان المبارك

سمى شعبان لأنه يتشعب منه خير كثير، مشتق من الشعب بكسر الشين وهو طريق الجبل ، فهو طريق الخير. وروى عن أبى أمامة الباهلى رضى الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «إذا دخل شعبان فطهروا أنفسكم وأحسنوا نيتكم فيه» . وعن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ يصوم حتى نقول: لا يفطر، ويفطر حتى نقول لا يصوم، وكان أكثر صيامه فى شعبان

وفى النسائى من حديث أسامة رضى الله عنه قلت : يا رسول الله لم أرك تصوم من شهر من الشهور ما تصوم من شعبان ، قال : « ذاك شهر يغفل الناس عنه بين رجب ورمضان ، وهو شهر ترفع فيه الأعمال لرب العالمين ، فأحب أن يرفع عملى وأنا صائم » .

وفى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها قالت : ما رأيت رسول الله ﷺ استكمل صيام شهر قط إلا رمضان ، وما رأيته فى شهر أكثر منه صيامًا من شعبان . وفى رواية : كان يصوم شعبان كله ، ولمسلم : كان يصوم شعبان إلا قليلاً فهذه الرواية مفسرة للأولى ، فالمراد بكله : أغلبه .

وقيل : إن للملائكة فى السماء ليلتى عيد ، كما أن للمسلمين فى الأرض يومى عيد ، فعيد الملائكة ليلة البراءة وهى ليلة النصف من شعبان ، وليلة القدر ، وعيد المؤمنين يوم الفطر ويوم الأضحى ، فلهذا سميت ليلة نصف شعبان ليلة عيد الملائكة . وذكر السبكى فى تفسيره : أنها تكفر ذنوب السنة وليلة الجمعة تكفر ذنوب الأسبوع ، وليلة القدر تكفر ذنوب العمر ــ أى إحياء هذه الليالى سبب لتكفير الذنوب ــ وتسمى ليلة التكفير أيضًا لذلك، وليلة الحياة ؛ لما روى المنذرى مرفوعًا : « من أحيا ليلة العيد وليلة نصف شعبان ، لم يمت قلبه يوم تموت القلوب » .

وتسمى ليلة الشفاعة ؛ لما روى أنه ﷺ سأل الله تعالى ليلة الثالث عشر الشفاعة فى أمته ، فأعطاه الثلث ، وسأله ليلة الرابع عشر فأعطاه الثلثين ، وسأله ليلة الخامس عشر فأعطاه الجميع ، إلا من شرد على الله

شراد البعير . يعنى من فر من الله وتباعد عنه بالإصرار على المعصية .

وتسمى ليلة المغفرة أيضًا كما روى الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله ليطلع ليلة النصف من شعبان إلى عباده فيغفر لأهل الأرض ، إلا رجلين : مشرك ، أو مشاحن » .

وتسمى ليلة العتق لما روى ابن إسحاق عن أنس عن مالك قال : بعثنى رسول الله ﷺ إلى منزل عائشة رضى الله عنها فى حاجة ، فقلت لها : أسرعى . فإنى تركت النبى ﷺ يحدثهم عن ليلة النصف من شعبان . فقالت يا أنس اجلس حتى أحدثك بحديث ليلة النصف من شعبان ، تلك الليلة كانت ليلتى من رسول الله ﷺ فجاء ودخل معى فى لحافى ، فانتبهت من الليل ، فلم أجده ، فقلت : لعله ذهب إلى جاريته القبطية ، فخرجت فمررت فى المسجد ، فوقعت رجلى عليه وهو يقول : « سجد لك سوادى وخيالى ، وآمن بك فؤادى ، وهذه يدى وما جنيت بها على نفسى ، يا عظيمًا يرجى لكل عظيم ، اغفر الذنب العظيم ، سجد وجهى للذى خلقه وصوره وشق سمعه وبصره » .

ثم رفع رأسه فقال : « اللهم ارزقنى قلبًا تقيا نقيا من الشرك بريا ، لا كافرًا ولا شقيًا » . ثم عاد ساجدًا فسمعته يقول : « أعوذ برضاك من سخطك ، وبعفوك من عقوبتك ، وبك منك، لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك . أقول كما قال أخى داود : أعفر وجهى فى التراب لسيدى ، وحق لوجهى يا سيدى أن يعفر » .

ثم رفع رأسه فقلت بأبى أنت وأمى ، أنت فى واد وأنا فى واد ، فقال: « يا حميراء أما تعلمين أن هذه الليلة ليلة النصف من شعبان ؟ إن لله عز وجل فى هذه الليلة عتقاء من النار بعدد شعر غنم بنى كلب إلا ستة نفر: لا مدمن خمر ، ولا عاق لوالديه ، ولا مصر على زنا ، ولا مساوم ، ولا مضرب ، ولا قتات » ، وفى رواية : مصور بدل مضرب .

وتسمى ليلة القسمة والتقدير ؛ لما روى عطاء بن يسار : « إذا كانت ليلة النصف من شعبان ، نسخ لملك الموت كل من يموت من شعبان إلى شعبان ، وإن العبد ليغرس الغرس وينكح الأزواج ويبنى البنيان ، وإن اسمه قد نسخ فى الموتى وما ينتظر به ملك الموت إلا أن يؤمر به فيقبضه » .

الباب الثاني بعد المائة ..في

فضل رمضان المعظم

قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة : ١٨٣] .

عن سعيد بن جبير رضى الله عنه : كان صوم من قبلنا من العتمة إلى الليلة القابلة كما كان فى ابتداء الإسلام .

قال جماعة من أهل العلم : كان واجبًا على النصارى ، فربما كان يقع فى الحر الشديد والبرد الشديد ، وكان يشق عليهم فى أسفارهم وبعض معايشهم ، فاجتمع رأى كبرائهم على أن يجعلوا صيامهم فى فصل السنة بين الشتاء والصيف ، فجعلوه فى الربيع ، وزادوا فيه عشرة أيام كفارة لما صنعوا، ثم أن ملكًا لهم اشتكى ، فجعل لله عليه إن برىء من وجعه أن يزيد فى صومهم أسبوعًا ، فبرىء فزاد فيه أسبوعًا ، فلما مات ذلك ، وتولهم ملك آخر قال : أتموه خمسين يومًا ، ثم أصابهم موتان ، وهو موت البهائم ، فقال : زيدوا صيامكم ، فزادوا عشرًا قبل وعشرًا بعد .وقيل : ما من أمة إلا وفرض عليهم صيام رمضان ، إلا أنهم ضلوا عنه .

قال البغوى : والصحيح أن رمضان اسم للشهر من الرمضاء ، وهى الحجارة المحماة ؛ لأنهم كانوا يصومون فى الحر الشديد ؛ لأن العرب لما أرادت أن تضع أسماء الشهور وافق أن الشهر المذكور كان فى شدة الحر . وقيل : سمى بذلك لأنه يرمض الذنوب أى يحرقها . وفرض فى السنة الثانية من الهجرة . وهو معلوم من الدين بالضرورة ويكفر جاحد وجوبه .

وورد فى فضله أحاديث كثيرة : منها قوله ﷺ : « إذا كان أول ليلة من رمضان فتحت أبواب الجنان كلها ، فلا يغلق منها باب فى الشهر كله ، وأمر الله تعالى مناديًا ينادى : يا طالب الخير أقبل ، ويا باغى الشر أقصر . ثم يقول : هل من مستغفر فيغفر له ؟ هل من سائل فيعطى سؤاله ؟ هل من

تائب فيتـاب عليه ؟ فلم يزل كذلك إلى انفجـار الصبح . ولله كل ليلة عند الفطر ألف ألف عتيق من النار ، قد استوجبوا العذاب » .

وعن سلمان الفـارسى رضى الله عنه قال : خطبـنا رسول الله ﷺ فى آخر يوم من شعبــان، فقال : « أيها الناس قد أظلكم شهـر عظيم ، فيه ليلة القدر خير من ألف شـهر جعل الله صيامه فريضـة ، وقيام ليله تطوعًا . من تقرب فيه بخـصلة من الخير ، كان كمن أدى فريضة فـيما سواه ، ومن أدى فريضة كان كمن أدى سبعين فريضة فـيما سواه ، وهو شهر الصبر ، والصبر ثوابه الجنة ، وهو شهر المواسـاة ، وهو شهر يزاد فى رزق المؤمن ، من فطر فيه صائمًا كان له عتق رقبة ومغفرة لذنوبه » .

قلنا : يا رسول الله ليس كلنا يجد ما يفطر به الصائم ؟ قال : « يعطى الله هذا الثـواب من يفطر صـائمًا على مذقـة لبن ، وشربة مـاء ، أو تمرة ، ومن أشبع صائمًا كان له مغفـرة لذنوبه وسقاه ربه من حوضى شربة لا يظمأ بعـدها أبدًا ، وكان له مـثل أجره من غـير أن ينقص من أجـره شىء ، وهو شهر أوله رحمة ، وأوسطه مغـفرة ، وآخره عتق من النار ، ومن خفف عن مملوكه فيه أعـتقه الله من النار ، فاستكثروا فيه من أربع خـصال : خصلتين ترضون بهما ربكم ، وخصلتين لا غنى لكم عنهـما ، أما الخصلتان اللتان لا غنى لكم عنهما : « تسألون ربكم الجنة ، وتتعوذون به من النار » .

ومنها قوله ﷺ : « من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر» . وقوله ﷺ: « كل عمل ابن آدم له إلا الصـوم ، فإنه لى وأنا أجزى به». وناهيك بعبادة أضافها البارى تبارك وتعالى لنفسه .

ومنها قوله ﷺ : « أعطيت أمتى خـمس خصال فى شهـر رمضان لم تعطهن أمـة قـبلهـا : خلوف فم الصـائم أطيب عنـد الله من ريح المسك ، وتستغفر لهم الملائكة حتى يفطروا ، وتصـفد فيه مردة الشياطين ، ويزين الله تعالى كل يوم الجنة ، ويقول : يوشك عبادى الصالحون أن يكف عنهم السوء والأذى ، ويغـفر لهم فى آخـر ليلة منه » ، قـيل : يا رسـول الله أهى ليلة القدر ؟ قال : « لا ولكن العامل يوفى أجره إذا قضى عمله » .

الباب الثالث بعد المائة .. في

فضل ليلة القدر

روى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : ذكر لرسول الله ﷺ رجل من بنى إسرائيل حمل السلاح على عاتقه فى سبيل الله ألف شهر ، فعجب رسول الله ﷺ لذلك ، وتمنى ذلك لأمته ، فقال : « يا رب جعلت أمتى أقصر الأمم أعمارًا وأقلها أعمالاً » فأعطاه الله تعالى ليلة القدر ، خير من ألف شهر ، مدة حمل الإسرائيلى السلاح فى سبيل الله ، له ولأمته إلى يوم القيامة ، فهى من خصائص هذه الأمة . ويقال : اسم ذلك الرجل «شمعون» غزا العدو ألف شهر ، لم يجف لبد فرسه ، وقهر الكفار ؛ لما أعطى من القوة والجسارة ، فضاقت قلوبهم منه ، فبعثوا رسولاً إلى امرأته وضمنوا لها طشتًا من ذهب مملوءًا ذهبًا ، إن هى قيدته حتى يحبسوه ى بيت لهم ويستريحوا منه ، فلما نام بالليل أوثقته بحبل من ليف ، فلما انتبه حرك أعضاءه فقطع الحبل قطعًا ، وسألها لم صنعت ذلك ؟ فقالت : أجرب قوتك. فلما أخبرت الكفار بعثوا لها سلسلة ففعلت مثل ما فعلت ، فقطعها، فجاء إبليس إلى الكفار وأرشدهم أن تسأل المرأة زوجها أى شىء لا يقوى على فكه وقطعه ؟ فأرسلوا إليها ، فقال : ذوائبى ، وكان له ثمانية ذوائب طويلة تجر على الأرض . فلما نام قيدت رجليه بأربعة ، ويديه بأربعة، فجاء الكفار وأخذوه وذهبوا به إلى بيت مذبحهم مقدار أربعمائة ذراع علوه ، ومع اتساعه له عمود واحد ، فقطعوا أذنيه وشفتيه وكانوا كلهم مجتمعين لديه ، فسأل الله تعالى أن يقويه على فك وثاقه وعلى أن يحرك العمود ويهدمه عليهم مع نجاته منهم، فقواه الله فتحرك فانفك وثاقه وحرك العمود ، فوقع عليهم السقف ، فأهلكهم الله جميعًا ونجا منهم .

فلما سمع أصحاب رسول الله ﷺ ذلك الخبر ، قالوا : يا رسول الله هل ندرك نحن ثوابه ؟ فقال : « لا أدرى » ثم سأل ربه ، فأعطاه ــ كما

تقدم ـ ليلة القـدر . وعن أنس رضى الله عنه قال : قـال رسول الله ﷺ : «إذا كانت ليلة القدر نزل جبريل عليه السلام فى كوكبة من الملائكة ، يصلون ويسلمون على كل قائم أو قاعد يذكر الله تعالى».

وقـال أبو هريرة رضى الله عنه : الملائـكة تنزل ليلة القـدر فى الأرض أكثر من عدد الحصى فتفتح أبواب السماء للتنزل .

كما ورد: فتسطع الأنوار ويحصل تجل عظيم، وينكشف فيها الملكوت، والناس فى ذلك متفـاوتون ، فمنهم مـن يكشف له عن ملكوت السمـوات والأرض ، فتكشف له الحـجب عن السموات ، فـيشاهد فيـها الملائكة على صورها ، ما بين قائم وقاعد وراكع وساجـد وذاكر وشاكر ومسبح ومهلل ، ومنهم من يكشف له عن الجنة بما فيها من دورها وقصورها وحورها وأنهارها وأشجارها وأثمـارها ، ويشاهد عرش الرحمن وهو فوقـها ، ويشاهد منازل الأنبياء والأولياء والشهـداء والصديقين ، ويهيم فى هذا الملكوت ، ويتنزه فى ذلك الرحموت ، ويشـاهد جهنم ويشاهد دركاتها ومنازل الكفـار ، إلى غير ذلك ، ومنهم من تنكشف حجبه عن جمال الله فلا يشهد إلا إياه .

وعن عمر عنه عليه الصلاة والسلام : « من أحيا ليلة سبع وعشرين من رمضـان إلى الصبح فـهو أحب إلىّ من قيـام ليالى شهـر رمضـان كلها » ، فقالت فاطمة : يا أبت ما يصنع الضـعفاء من الرجال والنساء ممن لا يقدرون على القيام ؟ قال : « لا يضـعون الوسائد فيتكئون عليها ، ويـقعدون ساعة من ساعـات تلك الليلة ، ويدعون الله عـز وجل ، إلا كان ذلك أحب إلىّ من قيام أمتى جـميعًا شهر رمضان » . وعن عـائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « من أحيا ليلة القدر وصلى فيها ركعتين ، واستغفر ، غفـر الله له وخاض فى حرمة الله ومـسحه جـبريل بجناحه ، ومن مسـحه جبريل بجناحه دخل الجنة » .



الباب الرابع بعد المائة ..في

فضل العيد

سمى هذا اليوم الذى هو أول شوال واليوم الذى هو العاشر من ذى الحجة : عيدًا ؛ لأن المؤمنين عادوا فيهما من طاعة الله تعالى ، التى هى أداء فريضتى صيام رمضان والحج إلى طاعة رسوله ﷺ التى هى صيام ست من شوال ، والتأهب لزيارته ﷺ ولتكرار ذلك كل عام ، ولكثرة عوائد الله تعالى فيه بالإحسان ، ولعود السرور وتعوده .

وأول عيد صلاه رسول الله ﷺ عيد الفطر فى السنة الثانية من الهجرة، ولم يتركها فهى سنة مؤكدة .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه : « زينوا أعيادكم بالتكبير » .

وقال ﷺ : « من قال سبحان الله وبحمده يوم العيد ثلثمائة مرة وأهداها لأموات المسلمين ، دخل فى كل قبر ألف نور ، ويجعل الله تعالى فى قبره إذا مات ألف نور ».

وعن وهب بن منبه رضى الله عنه : أن إبليس يرن فى كل عيد ، فتجتمع إليه الأبالسة ، فيقولون : يا سيدنا مما غضبك ؟ فيقول : الله تعالى قد غفر لأمة محمد ﷺ فى هذا اليوم ، فعليكم أن تشغلوهم باللذات والشهوات .

وعن وهب أيضًا : إن الله تعالى خلق الجنة يوم عيد الفطر ، وغرس شجرة طوبى يوم عيد الفطر ، واصطفى جبريل للوحى يوم عيد الفطر ، وتاب على سحرة فرعون يوم عيد الفطر .

وقال النبى ﷺ : « من قام ليلة العيد محتسبًا لم يمت قلبه يوم تموت القلوب » .

حكى : أن عمر رأى ولدًا له يوم عيد وعليه قميص خلق ، فبكى ، فقال : إنما ينكسر قلب من عدمه الله رضاه ، أو عق أمه وأباه ، وإنى

لأرجو أن يكـون الله راضيًا عنى برضـاك . فضمـه إليه ودعـا له رضى الله عنهما .

وما أحسن قول القائل :

قـالوا : غدًا العـيد مـاذا أنت لابس　　قلت : خلعـة سـاق عبـده الجرعـا

فـقر وصـبر ثوبان بيـنهـــــمـا　　قلـب يرى ربه الأعـياد والجـمعـا

العيد لى مأتمًا إن غبت يا أملى والـ　　عيـد إن كنـت لى مرأى ومستمعا

وروى : « إذا كـان غـداة عيـد الفطر بعث الله الملائكة فيـهبطون إلى الأرض ويقومون على أفـواه السكـك ، فيـنادون بصوت يسمعه جميع خلق الله إلا الأنس الجن ، يقـولون : يا أمة مـحمـد اخـرجوا إلى رب كـريم ، يعطـى العطـاء الجزيـل ، ويغفر الذنب العظيم ، فإذا برزوا إلى مصلاهـم قال اللـه للملائـكة : ما جزاء الأجير إذا عمل ؟ فيقولون : جزاؤه أن يوفى أجـره ، فيـقـول اللـه سبـحانـه وتـعـالى : أشـهدكم إنى قـد جعلـت ثوابهم رضائى ومغفرتى » .



الباب الخامس بعد المائة ..في

فضل عشر ذى الحجة

وروى ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : أن النبى ﷺ قال : « ما من أيام العمل فيها أحب إلى الله من هذه الأيام » يعنى أيام العشر ، قالوا : ولا الجهاد فى سبيل الله تعالى . قال : « ولا الجهاد فى سبيل الله إلا رجل خرج بنفسه وماله فلم يرجع من ذلك بشىء » . وعن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ : « ما من أيام أحب إلى الله وأفضل من أيام العشر » ، قيل : ولا مثلهن فى سبيل الله ؟ قال : « ولا مثلهن فى سبيل الله ، إلا رجل عقر جواده وعفر وجهه فى سبيل الله».

وعن عائشة رضى الله عنها: أن شابا كان صاحب سماع ، وكان إذا هل هلال ذى الحجة أصبح صائمًا ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فدعاه ، فقال: « ما يحملك على صيام هذه الأيام ؟ » ، قال : بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، إنها أيام المشاعر وأيام الحج ، عسى الله أن يشركنى فى دعائهم . قال: « فإن لك بكل يوم تصومه عدل مائة رقبة ومائة بدنة ومائة فرس يحمل عليها فى سبيل الله ، فإذا كان يوم التروية فلك فيها عدل ألف بدنة ، وألف فرس يحمل عليها فى سبيل الله ، فإذا كان يوم عرفة فلك فيها عدل ألفى رقبة ، وألفى بدنة ، وألفى فرس تحمل عليها فى سبيل الله تعالى » .

وقال ﷺ : « يعدل صوم يوم عرفة بسنتين ، ويعدل صوم عاشوراء بصوم سنة » .

وقال أهل التفسير فى قوله تعالى : ﴿ وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ ﴾ [الأعراف : ١٤٢] الآية . إنها العشر الأول من ذى الحجة .وعن ابن مسعود رضى الله عنه : أن الله اختار من الأيام أربعة ، ومن الشهور أربعة ، ومن النساء أربعة ، وأربعة يسبقون إلى الجنة ، وأربعة اشتاقت إليهم الجنة .

وأما الأيام :

فأولها : يوم الجمعة ، فيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله تعالى شيئًا من أمر الدنيا والآخرة إلا أعطاه الله إياه .

وثانيها : يوم عرفة ، فإذا كان يوم عرفة يباهى الله تعالى ملائكته فيقول: يا ملائكتى انظروا إلى عبادى ، جاءوا شعثًا غبرًا ، وقد أنفقوا الأموال وأتعبوا الأبدان ، اشهدوا أنى غفرت لهم .

وثالثها : يوم النحر ، فإذا كان يوم النحر ، وقرب العبد قربانه، فأول قطرة قطرت من القربان تكون كفارة لكل ذنب عمله العبد .

ورابعها : يوم الفطر ، فإذا صاموا شهر رمضان، وخرجوا إلى عيدهم، يقول الله تبارك وتعالى لملائكته: إن كل عامل يطلب أجره أشهدكم أنى قد غفرت لهم، وينادى المنادى: يا أمة محمد ارجعوا فقد بدلت سيئاتكم حسنات.

وأما الشهور : فرجب الفرد ، وذو القعدة ، وذو الحجة ، ومحرم .

وأما النساء : فمريم بنت عمران وخديجة بنت خويلد ، سابقة نساء العالمين إلى الإيمان بالله ورسوله ، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون ، وفاطمة بنت محمد سيدة نساء الجنة .

وأما السابقون : فلكل قوم سابق فسيدنا محمد ﷺ سابق العرب ، وسلمان سابق الفرس ، وصهيب سابق الروم ، وبلال سابق الحبشة .

وأما الأربعة الذين اشتاقت لهم الجنة : فعلىّ بن أبى طالب ، وسلمان الفارسى ، وعمار بن ياسر ، والمقداد بن الأسود .

وعنه ﷺ : « من صام يوم التروية أعطاه الله ثواب صبر أيوب عليه السلام على بلائه ، ومن صام يوم عرفة أعطاه الله ثوابًا مثل ثواب عيسى عليه السلام » . وعن النبى ﷺ : « إذا كان يوم عرفة نشر الله رحمته ، فليس من يوم أكثر عتقًا منه ، ومن سأل الله يوم عرفة حاجة من حوائج الدنيا والآخرة قضاها له ، وصوم عرفة يكفر سنة ماضية وسنة مستقبلة » .

والحكمة فى ذلك والله أعلم : أنه بين عيدين وهما يوما سرور المؤمنين، ولا سرور أعظم من غفران ذنوبهم ، ويوم عاشوراء بعد العيدين فهو كفارة سنة واحدة ؛ ولأنه لموسى عليه السلام ويوم عرفة لنبينا ﷺ ، وكرامته تتضاعف على غيره ﷺ .

الباب السادس بعد المائة ..في

فـضل عاشوراء

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قدم النبى ﷺ المدينة ، فوجد اليهود يصومون يوم عاشوراء ، فسألهم عن ذلك ، فقالوا : إن هذ اليوم أظهر الله فيه موسى وبنى إسرائيل على قوم فرعون ، فنحن نصومه تعظيمًا له ، فقال النبى ﷺ : « نحن أولى بموسى منكم ، فأمر بصومه ».

وقد ورد فى فضل يوم عاشوراء آثار كثيرة : منها : أنه تيب على آدم فيه ، وكان خلقه فيه ، وفيه أدخل الجنة ، وفيه خلق العرش والكرسى والسموات والأرض والشمس والقمر والنجوم ، وولد إبراهيم الخليل فيه ، وكانت نجاته من النار فيه ، وكذلك نجاة موسى ومن معه ، وأغرق فرعون ومن معه فيه ، وفيه ولد عيسى وفيه رفع إلى السماء ، وفيه رفع إدريس مكانًا عليا ، وفيه استوت سفينة نوح على الجودى ، وأعطى فيه سليمان الملك العظيم ، وأخرج يونس من بطن الحوت ، ورد بصر يعقوب عليه ، وأخرج يوسف من الجب ، وكشف ضر أيوب ، وأول مطر نزل من السماء إلى الأرض فى يوم عاشوراء .

وكان صومه معروفًا بين الأمم حتى قيل بأنه فرض قبل رمضان ، ثم نسخ به ، وصامه ﷺ قبل الهجرة ، ولما دخل المدينة أكد على فضله ، حتى قال ﷺ فى آخر عمره الشريف : « إن عشت إلى قابل لأصومن التاسع والعاشر » ، فانتقل إلى الرفيق الأعلى من عامه ، ولم يصم غير العاشر ، لكنه رغب فيه وفى صوم التاسع والحادى عشر، بقوله ﷺ : « صوموا قبله يومًا وبعده يومًا ، وخالفوا سنة اليهود » ، أى حيث أفردوه بالصوم .

وروى البيهقى فى شعب الإيمان : « من وسع على عياله وأهله فى يوم عاشوراء وسع الله عليه فى سائر سنته » .

وفى رواية منكرة للطبرانى : « الصدقة فيه بدرهم بسبعمائة ألف

درهم»، وأما حديث: « من اكتحل يومه لم يرمد ذلك العام ، ومن اغتسل فيه لم يمرض » فموضوع ، وقد صرح الحاكم بأن الاكتحال يومه بدعة .

وقال ابن القيم : حديث الاكتحال وطبخ الحبوب والادهان والتطيب يوم عاشوراء ، من وضع الكذابين .

واعلم أن ما أصيب به الحسين رضى الله عنه يوم عاشوراء إنما هو الشهادة الدالة على مزيد رفعته ودرجته عند الله وإلحاقه بدرجات أهل بيته الطاهرين ، فمن ذكر ذلك اليوم مصابه فلا ينبغى أن يشتغل إلا بالاسترجاع امتثالاً للأمر .

وإحرازًا لما رتبه تعالى عليه بقوله : ﴿**أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ**﴾ [البقرة : ١٥٧].

وإياه ثم إياه أن يشتغل ببدع الرافضة ونحوهم من الندب والنواحة والحزن ، إذ ليس ذلك من أخلاق المؤمنين ، وإلا لكان يوم وفاة جده ﷺ أولى بذلك وأحرى ، وحسبنا الله تعالى وحده ونعم الوكيل .



الباب السابع بعد المائة .. في

فضل ضيافة الفقراء

قال ﷺ : « لا تكلفوا للضيف فتبغضوه ، فإنه من أبغض الضيف فقد أبغض الله ، ومن أبغض الله أبغضه الله » . وقال ﷺ : « لا خير فيمن لا يضيف » . ومرّ رسول الله ﷺ برجل له إبل وبقر كثيرة ، فلم يُضفْهُ . ومرّ بامرأة لها شويهات فذبحت له ، فقال ﷺ : « انظروا إليهما ، إنما هذه الأخلاق بيد الله ، فمن شاء أن يمنحه خلقًا حسنًا فعل » .

وقال أبو رافع مولى رسول الله ﷺ : « إنه نزل به ﷺ ضيف ، فقال : « قل لفلان اليهودى نزل بى ضيف ، فأسلفنى شيئًا من الدقيق إلى رجب »، فقال اليهودى : والله ما أسلفه إلا برهن ، فأخبرته ، فقال : « والله إنى لأمين فى السماء ، أمين فى الأرض ، ولو أسلفنى لأديته » ، فاذهب بدرعى وارهنه عنده .

وكان إبراهيم الخليل صلوات الله عليه وسلامه إذا أراد أن يأكل خرج ميلاً أو ميلين يلتمس من يتغدى معه ، وكان يكنى أبا الضيفان ، ولصدق نيته دامت ضيافته فى مشهده إلى يومنا هذا ، فلا تنقضى ليلة إلا ويأكل عنده جماعة من بين ثلاثة إلى عشرة إلى مائة . وقال قوَّام الموضع : إنه لم يخل عنه ضيف . وسئل رسول الله ﷺ ما الإيمان ؟ فقال : « إطعام الطعام ، وبذل السلام » . وقال ﷺ : « فى الكفارات والدرجات إطعام الطعام ، والصلاة بالليل والناس نيام » .

وسئل عن الحج المبرور ، فقال : « إطعام الطعام وطيب الكلام » .

وقال أنس رضى الله عنه : « كل بيت لا يدخله ضيف لا تدخله الملائكة » ، والأخبار الواردة فى فضل الضيافة والإطعام لا تحصى .

وما أحسن قول القائل :

لم لا أحب الضيف أو ... أرتاح من طرب إليه ؟

والضيف يأكل رزقه عندي ويشكرني عليه[١]

ومن كلام الحكماء : لا تتم الضيافة إلا بطلاقة الوجه ، وحسن الحديث ، ولطف اللقاء . وقال آخر :

أضاحك ضيفي قبل إنزال رحله ويخصب عندي والمحل جديب
وما الخصب للأضياف في كثرة القرى ولكنما وجه الكريم خصيب[٢]

فينبغي للداعي أن يعمد بدعوته الأتقياء دون الفساق ، قال ﷺ : « أكل طعامكم الأبرار» في دعائه لبعض من دعا له . وقال ﷺ : « لا تأكل إلا طعام تقي ، ولا يأكل طعامك إلا تقيٌ » . ويقصد الفقراء دون الأغنياء على الخصوص . قال ﷺ : « شر الطعام طعام الوليمة يدعى إليها الأغنياء دون الفقراء » وينبغي أن لا يهمل أقاربه في ضيافته فإن إهمالهم إيحاش وقطع الرحم . وكذلك يراعي الترتيب في أصدقائه ومعارفه ، فإن في تخصيص البعض إيحاشًا لقلوب الباقين ، وينبغي أن لا يقصد بدعوته المباهاة والتفاخر ، بل استمالة قلوب الإخوان ، والتسنن بسنة رسول الله ﷺ في إطعام الطعام ، وإدخال السرور على قلوب المؤمنين، وينبغي أن لا يدعو إلا من لا يشق عليه الإجابة، وإذا حضر تأذى بالحاضرين بسبب من الأسباب ، وينبغي أن لا يدعو إلا من يحب إجابته . قال سفيان : من دعا أحدًا إلى طعام وهو يكره الإجابة ، فعليه خطيئة، فإن أجاب المدعو فعليه خطيئتان ؛ لأنه حمله على الأكل مع كراهة، ولو علم ذلك لما كان يأكله ، وإطعام التقي إعانة على الطاعة ، وإطعام الفاسق تقوية على الفسق . وقال رجل خياط لابن المبارك : أنا أخيط ثياب السلاطين ، فهل تخاف أن أكون من أعوان الظلمة ؟ قال : لا، إنما أعوان الظلمة من يبيع منك الخيط والإبرة ، أما أنت فمن الظلمة أنفسهم . وأما الإجابة فهي سنة مؤكدة ، قيل بوجوبها في بعض المواضع ، قال ﷺ : « لو دعيت إلى كراع لأجبت ، ولو أهدى إليّ ذراع لقبلت » .

وللإجابة خمسة آداب مذكورة في « إحياء علوم الدين » وغيره .

---

(١) أي لم يأكل إلا رزقه الذي كتبه الله له ثم يقوم بشكرك وثواب الله خير للأبرار .

(٢) فلتكرم الضيف بما تستطيع ولا تتكلف له فوق طاقتك ولكن قابله بالبشر والترحاب والقول الحسن .

الباب الثامن بعد المائة ..في

الكلام على الجنازة والقبر

اعلم أن الجنائز عبرة للبصير ، وفيها تنبيه وتذكير لأهل الغفلة ، فإنها لا تزيدهم مشاهدتها إلا قساوة ؛ لأنهم يظنون أنهم أبدًا إلى جنازة غيرهم ينظرون ، ولا يحسبون أنهم لا محالة على الجنائز يحملون ، أو يحسبون ذلك ، ولكنهم على القرب لا يقدرون ، ولا يتفكرون أن المحمولين على الجنائز هكذا كانوا يحسبون ، فبطل حسبانهم ، وانقرض على القرب زمانهم، فلا ينظر عبد إلى جنازة إلا ويقدر نفسه محمولاً عليها ، فإنه محمولاً عن قرب ، ولعله فى غد أو بعد غد .ويروى: أن أبا هريرة رضى الله عنه أنه كان إذا رأى جنازة ، قال : امضوا فإنا على الأثر .

وكان مكحول الدمشقى إذا رأى جنازة قال : اغدوا فإنا رائحون ، موعظة بليغة وغفلة سريعة . يذهب الأول ، والآخر لا عقل له .

وقال أسيد بن حضير : ما شهدت جنازة فحدثتنى نفسى بشىء سوى ما هو مفعول به ، وما هو صائر إليه .

ولما مات أخو مالك بن دينار خرج مالك فى جنازته يبكى ويقول : والله لا تقر عينى حتى أعلم إلى ماذا صرت إليه ، ولا أعلم ما دمت حيا .

وقال الأعمش : كنا نشهد الجنائز فلا ندرى من نعزى؛ لحزن الجميع .

وقال ثابت البنانى : كنا نشهد الجنائز ، فلا نرى إلا متقنعًا باكيًا ، فهكذا كان خوفهم من الموت .والآن لا ننظر إلى جماعة يحضرون جنازة ، إلا وأكثرهم يضحكون ويلهون، ولا يتكلمون إلا فى ميراثه وما خلفه لورثته ولا يتفكر أقرانه وأقاربه إلا فى الحيلة التى بها يتناول كل بعض ما خلفه، ولا يتفكر واحد منهم إلى ما سيكون إن شاء الله فى جنازة نفسه ، وفى حاله إذا حمل عليها،ولا سبب لهذه الغفلة إلا قسوة القلوب بكثرة المعاصى والذنوب حتى نسينا الله تعالى واليوم الآخر، والأهوال التى بين أيدينا، فصرنا نلهو

ونغفل ونشتغل بما لا يعنينا ، فنسأل الله تعالى اليقظة من هذه الغفلة ، فإن أحسن أحوال الحاضرين على الجنائز بكاؤهم على الميت، ولو عقلوا لبكوا على أنفسهم لا على الميت. نظر إبراهيم الزيات إلى أناس يترحمون على الميت، فقال: لو تترحمون على أنفسكم لكان خيرًا لكم، إنه نجا من ثلاثة: وجه ملك الموت وقد رأى، ومرارة الموت وقد ذاق، وخوف الخاتمة وقد أمن .

وقال أبو عمرو بن العلاء: جلست إلى «جرير» وهو يملى على كاتبه شعرًا ، فاطلعت جنازة ، فأمسك، وقال : شيبتني والله هذه الجنائز ، وأنشأ يقول :

تروعنا الجنائز مقبلات ونلهو حين تذهب مدبرات
كروعة ثلة لمغار ذئب فلما غاب عادت راتعات

ومن آداب حضور الجنائز : التفكر والتنبه والاستعداد ، والمشى أمامها على هيئة التواضع ، كما ذكرت آدابه وسننه فى فن الفقه .

ومن آدابه : حسن الظن بالميت ، وإن كان فاسقًا ، وإساءة الظن بالنفس ، وإن كان ظاهرها الصلاح ، فإن الخاتمة لا تدرى حقيقتها ، ولذلك روى عن عمر بن ذر : أنه مات واحد من جيرانه ، وكان مسرفًا على نفسه ، فتجافى كثير من الناس عن جنازته ، فحضرها هو وصلى عليها ، فلما دلى فى قبره وقف على قبره ، وقال : يرحمك الله يا أبا فلان ، فلقد صحبت عمرك بالتوحيد ، وعفرت وجهك بالسجود ، وإن قالوا مذنب وذو خطايا ، فمن منا غير مذنب وغير ذى خطايا .

ويحكى أن رجلاً من المنهمكين فى الفساد مات فى بعض نواحى البصرة ، فلم تجد امرأته من يعينها على حمل جنازته ، إذ لم يدر بها أحد من جيرانه ، لكثرة فسقه ، فاستأجرت حمالين وحملتها إلى المصلى ، فما صلى عليه أحد ، فحملته إلى الصحراء للدفن ، فكان على جبل قريب من الموضع زاهد من الزهاد الكبار ، فرأته كالمنتظر للجنازة ، ثم قصد أن يصلى عليها ، فانتشر الخبر فى البلد بأن الزاهد نزل ليصلى على فلان ، فخرج أهل البلد ، فصلى الزاهد وصلوا عليه ، وتعجب الناس من صلاة الزاهد عليه ، فسألوه عن سبب ذلك فقال: قيل لى فى المنام : انزل إلى موضع كذا ، ترى

جنازة ليس معها أحد ، إلا امرأة فصل عليـه ، فإنه مغفور له ، فزاد تعجب الناس . فاستدعى الزاهد امرأته وسألها عن حاله ، وأنه كيف كانت سيرته ، قالت: كما عرف، كان طول نهاره فى الماخور مشغولاً بشرب الخمر، فقال : انظرى هل تعرفين منه شيئًا من أعمال الخير ؟ قالت : نعم ثلاثة أشياء :

الأول : كان إذا أفـاق من سكره وقت الصـبح ، يبدل ثيـابه ويتوضـأ ويصلى الصبح فى جماعة ، ثم يعود إلى الماخور ويشتغل بالفسق .

والثانى : أنه كان أبدًا لا يخلو بيته من يتيم أو يتـيمين ، وكان إحسانه إليهم أكثر من إحسانه إلى أولاده ، وكان شديد التفقد لهم .

والثالث : أنه كان يفيق فى أثناء سكره فى ظلام الليل فـيبكى ويقول : يا رب أى زاوية من زوايا جهنم تريد أن تملأها بهذا الخبيث ؟ ــ يعنى نفسه ــ فانصرف الزاهد وقد ارتفع إشكاله من أمره .

قـال الضحـاك : قال رجل : يا رسـول الله من أزهد الناس ؟ قـال : «من لم ينس القبـر والبلى ، وترك فضل زينة الدنيا ، وآثر ما يبـقى على ما يفنى ، ولم يَعُدّ غدًا من أيـامه ، وعد نفسـه من أهل القبـور » .وقيل لعلىّ كرم الله وجهه : ما شأنك جاورت المقبرة ؟ قال : إنى أجدهم خير جيران ، إنى أجدهم جيران صدق ، يكفون الألسنة ، ويذكرون الآخرة . وكان عثمان بن عفان رضى الله عنه إذا وقف على قبر ، بكى حتى يبل لحيته . فسئل عن ذلك وقيل له : تذكـر الجنة والنار فلا تبكى ، وتبكى إذا وقفت على قـبر ؟ فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن القبر أول منازل الآخرة ، فإن نجا منه صاحبه فما بعده أيسر منه ، وإن لم ينج منه فما بعده أشد » .

وقيل : إن عـمرو بن العـاص نظر إلى المقبـرة ، فنزل وصلى ركعـتين فقيل له : هذا شىء لم تكن تصـنعه ، فقال : ذكرت أهل القبـور وما حيل بينهم وبينه ، فأحببت أن أتقرب إلى الله بهما . وقال مجاهد : أول ما يكلم ابن آدم حفـرته ، فتقول : أنا بيت الدود ، وبيت الوحـدة ، وبيت الغربة ، وبيت الظلمة . هذا ما أعددت لك ، فما أعددت لى ؟ .

وقال لى أبو ذر : ألا أخبركم بيوم فقرى ؟ يوم أوضع فى قبرى .

الباب التاسع بعد المائة ..في

التخويف من عذاب جهنم

أخرج البخارى : كان أكثر دعاء النبى ﷺ : ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ [البقرة :٢٠١] .

وأبو يعلى أنه ﷺ خطب فقال : « لا تنسوا العظيمتين : الجنة والنار » ثم بكى حتى جرى أو بلت دموعه جانبى لحيته .

ثم قال : « والذى نفسى بيده لو تعلمون ما أعلم من أمر الآخرة ، لمشيتم على الصعيد ، ولحثيتم على رؤوسكم التراب » .

والطبرانى فى الأوسط : جاء جبريل إلى النبى ﷺ فى حين غير حينه الذى كان يأتيه فيه، فقام إليه رسول الله ﷺ فقال : « يا جبريل ما لى أراك متغير اللون ؟ » ، فقال : ما جئتك حتى أمر الله عز وجل بمنافخ النار .

فقال رسول الله ﷺ : « يا جبريل صف لى النار وانعت لى جهنم » .

فقال جبريل : إن الله تبارك وتعالى أمر بجهنم فأوقد عليها ألف عام حتى ابيضت ، ثم أمر فأوقد عليها ألف عام حتى احمرت ، ثم أمر فأوقد عليها ألف عام حتى اسودت ، فهى سوداء مظلمة ، لا يضىء شررها ولا يطفأ لهبها ، والذى بعثك بالحق نبيا لو أن قدر ثقب إبرة فتح من جهنم لمات مَنْ فى الأرض كلهم جميعًا من حره ، والذى بعثك بالحق نبيا لو أن خازنًا من خزنة جهنم برز إلى أهل الدنيا لمات من فى الأرض كلهم جميعًا من قبح وجهه ، ومن نتن ريحه ، والذى بعثك بالحق نبيا لو أن حلقة من حلق سلسلة أهل النار التى نعت الله فى كتابه وضعت على جبال الدنيا لأرفضت، وما تقارت حتى تنتهى إلى الأرض السفلى .

فقال رسول الله ﷺ : « حسبى يا جبريل لا ينصدع قلبى ، فأموت »، قال : فنظر رسول الله ﷺ إلى جبريل وهو يبكى ، فقال : تبكى يا جبريل

وأنت من الله بالمكان الذى أنت به ؟ فقال : وما لى لا أبكى وأنا أحق بالبكاء ، لعلى أكون فى علم الله على غير الحال التى أنا عليها ، وما أدرى لعلى أبتلى بما ابتلى به إبليس ، فقد كان من الملائكة ، وما أدرى لعلى أبتلى بما ابتلى به هاروت وماروت ، قال : فبكى رسول الله ﷺ وبكى جبريل ، فما زالا يبكيان حتى نوديا : أن يا جبريل ويا محمد إن الله تعالى قد أمنكما أن تعصياه .

فارتفع جبريل وخرج رسول الله ﷺ فمرّ بقوم من الأنصار يضحكون ويلعبون ، فقال : « تضحكون ووراءكم جهنم ، فلو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرًا ، ولما استمتعتم الطعام والشراب ، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله عز وجل » ، فنودى : يا محمد ، لا تقنط عبادى ، إنما بعثتك مبشرًا ولم أبعثك معسرًا . فقال ﷺ : « سددوا وقاربوا » .

وروى أنه ﷺ قال لجبريل : « ما لى لا أرى ميكائيل ضاحكًا قط ؟ » ، فقال : ما ضحك ميكائيل منذ خلقت النار .

وابن ماجه والحاكم وصححه : « إن ناركم هذه جزء من سبعين جزء من نار جهنم ، ولولا أنها اطفئت بالماء مرتين لما انتفعتم بها ، وأنها لتدعو الله عز وجل أن لا يعيدها فيها » .

والبيهقى : أن عمر رضى الله عنه قرأ : ﴿**كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ**﴾ [النساء : ٥٦] قال : يا كعب أخبرنى بتفسيرها فإن صدقت صدقتك، وإن كذبت رددت عليك ، فقال : أن جلد ابن آدم يحرق ويجدد فى ساعة أو فى يوم ستة آلاف مرة ، قال : صدقت .

والبيهقى : أن الحسن البصرى قال فى هذه الآية : تأكلهم النار كل يوم سبعين ألف مرة، كلما أكلتهم ، قيل لهم : عودوا ، فيعودون كما كانوا .

ومسلم : « يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار فيصبغ فى النار صبغة،

ثم يقال له : يا ابن آدم هل رأيت خيرًا قط ؟ هل مر بك من نعيم قط ؟ فيقول : لا والله يا رب . ويؤتى بأشد الناس بؤسًا فى الدنيا من أهل الجنة ، فيصبغ صبغة فى الجنة ، فيقال له : يا ابن آدم هل رأيت بؤسًا قط ؟ هل مرّت بك شدة قط ؟ فيقول : لا والله يا رب . ما مرّ بى بؤس قط ، ولا رأيت شدة قط » .

وروى ابن ماجه : « يرسل البكاء على أهل النار فيبكون حتى تنقطع الدموع ، ثم يبكون الدم حتى يصير فى وجوههم كهيئة الأخدود ، لو أرسلت إليها السفن لجرت » .

وأبو يعلى : « يا أيها الناس ابكوا ، فإن لم تبكوا فتباكوا ، فإن أهل النار يبكون فى النار حتى تسيل دموعهم فى خدودهم ، كأنها جداول ، حتى تنقطع الدموع ، فيسيل — يعنى الدم — فتقرح العيون » .



الباب العاشر بعد المائة .. في

الميزان والصراط

أخرج أبو داود عن الحسن عن عائشة أنها بكت ، فقال رسول الله ﷺ: « مـا يبكيك ؟»، قالت : ذكـرت النار فبكـيت ، فهل تذكـرون أهليكم يوم القيامة ؟ فقال ﷺ : « أما فى ثلاثة مواطن فلا يذكر أحد أحدًا : عند الميزان حتى يعلم أيخف مـيزانه أم يثقل ، وعند تطاير الصـحف حتى يعلم أين يقع كتـابه فى يمـينه أم فى شمـاله أو وراء ظهره ، وعند الصـراط إذا وضع بين ظهرانى جهنم حتى يعلم أيجوز أم لا » .

والتـرمذى عن أنـس رضى الله عنه قال : سـألت رسـول الله ﷺ أن يشـفع لى يوم القـيامة ، قـال : « أنا فاعل إن شاء الله تعالى » ، قلت : فأين أطلبـك ؟ قال: «أول ما تطلبنى على الصـراط»، قلت : فإن لم ألقك على الصراط؟ قال: «فاطلبنى عند الميزان»، قلت: فإن لم ألقـك عند المـيزان؟ قال : « فاطلبـنى عند الحـوض فإنى لم أخطىء هذه الثلاثة مواطن » .

وروى الحاكم : « يوضع الميزان يوم القـيامة ، فلو وزنت ـ أو وضعت ـ فيه السموات والأرض لوضـعت ، فتقول الملائكة : يا رب لمن يزن هذا ؟ فيقول الله تعالى: لمن شئت من خلقى ، فتقول الملائكة : سبحانك ما عبدناك حق عبادتك ، ويوضع الصراط مثل حدِّ الموسى ، فتقول الملائكة: من يجرؤ على هذا ؟ فيقول : من شـئت من خلقى ، فيقولون : سبحـانك ما عبدناك حق عبـادتك » . وعن ابن مسـعود رضى الله عنه قـال : « يوضع الصراط على سواء جهنم، مـثل حد السيف المرهف، ضحض مـزلة عليه كلاليب من نار ، يختطف بها، فممسك يهوى فيها ، ومصروع، ومنهم من يمر كالبرق فلا ينشب ذلك أن ينجو ، ثم كالريح فـلا ينشب ذلك أن ينجو ، ثم كحضر الفـرس ، ثم كسـعى الرجل ، ثم كرمـى الرجل ، ثم كمـشى الرجل ، ثم يكون آخرهم إنسانًا ، رجل قـد لوحته النار ولقى فيـها شرا . ثم يدخله الله

الجنة بفضله وكرمه ورحمته ، فيقال له : تمن وسل . فيقول : أى رب أتهزأ منى وأنت رب العزة ؟ فيقال له : تمن وسل حتى إذا انقطعت به الأمانى ، قال : لك ما سألت ومثله معه » .

وروى مسلم عن أم مبشر الأنصارية رضى الله عنها : أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول عند حفصة رضى الله عنها : « لا يدخل النار إن شاء الله تعالى أحد من أصحاب الشجرة الذين بايعوا تحتها » ، قالت : بلى يا رسول الله . فانتهرها ، فقالت حفصة رضى الله عنها : ﴿ **وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا** ﴾ [مريم : ٧٢] . فقال النبى ﷺ : « قد قال الله تعالى : ﴿ **ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا** ﴾ [مريم : ٧٢] .

وروى أحمد : أن جماعة اختلفوا فى الورود ، فقال بعضهم : لا يدخلها مؤمن ، وقال بعضهم : يدخلونها جميعًا ثم ينجى الله الذين اتقوا . فسأل بعضهم جابر بن عبد الله رضى الله عنه ، فقال : تردونها جميعًا . ثم أهوى بإصبعيه إلى أذنيه . وقال : صمتا إن لم أكن سمعت رسول الله ﷺ يقول : « الورود الدخول ، لا يبقى برّ ولا فاجر إلا دخلها ، فتكون على المؤمنين بردًا وسلامًا كما كانت على إبراهيم ، حتى أن للنار ــ أو قال لجهنم ــ ضجيجًا من بردهم ﴿ **ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا** ﴾ [مريم : ٧٢] .

وروى الحاكم : « يرد الناس النار ، ثم يصدون عنها بأعمالهم ، أولهم كلمح البرق ، ثم كلمح الريح ، ثم كحضر الفرس ، ثم كالراكب فى رحله ، ثم كشد الرجل ، ثم كمشيه » .



الباب الحادي عشر بعد المائة ..في

وفاة النبي ﷺ

قال ابن مسعود رضى الله عنه : دخلنا على رسول الله ﷺ فى بيت أمنا عائشة رضى الله عنها ، حين دنا الفراق ، فنظر إلينا ، فدمعت عيناه ﷺ ثم قال : « مرحبًا بكم ، حياكم الله ، آواكم الله ، نصركم الله ، أوصيكم بتقوى الله ، وأوصى بكم الله ، إنى لكم نذير مبين ، أن لا تعلوا على الله فى بلاده وعباده ، وقد دنا الأجل والمنقلب إلى الله ، وإلى سدرة المنتهى ، وإلى جنة المأوى ، وإلى الكأس الأوفى ، فاقرءوا على أنفسكم وعلى من دخل فى دينكم بعدى منى السلام ورحمة الله » . وروى : أنه ﷺ قال لجبريل عليه السلام عند موته : « من لأمتى بعدى؟ » فأوحى الله تعالى إلى جبريل : أن بشر حبيبى أنى لا أخذله فى أمته ، وبشره بأنه أسرع الناس خروجًا من الأرض إذا بعثوا ، وسيدهم إذا جمعوا ، وأن الجنة محرمة على الأمم حتى تدخلها أمته ، فقال : « الآن قرت عينى » .

وقالت عائشة رضى الله عنها أمرنا رسول الله ﷺ أن نغسله بسبع قرب من سبعة آبار، ففعلنا ذلك، فوجد راحة ، فخرج بالناس واستغفر لأهل أحد ودعا لهم وأوصى بالأنصار، فقال: « أما بعد ، يا معشر المهاجرين فإنكم تزيدون ، وأصبحت الأنصار لا تزيد على هيئتها التى هى عليها اليوم ، وأن الأنصار عيبتى التى أويت إليها، فأكرموا كريمهم -يعنى محسنهم- وتجاوزوا عن مسيئهم» ، ثم قال : « إن عبدًا خير بين الدنيا وبين ما عند الله ، فاختار ما عند الله»، فبكى أبو بكر رضى الله عنه،وظن أنه يريد نفسه. .فقال النبى ﷺ : « على رسلك يا أبا بكر ، سدوا هذه الأبواب والشوارع فى المسجد إلا باب أبى بكر ؛ فإنى لا أعلم امرأ أفضل عندى فى الصحبة من أبى بكر » .

قالت عائشة رضى الله عنها : فقبض ﷺ فى بيتى وفى يومى وبين سحرى ونحرى ، وجمع الله بين ريقى وريقه عند الموت ، فدخل علىّ أخى

عبد الرحمن وبيده سواك ، فجعل ينظر إليه، فعرفت أنه يعجبه ذلك، فقلت له : آخذه لك ، فأومأ برأسه أى : نعم ، فناولته إياه فأدخله فى فيه، فاشتد عليه، فقلت: ألينه لك، فأومأ برأسه أى: نعم ، فلينته ، وكان بين يديه ركوة ماء، فجعل يدخل فيها يده ، ويقول: «لا إله إلا الله، إن للموت لسكرات » ثم نصب يده يقول : « الرفيق الأعلى» ، فقلت : إذًا والله لا يختارنا .

وروى سعيد بن عباس بن عبد الله عن أبيه ، قال : لما رأت الأنصار أن رسول الله ﷺ يزداد ثقلاً ، طافوا بالمسجد ، فدخل العباس رضى الله عنه على النبى ﷺ فأعلمه بمكانهم وإشفاقهم ، ثم دخل عليه الفضل فأعلمه بمثل ذلك ، ثم دخل عليه علىّ رضى الله عنه فأعلمه بمثله ، فمدّ يده ، وقال : « ها » فتناولوه ، فقال : « ما تقولون ؟ » ، قالوا : نخشى أن تموت .

وتصايحت نساؤهم لاجتماع رجالهم إلى النبى ﷺ فثار رسول الله فخرج متوكئًا على علىّ والفضل ، والعباس أمامه ورسول الله ﷺ معصوب الرأس يخط برجليه ، حتى جلس على أسفل مرقاة من المنبر ، وثاب الناس إليه ، فحمد الله وأثنى عليه . وقال : « أيها الناس إنه بلغنى أنكم تخافون علىّ الموت، كأنه استنكار منكم للموت، وما تنكرون من موت نبيكم ألم أنع إليكم وتنعى إليكم أنفسكم؟ هل خلد نبى قبلى ، فيمن بعث فأخلد فيكم ؟ ألا إنى لاحق بربى، وإنكم لاحقون به ، وإنى أوصيكم بالمهاجرين الأولين خيرًا ، وأوصى المهاجرين فيما بينهم ، فإن الله عز وجل قال : ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [العصر : ١ - ٣] إلى آخرها .

وإن الأمور تجرى بإذن الله فلا يحملنكم استبطاء أمر على استعجاله ، فإن الله عز وجل لا يعجل لعجلة أحد ، ومن غالب الله غلبه ، ومن خادع الله خدعه ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ [محمد:٢٢] . وأوصيكم بالأنصار خيرًا ؛ فإنهم الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلكم، أن تحسنوا إليهم، ألم يشاطروكم الثمار؟ألم يوسعوا عليكم فى الديار؟ألم يؤثروكم على أنفسهم وبهم الخصاصة؟ ألا فمن ولى أن يحكم بين رجلين فليقبل من محسنهم، وليتجاوز عن مسيئهم، ألا ولا تستأثروا عليهم، ألا وإنى فرط لكم وأنتم لاحقون بى، ألا وإن موعدكم الحوض-

حوضى-أعرض مما بين بصرى والشام وصنعاء اليمن، يصب فيه ميزاب الكوثر، ماؤه أشد بياضًا من اللبن، وألين من الزبد، وأحلى من الشهد ، من شرب منه لم يظمأ أبدًا، حصباؤه اللؤلؤ، وبطحاؤه المسك، من حرمه فى الموقف غدًا حرم الخير كله، ألا فمن أحب أن يرد عليه غدًا ، فليكفف لسانه ويده مما ينبغى. فقال العباس: يا نبى الله أوص بقريش ، فقال : « إنما أوصى بهذا الأمر قريشًا ، والناس تبع لقريش برهم لبرهم ، وفاجرهم لفاجرهم ، فاستوصوا آل قريش بالناس خيرًا . يا أيها الناس إن الذنوب تغير النعم وتبدل القسم ، فإذا برّ الناس برّوهم ، وإذا فجر الناس عقوهم » . قال الله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٩] .

وروى ابن مسعود رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال لأبى بكر رضى الله عنه : « سل يا أبا بكر » فقال : يا رسول الله دنا الأجل ؟ فقال : « قد دنا الأجل وتدلى » ، فقال : ليهنك يا نبى الله ما عند الله ، فليت شعرى عن منقلبنا . فقال : « إلى الله وإلى سدرة المنتهى ، ثم إلى جنة المأوى ، والفردوس الأعلى ، والكأس الأوفى ، والرفيق الأعلى ، والحظ والعيش المهنا » . فقال : يا نبى الله من يلى غسلك ؟ قال : « رجال من أهل بيتى، الأدنى فالأدنى » ، قال : ففيم نكفنك ؟ قال : « فى ثيابى هذه ، وفى حلة يمانية وفى بياض مصر » ، فقال : كيف الصلاة عليك منا ؟ وبكينا .

ثم قال : «مهلاً غفر الله لكم وجزاكم عن نبيكم خيرًا ، إذا غسلتمونى وكفنتمونى فضعونى على سرير فى بيتى هذا، على شفير قبرى ، ثم اخرجوا عنى ساعة ، فإن أول من يصلى علىّ الله عز وجل ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ ﴾ [الأحزاب : ٤٣] ، ثم يأذن للملائكة فى الصلاة علىّ، فأول من يدخل علىّ من خلق الله ويصلى علىّ جبريل ، ثم ميكائيل، ثم إسرافيل ، ثم ملك الموت مع جنود كثيرة ، ثم الملائكة بأجمعها ــ صلى الله عليهم أجمعين ـ ثم أنتم فادخلوا علىّ أفواجًا ،فصلوا علىّ أفواجًا زمرة زمرة ، وسلموا تسليمًا ، ولا تؤذونى بتزكية ولا صيحة ولا رنة ، وليبدأ منكم الإمام، وأهل بيتى الأدنى فالأدنى، ثم زمر النساء، ثم زمر الصبيان ».

قال : فمن يدخلك القبر؟ قال:«زمر من أهل بيتى الأدنى فالأدنى، مع ملائكة كثيرة لا ترونهم وهم يرونكم ، قوموا فأدوا عنى إلى من بعدى » .

وقالت عائشة رضى الله عنها: فلما كان اليوم الذى مات فيه رسول الله ﷺ رأوا منه خفة فى أول النهار، فتفرق عنه الرجال إلى منازلهم وحوائجهم ، وأخلوا رسول الله ﷺ بالنساء، فبينما نحن على ذلك ولم نكن على مثل حالنا فى الرجاء والفرج قبل ذلك إذ قال رسول الله ﷺ: «اخرجن عنى، هذا الملك يستأذن علىّ» فخرج من فى البيت غيرى ورأسه فى حجرى، فجلس وتنحيت فى جانب البيت ، فناجى الملك طويلاً ثم دعانى ، فأعاد رأسه فى حجرى ، وقال للنسوة : « ادخلن » فقلت : ما هذا بحس جبريل عليه السلام ؟ فقال رسول الله ﷺ: « أجل يا عائشة هذا ملك الموت جاءنى ، فقال : إن الله عز وجل أرسلنى وأمرنى أن لا أدخل عليك إلا بإذن ، فإن لم تأذن لى أرجع ، وإن أذنت لى دخلت ، وأمرنى أن لا أقبضك حتى تأمرنى فماذا أمرك ؟ فقلت : اكفف عنى حتى يأتينى جبريل عليه السلام ، فهذه ساعة جبريل » .

قالت عائشة رضى الله عنها : فاستقبلنا بأمر لم يكن له عندنا جواب ولا رأى ، فوجمنا وكأنما ضربنا بصاخة ، ما نحير إليه شيئًا ، وما يتكلم أحد من أهل البيت ، إعظامًا لذلك الأمر وهيبة ملأت أجوافنا .

قالت : وجاء جبريل فى ساعته ، فسلم فعرفت حسه وخرج أهل البيت ، فدخل ، فقال: إن الله عز وجل يقرأ عليك السلام ، ويقول : كيف تجد منك وهو أعلم بالذى تجد ؟ ولكن أراد أن يزيدك كرامة وشرفًا ، وأن يتم كرامتك وشرفك علىّ وأن تكون سنة فى أمتك ، فقال : « أجدنى وجعًا » ، فقال : أبشر فإن الله تعالى أراد أن يبلغك ما أعد لك ، فقال : «يا جبريل إن ملك الموت استأذن علىّ » وأخبره الخبر ، فقال جبريل : يا محمد إن ربك إليك مشتاق ، ألم يعلمك الذى يريد بك ؟ لا والله ما استأذن ملك الموت على أحد قط ولا يستأذن عليه أبدًا ، إلا أن ربك متم شرفك ، وهو إليك مشتاق ، فلا تبرح إذًا حتى يجىء ، وأذن للنساء .

فقال : « يا فاطمة أدنى » ، فأكبت عليه فناجاها ، فرفعت رأسها وعيناها تدمع ، وما تطيق الكلام ، ثم قال : « ادنى منى رأسك » فأكبت عليه فناجاها فرفعت رأسها وهى تضحك، وما تطيق الكلام ، فكان الذى رأيناه منها عجبًا ، فسألناها بعد ذلك ، فقالت : أخبرنى ، وقال : إنى ميت اليوم فبكيت ، ثم قال : إنى دعوت الله أن يلحقك بى فى أول أهلى ، وأن يجعلك معى ، فضحكت ، وأدنت ابنيها منه ، فشمهما .

وجاء ملك الموت فسلم ، واستأذن فأذن له ، فقال الملك : ما تأمرنا يا محمد ؟ قال : «ألحقنى بربى الآن » ، فقال : بلى من يومك هذا ، أما إن ربك إليك مشتاق ، ولم يتردد عن أحد تردده عنك ، ولم ينه عن الدخول على أحد إلا بإذن غيرك ، ولكن ساعتك أمامك ، وخرج .

قالت : وجاء جبريل فقال : السلام عليك يا رسول الله ، هذا آخر ما أنزل فيه إلى الأرض أبدًا، طوى الرحى وطويت الدنيا، وما كان لى فى الأرض حاجة غيرك ، وما لى فى حاجة إلا حضورك ، ثم لزوم موقفى ، لا والذى بعث محمدًا بالحق ما فى البيت أحد يستطيع أن يخبر إليه فى ذلك كلمة ، ولا يبعث إلى أحد من رجاله، لعظم ما نسمع من حديثه ووجدنا وإشفاقنا ، قالت : فقمت إلى النبى ﷺ حتى أضع رأسه بين ثديي وأمسكت بصدره ، وجعل يغمى عليه، حتى يغلب، وجبهته ترشح رشحًا ما رأيته من إنسان قط ، وجعلت أسلت ذلك العرق ، وما وجدت رائحة شىء أطيب منه ، فكنت أقول له إذا أفاق : بأبى أنت وأمى وأهلى ، ما تلقى جبهتك من الرشح ؟ .

فقال : « يا عائشة إن نفس المؤمن تخرج بالرشح ، ونفس الكافر تخرج من شدقيه كنفس الحمار » فعند ذلك ارتعنا وبعثنا إلى أهلنا ، فكان أول رجل جاءنا ولم يشهده: أخى، بعثه إلىّ أبى ، فمات رسول الله ﷺ قبل أن يجىء أحد، وإنما صدّهم الله عنه؛ لأنه ولاه جبريل وميكائيل ، وجعل إذا أغمى عليه قال : « بل الرفيق الأعلى » ، كأن الخيرة تعاد عليه. فإذا أطاق الكلام قال: «الصلاة الصلاة، إنكم لا تزالون متماسكين ما صليتم جميعًا ، الصلاة الصلاة » ، كان يوصى بها حتى مات وهو يقول: «الصلاة، الصلاة، الصلاة ». قالت عائشة رضى الله عنها : مات رسول الله ﷺ بين ارتفاع الضحى وانتصاف النهار، يوم الإثنين . وقالت فاطمة رضى الله عنها: ما لقيت من يوم الإثنين والله لا تزال الأمة تصاب فيه بعظيمة .

وقالت أم كلثوم يوم أصيب علىّ كرم الله وجهه بالكوفة مثلها: ما لقيت من يوم الإثنين، مات فيه رسول الله ﷺ وفيه قتل علىّ ، وفيه قتل أبى، فما لقيت من يوم الإثنين. وقالت عائشة رضى الله عنها : لما مات رسول الله ﷺ تقحم الناس حتى ارتفعت الرنة . وسجى رسول الله ﷺ الملائكة بثوبه .

واختلفوا فكذب بعضهم بموته ، وأخرس بعضهم، فما تكلم إلا بعد البعد ، وخلط آخرون فلانوا الكلام بغير بيان ، وبقى آخرون معهم عقولهم

وأقعد آخرون . فكان عمر بن الخطاب فيمن كذب بموته ، وعليّ فيمن أقعد، وعثمان فيمن أخرس، ولم يكن أحد من المسلمين فى مثل حال أبى بكر والعباس، فإن الله عز وجل أيدهما بالتوفيق والسداد، وإن كان الناس لم يرعوا إلا بقول أبى بكر، حتى جاء العباس، فقال: والله الذى لا إله إلا هو ، لقد ذاق رسول الله ﷺ الموت ، ولقد قال وهو بين أظهركم: ﴿**إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ**﴾ [الزمر: ٣٠ ـ ٣١] . وبلغ أبا بكر الخبر وهو فى بنى الحرث بن الخزرج فجاء ودخل على رسول الله ﷺ فنظر إليه ثم أكب عليه فقبله ، ثم قال : بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، ما كان الله ليذيقك الموت مرتين ، فقد والله توفى رسول الله ﷺ .

ثم خرج إلى الناس فقال : أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمدًا قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت ، قال الله تعالى : ﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ**﴾ [آل عمران : ١٤٤] الآية . فكأن الناس لم يسمعوا هذه الآية إلا يومئذ. وفى رواية أن أبا بكر رضى الله عنه لما بلغه الخبر دخل بيت رسول الله وهو يصلى على النبى ﷺ وعيناه تهملان وغصصه ترتفع كقصع الجرة، وهو فى ذلك جلد الفعل والمقال، فأكب عليه فكشف عن وجهه وقبل جبينه وخديه ومسح وجهه، وجعل يبكى ويقول: بأبى أنت وأمى ونفسى وأهلى، طبت حيا وميتًا، انقطع لموتك ما لم ينقطع لموت أحد من الأنبياء ، فعظمت عن الصفة، وجللت عن البكاء، وخصصت حتى صرت مسلاة، وعممت حتى صرنا فيك سواء. ولولا أن موتك كان اختيارًا منك لجدنا لحزنك بالنفوس ، ولولا أنك نهيت عن البكاء لأنفدنا عليك ماء العيون. فأما ما لا نستطيع نعيه عنا، فكمد وادكار، محالفان لا يبرحان ، اللهم فأبلغه عنا ، اذكرنا يا محمد صلى الله عليك عند ربك ، ولنكن من بالك فلولا ما خلفت من السكينة لم يقم أحد لما خلفت من الوحشة ، اللهم أبلغ نبيك عنا واحفظه فينا . وليكن هذا آخر ما أقدرنا الله عليه ، وجذب قلوبنا إليه ، ليكون لنا برسول الله أسوة حسنة ، ونرجو من الله أن يبدل السيئة بالحسنة ، وأن يلقنا بنبينا ﷺ على الإيمان ، إنه أكرم مسئول ، وأعز مأمول ، والحمد لله رب العالين .

فهرس الكتاب